

تأليف

أبي عُبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري

المتوفى ٤٨٧ هـ

حققه ووضع فهارسه

الدكتور جمال طلبة

الجزء الأول

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

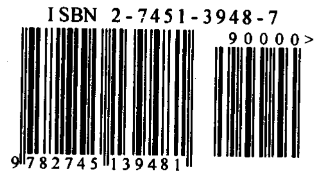
الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3948-7

9 782745 139481 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقى إلا بالله

القول فى مُدَّة عمارة الأرض

عن سعيد بن جُبير(١) عن ابن عبَّاسٍ(٢) ـ رضى الله عنهم ـ أن ذلك ستة آلاف سنة، وكذلك قال أهلُ الكتاب(٣)، وأخذوا ذلك مأخذًا شرعيًا.

أبو صالح(٤) عن كعب(٥) ألْفَىْ سنةٍ.

---

(١) سعيد بن جُبير الأسدىّ، مولاهم الكوفىّ، ثقة، ثبت، فقيه من الثالثة، وروايته عن عائشة وأبى موسى ونحوهما، مرسلة، قتل بين يدى الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين.

انظر ترجمته فى: طبقات الحفاظ للسيوطى ٣٨ وتذكرة الحفاظ ١/ ٧٦ وحلية الأولياء ١/ ٧٦ وخلاصة تذهيب الكمال ١١٦ وشذرات الذهب ١/ ١٠٨ وطبقات القراء للذهبى ١/ ٥٦ وتهذيب التهذيب ٤/ ١١ وتقريب التهذيب ١/ ٣٤٩ وتهذيب الكمال ٢٢٤٥ ووفيات الأعيان ١/ ٢٠٤ وطبقات الفقهاء ٨٢ والمعارف لابن قتيبة ٤٤٥ وطبقات المفسرين للداودى ١/ ١٨١.

(٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم رسول الله ﷺ، وُلد قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له رسول الله ﷺ بالفهم فى القرآن، فكان يُسَمَّى البحر والحبر لسعة علمه، ومات سنة ثمان وستين بالطائف، وهو أحد المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة من فقهاء الصحابة.

انظر ترجمته فى: أسد الغابة ٣/ ٢٩٠ والإصابة ١/ ٣٢٢ وتاريخ بغداد ١/ ١٧٣ وتذكرة الحفاظ ١/ ٤٠ وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٧٦ وتقريب التهذيب ١/ ٥٠٤ وتهذيب الكمال ٣٣٥٨ وخلاصة تذهيب الكمال ١٧٢ وشذرات الذهب ١/ ٧٥ وطبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٤٢٥ وطبقات القراء للذهبى ١/ ٤١ والعبَر ١/ ٧٦ والنجوم الزاهرة ١/ ١٨٢ ونكت الهميان للصفدى ١٨٠.

(٣) كذا فى البدء والتاريخ ٢/ ٥٢ وفى الكامل ١/ ١٣ «سبعة آلاف سنة».

(٤) هو عبد الرحمن بن قيس، أبو صالح الحنفى، الكوفى، ثقة من الثالثة، قيل إن روايته عن حذيفة مُرْسَلة.

انظر: تهذيب التهذيب ٦/ ٢٥٦ وتقريب التهذيب ١/ ٥٨٧ رقم ٤٠٠١.

(٥) هو كعب بن ماتع الحميرىّ، أبو إسحاق، المعروف بكعب الأحبار ثقة من الثانية، مخضرم =

ابن معْقِلٍ عن وَهْبٍ مِثْلَهُ.

قال (ط): والأول الصواب لرواية ابن عمر[١] عن رسول الله ﷺ: «أَجَلُكُم فى أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغيب الشمس»[٢].

وقوله عليه السلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وجمع ما بين السبابة والوسطى»[٣].

وصح عنه مع ذلك ما رواه ابن وهب[٤] يرفعه إلى أبى ثعلبة الخُشَنِىّ[٥] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لن يُنْقِصَ اللهُ هذه الأمة من نصف يوم»[٦].

= كان من أهل اليمن فسكن الشام، مات فى خلافة عثمان وقد زاد على المائة، وليس له فى البخارى رواية إلا حكاية لمعاوية فيه، وله فى مسلم رواية لأبى هريرة عنه من طريق الأعمش عن أبى صالح.

انظر: تقريب التهذيب ٢/٤٣ وتهذيب التهذيب ٨/٤٣٨.

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن العدوى المدنى الفقيه، أحد الأعلام فى العلم والعمل، شهد الخندق، وهو من أهل بيعة الرضوان، وممن كان يصلح للخلافة فعيّن لذلك يوم الحكمين مع وجود مثل علىّ، وفاتح العراق سعد ونحوهما رضى الله عنهما، ومناقبه جمّة، أثنى عليه النبى ﷺ ووصفه بالصَّلاح، وتوفى سنة أربعين.

انظر ترجمته فى: أُسْد الغابة ٣/٣٤٠ والإصابة ١/٣٣٨ وتاريخ بغداد ١/١٧١ وتذكرة الحفاظ ١/٣٧ وخلاصة تذهيب الكمال ١٧٥ وشذرات الذهب ١/٨١ والعبر ١/٨٣ وطبقات القراء لابن الجزرى ١/٤٣٧ والنجوم الزاهرة ١/٢٩٢ ونكت الهميان ١٨٣.

(٢) الخبر فى تاريخ الطبرى ١/١١ وأحمد بن حنبل فى المسند ٢/١١٢ وابن الجوزى فى المنتظم ١/١٢٦ وابن الأثير فى الكامل ١/١٣.

(٣) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير رقم ٣١٤٦، وأحمد فى المسند ٣/١٢٤، ١٣٠ والبخارى ٧/٦٨، ٨/١٣١١ ومسلم فى الفتن ١٣٢، ١٣٣ والترمذى ٢٢١٤ والطبرى فى تاريخه ١/١٨ والسنن الكبرى ٣/٢٠٦.

(٤) هو أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، تاريخ الطبرى ١/١٨.

(٥) أبو ثَعْلَبَة الخُشَنِي: بضم المعجمة بعدها نون، صحابى مشهور بكنيته، قيل: اسمه جُرثوم، أو جُرثومة، أو جُرثم، أو جرهم.. واختلف فى اسم أبيه أيضاً، مات سنة خمس وسبعين، وقيل قبل ذلك بكثير أول خلافة معاوية، بعد الأربعين.

تقريب التهذيب ٢/٣٧٢، وتهذيب التهذيب ١٢/٤٩.

(٦) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير رقم ٧٣٩١ جـ١/٤٥٣، والترمذى وأبو داود، وذكره الطبرى فى تاريخه ١/١٦ برواية «لن يُعجز...».

يريد: اليوم الذى هو مقدار ألف سنة، فإذا كان ذلك كذلك، كان معلوما أن الماضى إلى ظهور الإسلام ستة آلاف سنة، وقد روى عنه ﷺ قول يدل على صحة القول الآخر.

وأصح ما روى فى التاريخ على ما ذكره ط س: أن من الطوفان إلى مولد إبراهيم عليه السلام: ألفا وتسعا وسبعين سنة، ومن مولد إبراهيم إلى خروج موسى من مصر ببنى إسرائيل إلى التِّيهِ الذى مات فيه خمسمائة سنة وخمس وستون سنة، ومن ذلك الوقت إلى أربعٍ من مُلْكِ داود، وهو وقت ابتدائه لبناء بيت المقدس إلى ملك الإسكندر سبعمائة سنة وسبع عشرة سنة، وبين مولد المسيح ابن مريم إلى بعث محمد ﷺ خمسمائة سنة وإحدى وستون سنة، فذلك ستة آلاف سنة ومائة سنة، واثنتان وثمانون سنة، ويوافق ما اخترناه من أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، لقوة الآثار فى ذلك، وقول الفلاسفة أن تدبير هذا العلم الذى نحن فيه السُّنْبُلَةُ وسُلْطَانُها سبعة آلاف سنة، فإذا استكمل العالم قطع هذه المسافة، وقع النفاد والدثور، ثم عاد التدبير إلى الميزان، فاجتمع المراد، ويبتدئ النشر عودًا.

وسلطان الحمل عندهم اثنا عشر ألف سنة، والثَّوْرِ إحدى عشر ألف سنة، ثم كذلك على التوالى حتى تكون قسمة الحوت ألف سنة.

فإذا انصرمت هذه المدة انقضى عالم الكون والفساد، وهذا قول هُرْمُس، وزعم أنه لم يكن فى عالم الحَمَلِ والثور والجوزاء. على الأرض حيوان.

فلما كان عالم السرطان تكونت دواب الماء وهوام الأرض.

فلما كان عالم الأسد تكونت ذوات الأربع.

فلما كان عالم السنبلة تولد الإنسانان الأولان «أَرْمَانُوس».

وزعم غيره أن مدة العالم مقدار قطع الكواكب الثابتة لدَرَجِ الفلك. والكوكب يقطع البُرْجَ فى ثلاثة آلاف سنة، فذلك ستة وثلاثون ألف سنة، وهى ألف وعشرون كوكبًا.

وزعم أهل التوراة أن ما مضى من لدن خلق آدم إلى الهجرة على ما وجدوه

فيها أربعة آلاف سنة وستمائة سنة واثنتان وأربعون[١] سنة[٢].

وزعم أهل الإنجيل أن ذلك إلى الهجرة خمسة آلاف سنة وتسع مائة سنة، واثنتان وتسعون سنة[٣].

وزعم المجوس أن مدة الزمان من لدن جُيُومَرْثٍ وهو آدم عندهم إلى الهجرة ثلاثة آلاف سنة ومائة سنة وتسع وثلاثون سنة.

والله أعلم بغيبه، وأحكم.

* * *

القول فى مبدإ الخلق

قال أبو عبيد ـ رحمه الله ـ: إن الله عز وجل خلق الأشياء على غير مثال، وابتدعها من غير أصل، وأنشأها من غير حاجة إليها، ليُسْتَدَلَّ بذلك على قدرته، ويعتبر فى بديع حكمته، فتبارك الله خالق كل شىء، وهو أحسن الخالقين.

ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن»[٤] رواه ابن عباس وغيره.

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ «القلم طوله خمسمائة عام، واللوح من ذهب، دَفَّتاهُ من ياقوتة حمراء، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاثمائة وستين[٥] نظرة، يخلق، ويرزق، ويحيى، ويميت[٦].

(ط): وقال ابن إسحاق: أول ما خلق الله: النور، والظلمة.

---

(١) فى الأصل (واثنتين وأربعين) تحريف.

(٢) تاريخ الطبرى ١/ ١٩ والكامل فى التاريخ ١/ ١٤.

(٣) فى الأصل (واثنتين وتسعون) تحريف، وراجع تاريخ الطبرى ١/ ١٩.

(٤) الحديث أخرجه البخارى ٤/ ١٢٨ وأحمد بن حنبل فى المسند ٤/ ٤٣١ وابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ٧ وفى تفسيره ٤/ ٢٤٠ والقرطبى فى التفسير ٩/ ٨ والطبرى فى تاريخه ١/ ٣٢ والسيوطى فى الدر المنثور ٣/ ٣٢١ وابن الأثير فى الكامل ١/ ١٦.

(٥) فى الأصل «وستون».

(٦) راجع تاريخ الطبرى ١/ ٢٩.

والأول أصح[١]، قال: ثم إن الله خلق بعد ذلك سحابا رقاقا، وهو الغمام الذى ذكره الله عز وجل فى كتابه:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ﴾[٢].

كما روى أبو رَزِين[٣] قال: قلت يا رسول الله: أين كان ربنا عز وجل قبل أن يخلق خلقه؟ قال: فى عَمَاء[٤] تحته هواء، وما فوقه هواء».

ثم اختلف فى الذى خلق بعد هذا الغمام، فقيل: الكرسى، وقيل العرش، وقيل الماء، فكان عرشه على الماء باتفاق.

وقيل: إن الماء كان على متن الريح[٥]، عن ابن عباس رضى الله عنهما: لما أراد الله عز وجل أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخانا فسما، فسماه سماء، فقضاهن سبع سموات فى يومين، بعد تمام سائر الخلق، وذلك قوله عز وجل:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[٦].

ودحى الأرض فى يومين، أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقهن سبع أرضين فى يومين، وفرغ من سائر الخلق فى يومين.

وروى أنه لما أراد عز وجل خلق السموات والأرض سلط الريح العقيم على الماء فعظمت أمواجه، وكثر زبده وصعد دخانه، وسما فسماه سماء، وقال لزبده: اجمد فجمد، فصار أرضا، وخلق الأرض على حوت.

---

(١) لم يسند محمد بن إسحاق قوله هذا إلى أحد، ومن ثَمَّ فالأول أصحّ للحديث، انظر: الكامل لابن الأثير ١/ ١٩.

(٢) سورة البقرة: آية ٢١٠.

(٣) أبو رَزِين العقيلى: هو لقيط بن صَبِرة، بفتح المهملة وكسرالموحدة صحابىٌّ مشهور، ويقال إنه جده، واسم أبيه عامر، وهو أبو رَزِين العقيلى، والأكثر على أنهما اثنان.
تقريب التهذيب ٢/ ٤٧ وتهذيب التهذيب ٨/ ٤٥٦.

(٤) فى الأصل فى غمام تحته هواء وماءٍ فوقه هواء». والحديث أخرجه أحمد فى المسند ٤/ ١١ كان فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء والترمذى فى السنن حديث رقم ٣١٠٩ والطبرانى فى الجامع الكبير ١٩/ ٢٠٧ والطبرى فى تاريخه ١/ ٢٨ والسيوطى فى الدر المنثور ٣/ ٣٢٢ والألبانى فى الأحاديث الضعيفة ٢/ ٢٨٤.

(٥) البدء والتاريخ ١/ ٣٤٩.

(٦) سورة فصلت: آية ١١.

(س) (ط): والحوت هو الذى ذكره الله عزّ وجلّ، قال: ﴿ن والقَلَمِ ومَا يَسْطُرُون﴾[١]، والحوت فى الماء، والماء على ظهر صفَاة، والصَّفَاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة فى الريح[٢]، وهى الصخرة التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه العزيز حكاية عن لقمان عليه السلام[٣]، فاضطرب الحوت، فتزلزلت الأرض، فأرساها الله عز وجل بالجبال، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا... ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[٤].

***

ذكر الأيام

قال أبو عبيد: واخْتُلِفَ فى اليوم الذى ابتدأ الله فيه الخلق، فقيل: الأحد، وقيل: السبت، وقيل: الاثنين

(ط) والأول أصح[٥]، كذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما، وعبد الله ابن مسعود، ورواه مالك يرفعه إلى ابن سلام قال: خلق الله الأرضين يوم الأحد والاثنين، وخلق ما عليهما من المنافع يوم الثلاثاء والأربعاء، وفتق السموات فكانتا رتقا يوم الخميس والجمعة، وإنما سمى الجمعة، لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض[٦].

---

(١) سورة القلم آية ١.

(٢) فى قوله تعالى فى سورة لقمان آية ١٦ ﴿يا بُنَيَّ إنَّها إن تَكُ مثْقَال حَبَّة من خَرْدَلٍ فتكُن فى صَخْرَةٍ أو فى السمواتِ أو فى الأرض يأتِ بها الله﴾. وراجع عرائس المجالس للثعلبى ١٠.

(٣) تاريخ الطبرى ١/ ٥٣.

(٤) الآية ١٠، ١١ من سورة فصلت.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٣٤.

(٦) فى الجامع الصغير للسيوطى ١/ ٣٣٩ خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل».

وذكره أحمد فى مسنده ٢/ ٣٢٧ ومسلم فى صحيحه وكشف الخفا ١/ ١٢١ والدر المنثور حديث ٢٠٤ صـ١٣٦.

ابن سلام وكعب: وخلق آدم فى آخر ساعة من يوم الجمعة، فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة.

(ج): عن عكرمة خلق فى ساعتين منه الملائكة، وفى ساعتين الجنة والنار، وفى ساعتين الشمس والقمر والكواكب، وفى ساعتين الليل والنهار.

واخْتُلفَ أيهما خلق قبل، والصواب: قول من قال: إن الليل خلق قبل النهار، لأن النهار من ضوء الشمس.

وذكر (ق): أن آدم عليه السلام خُلِقَ يوم الخميس.

وذكر (ط): فى خبر إبليس، أن الله عز وجل خلق الملائكة يوم الأربعاء، والجن يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة.

وقال: بعد إحدى عشرة ساعة منه، فمكث جسدًا ملقى أربعين عامًا من أعوام الدنيا، ثم نفخ فيه الروح، وكان مكثه فى السماء، ومقامه فى الجنة بعد ذلك إلى أن أصاب الخطيئة، وأهبط منها ثلاثًا وأربعين سنة وأربعة أشهر، وذلك من ساعات الأيام الستة فذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ...﴾[1] إلى آخرها.

قال (ح) عن عطاء[2] وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم: «إن الله عز وجل خلق الجبال يوم الثلاثاء؛ فلذلك تقول الناس إنه يوم ثقيل»[3].

قال عطاء وابن عباس ـ رضى الله عنهم: وفرغ من سائر الخلق فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، صحّ لهما.

---

(١) سورة فصلت آية ٩.

(٢) هو عطاء بن السائب بن مالك الثقفى، أبو السائب الكوفى روى عن أبيه، والحسن وسعيد بن جبير وخلق، وعنه أبو حنيفة والسفيانان والحمادان وشعبة، وخلق، قال أحمد: ثقة، رجل صالح من خيار عباد الله، مات سنة ست وثلاثين ومائة.
انظر ترجمته فى: طبقات الحفاظ للسيوطى ٦٧ وخلاصة تذهيب الكمال للخزرجى ٢٥٥ وشذرات الذهب لابن العماد ١/ ١٩٤ وطبقات ابن سعد ٦/ ٢٣٥ والعبر فى خبر من غبر للذهبى ٨/ ١٨٤.

(٣) النص فى تاريخ الطبرى ١/ ٢٢ (ط دار الكتب العلمية).

قال (س): وإنما سمى السَّبْت، لأن خلق المخلوقات انقطع فيه، يقال: سَبَتَ شَعْرَهُ، إذا سَحَفَهُ(١).

والأيام النحسات كل أربع يوافق أربعا من الشهر نحو: أربع خلون، أو أربع بقين، أو أربع عشرة خلت أو بقيت، أو أربعا وعشرين خلت أو بقيت.

قال (ط): وكل يوم من هذه الستة أيام، مقداره ألف سنة(٢)، وكان بين خلق القلم وسائر المخلوقات ألف سنة، وهو يومٌ(٣) على ما قدمناه.

فقدر ما بين ابتداء الخلق إلى الفراغ منه سبعة آلاف سنة، كذلك روى عكرمة عن ابن عباس، وأبو رَوْقٍ عن الضحاك، وأبو صالح عن كعب، والضحاك بن مُزَاحم يقول: إن أسماء الأيام التى خلق الله فيها المخلوقات الجدال قد نسيت(٤).

ورواه (خ) عن زيد بن أرقم، وهذا لا تناقض فيه، لأن اختلاف الألسنة واللغات ممكن.

قال ابن عباس ووهب(٥) رضى الله عنهم: إن السموات والأرض والبحار لفى الهيكل، وإن الهيكل لفى الكرسى وإن قدميه عزّ وجلّ على الكرسِيّ، وهو كالنعل لقدميه» انفرد بهذا وهب.

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ١/٢٦.

(٢) تاريخ الطبرى ١/٥٩ والمنتظم لابن الجوزى ١/١٢٥.

(٣) قال ابن الأثير: أمَّا ما ورد فى هذه الأخبار من أن الله تعالى خلق الأرض فى يوم كذا، والسماء فى يوم كذا، فإنما هو مجازٌ، وإلاَّ فلم يكن ذلك الوقت أيام وليال، لأن الأيام عبارة عمَّا بين طلوع الشمس وغروبها، والليالى عبارة عمَّا بين غروبها وطلوعها، ولم يكن فى ذلك الوقت سماء ولا شمس. وإنما المراد به أنه خلق كل شىء بمقدار يوم، كقوله تعالى ﴿ولهم رزقهم فيها بُكْرَةً وعَشِيًا﴾ وليس فى الجنة بكرة وعشى». الكامل ١/٢٠.

(٤) قال ابن الأثير «أمَّا ما ورد فى هذه الأخبار من أنَّ الله تعالى خلق الأرض فى يوم كذا، والسماء فى يوم كذا، فإنما هو مجازٌ، وإلاَّ فلم يكن ذلك الوقت أيام وليال؛ لأن الأيامَ عبارة عمَّا بين طلوع الشمس وغروبها، والليالى عبارة عمَّا بين غروبها وطلوعها، ولم يكن فى ذلك الوقت سماء ولا شمس، وإنما المراد به أنه خلق كُلَّ شىءٍ بمقدار يوم، كقوله تعالى: ﴿ولهم رِزْقُهُم فيها بُكْرَةً وعَشِيًا﴾، وليس فى الجنَّة بكرة وعَشِىّ. الكامل فى التاريخ ١/٢٠.

(٥) هو وهب بن منبه بن كامل بن سيح بن ذى كتانة اليمانى، أبو عبد الله الأنْبَارى، مات سنة ١١٠هـ، على خلاف فى ذلك. تقريب التهذيب ٢/٢٩٣ وتهذيب التهذيب ١١/١٦٧-١٦٨.

والكرسى داخل فى العرش، والعرش داخل فى علم الله سبحانه وعلا.

(س)[١]: سماء الدنيا من درة بيضاء، والثانية من فضة، والثالثة ياقوتة حمراء، والرابعة درة خضراء، والخامسة ذهب، والسادسة ياقوتة صفراء، والسابعة نور، قد طبقها بملائكة قيام قد خرقت أرجلهم الأرض السابعة، ورءوسهم تحت العرش من غير أن تبلغه، يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

(ق): عن عليّ، وهو البحر المسجور، قال: وهذا تنبيه فى التوراة على أن السماء ما بين ما بين.

(س): وتحت سماء الدنيا بحر من ماء يطيح فيه من الدواب مثل ما فى بحور الأرض، مستمسك بالقدرة[٢].

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: السماء الدنيا موجٌ مَكْفُوفٌ[٣]، وسقف محفوظ، ولولا ذلك لأحرقت الشمس الأرض ومن عليها، وبين السماء والعرش مسيرة ألف عام، ثم قال رسول الله ﷺ: هو الأول لا شيء قبله، والآخر لا شيء بعده، وهو بكل شيءٍ عليم»[٤].

وقال بعض أهل الأثر: إن البيت المعمور، فوق السموات السبع، وله ثلاثمائة وستون بابا جعلت درج الفلك بإزائها، وإن كل علم ورحمة وقضاء، إنما تنزل من تلك الأبواب إلى ما يوازيها من درج البروج، ثم يصير إلى الأرض.

وقال بعضهم: إن الخلائق العالية الروحانية، وهم الملائكة اثنا عشر صفا حِذا البروج الاثنى عشر، وإنهم نوريون، جعل الله فيهم حولا وقوة، يقدر أحدهم أن يلج فى سم الخياط لطفا، ويخوض فى تخوم الأرض والبحار نويرةً.

وزعم أهل الطبائع أن الفلك حى مميز ذو صورة، وأن الكواكب ذوات صور حية ناطقة حساسة.

وروى وهب بن منبه أن النبى ﷺ قال: «إن لله عز وجل ثمانية عشر ألف

---

(١) النص فى مروج الذهب للمسعودى ١/ ٢٥ـ٢٦.

(٢) مروج الذهب ١/ ٢٦.

(٣) البدء والتاريخ ٢/ ٦.

(٤) الحديث فى مجمع الزوائد ٨/ ١٣١.

عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمران فى الخراب إلا كحبة خردل فى كف أحدكم»[١].

وفى الحديث: «إن لله عز وجل مدينتين، واحدة بالمشرق واسمها: جابَلَقَا، والأخرى بالمغرب، واسمها: جابَرْصَا[٢]، طول كل واحدة اثنا عشر ألف فرسخ، ولكل مدينة عشرة آلاف باب، يحرس كل باب كل ليلة عشرة آلاف رجل، لا تلحقهم النوبة إلى يوم القيامة، الرجل منهم يعمر ستة آلاف سنة إلى ما دونها، وهم يأكلون ويشربون ويتناكحون، وفيهم حِكَمٌ كثيرة، والمدينتان خارجتان من الدنيا، لا يرون شمسًا ولا قمرًا، ولا يعرفون إبليس، ولا آدم، يعبدون الله، وإن لهم نورًا يسعون فيه من نور الله، من غير شمس، ولا قمر.

قال رسول الله ﷺ: مَرَّ بى جبريل عليهم فآمنوا بى، فدعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى فأجابوا، فمحسنهم مع محسنكم، ومسيئهم مع مسيئكم»[٣].

* * *

ذكر إبليس

كان الله قد شرَّفه وملَّكه سماء الدنيا والأرض وجعله مع ذلك من خزنة الجنان، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ولذلك سُمُّوا جنًا[٤].

قال ابن عباس: وكان من أشرف الملائكة قبيلا، اسمه: الحارث، وقيل: عزازيل، وكنيته: أبو مرّة، فدخله من ذلك كِبْر، ودعا من تحت يده إلى عبادته.

---

(١) ورد هذا الخبر عن علىّ بن أبى طالب فى البدء والتاريخ ٢/ ٧٢.

(٢) فى معجم ما استعجم ٢/ ٤ جَابَلَق: بفتح الباء واللام بعدها قاف، قال الخليل: جَابَلَق وجَابَلَص بالصاد المهملة: مدينتان، إحداهما بالمشرق، والأخرى بالمغرب، ليس خلقهما أنيس.. وذكر الحسن بن أحمد بن يعقوب الهَمْدانى فى كتاب الإكليل: أنَّ فى جابَلَق وَجَابَلَص بقايا عاد وثمود الذين آمنوا بهود وصالح. وانظر: المنتظم ١/ ٣٥ واللآلئ المصنوعة ١/ ٤٥.

(٣) الخبر فى الطبرى ١/ ٤٩ ـ ٥٠ وذكره السيوطى فى اللآلئ المصنوعة ١/ ٤٥، وإسناده ضعيف.

(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٢٤.

وقيل: إنه أول من أسكن الأرض الجن، فسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم، حتى ألحقهم بالبحار وأطراف الجبال، فاغتر إبليس فى نفسه، ووقع فى صدره كبر، ولم تعلم بذلك الملائكة، فأراد الله إطلاعهم عليه بما أراهم من معصيته.

وقيل: إن الله عز وجل لما أسكن الأرض الجن بعث إليهم إبليس قاضيا يقضى بينهم، فبقى يقضى بينهم بالحق ألف سنة، حتى سماه الله حكيما، فعند ذلك تكبّر.

وقيل: إن الذين كان بُعِثَ إليهم إبليس: الْبَاس، والعَرَار فاقتتلوا فى الأرض ألفى سنة، حتى إن خيولهم كانت تخوض فى دمائهم، وذلك قول الله عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، فبعث الله عند ذلك نارًا فأحرقتهم، وعرج إبليس إلى السماء، فلم يزل يعبد الله مجتهدا، لم يعبده شىء من عباده مثل عبادته حتى كان من آدم ما كان، فأهبطه الله عز وجل فى أقبح صورة وأشرّها تشويها، فسكن البحر، ووضع عَرْشا على الماء، وجُعِلَتْ له ولاية، وأُلقيت عليه شهوة الفساد وجعل لقاحه كلقاح الطير.

وذكرت الهند والفرس إن الجن مائة واثنتان وثلاثون قبيلة، فالذين يطيرون فى الجو خمس عشرة قبيلة، والذين يمشون على أرجلهم خمس وعشرون قبيلة، والذين يخرجون مع الزوابع اثنتا عشرة قبيلة، والذين مع لهب النار عشر قبائل، ومسترقو السمع ثلاثون قبيلة، وسكان الهوى وهم مثل الدخان ثلاثون قبيلة.

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: الجن ضَعْفَةُ الجن، وإن الكلاب من الجنّ، فإذا رأوكم تأكلون فألقوا إليهم، فإن لهم أنفسا، يعنى: يَعينُون، أى: يصيبون بالعين.

عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم: أن الله عز وجل أمر جبريل أن يأتيه بطين من الأرض، فاستعاذت الأرض منه، فأعاذها، ثم أمر ميكائيل كذلك، ثم أمر ملك الموت، فاستعاذت منه، قال: أعوذ بالله أن أرجع، ولم أنفذ أمره،

---

(١) سورة ق آية ١٥.

فأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنوه مختلفى الألوان[١].

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بعث الله عز وجل فأخذ من أديم الأرض من عذبها وملحها، فمن ثم سمى آدم، ومن ثم قال إبليس: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[٢]، أى هذه الطينة أنا جئت بها.

وفى حديث أبى موسى الأشعرى[٣] ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال: خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر ذلك: الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب[٤].

قال (ط) ثم بُلَّت طينة آدم حتى صارت طينًا لازبًا، ثم تركت حتى صارت حمأ مسنونا، ثم تركت حتى صارت صلصالا كالفخار، ومدة ذلك أربعون ليلة[٥].

وقيل: أربعون عامًا، فذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[٦].

وقيل: مائة وأربعون سنة، وهو أصحها.

وذكرَ الأربعين[٧] سنة أيضا، قال: وكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، فيصلصل، ثم يدخل من فيه، ويخرج من دبره، ويقول: لست شيئا، ولشىء ما

---

(١) البداية والنهاية ١/ ٧٩، والبدء والتاريخ ٢/ ٨٢ وقصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٣٨.

(٢) الإسراء آية ٦١.

(٣) أبو موسى الأشعرى، عبد الله بن قيس، استعمله النبى ﷺ مع معاذ على اليمن، ثم ولى لعمر الكوفة والبصرة وكان عالمًا عاملاً صالحًا لكتاب الله، إليه المنتهى فى حسن الصوت بالقرآن حدَّث عنه طارق بن شهاب وابن المسيب وخلق، مات فى ذى الحجة سنة أربع وأربعين.

ترجمته فى: الإصابة ٣/ ٣٥١ وأسد الغابة ٦/ ٣٠٦ وشذرات الذهب ١/ ٥٣ والعبر ١/ ٥٢ والنجوم الزاهرة ١/ ١٢٦ وطبقات القراء للذهبى ١/ ٣٧.

(٤) أخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية١/ ٧٩ والترمذى فى سننه وقال هذا حديث حسن صحيح ٢٩٥٥ وابن سعد فى الطبقات ١/ ٢٦ وأبو داود فى سننه ح٤٦٩٣ والطبرى فى تاريخه ١/ ٦٣ والحاكم فى المستدرك ٢/ ٦١ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ١٩٩ ومرآة الزمان ١/ ١٨٨.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٦٣ (ط: دار الكتب العلمية).

(٦) سورة الإنسان آية ١.

(٧) فى الأصل (الأربعون) وهو تحريف.

خلقت، ولئن سُلِّطتُ عليك لأهلكك، ولئن سُلِّطْتُ عَلَىَّ لأعصينك ونُفِخَ فيه الروح على ما تقدم آخر ساعات الجمعة، وهو اليوم السادس من نَيْسَان[١]، فجعل ما يجرى الروح فى شىء من جسمه إلا صار لحما ودما، ثم عطس فقالت له الملائكة: قل الحمد لله، فقالها، فقال الله تعالى: يرحمك ربك يا آدم.

فلما رأى ثمار الجنة، دخل الروح فى عينه، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام، فوثب يريدها قبل أن تبلغ الروح رجليه، فذلك قال الله عز وجل: **﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾**[٢].

عن عَلِىٍّ ثم جعل الله آدم محرابا، وكعبة، وبابًا، وقِبْلَةً[٣]، أُسْجِدَ له الرَّوْحَانِيُّون الأبرار، سجدوا إلا إبليس، فأوقع الله عليه اللعنة وأخرجه من الجنة، وبقى فى السماء لم يهبط على الأرض، فذلك قوله: **﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا...﴾** إلى قوله: **﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾**[٤].

وعلمت الملائكة ما كان عنهم مستترا، ثم عَلَّم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها، قال عبد الله بن عباس: كلها عموما[٥].

وقال وَهْبٌ: أسماء ذريته، وقال آخرون: أسماء الملائكة، ثم عرض الله سبحانه وتعالى أهل الأسماء على الملائكة، فقال عز وجل: **﴿أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**[٦].

وكانوا يقولون: لما أخذ فى خلق آدم ليخلق ربنا ما يشاء، فلن يخلق خلقا إلا كنا أعلم منه، فذلك قوله: **﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**[٧].

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ١/ ٢٩.

(٢) سورة الأنبياء آية ٣٧.

(٣) روى المسعودى هذا الأثر فى مروج الذهب ١/ ٢٧.

(٤) الآيات قوله تعالى: ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإنَّ عليك لعنَتِى إلى يوم الدين * قال رَبِّ فأنظرنى إلى يوم يُبْعَثُون * قال فإنَّك مِنَ المُنْظَرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزَّتك لأغْوِيَنَّهُم أجمعين * إلاَّ عِبَادَك منهمُ المُخْلَصِين * قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنْكَ ومِمَّن تَبِعَك منهم أجمعين﴾ سورة ص الآيات (٧٧ ـ ٨٥).

(٥) انظر تفصيل ذلك فى تاريخ الطبرى ١/ ٩٧.

(٦، ٧) سورة البقرة آية ٣١.

ففزعوا إلى التوبة، وقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]، ثم قال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾[2] الآية.

* * *

القول فى خلق حواء عليها السلام

ثم خلقت حواء من آدم، وأسكنها الجنة، وأصح ما قيل فى مدة مقامها بها على أن أُهبطا ما تقدّم ذِكرُه، قال: مكثا ثلاث ساعات، وهو ربع يوم ومائتان وخمسون سنة من أعوام الدنيا[3].

قال: مكثا فيها ستة أيام، وأُهبطا فى يوم الجمعة الثانية، وتظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم يوم الجمعة، وفيه أُهبط إلى الأرض، وأخرجه من الجنة يوم الجمعة، وقبضه يوم الجمعة وتاب عليه يوم الجمعة[4].

وقال بعضهم: أُخرج آدم من الجنة فى الساعة العاشرة أو التاسعة، والمعروف ما تقدّم أولا.

كما أن بعضهم قد ذكر أنه خلق لساعتين مضتا من يوم الجمعة، وقيل لثلاثٍ[5]، والصحيح ما تقدم.

وأَهبط الله آدم قبل غروب الشمس من اليوم الذى خلقه فيه بالهند على جبل يقال له: وَاشِمٌ[6]، عند واد يقال له سُهَيْل بين الرَّهْنَج والمَنْدَل، وهو بِشَرْقى أرض

(١) سورة البقرة آية ٣٢.

(٢) سورة البقرة آية ٣٣ ﴿قال يا آدمُ أَنْبِئْهُم بأسمائهم فلمَّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أَقُلْ لكم إنِّى أعلمُ غَيْبَ السموات والأرضَ وأعلمُ ما تُبْدُون وما كنتم تكتمون﴾.

(٣) مروج الذهب للمسعودى ١/ ٢٩.

(٤) المنتظم ١/ ٢٠٧.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٧٥.

(٦) المعارف لابن قتيبة ١٥ وفى المنتظم ١/ ٣٠٨ «واسم». وعن ياقوت: واسم، وقال: جبل بين الدهنج والمندل فى أرض الهند وهما بشرقى أرض الهند والخبر فى تاريخ الطبرى ١/ ١٢٢

الهند[١]. وقيل على جبل يقال له: يرد[٢]، وقيل: بِسَرَنديب، على جبل الرُّهُون منها، وعليه الوَرَق الذى خصفه فيبسَ، فذرته الريح فى بلاد الهند؛ فَعلَّةُ كون الطِّيب فى بلاد الهند من ذلك الوَرَق عن ابن عباس رضى الله عنهما، مثله.

وأُهبطت حواء بجدة، والحَيَّةُ بإصْبَهَان[٣]، وقيل: بالبَرِيَّةِ وإبليس بساحل بحر الأُبُلَّة[٤] بمِيسَان.

أبو جعفر: وهذا لا نعلم صحته.

وأما هبوط آدم بأرض الهند، فذلك ما لا يرفع علماء الإسلام فيه، وأهل التوراة، وأهل الإنجيل.

وإن آدم لما أهبطه من الجنة، أخرج معه ثلاثين قضيبا مُودعَة أصناف الثمار[٥]، منها: العشرة لها قشرة، وهى: الجوز، واللوز، والجَلُوزُ، والفستق، والخشخاش، والشاه بُلُوط، والبلوط، والرابخ، وهو جوز الهند، والموز، والرمان، وعشرة ذوات نوى، وهى: الخوخ، والمشمش، والأجاص، والرطب، والغُبَّيْرَل، والنبق، والزعرور، والعناب، والمقل، والقراسيا.

ومنها ما لا قشر له ولا حجاب ولا نوى، وهى: التفاح، والسَّفَرْجل، والعنب، والكمثرى، والتين، والتوت، والأُتْرُجُّ، والقثَّاء، والخيار، والبطيخ، مثله إلا أنه ذكر مكان المُقْلِ الشَّاهِلُوكِ، وهو العُنَيْقد، ومكان القثاء الخَرْنُوب.

---

(١) انظر: مروج الذهب ١/ ٢٩.

(٢) فى المنتظم لابن الجوزى ١/ ٢٠٨: على جبل يقال له نَوْذ.
وفى تاريخ الطبرى: بَوْذ، وفى الكامل: (نُوْد) بضم النون وسكون الواو وآخره دال مهملة.
وفى البلدان لياقوت (نوذ) ٥/ ٣٥٨ «نَوْذ: بالفتح ثم السكون، وذال معجمة: جبلٌ بسرنديب عنده مهبط آدم - عليه السلام - وهو أخصب جبل فى الأرض، ويقال: أمْرَع من نَوْذ وأجْدب من بَرَهُوت».

(٣) راجع: تاريخ الطبرى ١/ ١٢٢ والمنتظم ١/ ١٢٢ ومروج الذهب ١/ ٢٩.

(٤) فى الأصل: «الأيْلَة» وهو تحريف: وانظر المنتظم ١/ ٢٠٨.
الأُبُلَّة: بضم أوله وتشديد اللام وفتحها: بلد على شاطئ دجلة بالبصرة معجم البلدان ١/ ٨٩ ومعجم ما استعجم بتحقيقنا ١/ ٨٨.

(٥) انظر: مروج الذهب ١/ ٢٩-٣٠ وتاريخ الطبرى ١/ ١٢٨ ومرآة الزمان ١/ ٢٠٢ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ٢١٠.

وأما المُقْل فإنه يثمر بالهند ثمرًا طيبا، يستعمل ولا يكاد يثمر فى غيرها، ولها شجر يشبه النخل.

ثم جاء آدم عليه السلام فى طلب حواء، فتعارفا بعرفات فبذلك سميت، وازْدُلِفَت حواء بالمزدلفة فسميت بذلك أيضا.. طوى الله له الأرض وقبض المفاوز، فلم يضع آدم قدمه فى موضع إلا صار عمرانا، حتى وصل إلى مكة.

كان موضع قدميه قرية، وخطوته مفازة.

وعن عطاء وابن عباس - رضى الله عنهم، أن آدم لما أُهبط، كان يمسح رأسه السماء، ومن طوله نفرت دواب الأرض، فصارت وحشيا من يومئذ، ثم اتفقا فحفظه الله عز وجل، حتى حَطَّ طوله إلى ستين ذراعا[١].

صحّ عن النبى ﷺ فقال: يا ربّ كنت أسمع أصوات الملائكة يسبحونك، وأجد ريح الجنة وطيبها، وكنت آنَسُ بذلك، فقد ذهب ذلك عنّى، فأجابه الله سبحانه: يا آدم لمعصيتكِ فعلتُ بك ذلك، وأوحى الله إليه أن لى حرما بحيال عَرْشِى، فانطلق فابن فيه بيتا تُحَفَّ به، كما رأيت الملائكة يحفون بعرشى، فهناك استجيب لك ولولدك من كان منهم فى طاعتى[٢].

فقال آدم: يا رب وكيف لى بذلك، فقيَّض الله له ملكا، فانطلق به نحو مكة، فكان آدم إذا مرّ بروضة أو مكان يعجبه، فسأل الملك أن ينزل به، حتى أتى مكة، فصار كل مكان نزل به عمرانا، وكل مكان تعدّاه مفازةً، فبنى البيت من خمسة أجبل[٣]، من طور سيناء وطور زَيْتَا، ولبنان، والجُودِىّ، وبنى قواعده من حِرَاء، ثم أراه الملك المناسك كلها.

ثم ذكر أيضا أن شيثًا بنى الكعبة بالحجارة والطين، وأنه كان هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة، لما اشتد جزعه على مفارقتها، وأن تلك القبة لم تزل فى

(١) الكامل فى التاريخ ١/٣٧، وذكر ابن كثير أنَّ فى هذا نظرًا، ففى الحديث الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» وهذا يقتضى أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعًا، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن، قصص الأنبياء لابن كثير ١/٤٨.

(٢) انظر: الكامل فى التاريخ ١/٣٧، وقصص الأنياء لابن كثير ١/٤٨.

(٣) المنتظم ١/٢١٤.

الكعبة حتى رفعها الله سبحانه وتعالى حين أرسل الطوفان.

وكان آدم قد أنزل معه الحجر الأسود[١]، وكان درة بيضاء وقال ابن عباس: ياقوتة بيضاء، وعصا موسى وكانت من آسِ الجنة، طولها عشرة أذرع على طول موسى، ثم أنزل الله عليه الصُّلاَّقَ والمِطْرَقة، وكان أول شيء ضرب آدم المُدْيَة ثم ضرب التنور، وهو الذى ورثه نوح عليه السلام، ففارَ بالعذاب بالهند، وغزلت حواء الصوف والشعر من الثمانية أزواج التى أنزل آدم من الجنة، وحاكته بيدها حاكهُ آدم فاكتسيا، وبقى آدم وحواء يبكيان على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة، ولم يقرب حواء مائة سنة ولم يأكلا، ولم يشربا أربعين يوما، ولم يزل سائلا الله قبول توبته، وأن يرجعه إلى الجنة حتى أجابه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾[٢].

قال جماعة: قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾ الآية[٣]، واستطعم آدم ربه، فبعث إليه جبريل بسبع حبات من حنطة، وزن الحبة مائة ألف درهم، وثمانمائة درهم، وأراه كيف يبذرها.

وقيل: إن آدم أهبطها مع نفسه من الجنة، فلما بلغ الزرع أتاه أمر الله فدرسه، ثم أذْرَاهُ وطحنه، ثم أمره فعجنه وأراه جبريل كيف يُورى النار فطبخه، فلم يبلغ ذلك حتى بلغه الجُهْدَ ما شاء الله أن يبلغ، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[٤].

ومسح الله ظهر آدم بنُعُمَان من عرفة، فأخرج ذريته فنشرهم بين يديه كالذَّرِّ، فأخذ مواثيقهم، كما تكرر فى التفسير.

* * *

(١) انظر تفصيل ذلك فى تاريخ الطبرى ١/ ٨٤ـ٨٥.

(٢) سورة البقرة، آية ٣٧.

(٣) سورة الأعراف، آية ٢٣، والآية: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفسنا وإن لم تَغْفِرْ لنا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ من الخاسرين﴾.

(٤) سورة طه، آية ١١٧.

القول فى كيفية تصور الجنين

ذكر جالنيوس فى كتابه عن أبِقْراط الحكيم، أن مقام المَنِىِّ مقام الفاعل والمفعول به فى تصور الجنين.

وقال صاحب المنطق: إن المَنِىَّ يغتذى دم الحيض قبل الحركة يستحيل ريحا، فيخرج من الرحم.

وحكى جالنيوس أيضا أنه يجرى إليه الدم الذى هو الطمث فينميه، ويجذب عليه الروح من العروق والشرْيَانات.

وقد ذهب قوم أن فى الرَّحِمِ قالبًا يتصور فيه الجنين، والذى يقضى على جميع هذا هو ما أخبر به البارى سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١]، ولم يخبر بكيفيته ذلك بل استأثر بعلمه، فهذا مما ينقطع علم العقول عنده، وذكر أن له عز وجل ألف أُمَّةٍ وعشرين أمة، بعدد الكواكب الثابتة، فى البحر منها ستمائة، وباقيها فى البر، أحسنها كلها صورة، وأجلها خلقا، وأتمها اعتدالا.

الإنسان خلقه الله ـ عز وجل ـ على صورة إسرافيل وفى الحديث:

«لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرافيل». ويقال: إن فى الإنسان من كل الخلق، فلذلك سخر له جميع الحيوان، وأكل جميع المأكولات، وعمل بيده جميع الأعمال، وألهم على جميع المنافع والمضار، وعلم العلوم، وإياه خاطب البارى ـ عز وجل ـ وهو المُتَعَبَّدُ من هذه الأمم وعليه وقع الأمر والنهى.

وكان آدم لا يولد له بطن إلا توأمين، ذكرًا وأنثى فيخالف بينهم فى المناكح، حتى ولد له ابنان يقال لأحدهما قابيل والآخر هابيل، الصحيح قاين، وقد ذكر (س)[٢] على بن الجهم ذلك فى قصيدته فى بدء الخلق: [من الرجز]

(١) سورة آل عمران، آية (٦).

(٢) المقصود بالرمز (س) المسعودى فى كتابه مروج الذهب.

واقْتَنَيْنَا الابن فسمّى قاينا

وعاينَا من نَشْئه مـا عاينَا[١]

فَشَبَّ هابيلُ وشَبَّ قاينُ

ولـم يكـن بينهمـا تَبَـايُنُ

فزوج أخت قاين هابيل وأخت هابيل قاين، وتلك كانت شيمة آدم احتياطا[٢].

وقد زعمت المجوس أن آدم لم يخالف بين البطون[٣]، ولم يتخذ المخالفة. ولهم فى هذا سر يدعون فيه الفضل، قد ذكرته فى كتابنا الموسوم بأخبار الزمان، فأبى قابيل أن يتزوج أخت هابيل لأنها كانت أخته أجمل من أخت هابيل وقال: أنا أحق بها «فقربا قربانا على الله عز وجل ـ أيهما أحق بالجارية، فقرب هابيل شاة سمينة وكان صاحب ماشية، وقرب قابيل حزمة سنبل وكان صاحب زرع، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل.

(ق): وكان ذلك بمِنًى[٤] فغضب قاين وقال: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾، فكان من أمرهما ما نصه الله تعالى[٥]، فاغتاله قاين فى برية ببلاد دمشق من أرض الشام، وقتله شَدْخًا[٦] بحجر، ويقال: إن الوحش هناك استوحش من الإنسان لأنه بدأ بالشر والقتال، وكان من الغراب فى المواراة ما كان.

---

(١) مروج الذهب ١/ ٣٠.

(٢) يعنى الاحتياط لأقصى ما يمكنه من ذوى المحارم، لموضع الاضطرار وعجز النسل عن التباين والاغتراب.

(٣) انظر: مروج الذهب ١/ ٣٠.

(٤) فى المعارف لابن قتيبة صـ١٧ «فقرَّبا القربان بمنىً، فمن ثَمَّ صار مذبح الناس إلى اليوم».

(٥) قال الله تعالى: ﴿واتْلُ عليهم نبأَ ابْنَى آدم إذْ قَرَّبا قُرْبانًا فَتُقُبِّلَ من أَحَدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر قال لأَقْتُلَنَّكَ قال إنَّما يَتَقَبَّلُ اللهَ من المتَّقين * لئن بسطت إلىَّ يدك لَتقتلنى ما أنَا بباسطٍ يدى إليك لأقتلك إنّى أخافُ الله رَبَّ العالمين * إنّى أريدُ أن تبوءَ بإثمى وإثمك فتكونَ من أصحاب النّار وذلك جزاء الظالمين * فطوّعت له نفسُه قَتْلَ أخيه فَقَتَلَهُ فأصبحَ من الخاسرين * فبعثَ الله غُرَابًا يبحثُ فى الأرض ليريه كيف يُوارى سَوْأَةَ أخيه قال يا ويلتى أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النّادمين﴾ سورة المائدة، الآيات (٢٧ ـ ٣١).

(٦) شَدْخُ الشىء: كسره وسَحْقُه.

وفر قابيل بأخته إلى عدن من أرض اليمن، وبلغ آدم ما صنع، فوجد هابيل قتيلا وقد نشفت الأرض الدم، فلعنها ـ من أجل لعنته لا تنشف الأرض الدم ـ ومن أجل لعنته أنبتت الشوك.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول:

«إن قابيل وتوأمته وُلِدا لآدم فى الجنة، فلم تجد حواء ـ عليها السلام ـ عليهما وَصَبًا ولا طَلْقًا ولم تر معهما دما ثم أول ما ولدت بالأرض هابيل وتوءمته فوجدت ما تجده النساء. ويقوى هذا ما أتى فى الحديث عن ابن عباس ووهب وابن زيد وغيرهم، أن الله عز وجل ـ لما قال لآدم: يا آدم أمِنْ أين أتيت؟ قال: من قِبَلِ حواء. قال: علىَّ أن أجعلها تحمل كرها وتضع كرها، فقد كنت خلقتها تحمل يسرا وتضع يسرا»(١).

قال صاحب هذه المقالة ولذلك فاق حُسْنُ أخت قابيل أخت هابيل.

وقال قوم: لم تكن قصة هذين الرجلين الذى قتل أحدهما أخاه فى عهد آدم ولا كانا لصلبه، إنما كانا من بنى إسرائيل. قالوا لأن القربان لم يكن إلا فى بنى إسرائيل(٢).

والصحيح ما قدمناه عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس(٣) مظلومة إلا كان على ابن آدم كِفْلٌ منها، لأنه أول من سنّ القتل»(٤).

وتكررت الأخبار عن علىٍّ ـ رضى الله عنه ـ أن آدم ـ عليه السلام ـ بكى هابيل فقال(٥): [من الوافر]

---

(١) الخبر فى تاريخ الطبرى ١/١٠٨ وتفسيره ١/٥٢٥.

(٢) الطبرى ١/٩١ وتفسيره ١٠/٢١٤ والمنتظم ١/٢٢٣.

(٣) فى الكامل ١/٤٤ «ما من نفس تُقْتَل ظلمًا».

(٤) أخرجه البخارى، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريّته، ومسلم كتاب القسامة ـ باب إثم مَنْ سَنَّ القتل، والترمذى: كتاب العلم، باب ما جاء الدّال على الخير كفاعله ٥/٢٦٧٣ والنسائى، كتاب تحريم الدم.
وانظر: تاريخ الطبرى ١/٩١ وتفسيره ١٠/٢١٤ والمنتظم ١/٢٢٣ والكامل ١/٤٤.

(٥) استفاض الناس فى شعر يعزونه إلى آدم، حين حزن على ولده وأسف لفقده، انظر فى ذلك: المنتظم ١/٢٢٤ ومروج الذهب ١/٣١ وتفسير الطبرى ١٠/٢٠٩ ومرآة الزمان ١/٢١٧ـ٢١٨ =

تَغَيَّرَتِ البِلاَدُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجْهُ الأَرْضِ مغبرٌّ قَبِيحُ
قَتَلَ قَابِيلُ هَابِيلاً أَخَاهُ فَوَا أَسَفًا عَلَى الْوَجْهِ الْمَلِيحِ
فَمَا لِى لاَ أَجُودُ بِسكْبِ دَمْعِى وَهَابِيلُ تَضَمَّنَهُ الضَّرِيحُ
أَرَى طَولَ الْحَيَاة علىَّ غَمًّا وَمَا أَنَا مِنْ حَيَاتِى مُسْتَرِيحُ
أَبَا هَابِيلَ قَدْ قُتلاَ جَمِيعًا وَصَارَ الْحَىُّ كَالْمَيْتِ الذَّبِيحِ(١)
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِى طَعْمٍ وَلَونٍ وَقَلَّ بَشَاشَةُ الْوَجْهُ الْمَلِيحُ(٢)

وأوحى الله إلى آدم: إنى مخرج منك نورى الذى أباهى به الأنوار، وأجعله خاتم النبيين الأبرار. فتَطهَّرْ وقَدِّسْ وسَبِّحْ واغْشَ زوجتك على طهارة منها. فإن وديعتى تنتقل منكما إلى الولد الكائن بينكما، فواقع آدم حواء، فحملت لوقتها، وتلألأ النور فى مخائلها ولمع من محاجرها، حتى إذا انتهى حملها وضعت (شيئا) بعد خمس سنين من مقتل هابيل، ولمائة سنة وثلاثين من مهبط آدم، وقال فى خبر شيث ولمائتى سنة وخمس وثلاثين.

ومعنى (شيث) هبة الله خلف من هابيل ـ كذلك قال أهل التوراة(٣) ـ وذكروا

= وقال: وقد أنكر ابن عباس هذا الشعر، وقال: من قال إن آدم قال شعرًا، فقد كذب على الله ورسوله، ورمى آدم بالمآثم، إن آدم والأنبياء كلهم فى النهى عن الشعر سواء، ولكن لمَّا قتل قابيل هابيل رثاه آدم، وهو سريانى، وإنما يقول الشعر من يتكلم العربية، فلمَّا قال آدم مرثيته فى ابنه هابيل، وهو أول شهيد كان على وجه الأرض، قال آدم لشيث: يا بنىّ إنك وَصِىّ، فاحفظ هذا الكلام ليتوارث فِرق الناس عليه، فلم يزل ينتقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية والسريانية، وهو أوّل من خَطَّ العربية، وكان يقول الشعر، فنظر فى المرثية، فإذا هى سجع، فقال: إنَّ هذا ليقُوَّم شعرًا، فردَّ المُؤخر إلى المُقدَّم، والمُقدَّم إلى المؤخَّر، فوزنه شعرًا، وما زاد فيه ولا نقص، فقال الأبيات».

(١) فى الأصل (بالميت).

(٢) رُوِىَ هذا البيت ينصب بشاشة من غير تنوين، ورفع الوجه على أنه فاعل قَلَّ، وذلك ليسلم من الإقواء.

ومنهم من يرفع بشاشة على الفاعلية ويضيفها إلى ما بعدها، فيكون فى البيت إقواء.

قال ابن كثير فى قصص الأنبياء ١/ ٥٢، هذا الشعر فيه نظر، وقد يكون آدم عليه السلام قال كلامًا يتحزَّن بلغته، فألّفه بعضهم إلى هذا، وفيه أقوال، والله أعلم».

(٣) فى المعارف لابن قتيبة صـ١٨ أنه فى التوراة أن آدم طاف على امرأته حواء، فولدت له غلامًا =

أنه وُلِدَ فردًا بغير توأم، لم يولد لآدم فرد سواه. قال وهو بالعبرانية (شيث)، وبالعربية (شت)، وبالسريانية (شاة)[١]، وانتقل النور من (حوّاء) إليه، حتى لُمح من أسارير جبهته وسبق فى طلعته وغُرَّته، حتى إذا ترعرع وأينع، كان كأسَرِّ الناس، وأحسنهم صورة، وأتمهم وقارا، وأكملهم هيبة، مجلّلا بالنور والهيبة، موشحا بالجلال والأبهة، وكان أشبه ولد آدم بآدم ثم أشبههم به بعده (يوسف)، فعهد إليه آدم، وعرَّفه بمحل ما استودعه. وأعلمه؛ لأنه حجة الله بعده وأنه الخليفة فى الأرض، والمؤدّى حقَّ الله، فاحتقب[٢] شيث بتلك الوظيفة واحتفظ بمكنونها.

وذكر ابن اسحاق أن جميع ما ولدته حواء لآدم أربعين بطنا، وقد عدَّ (ق) من أسماء ذكرانهم خمسة عشر اسما، وقالت طائفة:

إن حواء ولدت لآدم مائة وعشرين بطنا. قال: ويقال إن آدم مات عن أربعين ألفا من ولده، وولد ولده.

وأنزل الله على آدم تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وحروف المعجم فى إحدى وعشرين ورقة، وهو أول كتاب كان فى الدنيا أخذ الله عليه الألسنة كلها[٣]. وإلى (شيث) تنتهى أنساب البشر باجتماع. وانقرض سائر ولد آدم قال: وقد قال غيره ذلك.

وأمر آدم بكتابة الصحف، وعلم اللغات كلها التى تقر بها الجن والشياطين، وحساب الأزمنة، ومسير الكواكب، وسأل ربه أن يريه مثال الدنيا، وما يكون فيها من خير وشر إلى يوم القيامة فَمَثُلَتْ له برا وبحرا، فنظر إليها وإلى من يملكها ويسكنها من ولده وأورى صورة الأنبياء وما يكون فى العالم.

ولما كَثُرَ ولده بعثه الله إليهم بعد[٤] سبعمائة سنة وسبعين سنة من مهبطه،

= قسمَّاه شيثًا، من أجل أنه خَلَفَ من عند الله مكان هابيل. وانظر: سفر التكوين ـ الإصحاح الرابع، الآية ٢٥.

(١) فى تاريخ الطبرى ١/٩٦ وهو بالعربية: شث وبالسريانية: شاث وبالعبرانية: شيث».

(٢) احتقب، أى أحكم حفظها، وادَّخرها. انظر القاموس (حقب) ١/٧٥.

(٣) انظر: المعارف لابن قتيبة صـ١٨.

(٤) فى الأصل (فى).

يأمرهم وينهاهم ثم أمره الله ـ عز وجل ـ إذا أراد أن يتوفاه أن يجعل وصيته إلى شيث ويعلمه جميع هذه العلوم المذكورة وأمره أن يرفع إليه مصحفه بسر الملكوت الذى كان عنده، ولا يمتحنه بعد شيث إلا إدريس، فكانوا يتوارثونه مختوما لا ينظرون فيه، حتى وصلت إلى إدريس ثم كانت الوصية من ولد شيث، فيمن يأتى ذكره، حتى وصلت إلى إدريس ـ صلوات الله عليهم ورضوانه ـ، وعُمِّرَ آدمُ تسعمائة[١] سنة وثلاثين سنة.

* * *

القول فى وفاة آدم ـ عليه السلام ـ

تكررت الروايات عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: إن الله ـ تعالى ـ لما فرغ من خلق آدم ـ عليه السلام ـ قبض له يديه، وقال له: «اختر»، فقال: «اخترت يمين ربّى ـ عز وجل ـ وكلتا يديه يمين ـ ففتحها فإذا فيها صورته وصورة ذريته، وإذا كل واحد مكتوب عنده أجله، وإذا آدم كُتِبَ له عُمْرُ ألف سنة، وإذا قوم عليهم النور، فقال آدم:

«يا رب من هؤلاء؟» فقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ «هؤلاء الأنبياء والرسل» وإذا فيهم رجل هو أضوؤهم نورا ولم يكتب له من العمر إلا أربعون سنة، فقال آدم: «يا رب ما هذا. . .[٢] ذلك أجله الذى كتبت له»، قال: «يا رب انقص له من عمرى ستين سنة[٣]»، قال رسول الله ﷺ: ثم أهبطه الله إلى الأرض، فكان يَعُدُّ أيامه، فلما أتاه ملك الموت ليقبضه قال آدم: «عجلت علىَّ يا ملك الموت، وقد بقى من عمرى ستون سنة»، فقال له ملك الموت: «قد سألت ربك أن يكتبها لابنك داود»، فقال: «ما فعلت»، فقال رسول الله ﷺ: «فنسى آدم فنسيت

(١) فى الأصل (مائتى).

(٢) فى تاريخ الطبرى ١/ ١٥٥ فقال يارب ما بال هذا من أضوئهم نورًا، ولم يكتب له من العمر إلاّ أربعون سنة، فقال: ذاك ما كتب له، فقال: يارب انقص له من عمرى ستين سنة. . .».

(٣) الحديث ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ١٩٧ وذكره بنحوه الترمذى فى كتاب التفسير ـ سورة الأعراف، والحاكم فى المستدرك ٢/ ٣٢٥ وابن كثير فى قصص الأنبياء ١/ ٤٠ـ٤١.

ذريته، وجحد فجحدوا». فيومئذ وضع الله الكتاب وأمر بالشهود[١]، وأكمل لآدم ألف سنة، ولداود مائة سنة[٢].

ويزعم أهل التوراة والإنجيل أن عمر آدم تسعمائة وثلاثون سنة، وكذلك ذكر (حفص القرطبى) فى تاريخه[٣]، وعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن عمره كان تسعمائة وستة وثلاثين سنة.

قال ابن إسحاق: إن آدم لما قبض كسفت عليه الشمس والقمر سبعة أيام[٤]، وذُكر عن يحيى بن عباد عن أبيه أن الله بعث إليه كفنه وحنُوطه من الجنة.

صح عن أُبىٍّ أن الملائكة غسّلته، وكفّنته، وصلّى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ثم دفنوه وقال: «هذه سُنَّتكم فى موتاكم يا بنى آدم»[٥].

وعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن شيثا قال لجبريل ﷺ: «صَلِّ على آدم» فقال له جبريل «تقدّم أنت فصلِّ على أبيك، وكبّر عليه ثلاثين تكبيرة»[٦]. قال الطبرى: «ومات على الجودى» الجبل الذى أهبط عليه يوم الجمعة، لستٍّ خَلَوْنَ من نيسان فى الساعة التى خلقه فيها[٧].

وتنازع الناس فى قبره: فمنهم من قال: إنه بمنى، ومنهم من قال: إنه فى كهف فى جبل أبى قُبَيس فى غار يعرف بغار الكنزِ، وذكر: أن نوحا أخرجه عند الطوفان ثم أعاده فى مكانه، وقيل: إنه دفنه حين أخرجه من السفينة ببيت المقدس. والله أعلم.

وعاشت حواء بعده سنة، ثم دفنت معه فى الغار المذكور.

* * *

(١) انظر: عرائس المجالس للثعلبى ٤٨ـ٤٩.
(٢) انظر: تاريخ الطبرى ١/ ١٥٥ـ١٥٦.
(٣) انظر: تاريخ اليعقوبى ١/ ٧ والمعارف لابن قتيبة ١٩.
(٤) البداية والنهاية ١/ ٩١.
(٥) انظر الخبر فى: المعارف لابن قتيبة ١٩ والبداية والنهاية ١/ ٩١، وتاريخ الطبرى ١/ ١٥٨ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ١٢٧.
(٦) أخرجه أحمد فى المسند ٥/ ١٣٦ والهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ١٩٩.
(٧) تاريخ الطبرى ١/ ١٦١.

شيث عليه السلام

لم يزل مقيما بمكة يحج ويعتمر، وجمعَ ما أنزل الله من الصحف ـ وهى خمسون[١] ـ ولم يزل عاملا بما فيها، وبنى الكعبة بالحجارة والطين. قال ابن إسحاق وتزوج أخته (حَزْوَرَة) فولدت له (أنوش)[٢] لمائة سنة وخمس وستين من عمره.

وتوفى شيث وقد بلغ تسعمائة سنة واثنتى عشرة سنة[٣]، انتقل النور الذى ذكرناه إلى أنوش، وقلد سياسة الملك وتدبيره» بعد أن مضى شيث إلى سبيله، ولم يَخْلُفْ بنين وبنات سوى أنوش.

وفى زمن أنوش قُتِلَ قابيل بن آدم، قاتل أخيه هابيل، قال ولقتله خبر عجيب قد أوردناه فى كتاب أخبار الزمان. قال وكانت وفاة أنوش لثلاث خلون من تشرين الأول، فكانت مدته تسعمائة وستين سنة[٤].

وذكر أن قابيل لما هرب من أبيه إلى اليمن حين قتل أخاه أتاه إبليس فقال له: «إن هابيل إنما قُبِلَ قربانه وأكلته النار لأنه كان يخدم النار ويعبدها فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك» فبنى بيت نار، فهو أول من نصب النار وعبدها[٥].

قال: وولد قابيل أول من ضرب الصَّنْجَ، وولده أول من تَجَبَّر، قال: ولم يمت آدم حتى أظهروا الفواحش والمعاصى، ونهى آدم شيثا وولده أن يناكحوهم.

قال: ولم يتركوا عُقْبا إلا قليلا، فجُهِلت أنسابهم وانقطع ذكرهم.

ونسل الناس اليوم من شيث بن آدم، وقال جماعة من أهل الهند ممن يُقِرُّ بآدم،

---

(١) فى الحديث عن أبى ذرّ عن الرسول ﷺ: «إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسون صحيفة». قصص الأنبياء لابن كثير ١/٥٨.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣٣.

(٣) انظر: تاريخ اليعقوبى ١/ ٨.

(٤) مروج الذهب ١/ ٣٣.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ١٦٥.

ينتسب إلى هذا الشعب من ولد قابيل، وأرض هذا النوع أرض قِمَار من الهند، وإليهم يضاف العُود القِمارىّ. وولدَ أنوش بن شيث (قينان) ـ وإليه الوصية ـ ونفرا كثيرا، قال: فولد قينان مهلائيل، فولد مهلائيل إليارِد، فولد إليارد خَنُوخ وهو إدريس بعد مائة سنة من عمره وكان عمر قينان تسعمائة سنة[١]، وتوفى فى تموز، وكان عمر مهلائيل ثمانمائة سنة وخمسا وثمانين سنة.

والنسّابون من الفرس ـ يزعمون أن مهلائيل هو أشيم[٢] الذى ـ ملك الأقاليم السبعة، وأنه أول من استخرج المعادن وأول من بنى المدائن، بنى مدينة بابل، ومدينة السُّوس، ومدينة الرَّىّ، وكان فاضلا محمودا فى سيرته، ونزل الهند، وتنقل فى البلاد، ولما استوثق الأمر عقد على رأسه تاجا وخطب خطبة ذكر فيها أنه ورث الملك عن جده جيومرث ـ وهو آدم عندهم. وذكر أنه قهر إبليس وجنوده ومنعهم من الاختلاط بالناس، وكتب عليهم فى قرطاس أبيض أخذ عليهم فيه المواثيق ألا يعرُضوا لأحد من الإنس، وأنه قتل منهم جماعة من مَرَدَتِهم ومن الغيلان.

وكان عُمْرُ يارد تسعمائة سنة وإحدى وستين سنة، وكانت وفاته فى أذار، قال: وكان بين ولد قاين ويارد حروب ـ وقد ذكرناها فى أخبار الزمان ـ[٣].

* * *

إدريس ـ عليه السلام ـ

قال المسعودى[٤]: «الصابئة تزعم أنه هُرْمسٌ ومعنى هرمس عطارد، نبأه الله ـ عز وجل ـ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من طرز الطُّرز، وخاط الثوب، وأول من خطَّ بالقلم[٤] بعد آدم وكان يَعُد عدة خطوط، وهو أول من

(١) انظر: المعارف لابن قتيبة ٢٠.

(٢) فى تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٧٨ اسمه: «أَوْشَهَنَك».

(٣) مروج الذهب ١/ ٣٤.

(٤) النص عن المسعودى فى مروج الذهب ١/ ٣٥.

(٥) انظر: المعارف ٥٥٢.

جاهد فى سبيل الله ـ عز وجل ـ وسَبَى ولد قاين لما دعاهم إلى الله فلم يجيبوه، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، فتمت الصحف يومئذ ثمانين صحيفة.

ولما ولد إدريس، أتى إبليس محويلَ الملك فى صورة روحانى له جناحان، وأخبره أنه ولد مولود يكون عدوا للألهة، وسبب فساد، فقال له الملك «أتقدر أن تُهلِكَهُ» قال: «سأحرص على ذلك»، فوكل الله بإدريس ملائكة يحفظونه، وأوصى إليه أبوه، ونبأه الله بعد أربعين سنة من عمره.

وذكر أنه رفع فى حياة أبيه، وأن أباه يارد عاش بعد رفع إدريس أربعمائة سنة وثلاثين سنة، وتنبأ على عهد آدم وقد مضى من عمر آدم ستمائة سنة واثنتان وعشرون سنة.

ق: عن وهب[١] كان إدريس طويلا ضخم البطن، عريض الصدر وكانت إحدى أذنيه أكبر من الأخرى، وكانت فى جسده نكتة بيضاء من غير برص، وكان رقيق الصوت، قريب الخطى، وسمى إدريسا لكثرة ما كان يدرس من كتب الله عزّ وجل.

وقال: واستجاب له ألف إنسان، ورفع وهو ابن ثلاثمائة وخمس وستين سنة. وقيل: إن إدريس أول من نظر فى النجوم بعد آدم، وأن أزرائيل الملك علمه علم الفلك والكواكب وسعودها ونحوسها، وصور البروج.

وفى التوراة: أن إدريسا أحسن خدام الله تعالى[٢] ـ فرفعه الله إليه، ولما رأى إدريس انهماك ولد قابيل فى المعاصى سأل الله ـ تعالى ـ أن يرفعه إليه ويطهره من خطاياهم، فأجابه الله إلى ذلك، وأوحى إليه أن يلازم الهيكل أربعين يوما هو وشيعته، وكانوا سبعين حبرا، فاغتسلوا ودخلوا هيكل الله المنصوب وقدسوا الله فيه أربعين يوما، وأوحى الله إليه أن اجعل الوصية فى (مُتوَشْلِخَ)[٣] فإنى مخرج من ظهره نبيا. أرضى فعله[٤].

(١) ساق ذلك ابن قتيبة عن وهب بن منبه فى حلية إدريس ﷺ انظر: المعارف صـ٢٠ـ٢١.

(٢) الإصحاح الخامس ـ سفر التكوين ـ آية ٨.

(٣) فى تحقيق متوشالخ، متو: مات، وشالخ: الرسول. وقيل: متوشلخ ومتوشالخ ومتوشالح.
راجع: المعارف صـ٢١.

(٤) مروج الذهب: ١/ ٣٤.

فلما رفع إدريس حزن عليه بنو آدم الحنفاء حزنا شديدا، وكثر الاختلاف والتنازع، وأشاع إبليس أنه أراد الصعود إلى الفلك فاحترق، وسُرَّ بعده محويل الملك، وأظهر أن صنمهم الأكبر أهلكه؛ فزادوا فى عبادتها والتقرب إليها.

ولزم متوشلخ الهيكل مع بنى أبيه، والأحبار السبعين فولد إدريس متوشلخ، وولد متوشلخ لامك وأهل الإنجيل يقولون لامِنْ، وإليه الوصية ووُلِدَ لِلاَمِك نوح، أمه قينوش من ذرية قابيل بن آدم القاتل وذلك بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة.

وروى عن جماعة من السلف: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على ملّة الحق، وأن الكفر إنما حدث فى القرن الذى فيه نوح، وإنه أول نبى بعث إلى الكفار.

قال الوصيفى: وقد اختلف الناس فى المدة التى كانت بين آدم ونوح.

فقال أصحاب التواريخ: ألفا سنة وعشر

وقال بعضهم: ألف سنة وسبعمائة سنة وكسر

وقال المِصْرِيُّون: ثمانية عشر ألف سنة.

لأن الطوفان كان وقلب الأسد فى أول درجة من السرطان ومقامه فى كل برج ستة آلاف سنة، وهى ثلاث بروج، صح وصفا.

* * *

القول فى نوح ـ عليه السلام ـ

ذُكر أنه بعث بعهد بيوراسب، وتقدم فى خبر إدريس أنه كان وقع إليه كلام من آدم فاتخذه سحرا فى ذلك الزمان، فكان إذا أراد شيئا من جميع مملكته أو أعجبته امرأة أو غير ذلك، نفخ قصبة كانت له من ذهب، وكان يجئ إليه كل شىء يريده، فمن ثم ينفخ اليهود، وكان قومه أهل أوثان، قال الله عز وجل ـ حكاية عنهم ـ: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ الآية[1].

---

(١) سورة نوح آية ٢٣.

وروى عن عبد الله بن عباس: إن الله بعثه إليهم وهو ابن أربعمائة سنة، وثمانين سنة، ثم دعاهم فى نبوته مائة وعشرين سنة، وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة ثم مكث بعد ذلك ثلاثمائة سنة وخمسين، فذلك ألف سنة إلا خمسين عاما.

وقال وهب كذلك: أنه بعث ابن خمسين، فدعا قومه إلى أن بلغ ستمائة سنة، عن ابن عباس إنه بعث ابن أربعين، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ثم كان الطوفان وعاش بعد ذلك مائة سنة وقيل: عاش بعد الطوفان ستين سنة، فذلك ألف وخمسون. قال وهب: وعُمِّرَ نوح ألف سنة لأنه بعث ابن خمسين وأقام فيهم ألفا إلا خمسين، وقالت طائفة: إن عمره كان ألفا ومائتى وخمسين سنة فلم يجبه قومه.

قال ابن اسحاق: كان لا يأتى منهم قرن إلا أشد من الذى قبله، وكانوا يقولون: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا مجنونا وكانوا يبطشون به، ويخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون حتى يئس منهم وعظم طغيانهم، فشكا إلى ربه ودعا عليهم بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾[١] الآية، وبقوله: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[٢]، فأوحى الله سبحانه إليه ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٣].

قال عبد الله بن عباس، وقد كان الله أمره بغرس شجرة فغرسها، وبقيت أربعين سنة، فعظمت وتناهت، ثم أمره بقطعها، فاتخذ منها السفينة.

وزعم أهل التوراة[٤]: أنه أمره أن يتخذها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا، وعرضها خمسين ذراعا وأن يجعلها ثلاثة أطباق، وبابها فى عرضها. صحّ عن ابن عباس.

---

(١) سورة نوح آية ٢١.

(٢) سورة نوح آية ٢٦.

(٣) سورة المؤمنون آية ٢٧.

(٤) نص التوراة فى سفر التكوين ـ الإصحاح السادس والسابع والثامن عن المعارف لابن قتيبة صـ٢٢.

وقال الحسن: طول سفينة نوح ألف ذراع، ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع، وقال القرطبى فى كتاب الديوان:

إنه أنشأها فى مائة سنة، وأقامت على البر سبعة أشهر.

وقيل: إنه لم يدر كيف يصنعها، فأتاه جبريل فأمره أن يصنعها مثل صدر الدجاجة، فلما فار التنور بالهند ـ وهو تنور من حجارة ـ كان لحواء قاله ابن عباس وقد تقدم غير ذلك، وقيل: فار بناحية الكوفة ـ رواه الليث عن مجاهد وكان الشعبى يحلف بالله، ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة.

وأدخل نوح فى السفينة من أمره الله بإدخاله، وما أمره من الأزواج، وأدخل التابوت الذى فيه آدم. (ق): وكان من خشب الشَّمْشَار، وقال غيره حملته الملائكة وكان بتهامة، فأدخل مع نفسه ثمانين نفسا، روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما.

وقال ابن جريج: أدخل بنيه الثلاثة وكنائنه الثلاث، وامرأته، فكانوا ثمانية نفر.

عن ابن إسحاق: وكانوا عشرة نفر.

عن وهب: مثله أدخل بنيه ونساءهم، وأربعين رجلا وأربعين امرأة، وكذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما[٢].

قال الوصيفى: إنه كان معه فى السفينة ستمائة رجل سوى ولده، وقال قوم: إنهم أعقبوا، وقال قوم، لم يعقبوا إلا ولد نوح.

قال ابن الكلبى: إنه حمل معه فى السفينة امرأته، وبنيه الثلاثة ونساءهم ـ ثمانية نفر ـ واثنين وسبعين سواهم. قال غيره: كلهم من ولد إدريس إلا (فَيْلَمُون) كاهن مصرَ، فإن ملك مصر كان أنفذه إلى الدَّرَمْشِيلَ ليُحَاجَّ نوحا فى عبادة الأصنام، فآمن بنوح.

وأدخل من كل زوجين اثنين، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما:

(١) انظر: البداية والنهاية ١/ ١٠٣.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣٥.

أول ما حمل الذُّرة، وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار تعلق إبليس بذنَبِه، فلم تَسْتَقِلَّ رجلاه، وجعل نوح يقول: ويحك ادخل، فلا يستطيع، حتى جزم نوح وقال:

ادخل وإن كان الشيطان معك، كلمة زلت عن لسانه، فلما رآه نوح فى السفينة قال له: من أدخلك علىَّ يا عدوّ الله، قال ألم تقل كذا، كذا، وأمره الله أن يدخل معه قوت سنة، وجعل تابوت آدم حاجزا بين الرجال والنساء.

وكان ركوبهم فى السفينة لسبع عشر خلون من آذار، عن وهب: لعشر خلون من رجب، على رأس ستمائة سنة من عمر نوح، ثم أرسل الله الماء أربعين يوما بلياليها، وتحركت ينابيع الغوط حتى طبق الماء الأرض، وارتفع على أعلى جبالها خمسة عشر ذراعا، ثم حمل الماء الفلك، وجعلت تجرى بهم فى موج كالجبال، وسارت بهم الأرض كلها، وطافت بالحرم أسبوعا، ولم تدخله، ورفع البيت المعمور على أبى قُبَيْسٍ، وهو الذى بناه آدم، فبقيت فى الماء مائة وخمسين يوما باتفاق من أكثرهم، واستقلت يوم عاشوراء من المحرم، فصام نوح وأمر من معه من الإنس والوحش والدواب فصاموا شكرا لله عز وجل ـ فكان بين الوقت الذى أرسل الله الطوفان إلى أن غاض الماء ستة أشهر وعشرة أيام، وذكر الوصيفى: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: سنة.

وكذلك روى ابن إسحاق عن ابن الكلبى: أن نوحا ركب السفينة لثلاث عشرة مضت من رمضان، وخرج منها أول يوم من رمضان من قابل، فذلك سنة إلا ثلاثة عشر يوما.

قال: وبقى الماء فى الأرض الحرم، وهى حَسْمَى خمسا وأربعين سنة بعد أن غاض الماء من جميع الأرض من المحبَرِ ولم يبق على الأرض شىء من الحيوان ولا الشجر إلا ما حُمل فى السفينة.

وأما العوجُ ابن أعناق ـ فيما يزعم أهل الكتاب ـ فإن الطوفان لم يغرقه، ولا بلغ ماؤه إلا بعض جسده[1].

فهذه البحار من بقايا ذلك الماء، ذكر أنه ما أسرع من الأرض إلى بَلْع مائه، كان

(١) انظر رد الإمام ابن كثير على بطلان ذلك بالمعقول والمنقول فى البداية والنهاية ١/ ١٠٧.

ماؤه إذا احتفر عذبا، وما لم يسرع إلى القبول أعقبه الله بماء ملح وسبخ، والحديث من ذلك إلى ثغور من الأرض فمن ذلك البحار، وهى بقية من هلك به من أمم.

واستقلت السفينة بالجُودِىِّ وهو جبل بالحَضِيض[١] من أرض الموصل بينه وبين الدجلة ثمانية فراسخ.

قال: وموضع جنوح السفينة على رأس الجبل، إلى هذه الغاية، وابتنوا فى سفح الجبل مدينة سموها مرقة ثمانين بعددهم.

وقيل بنوها بقِرْدَى[٢]، فسموها ثمانين، قال وهى تعرف بذلك إلى وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة.

ووجه نوح التابوت الذى فيه جسد آدم - عليه السلام - إلى غار الكنز فجعل فيه[٣] - وقد تقدم الاختلاف فيه.

وأوحى الله إلى نوح ألا يعيد الطوفان[٤] أبدا، وإن قوسه الذى فى السحاب أمان من ذلك.

وتزعم المجوس أنهم لا يعرفون الطوفان، ويقولون: إن الملك لم يزل فينا من عهد جَيُمرت وهو آدم، وبعضهم يقر بالطوفان ويزعم أنه كان بإقليم بابل، وأما هم وديارهم بالمشرق، ولم يصل إليهم.

وكان نوح من أولى العزم من الرسل، وكان طويلاً جسيمًا[٥]، أَدَمَ دقيق البشرة، فى رأسه طول، عظيم العينين، دقيق الساعدين والساقين، كثير لحم الفخذين، طويل اللحية.

---

(١) فى الأصل (بالحضين).

(٢) قَرْدَى: بفتح أوّله وإسكان ثانيه، كُورة فى ديار ربيعة، وهى كُلُّها بين الحيرة والشام. معجم ما استعجم ٣/ ٣٠٥.

(٣) فى المعارف لابن قتيبة صـ١٩ عن وهب بن منبه: «وحفر له فى جبل أبى قُبَيْس حين كان زمن الغرق، فاستخرجه نوح وجعله معه فى تابوت فى السفينة، فلما نضب الماء وبدت الأرض لأهل السفينة ردَّه نوح إلى مكانه».

(٤) انظر: تاريخ الطبرى ١/ ١١٩.

(٥) فى صفة نوح وحليته عن وهب بن منبه، راجع: المعارف لابن قتيبة صـ٢١.

وهلك (محويل) الملك على رأس مائتى سنة من عمر نوح، وملك بعده ابنه (الدرمشيل) فأعلى أمر الأصنام، وشدد فى عبادتها ودعا الناس كافة إليها، ونال نوحا بمكروه كثير وحبسه حتى رأى فى منامه رؤيا هالته، فأمر بإرساله من السجن، وهو الذى أدركه الطوفان، ولما اتصل بالدرمشيل أن نوحا قد ركب السفينة، وحمل فيها ما أمره الله عز وجل ـ أقبل فى عدة من أصحابه ليحرقها عليهم: فلما أتاه قال: يا نوح أين الماء الذى يحمل سفينتك هذه، قال: هو يأتيك فى مقامك هذا، فقال: وهذا أعجب أن تقول إنه يكون فى أرض يبس ماء غُمْرٌ يحمل هذه السفينة فانزل منها وإلا أحرقكم أجمعين، فقال نوح: ويلك ما أشد اغترارك بالله، فعجل الإيمان واخلع الأنداد تسلم وترشد.

فبينما هو فى محاورته، إذا أتاه من أخبره أن امرأته كانت تخبز فى تنورها، فنبع الماء منه، فقال: ما عسى أن يكون من ماء، قد فار من تنور؟ فقال له نوح إنها علامة السخط، وإن الأرض تخلخل فيأتى الماء من جميعها، فحرك فرسك فإن الماء سينبع من تحت قدميه، فأزال الفرس من موضعه، فإذا الماء ينبع من موضع حوافره، فعاد إلى موضع آخر فكان كذلك، وعادت رسله تخبره أن الماء قد كثر وفار، فرجع إلى داره ليأخذ أهله وولده، ويَتَحَصَّن فى المعاقل التى كان عملها لذلك، فكانت الحجارة تنحط عليها من رءوس الجبال، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر، ويقال إنه كان ماء ذميما منتنا فأهلك أهل الأرض إلا من كان فى السفينة وإلاّ عوج ـ على ما تقدم.

* * *

خبر عوج ابن أعناق

قال وزعم أنه إذا قام صارت السحاب له مئزرًا، وقال غيره: عوج بن عناق[(١)].

وذكر فى بعض الأخبار أن حواء ولدت لآدم عناقا مفردة، بغير ذكر مشوهة الخلق، لها رأسان، ولها فى كل يد عشرة أصابع، لكل إصبع ظفران مثل المنجلين الحادين.

وذكرها علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ وقال: هى أَوَّلُ من بغى وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصى، واستخدمت الشياطين، وصرفتهم فى وجوه السحر، وكان الله ـ عز وجل ـ قد أنزل على آدم عُوذا وأسماء تطيعها الشياطين، ويملكون بها ـ على ما تقدم ـ فعلقها على حواء لتكون لها حرزا، وكانت حواء تصونها فاستغفلتها عناق وهى نائمة فأخذتها، واستجلبت الشياطين بتلك الأسماء، وعملت السحر، وجاهرت بالمعاصى، وأضلت كثيرا من ولد آدم، وولدت عوجا الجبار، فدعا عليها آدم، فأَمَّنت حواء فأرسل الله إليها أسدا أعظم من الفيل، فمزق أعضاءها وأراح الله منها، وعُمِّرَ عوج إلى زمان فرعون، ولم يغرقه الطوفان ولا بلغ ماؤه إلا بعض جسده، وطلب السفينة ليغرقها وقطع صخرة على قدر عسكر موسى[(٢)]. وكان فيه أكثر من مائتى ألف ـ ليطرحها عليهم، فأرسل الله عليه طيرا، فنقر تلك الصخرة فنزلت من رأسه إلى عنقه، ومنعته الحركة، وأمر الله ـ عز وجل ـ موسى بقتله فوثب موسى، وكانت وثبته عشرة أذرع وطوله مثل ذلك وطول عصاه مثل ذلك أيضا، ولم يلحق إلا عرقوبه فقتله، وأقام جسرا على النيل يعبر الناس والدواب عليه مدة طويلة.

وفى حديث آخر أنهم جروه بألف عجلة وألفى ثور فى كل يوم نصف ميل، إلى أن طرحوه فى بحر القُلْزُم.

---

(١) ويقال عَوْج بن أعتاق، راجع هذا الخبر والرد عليه فى البداية والنهاية ١/ ١٠٩ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ٣٥٤ ومرآة الزمان ١/ ٤٢٩.

(٢) المنتظم ١/ ٣٥٥.

وقيل بل قطعوه قطعا وجروه إلى البحر، وقيل: ترك بموضعه وأردم عليه بالصخر والرمل، فكان كالجبل العظيم فى صحراء مِصْر.

* * *

القول فى ذرية نوح عليه السلام

قال بعض أهل التوراة: لم يكن التناسل ولا وُلد لنوح ولد إلا بعد الطوفان، وإنما كان معه فى الفلك قوم آمنوا به، إلا أنهم باروا فلم يبق عقب.

وقال بعضهم: كان لنوح قبل الطوفان ابنان، هلك أحدهما: كنعان ـ وهو الذى غرق فى الطوفان ـ والآخر عاش ومات قبل الطوفان. وروى عن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: ولد نوح الذى غرق: كنعان، والعرب تسميه يام.

(ق): المختلف عن نوح الذى قال له: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾[١] لم أر له فى التوراة ذكرا. يقال له: اسمه يام، والعرب تقول: إنما هو عمنا يام.

* * *

ذكر بيوراسب

وتسميه أيضا الضحاك[٢]، وهو ذو الأفواه، والعجم تدعى الضحاك، واليمن تدعيه وتنسبه هذه النسبة، تزعم أنه علوان بن عبيد[٣] بن عويج، وأنه ملك ألف سنة، وملك الأرض كلها، وإياه يعنى أبو نواس بقوله: [من المنسرح]

وكان مِنَّا الضَّحَّاك يعبدُهُ الـ ـخَابِلُ والجنّ فى مَسَارِبِهـا[٤]

(١) سورة هود، آية ٤٢.

(٢) قال ابن خلدون فى تاريخه ٢/ ١٧٩: «وهو بصاد بين السين والزاى وحاء قريب من الهاء، وكاف قريبة من القاف».

وراجع أيضًا: تاريخ الطبرى ١/ ١٩٤.

(٣) فى تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٧٩ «ابن عبيدة».

(٤) البيت لأبى نواس فى ديوانه ١٥٥ وفيه (والوحشُ فى مساربها).

الخابل: ضرب من الجنّ.

وإياه عنى حبيب بقوله[١]: [من الرجز]

ما نالَ ما قَدْ نالَ فرعون ولا هامانُ فى الدنيا ولا قارونُ
بل كان كالضَّحَّاك فى سطوتهِ بالعالمين وأنت أفريدونُ

والفرس تسميه الازدهاق، وتنسبه نسبة أخرى، وهو أول من سن الصَّلْبَ، ووضع العشور.

يقال: إنه خرج فى مَنكِبَيْه سِلْعَتَان، كل واحدة منهما كرأس الثعبان. قال كثير من أهل الكتاب يتحركان تحت ثوبه إذا جاع أو غضب، فكان يشتد وجعهما حتى يطليهما بدماغ إنسان، فكان يقتل لذلك رجلين كل يوم، وكان يقسمهما على الآفاق.

وزعموا أنه نمرود صاحب إبراهيم، وقد زعموا أنه مقيد مغلول فى جبل دُنْباوَنْد بين الرى وطبرستان، واتخذوا اليوم الذى قيّد فيه عيد المهرجان، قيده أفريدون، فقام عليه كابى رجل من أهل أصبهان ـ من أجل ابنين له قتلهما، ودعا الناس إلى مجاهدته، فأسرعوا إليه، ونهضوا إلى الضحاك، فألقى الله الرعب فى قلبه، وخلا عن منازله، فافتتح الأعاجم ما أرادوا، واجتمعوا إلى كابى وسموه درفش كابى، وتبركوا به، فأعلمهم أنه لا يتعرض لِلْمَلِك، وأقرهم أن يملّكوا من بيت المملكة، وكان أفريدون مستخفيا من الضحاك فملّكوه، وهو أول من تسمى بالكيية[٢] كَىْ[٣] أفريدون، فقام عليه. وتفسير ذلك من التنزيه والبهاء واتبع الضحاك وأسره، واتخذوا ذلك اليوم عيدا، وسموه المهرجان، وأصله بالفارسية «مَهْرَمَاه» أى: نفس الملك ذهبت».

وأفريدون هو أول من ذلل الفيلة وامتطاها، ونتَّج البغال وعالج بالترياق. وقد

(١) البيتان لأبى تمام فى ديوانه ٣/ ٣٢١ من قصيدة يمدح بها الأفشين وتاريخ الطبرى ١/ ١٩٤ والمنتظم ١/ ٢٤٥ ومرآة الزمان ١/ ٢٥٠.

(٢) فى تاريخ الطبرى ١/ ٢١٣ (ط) دار المعارف «قيل: إن أفريدون أوَّل من سُمِّى بالكَيِّيَّة، فقيل له: كَىْ أفريدون، وتفسير الكيّيّة أنها بمعنى التنزيه كما يقال: روْحانى، يعنون به أن أَمْرَه مخلص منزّه يتصل بالروحانية وقيل: إن معنى (كَىْ) أى طلب الدخل.
ويزعم بعضهم أن (كَىْ) من البهاء، وأن البهاء تغشى أفريدون حين قتل الضحاك».

(٣) انظر: المنتظم لابن الجوزى ١/ ٢٤٦.

زعم بعضهم أن الضحاك كان فى زمن نوح وإليه أُرْسل.

وروى عن النبى ﷺ فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[١] أنهم سام، وحام، ويافث»[٢] وبذلك تكررت الأخبار والآثار، وهم لأم واحدة، وقيل تزوجها بعد خمسمائة سنة من عمره، وأصاب حام امرأته فى السفينة، فدعا نوح أن يغير الله نُطْفَتَهُ، فجاءت بالسودان.

وقال أهل التوراة: إن نوحا تعرَّى، فأبصر حام عورته، فأطلع على ذلك أخويه، فأخذا رداء فألقياه على عواتيقهما ومشيا على أعقابهما فواريا عورة أبيهما ـ وهما مدبران ـ فعلم بذلك أبوه نوح، فقال: ملعون كنعان ـ بنى حام ـ يكونون عبيدا لأخويه ومبارك سام، ويكثّر الله يافث[٣].

أما سام فسكن وسط الأرض: الحرم وما حوله إلى اليمن إلى حضرموت إلى عُمان إلى البحرين إلى عالج ويبرين ووبار والدُّو، والدَّهْنَاء.

وعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: نزل بنو سام سرَّةَ الأرض فيما بين ساتيدما إلى البحر، وما بين اليمن إلى الشام، وجعل الله ـ عز وجل ـ فيهم النبوة والكتاب، وسام كان القيم بعد نوح فى الأرض ـ ومن ولده الأنبياء كلها، عربها وعجمها، والعرب كلها يَمَنِيُّها ونزارها.

فولد سام (أرفخشد) وهو أرفخشات، وهو القائم بأمره بعده، وإرم وما كان فمن ولد أرفخشد قحطان بن غابر بن شالخ بن أرفخشد أبو اليمن، وجرهم بن يقطن بن غابر نزلوا مكة وقطورا ـ بنو عمهم ـ وجُرْهُم أخوال ولد إسماعيل وملكان بن أرفخشد من ولده الخضر عليه السلام.

ومن ولد إرم عاد بن عوص بن إرم، ومنازلهم الأحقاف والرمل إلى

---

(١) الآية ٧٧ من سورة الصافات.

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى المسند ٥/ ٩ و١١ والترمذى فى سننه ح ٣٢٣١ و ٣٩٣١ والطبرانى فى المعجم الكبير ٧/ ٢٥٤ و١٨/ ٤١٦ والطبرى فى تاريخه ١/ ٢٠٩ وابن سعد فى الطبقات ١/ ٤٢ وابن كثير فى التفسير ٧/ ١٩ والبداية والنهاية ١/ ١١٥.

(٣) الإصحاح التاسع من سفر التكوين، الآيات ٢٠ـ٢٧.

وانظر: مروج الذهب ١/ ٣٥، والمعارف ٢٥ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ٢٤٧.

حضرموت، وثمود بن غابر بن إرم، منازلهم الحَجْر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى، وطسم، وجديس أبناء لاوذ بن إرم، نزلوا اليمامة وما حولها إلى البحرين، واسم اليمامة إذ ذاك جو. وأخوهما عمليق بن لاوذ، نزل بعضهم الحرم، وبعضهم الشام[١].

فطسم، وجَديس، وعاد، وثمود، والعماليق، ويَعْرُب، وجُرْهُم هم العرب العاربة[٢]؛ لأنه لسانهم الذى جُبلوا عليه، ويقولون لبنى اسماعيل، العرب المتعربة؛ لأنهم تكلموا به حين سكنوا بين أظهرهم.

ومن العماليق الجبابرة بالشام، والفراعنة بمصر، وأهل تَيْمَاء وعمان. منهم أمة يسمون جاسم[٣]، وكان ملك أهل الحجاز وتيماء منهم، واسمه الأرقم.

ومن ولد إرم أميم بن لاوَذ بن إرم أخوهم. نزلوا بأرض وبار وأجناسُ الفرس كلهم من ولده، ومن إرم شقّ الكاهن الأول ابن حويل بن إرم - وهذا غير شقّ الأنمارى، فأما ماش فنزل بابل ومنه النبط أجمعون، وأرنبط بن ماش.

وزعم قوم أن النبط من ولد كنعان بن حام، وولد ماش نمرود بن ماش صاحب الصَّرح، مَلَك خمسمائة سنة، وهو ملك النبط، وفى زمانه فرق الله الألسنة فجعل فى سام تسعة عشر لسانا، وفى حام سبعة عشر وفى يافث ستة وثلاثين، وبنى الصرح بعد البَلْبَلِة وهو الذى يسمى المجدل، وكان ارتفاعه خمسة آلاف ذراع ومائة وسبعين ذارعا، وكان أسفله أوسع من أعلاه، وكان فيه محاريب كثيرة من فائق الرُّخام مزينة بالذهب والجوهر، وما لا يكاد سامعه يصدق الخبر عنه.

ويقال إنه بناه بأرض فارس، لأنه بعد البلبلة انتقل عن بابل إلى أرض فارس، وفرض على الناس عبادة النار، ويقال إن المجدل بُنِى فى زمان غابر.

(١) العبارة بنصها عن مروج الذهب للمسعودى ١/ ٣٥.

(٢) فى أنساب الأشراف ١/٣ - ٤ «العرب العاربة عاد وعبيل ابنا عوض بن إرم بن سام بن نوح، وجُرهم بن عابر بن سبأ وهو ابن أرفخشذ بن سام بن نوح، وطسم وعَمليق، وجاسم وأميم بنو يلمع بن عامر بن أشليخا بن لوذين سام بن نوح وحضر موت، وهو حضر موت وشالاف وهو السلف، والموذاذ وهو الموذ بنو يقطان ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح، وثمود وجديس بن إرم بن نوح ويقظان، وهو يقطن فى قول بعضهم».

(٣) فى الأصل «داسم».

وذكر أن لاوذ ولد سام لصلبه، وذكر أنه كان لسام ولد يسمى آدَمَ، وذكر أنه يسمى مالكا وأنه حيي ـ وذلك أن ساما دفن تابوت آدم فى وسط الأرض، ووكل مالكا بقبره فأوحى الله إليه: إن الذى وكلته بقبر آدم أبقيه إلى آخر الأبد.

فأما يافث بن نوح: فمن ولده الصقالب، وبرجان والأشبان أعجمية، وكانت الأشبان منازلهم أرض الروم، ومن ولده الترك والخزر، ويأجوج ومأجوج[1].

وأما حام بن نوح فولده قوط بن حام، فنزل الهند والسند، وأهلها طرًا من ولده، وأهل الهند يقولون إنهم من ولد سلا بن قوط، وسلا: أحد ملوك العالم المشهورين.

وكنعان بن حام من ولده الجبابرة والكنعانيون بالشام، الذين قاتلهم موسى، ويوشع بن نون، ويقال إن فراعنة مصر منهم، وهؤلاء غير العمالقة ومنهم جالوت، وكوش والنوبة، والزنج، والفزان والزغاوة والقبط والحبشة والبربر.

روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وفارس، والروم، وأهل الشام وأهل مصر، ويافث أبو الخزر، ويأجوج ومأجوج، وحام أبو هذه الجبلّة السوداء»[2].

وقال سعيد بن المسيب: «ولد نوح ثلاثة، وولد لكل واحد منهم ثلاثة، سام ولد العرب والفرس والروم ـ وفى كل هؤلاء خير، وحام ولد السودان، والقبط، والبربر، ويافث ولد الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج وليس فى واحد من هؤلاء خير»[3].

وقال أهل الخبر: إن الشيطان نزغ بين بنى سام، وبنى حام فوقعت بينهم مناوشات وحروب، كانت الدائرة فيها لسام وبنيه، وكان من أمر حام، أن هرب إلى ناحية مصر، وتفرَّق بنوه ومضى على وجهه يريد المغرب حتى انتهى إلى السُّوسِ الأقصى، إلى موضع يعرف اليوم بِأَسْفَا، وهو آخر مرْسى تبلغه مراكب البحر من عين الأندلس إلى ناحية القبلة، وليس بعده للمراكب مذهب، وخرج

(١) المعارف، لابن قتيبة صـ٢٦.

(٢) أخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ١٠٨ والحافظ أبو بكر البزار فى مسنده.

(٣) الخبر فى تاريخ الطبرى ١/ ٢١٠ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ٢٤٧.

بنوه فى أثره يطلبونه، فكل طائفة من ولده بلغت موضعا.

وانقطع عنهم خبره، وأقامت بذلك الموضع وتناسلوا فيه، ووصلت إليه طائفة منهم، فأقاموا معه وتناسلوا هناك.

وكان عمر حام أربعمائة سنة وإحدى وأربعين سنة أو قال قوم: كان عمره سبعمائة سنة وسبعين سنة، ولما مات دفنه(١) بنوه فى صخر منقور فى جبل أصيلة.

وقال الجيهانى: إنما تفرقت الألسنة حين ملكهم نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش بن حام، فردهم عن الإسلام، فأمسوا وكلامهم السريانية وأصبحوا وليس منهم مخلوق يعرف بكلام صاحبه؛ فتبلبلت ألسنتهم، ففهَّم الله تعالى ـ العربية عادا وعبيل ابنى عوص بن سام بن عمليق وطسم، وأميم، وجاسم بنى لاوذ بن سام هكذا ذُكر.

قال الطبرى: فافترقت لغة بنى آدم على اثنين وسبعين لسانا، لبنى سام منهما اثنان وثلاثون، وسائرها لبنى حام وبنى يافث. قال: ونزل عبيل بموضع المدينة ـ مدينة النبى ﷺ فأخرجت العماليقُ بنى عبيل من المدينة وأنزلوهم موضع الجُحْفَة(٢)، فأقبل سيل من الليل فاجتحفهم فألقاهم فى البحر فسميت الجُحْفَةُ، وقد احتمل السيلِ الحجّاج بالجحفة، سنة ثمانين من الهجرة، ويقال: إنها عند ذلك سميت الجُحْفَة، فذهب كثير من الناس وأمتعتهم، ورحالهم وذلك يوم الاثنين.

وقال أبو السنابل: [رجز]

لَمْ تَرَ عَيْنى يوم الاثنين
أكثر محزونًا وأبكى للعين
إذْ هَبّ السيل بأهل المصْرَيْن

---

(١) فى الأصل «دفنوه».

(٢) ذكر البكرى فى معجم ما استعجم ٢/ ١٤ سبب تسمية الجُحْفة لأن السّيول اجْتَحَفَتْهَا. وذكر ابن الكلْبى أنَّ العماليق أخرجوا بنى عَبيل، وهم إخوة عاد، من يثرب، فنزلَوا الجُحْفة، وكان اسمها مَهْيَعة، فجاءهم السيل، فاجتحفهم، فسمّيت الجُحْفة. وبين الجحفة والبحر نحو من ستة أميال.

وأقبـل المُخَبَّآت يَسْعَيْـن
حـواسرا فى جبليـن يَرْقُلْن

ويقال أيضا: إن النبط من ولد أرفخشد، وإرم وملوك بابل من النبط، وهم الذين عمَّروا الأرض، ومهَّدوا البلاد، وكانوا أشرف ملوك الأرض، فأذلهم[١] الدهر وصاروا إلى ما هم عليه من الذلة فى هذا الوقت، كما شاهد من بالعراق وغيرها منهم، وقد ادّعى كثير ممن ذكرنا أنهم من العرب، وأكثر أجناس العجم[٢] يزعمون أنهم عرب، فرقة من الروم تزعم أنها من غسان، من آل جَفْنة، ممن دخل مع جبلة بن الأَيْهَم[٣] الغَسَّانى ـ أحد ملوكهم إلى بلاد الروم، فإنه دخل معه ثلاثون ألفا فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه.

وقوم منهم يزعمون أنهم من إياد دخلوا بلاد الروم، عند إجلاء أبرويز إياهم من أرض العراق فى سبعين ألفا، فنزلوا أنقرة، وقوم منهم يزعمون أنهم من ولد قُضَاعة من تنوخ، خرجوا من الشام مع هرقل ملك الروم لما غلبه المسلمون عليها.

ونصارى الشام يزعمون أنهم من العرب، فبعضهم يقول: إنه من ولد الحارث ابن كعب بن مذحج، ناقلة من الشام، وبعضهم يقول: إنه من لخم رهط النعمان ابن المنذر ـ وكانوا كلهم على دين النصرانية ـ وبعضهم يقول إنه من آل عَبَّادِ بن تميم رهط زيد بن العبّادى، وبعضهم يزعم أنه من بنى سليم، والدَّيْلَمُ تزعم أنها من بنى قيلة بن أُدّ بن طابخة، وذلك بأن سابل بن ضبة نافر إخوته، فسار إلى بلاد الديلم فأقام بها. والخَدَلِجَيَّةُ خاصة يزعمون أنهم من حِمْيَر، وغيرهم من أجناس

(١) فى الأصل «فأدال منهم».
(٢) فى الأصل (العرب).
(٣) جَبَلَة بن الأَيْهَم بن جبلة الغسانى، من آل جفنة: آخر ملوك الغساسنة فى بادية الشام، عاش زمنًا فى العصر الجاهلى، وقاتل المسلمين فى دَوْمَة الجندل (سنة ١٢هـ) وحضر وقعة اليرموك (سنة ١٥هـ) وهو على مقدمة عرب الشام من لخم وجذام وغيرهما، فى جيش الروم، وانهزم الروم وجبلة معهم، ثم أسلم، وهاجر إلى المدينة (فى رواية ابن خلدون) ثم ارتدَّ فيها وخرج إلى بلاد الروم. وفى رواية البلاذرى أنه ارتدَّ فى الشام، ولم يزل بالقسطنطينية عند هرقل (ملك الروم) إلى أن توفى ٢٠ هـ). الأعلام ٢/ ١١١ـ١١٢ وتاريخ ابن خلدون ٢٨١١ وفتوح الشام للبلاذرى ١٤١ و١٤٢.

الترك يدعى العرب، ويسمون أولادهم بأسماء العرب العاربة.

والأكراد يزعمون أنهم من قيس، ثم من هوازن، وهم مقيمون على هذه الدعوة إلى هذه الغاية.

والخزر يزعمون أنهم من قريش ومن بنى أمية، وأن الدولة العباسية لما ظهرت هرب قوم من بنى أمية، فتناسلوا هناك.

والبربر كلهم يزعمون أنهم من العرب، وهَوَّارَة تزعم أنها من عاملة ناقلة من الشام، وزويلة تزعم أنها من جُرْهُم لما نالهم ما نالهم بمكة هربوا فصاروا بزويلة.

وقبط مصر ـ من أهل الصعيد ـ يزعمون أنهم من ربيعة ثم من تغلب، وأن قوما من تغلب انتجعوا بإبلهم أرض مصر لطلب الكلأ ـ وهم على دين النصرانية، فتزوجوا القبطيات وتناسلوا هناك وهم التيمون من القبط.

والحبشة ـ الذين ببلاد النجاشى ـ يزعمون أنهم من اليمن، فغلبت الحبشة على أرض اليمن فى قديم الدهر، ومُلكُهم بها ومُقامُهم بها أربعون[١] سنة، حتى صاهروا، وصوهر إليهم.

* * *

هود ـ عليه السلام ـ

عن وهب: هو ابن عبد الله بن رباح بن حارث[٢] بن عاد بن عوص بن إرم[٣] ـ ومنهم من يزعم أنه: هود بن غابر بن شالخ بن أرفخشد ـ هذا هو قول أهل اليمن ـ لما وقعت العصبية بين يمن ومُضَر ففخرت مُضَرُ بأبيها إسماعيل، ادعت اليمن هود أنه من ولد أرفخشد أبيها.

وقال حبيب البصرى: هو هود بن عبد الله بن الخلود[٤]، أرسله الله على

(١) فى الأصل (اربعين).

(٢) فى الأصل: (حاوب) تحريف.

(٣) ابن إرم بن سام بن نوح، المعارف لابن قتيبة صـ١٢٨.

(٤) فى البداية والنهاية ١/ ١١٢ «هود بن عبد الله بن الخلود بن رياح بن الجارود بن عاذ بن عوض ابن إرم بن سام بن نوح».

قومه عاد ـ الأولى ـ وكانوا ثلاث عشرة قبيلة وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح.

وذكر جماعة من أهل العناية: أن المُلك بعد نوح تأثَّل فى عاد الأولى، قبل سائر الممالك وذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾[1]. قال: كانوا فى هيئة النخل طولا، وكانوا فى القوة واتصال الأعمار بحسب ذلك.

قال وآثارهم بالشحْر، ومواضع مساكنهم تدل على عظم أجسامهم قال وكان عاد رجلا جبارا يعبد القمر، وتزوج ألف امرأة، وولد من صلبه أربعة آلاف ولد، وعاش ألفا ومائتى سنة.

ثم ملكهم بعده ولده شداد بن عاد. وهو الذى بنى مدينة إرم ذات العماد وهذه عاد الثانية ـ، فقد قال الله ـ تعالى ـ فى الأولى وبيَّنها بقوله عز وجل ـ: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾[2]، وقال فى هذه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[3].

ولشداد مسير فى الأرض، وحروب فى البلاد، ويقال: إنه تغلب على سائر ملوك الأرض.

ويقال: إن جيرون بن سعد حلَّ دمشق فمَصَّرَ مِصْرَهَا، وجمع عَمَدَ الرخام والمرمر إليها، وشيَّد بنيانها، وسماها إرم ذات العماد وبقية هذا البنيان فى هذا الوقت بدمشق يعرف ببنيان جيرون وهو بناء عظيم.

وأكثرهم كان بالدَّوّ، والدهناء، وعالج، ويبرين، ووبار إلى عمان والشحْر وحضرموت، والأحقاف، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾[4]، فلما سخط الله عليهم جعلها مفاوز وغياضًا ـ وكانت أخصب البلاد ـ ولحق هود ومن تبعه بمكة، فلم يزالوا حتى ماتوا.

(١) سورة الأعراف آية ٦٩.
(٢) سورة النجم آية ٥١.
(٣) سورة الفجر الآيتان ٦، ٧.
(٤) سورة الأحقاف آية ٢١.

(د) ويقال إن قبر هود بحضرموت(١).

وقال أبو الطفيل: سمعت عليا ـ رضى الله عنه ـ يقول لى: رأيت كثيبا أحمر يخالطه مُدْرَة حمراء، وأراك، وسدر كثير بناحية كذا، وكذا من أرض حضرموت هل رأيته؟ قال: نعم والله إنك لنعتَّ نعت رجل. قال: ما رأيته ولكنى حدثت عنه وفيه قبر هود ـ عليه السلام ـ عند رأسه سدر وسلَم.

وذكر ابن وهب عن ابن لهيعة: أن رجلا من مهرة أتى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وقال ممن أنت؟ قال له: من مهرة قال: ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ**﴾(٢) وقال ابن لهيعة: قبر هود بمَهْرَةَ.

وكانت عاد أصحاب أَوْثَانٍ(٣)، وكانت لهم ثلاثة أصنام:

صَمَّود، وصَدَّاء، والهَبَا. قال الله عز وجل ـ حكاية عنهم: ﴿**قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ**﴾(٤) فحبس الله عنهم القطر ثلاث سنين، فأوفدوا وفودا ليستسقوا لهم بمكة، وهو قَيْلُ بن عِتْر، ولُقِيم بن هزّال، ومرثْد بن سعد ـ وكان مسلما يكتم إسلامه ـ، ولقمان بن عاد، وجُلْهُمة بن الخُبَيْرى ابن خال معاوية بن بكر فبلغوا بأشياعهم سبعين، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر ـ وهذه عاد الأخرى ـ وكانوا أخواله وأصهاره فأكرمهم وأقاموا يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان، قينتان لمعاوية فمكثوا كذلك شهرا، فلما رأى ذلك شقَّ عليه، وقال لهم هلك أصهارى وأخوالى، وهؤلاء مقيمون وقد بعثوهم يتغوَّثون لهم واستحيا أن يأمرهم بالخروج؛ فيظنون أنه أضيق لمقامهم، فقالت له جارية من جواريه: قل شعرا، نغنيهم به لعله يحركهم، فقال(٥): [من الوافر]

(١) انظر تحقيق ذلك فى البداية والنهاية ١/ ١٢٣.

(٢) سورة الأحقاف آية ٢١.

(٣) راجع: البداية والنهاية ١/ ١١٣.

(٤) سورة هود آية ٥٣.

(٥) لمعاوية بن بكر فى البداية النهاية ١١٩/١ ومروج الذهب ٤٥٦/١ والطبرى ١/ ٢٢٠ وورد فَهَيِّم مكان فهينم، ويمنحنا مكان يُصْبحنا، ومن العطش مكان (من الجهل)، ونرجو مكان يرجو، وبه مكان له، وتمامًا مكان التماما، وفى مرآة الزمان ١/ ٢٥٥ «لعل الله يمنحنا». =

أَلاَ يَا قَيْلُ وَيْحَك قم فَهَيْنِمْ ... لعلّ اللـه يُصْبِحُنَـا غمَامَـا
فيسقى أرضَ عادٍ إنَّ عـادًا ... قد أمسوا لا يُبِينون الكلامَا
من الجهد الشَّديد فليس يرجو ... به الشيـخَ الكبيرَ ولا الغُلامَـا
وأنتم هَاهُنَـا فيمـا اشْتَهَيْتُم ... نَهَـاركم وليـلكُم التَّمَامَـا
فَقُبِّح وَفْدُكم من وَفْدِ قَومٍ ... ولا لُقُّوا التَّحِيَّـةَ والسَّلامَا

فأجمعوا على الاستسقاء، فقال لهم مَرْثَدٌ[1]: إنكم والله لا تُسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتمونى سُقيتم، آمنوا بهود[2]، وأظهروا إسلامَهُ.

فقال له معاوية بن بكر حين سمع ذاك منه: [من الوافر]

أبا سعـد فإنك من قَبيلٍ ... ذوى كَرَمٍ وأمُّـك من ثمودِ
وإنا[3] لن نطيقـك مـا بقينا ... ولسنـا فاعليـن لمـا تريد
أنتـركُ[4] دين آبـاء كـرام ... ذوى رأى ونَتْبَعُ رأْىَ هـودِ

وقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثد بن سعد ولا يخرج معنا؛ فإنه قد ترك دين آبائنا وديننا وخرج عنا، وخرجوا يستسقون، فقالوا: اللهم إن كان هودٌ صادقا فاسقنا، فإنا قد هلكنا فأنشأ الله لهم سحائب بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم نادى مناد من السحاب: يا قَيْلُ اختر لنفسك: فقال اخترت السحابة السوداء، فناداه مناد:

اخْتَرْتَ رَمَـادًا أَرْمَـدَا ... لا تُبْقى مِنْ عـادٍ أَحَـدَا

= والبيتان الأولان فى الكامل لابن الأثير ١/ ٨٦.
الهَيْنَمة: الكلام الخَفِىّ.
(١) فى الأصل (مريد) تحريف.
(٢) فى الأصل (أنيبوا)، والعبارة قلقة ومضطربة، وعبارة الطبرى فى تاريخ ١/ ٢٢١ (ط/ دار المعارف) «فقال مَرْثَد بن سعد بن عُفَير: إنكم والله لا تُسْقَون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنَبْتُم إليه سُقيتم، فأظهر إسلامه عند ذلك».
(٣) فى تاريخ الطبرى ١/ ٢٢١ (فإنا).
(٤) فى تاريخ الطبرى «ونترك.. ونتبع دين هود» والأبيات لمعاوية بن بكر فى البداية والنهاية ١/ ١١٩ وتاريخ الطبرى ١/ ٢٢١ (ط/ دار المعارف).

لا والدًا نترك ولا ولَدَا إلا جعله الله هَمْدَا

وساق الله السحابة السوداء بالنقمة إلى عاد، فلما رأوها قالوا: هذه عارض ممطرنا، قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾[١] الآية فـ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[٢] أي: دائمة.

ولم يصب هودا ومن تبعه إلا ما تلين عليهم الجلود، وتلذ به الأنفس، وإنها لتمر من عاد بالظَّعينة بين السماء والأرض وتدفعهم بالحجارة.

وقال ابن اسحاق: لما سُخِّرت الريح على عاد قال سبعة رهط منهم ـ أحدهم الخلجان ـ تعالوا نقوم على شَفير الوادى فنردَّها، فجعلت الريح تردهم وتنسفهم حتى تركتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية[٣]، فلم يبق إلا الخلجان[٤]، فقال له هود: ويحك أسلم تسلم، قال: ومالى إن أسلمتُ. قال الجنة، قال: فما هؤلاء الذين أراهم فى السحاب كأنهم البُخت؟ قال: الملائكة، قال: إن أسلمت ينقذنى ربك منهم، قال ويلك هل رأيت ملكا يُعيذُ من جنده، قال: لو فعل ما رضيت، ثم جاءت الريح فألحقته بأصحابه.

وفى سابعهم ـ يقول الأول ـ وهو النَّبْهَان ـ ابن الخليل[٥]: [من الرجز]

لو أن عادا سمعت من هود ما أصبحت غامرة الجلود
هامدة الأجسام بالوهيد صَرْعى على الأنف مع الخدود
ماذا جَنَى الوفد على الوفُود أُحْدُوثة للأبد الأبيد

وقال مرْثد[٦] بن سعد: [من الوافر]

عَصَتْ[٧] عادٌ رَسُولَهُمُ فَأضحوا[٨] عِطَاشًا لا تَبُلُّهُمُ السَّمَاءُ

(١) سورة الأحقاف آية ٢٤.
(٢) سورة الحاقة آية ٧.
(٣) الحاقة آية (٧).
(٤) فى الأصل: الجلجال.
(٥) فى مروج الذهب للمسعودى ١/ ٤٥٧ للهيل بن الخليل.
(٦) فى الأصل (مزيد) تحريف.
(٧) فى الأصل (عَصِيَتْ).
(٨) فى تاريخ الطبرى ١/ ٢٢٣ (ط/ دار المعارف): فأمْسُوا عطاشا مَا تبُلُّهم».

ألاَ قبّح(١) الإله حلُوم عَادٍ فإنّ قلوبهم قفرٌ هَواءُ

ويقال إن الريح أُرسلت عليهم يوم الأربعاء، فلم ترد الأخرى وعلى الأرض منهم حميٌّ، فلذلك كرهت الأربعاء.

وروى عاصم بن بهدلة ـ عن أبى وائل، عن الحارث بن حسان، قال[٢]: مررت على عجوز بالربذة وهى تبغى الصحابة إلى رسول الله ﷺ وأنا أريد رسول الله ﷺ ـ فاحتملتها، قال: فدخلت المسجد ـ وهو غاصٌّ بالناس ـ، وإذا راية سوداء تخفق، وبلال مقلَّد بالسيف، قائم بين يدى رسول الله ﷺ ـ قال: فلما دخل رسول الله ﷺ ـ رحله أذن لى، قال فدخلت المسجد، فسلمت، فقال: هل كان بينكم وبين بنى تميم شيء؟ قلت: نعم يا رسول الله، كانت لنا الدائرة عليهم، وقد مررت على عجوز منهم بالرَّبذة منقطع بها، فقالت: إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فاحتملتها، وها هى ذى بالباب قال فأذن لها رسول الله ﷺ فدخلت، فلما قعدت، قلت يا رسول الله. إن أردت أن تجعل الدهناء حجازا بيننا وبين بنى تميم فافعل، فإنها قد كانت لنا، فاستوقدت العجوز وأخذتها الحمية، فقالت يا رسول الله فأين تضطر مُضَر؟ قال: قلتُ أنا والله يا رسول الله، كما قال الأول: مَعْزَى حملت حتفها، حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت خصما، أعوذ بالله يا رسول الله أن أكون كوافد عاد، قال رسول الله ﷺ: وما وافد عاد؟، قال: قلت يا رسول الله على الخبير سقطت. فقال رسول الله ﷺ: إنه يستطعم. . . الحديث[٣]، فقلت إن عادا قحطوا فبعثوا وافدهم قيل، فنزلوا على معاوية بن بكر شهرا يسقيه الخمر وتغنيه الجرادتان، قال ثم مضى حتى أتى جبال مهرة، ثم قال: اللهم تعلم إنى لم آت لأسير فأفديه، ولا لمريض فأداويه، فاسق عبدك ما كنت تسقيه، فمرت سحائب سود، فنودى منها: أن تخيّر السحابة، فقال: هذه السحابة

(١) فى تاريخ الطبرى (نزع الإلهُ).

والأبيات لمرثد بن سعد بن عُفَير فى مروج الذهب ١/ ٤٥٦ وتاريخ الطبرى ١/ ٢٢٣ (ط/ دار المعارف).

(٢) الحديث أخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية١/ ١٢٠ والطبرى فى تاريخه ١/ ٢١٨ وتفسيره ١٢/ ٥١٣ـ ٥١٥.

(٣) يستطعم الحديث، أى يغريه بأن يحدثّه.

السوداء، فنودى منه: أن خذها رمادا أرمدًا[١]، لا تدع من عاد أحدا.

قلت يا رسول الله: والله لقد بلغنى أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر ما يجرى فى حلقة الخاتم.

قال أبو وائل: وكذلك بلغنا، ويقال، إن قبر هود بمهرة على ما تقدم

قال (د): ومن أعاجيب أرض عاد أن هناك منارة من نحاس، عليها تمثال من نحاس، فإذا كانت الأشهر الحرم سالت ماء فى حياضهم.

وروى أنه كان قيل لوفد عاد حين نشأت لهم السحاب: وقد أعطيتم مناكم، فاختاروا لأنفسكم، فقال لقمان بن عاد: أعطنى يا رب عمرا، فقيل، لا سبيل إلى الخلود، فاختر لنفسك بقاء سبع أَبْعَارٍ يُحفر فى جبل وعر لا يَرْقى به إلا القطر، أو بقاء سبعة أنسر، إذا مضى نَسْرٌ، خلّف نسرًا مكانه[٢]، فاختار النسور، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته، حتى إذا مات أخذ غيره، وكان آخرها لُبَد[٣]، ولُبَدُ بلسانهم الدهر ـ فماتا جميعا.

وكان هود أشبه ولد آدم بآدم ـ ما خلا يوسف عليه السلام ـ.

* * *

(١) فى تاريخ الطبرى: رمادًا رِمْدَدًا.

والرمددُ: المتناهى فى الاحتراق.

(٢) راجع: الكامل فى التاريخ ١/ ٨٧.

(٣) وبه ضرب المثل فقيل: أكثر من لُبَد، وقيل: أىَ أَبَد على لُبدَ وقيل: أخنى عليها الذى أخنى على لُبَد.

انظر: مجمع الأمثال ٣/ ٧٣. وانظر: المنتظم لابن الجوزى ١/ ٢٥٤.

صالح ـ عليه السلام ـ

هو صالح بن عبيد، من ذرية إرم بن سام.

وقال وهب بن مُنَبِّه: هو صالح بن عبيد بن جابر بن هود النبيّ ـ عليه السلام ـ ابن غابر بن إرم بن سام بن نوح ـ وقد تقدم من نسب هود غير[1] هذا.

قال وهب: بعثه الله إلى ثمود حين راهق الحُلُم، وكان يمشى حافيا ولا يتخذ حذاء، كما كان يمشى المسيح ابن مريم، ولا يتخذ مسكنا ولا بيتا، ولا يزال مع ناقة ربه حيثما توجهت.

وكان منازل قومه بالحِجْر، وبين الحجر وبين قَرْح ثمانية عشر ميلا، وقرح هى وادى القرى، وبيوتهم إلى وقتنا هذا مَبْنِيَّةٌ منحوتة فى الجبال، ورِمَمُهم باقية، وآثارهم بادية، وهى بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشى على طريق الحاج من الشام، وهى فى ناحية تبوك، ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا هذا، وهذا يدل على أن أجسامهم كانت كأجسامنا لا كأجسام عاد الأولى.

وأول ملوكهم غابر بن إرم بن سام، وثمود بن غابر بن سام بن نوح، وكانت أجسامهم وأعمارهم تطول، فيبنون كل بناء فينهدم فاتخذوا من الجبال بيوتا فارهين، وقالوا لصالح: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2].

وكان القوم أصحاب إبل، فقال له زعيم من زعمائهم: إن كنت صادقا فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة سوداء عشراء ذات عرق وشعر، ووبر، فأتى بهم هضبة، فلما رأته تمخَّضت كما تمخض الحابل وانشقت عن الناقة، ثم تلاها سَقْبُها فى نحو صفتها، فآمن كثير منهم، وآمن زعيمهم جندع بن عمرو، فكان شِربها يوما، وكان

(1) فى المعارف لابن قتيبة صـ29 عن وهب بن منبه «هو صالح بن عبيد بن عابر بن إرم بن سام ابن نوح».

وفى البداية والنهاية 1/223 «هو صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح».

(2) سورة الأعراف آية 70.

شربهم يومًا.

فإذا كان يوم شربها حلبوا لبنا فملأوا كل إناء ووعاء، وعاقرُ الناقة ـ أحمر ثمود[١] ـ وهو قُدار بن سالف، وكان أحمر أشقر أزرق، سُناطا قصيرا، والعاقر الآخر مَصْدع بن مهرج، واستغويا تسعة من قومهم، وهم الذين أخبر الله عنهم فى كتابه أنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، وكانت لهما صاحبتان أغوتاهما ـ عنيزة وصدوق ـ بذلتا لهما أنفسهما إن عقرا الناقة، فأتوها فضرب قدار عرقوبها بالسيف، وامتثل مِصدع فعله فى العرقوب الآخر، واستهموا لحمها.

فلما عقرت خرجت ثمود تعتذر إلى صالح، بأنه عقرها فلان وفلان ولا ذنب لنا، فقال: انظروا هل تدركون فصيلها، فعسى أن يرفع عنكم العذاب.

ولما رأى الفصيل أمه تضطرب، صعد جبلا يقال له القارة[٢]، فأوحى الله عز وجل ـ إلى الجبل، فطال فى السماء، حتى ما تناله الطير، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه، ثم استقبل القوم، فرغا ثلاثا. وقيل: إنه لحقه بعضهم فعقروه.

فقال لهم صالح: لكل رغوة أجل يوم ﴿تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[٣]، قال لهم: وآية ذلك أن تصبح وجوههم مصفرة، وفى اليوم الثانى محمرةً وفى الثالث مسودة، فلما رأوا صدق قوله فى اليوم الأول، همَّ بعضهم بقتل صالح، وقالوا: إن كان صادقا عاجلناه، وإن كان كاذبا جزيانه بكذبه، فأتوه ليلا، فحالت الملائكة بينهم وبينه، ومنعه الله منهم، ثم لما رأوا صدق ما أنذرهم به فى اليوم الثانى والثالث تحنَّطوا فى الثالث وتكفَّنوا وصاحوا، وضجروا وبكوا، وانتحبوا، فجعلوا يقلِّبون أبصارهم إلى السماء مرَّة وإلى الأرض مرَّة، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فصبَّحهم فى اليوم الرابع ـ وهو يوم الأحد ـ صيحة من السماء، فتقطعت قلوبهم فى صدورهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[٤].

(١) ضُرِب به المثل فى الشؤم، انظر: المعارف ابن قتيبة صـ٢٩.

(٢) فى الأصل «الغمارة» وهو تحريف.

(٣) سورة هود آية ٦٥.

(٤) سورة هود آية ٦٧، ٩٤.

عقروا الناقة يوم الأربعاء، وصبَّحهم العذاب نهار الأحد.

قال غيره: وخرج عنهم صالح بمن آمن معه ليلة الأحد، فنزل موضع مدينة الرملة من بلاد فلسطين.

وقال حباب بن عمرو ـ وكان ممن آمن مع صالح ـ: [من البسيط]

كَانَت ثَمُودُ ذَوِى عِزٍّ وَمَكْرُمَةٍ مَا إِنْ يُضَامُ لَهَا فى النَّاسِ من جَارِ
فَأَهْلَكُوا نَاقَةً كَانت لِربِّهِم قد أنذروها وكانوا غَيْرَ أَبْرَارِ

وروى عن رسول الله ﷺ: أن الله ـ عز وجل ـ أهلكهم بتلك الصيحة أجمعين إلا رجلا واحدا هو أبو رِغال كان فى حرم الله، فمنعه من العذاب[1]، وقد نهى رسول الله ﷺ أصحابه لما مرَّ بهذه القرية أن يدخلوها وأن يشربوا من مائها، وأراهم مرتَقى الفصيل.

قال (ط): وأهل التوراة يزعمون أنه لا ذكر لعاد ولا لثمود، ولا لصالح عندهم، وأمرهم عند العرب فى الجاهلية والإسلام كشُهرة إبراهيم[2].

(ق) عن وهب: ولما رأى صالح أنها دار قد سخط الله عليها، ارتحل هو ومن معه، فأهلوا بالحج على قلائص حمر مخطمة بحبال الليف، حتى ورد مكة، فلم يزل بها حتى ماتوا، فقبورهم فى غربى الكعبة بين دار الندوة والحِجر[3].

* * *

(١) البداية والنهاية ١/ ١٢٩.

(٢) علّق ابن الأثير فى تاريخه ١/ ٩٣ على ذلك بقوله «وليس إنكارهم ذلك بأعجب من إنكارهم نُبُوّة إبراهيم الخليل ورسالته، وكذلك إنكارهم حال المسيح عليه السلام».

(٣) المعارف لابن قتيبة ٣٠.

إبراهيم ـ عليه السلام ـ

هو إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن أسرع[١] بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح.

قال (و): وكذلك فى التوراة إلا أنه مكان أسرع شاروع.

واختلف فى الموضع الذى ولد فيه، فقيل: بالسُّوس من أرض الأهواز، وقيل بأرض بابل من أرض السواد ـ سواد الكوفة ـ، وقال بعضهم: بكوثا من السواد أيضا وفيها كان نمرود.

وقال عامة السلف: ولد فى عهد نمرود بن كوش ـ المتقدم ذكره ـ وكان بين الطوفان ومولد إبراهيم ألف سنة وتسع وسبعون سنة .

وقال بعض أهل الكتاب: ألف سنة، ومائتا سنة وثلاث وستون سنة.

وقال (د): تسعمائة سنة واثنتان وأربعون سنة.

قال (و): إنما سمى أبو إبراهيم آزر النمرود، لما صار قيما على خزائنه، وقيل: إن النمرود ملَّكه الشرق.

وقال مجاهد: إن آزر ليس باسم أبيه، وإنما هو اسم صنم وقيل إنه عيب عابه به، معناه معوج.

ولما قرب أمر إبراهيم، طلع كوكب على نمرود، فذهب بضوء الشمس والقمر، فدعا المنجمين والكهنة، فسألهم عن ذلك ـ وفى زمانه ظهر القول بأحكام النجوم[٢]، وكوِّرت الأفلاك وعملت الآلات، وقرب فهم ذلك إلى قلوب الناس ـ ونظر أصحاب النجوم فيما سألهم عنه، فأخبروه: أن مولودا يولد يكون على يده هلاكه، وذهاب مملكته، وفساد آلهتهم.

فأمر بقتل الولدان وعزل الرجال عن النساء، وخرج نمرود إلى قرية أخرى،

---

(١) فى تاريخ الطبرى ١/ ٢٣٣ «إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر ابن شالخ بن قينان بن أرفخْشَد بن سام بن نوح.

(٢) انظر: تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٣.

وأخرج الرجال مع نفسه، ولا يولد مولود إلا قتله.

وعرضت حاجة للنمرود إلى المدينة، فلم يأمن عليها إلا آزر، فأرسله فيها ونهاه عن مواقعة أهله، فقال له آزر: أنا أضنُّ بديني[١]، فلما دخل المدينة، لم يتمالك أن وقع على زوجته ثم مر بها إلى قرية بين الكوفة والبصرة، فجعلها في سَرَبٍ، وكان يتعاهدها بالطعام والشراب، فولدت إبراهيم، فكانت جُمْعَتُهُ كالشهر لسرعة شبابه.

وترعرع إبراهيم، ونسى الملك ما أُنْذِرَ به، فلما أمن عليه أبوه أخرجه من السرب بعد المغرب، فرفع رأسه فإذا هو بالكوكب المشترى، وكان من أمره ما نصه الله ـ تعالى ـ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: وخرج فى آخر الشهر، فلذلك لم ير القمر قبل الكوكب، وكان قد أوتى رشده من قبل، ومن أوتى رشده فقد عصم من الزلل، وعبادة غير الواحد الصمد.

ثم أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فعلمه دينه، واصطفاه الله خليلا ونبيا، فدعا قومه إلى الإسلام، وكان من كَسْرِ الأصنام ما نصّه الله ـ تعالى ـ، فشاور نمرود فى أمره، فقال رجل منهم يقال له هيزم[٢]: حرِّقوه، فخسف الله به الأرض فهو يتلجلج فيها إلى يوم القيامة.

وقال عبد الله بن عمر لمجاهد: أتدرى من أشار بحرق إبراهيم؟ قال: قلت لا، قال: رجل من أعراب فارس، قلت: وهل للفرس من أعراب، قال: نعم الكُرْد[٣].

ولما رُفِعَ إبراهيم ليُقْذَفَ به فى النار، سألت السموات والأرض وكل من عليها ـ غير الثقلين ـ ربها ـ تبارك وتعالى ـ أن يأذن لها فى نصرته، فقال: إن استغاث بشىء منكم، فلينصره وإنه لم يدع غيرى فأنا وليه.

فرفع إبراهيم رأسه فقال: «اللهم أنت الواحد فى السماء، وأنا الواحد فى الأرض».

(١) فى الأصل: (أنا أظن بابنى).
(٢) تاريخ الطبرى ١/ ٢٤١.
(٣) تاريخ الطبرى ١/ ٢٤٠.

فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾[١].

فقال عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنه ـ: لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها، ولم يُنتفع بنار فى ذلك اليوم وظنت كل نار أنها هى المأمورة[٢].

ونظر النمرود إلى إبراهيم فى روضة خضراء فى سواء النار، ومعه رجل، ورأس إبراهيم على حجره، وهو يمسح العرق عن وجهه ـ وكان ملك الظلٍّ ـ وإبراهيم حينئذ ابن ستة عشر سنة ـ فعجب نمرود من ذلك وما كف عن إبراهيم وقال: إنى مقرِّب إلى إلاهك أربعة آلاف بقرة، فقال إبراهيم: وإنه لا يقبلها منك، ما كنت على شىء من دينك.

واستجاب لإبراهيم رجال من قومه بتلك الآية على خوف من نمرود، وآمن به ابن أخيه لوط[٣].

وتزوج إبراهيم سارة بنت عمه هران الأكبر بن ناحور، هى سارة ابنة هران بن ناحور، أخت لوط، وابنة عم إبراهيم، فآمنت به. قال (و): وهى أول من آمن به.

وخرج إبراهيم مهاجرا بمن معه حتى قدم مصر، قال (و): فلسطين فوجد بها فرعون من فراعنة القبط.

قال وهب: يقال له صادوف.

فذُكر له حسن سارة، فأرسل إلى إبراهيم فسأله عنها، قال: هى أختى ـ وخاف أن يقتله عليها لو قال: هى زوجتى فقال: زينها وأرسل بها إلى، أنظر إليها، فمد يده إليها فرعون، فيبست إلى صدره، فقال: ادعى ربك أن يطلق يدى، ولا أمسك ففعلت وانطلقت يده، ووهب لها هاجر، فوهبتها سارة لإبراهيم.

وقال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم غير ثلاث: إنى سقيم، وبل فعله

(١) سورة الأنبياء آية ٦٩.

(٢) فى الأصل «المأثورة».

(٣) وهو لوط بن هاران بن تارخ، وهاران هو أخو إبراهيم. تاريخ الطبرى ١/ ٢٤٤.

كبيرهم هذا، وقوله للجبار إذ سأله عن سارة: هى أختى(١).

فخرج إبراهيم حتى نزل فلسطين بين الرملة وإيْلَيَا.

وقال وهب: إن الله أخرج الجبار الذى عرض لسارة من تلك المدينة، وأورثها إبراهيم، فأثرى بها، فولدت هاجر - وهى قبطية - إسماعيل لست وثمانين سنة من عُمْرِ إبراهيم، ووُلد له إسحاق، وهو ابن مائة سنة وعشرين، وسارة بنت تسعين سنة، واختُتِن إبراهيم بعد تسع وتسعين سنة، وختن الله إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة.

وكان من إخراج إبراهيم لهاجر وابنها إسماعيل إلى مكة ما قد شُهِرَ، أسكن إسماعيل بمكة وهو ابن ستة عشر سنة وقيل ابن أربع عشرة سنة.

وانفجرت زمزم من تحت يد إسماعيل، فاستسقت هاجر، وجعلت تدَّخره فى قربتها، فلولا الذى فعلت ما زالت زمزم معينا طاهرة، ثم أجاب الله دعوة إبراهيم - فأنسهم بجُرهم، وجعل أفئدة الناس تهوى إليهم ورزقهم من الطيبات

ثم بنى إبراهيم البيت مع ابنه إسماعيل على ما أمره الله - تعالى - به.

وذكر آخرون أن الذبح كان قبل بناء الكعبة وهو أصح - والله أعلم - ثم أمر الله إبراهيم أن يذبح ولده على كثرة الاختلاف فيه.

قال: إن كان الذبح وقع بمنى قبل ذبح الفداء - فعلى ما تكرر فالذبيح إسماعيل - لأن إسحاق لم يدخل الحجاز، وإن كان الأمر بالذبح وقع بالشام فالذبيح إسحاق، لأن إسماعيل لم يدخل الشام بعد أن حمله أبوه منه، وقد تكررت الآثار: أن الموضع الذى خلا فيه بابنه وأضجعه للذبح فيه شِعْب ثُبير.

وعن على وابن عباس - رضى الله عنهم - أن الكبش أهبط فى ثبير، قال عبد الله بن عباس - وكان رَعَى فى الجنة أربعين خريفا، قال: فأرسل إبراهيم ابنه، فاتبع الكبش حتى إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصات فأفلته عندها، فجاء الجمرة الوسطى، فرماه بمثلها فأفلته، ثم رماه عند الجمرة الكبرى بمثلها، وأخذه فأتى به إبراهيم المَنْحَر من مِنى فذبحه. قال عبد الله بن عباس - رضى الله

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٢٤٥.

عنهما ـ لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنه فى ميزاب الكعبة قد وخش (يعنى يبس).

وقال أبو جعفر: مما امتحن الله به إبراهيم؛ النار، والكواكب، والشمس، والقمر، وأمره بذبح ابنه[1]، والكلمات التى ذكرها الله فى محكم كتابه على اختلاف الناس فيها، وقيل خمسة أقاويل ـ فلما علم الله منه الصبر على ما ابتلاه، والقيام بما لزمه واسترعاه، جعله الله لمن بعده إماما، وجعل فى ذريته النبوة والرسالة، وخصَّهم بالكتب المنزلة والحِكم البالغة.

وروى: إن أول من ركب الخيل إبراهيم، وقالت العرب إن أول من ركب الخيل إسماعيل بن إبراهيم، وكانت وحوشا فأوحى الله إليه بآية الخيل، فدعا بها فأتته، فأمكنته من نواصيها هو وولده، فعتاق الخيل تنسب إليهم إلى هذه الغاية، فيقال الخيل العربية.

وروى أن إبراهيم سأل ربه أن لا يتوفاه حتى يكون هو الذى يسأله الموت، فبعث الله إليه ملك الموت فى صورة شيخ هرم، وكان إبراهيم كثير الإطعام، فبينما هو يطعم الناس إذ رأى شيخا كبيرا يمشى فى الحر، فبعث إليه بحمار فركبه حتى إذا جاء أطعمه، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه، فيدخلها عينه وأذنه يدخلها فإذا دخلت جوفه خرجت من دبره، فقال إبراهيم للشيخ حين رأى ذلك منه: ما بالك؟ قال الكبر.. فسأله عن سنه، فزاد على سن إبراهيم سنتين فقال إبراهيم: إنما بينى وبينك سنتين، فإذا أتيت عليها كنت مثلك، قال نعم، قال إبراهيم اللهم اقبضنى إليك قبل هذا، فقام الشيخ فقبض نفسه.

وتُوفى وهو ابن مائتى سنة، وقيل ابن مائة وخمس وسبعين سنة[2] ـ صح عنهم ـ، ودفن بأرض الكنعانيين فى حَبْرُون[3] فى مزرعة اشتراها إبراهيم، وفيها دفنت سارة وإسحاق وموضع قبورهم مشهور، وهى على ثمانية عشر ميلا من

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٢٨٥.
(٢) تاريخ الطبرى ١/ ٣١٢.
(٣) حَبْرُون من أسماء الخليل، ويقال لها أيضًا «حَبْرَى» وكان مكانها على التل شمال غربى البلدة الحالية. معجم بلدان فلسطين ٢٨٨.

بيت المقدس، فى مسجد هناك يعرف بمسجد إبراهيم.

وأنزل الله على إبراهيم. عشرة صحف، قال رسول الله ﷺ - أمثالا ومواعظ[١]، منها على العاقل أن يكون بصيرا لزمانه مقبلا على شأنه، حافظا لسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فى ما يعينه

(ق): وما عاشت سارة سوى مائة سنة وسبع وعشرين سنة، واختلف هل هى أول موتا أو هاجر، والصحيح: أن هاجر تقدمتها، ولا اختلاف أنهما ماتتا فى حياة إبراهيم، ودفنت هاجر بحجر مكة، وفيه دفن ابنها إسماعيل وتزوج بعدها إبراهيم امرأتين من الكنعانيين: قطورا، وحجورا، وله ثلاثة عشر ذكرا منهم مدين بن إبراهيم، جدّ شعيب، فجميع ولده ثلاثة عشر، ولم يذكر إلا قطورا، ولدت له سبعة نفر ولم يذكر الأخرى.

وكان لإبراهيم أخوان: حرَّان أبو لوط، ويقال هاران، وهو الذى بنى حرَّان، وإليه تنسب[٢] وناهر، وهو أبو رفقا امرأة إسحاق، وفى التوراة: أنه ناحور لا ناهر، وناهر لوهب.

وأما الدليل على أن هاجر سبقت سارة، فما رواه السدى: أن إبراهيم اشتاق إلى إسماعيل، فاستأذن سارة أن يأتيه، فأخذت عليه عهدا ألا ينزل غيرةً على هاجر، فركب البراق ثم أقبل فوجد أم إسماعيل قد ماتت.

وتزوج إسماعيل امرأة من جرهم، ولم يجد إسماعيل، ورأى المرأة فظة غليظة[٣]، فقال لها: إذا جاء زوجك فقولى له: جاء هنا شيخ من صفته كذا، كذا، ويقول لك، لا يرضى عتبة بابك، ففعلت، فلما أخبرته طلقها، وتزوج ثانية وجاء إبراهيم مرة أخرى ثانية، فلم يجد إسماعيل، ووجد امرأة سهلة طلقة، وأتته باللبن واللحم، فدعا لها بالبركة، وجاءته بالمقام، فوضعته تحت شقّه الأيمن فوضع قدمه عليه، فبقى أثر قدميه فيه، وغسلت شق رأسه الأيسر، ثم قال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له قد استقامت عتبة بابك،

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٣١٣.
(٢) فى الأصل «يثبت».
(٣) فى تاريخ اليعقوبى١/ ٢٧ «هى الهيفاء بنت مُضاض الجرهمية».

قال أبو جعفر: ثم لبث ما شاء الله أن يلبث، وأمره ببناء الكعبة.

وفى رواية أخرى قيل كان على أتان، ولدعوة إبراهيم لا ينقطع اللبن بمكة فى فصل من فصول السنة، ولذلك كانت لحومها أطيب اللحوم، حتى إن القصاب ليعطى الشحم بدلا من اللحم يغش به.

وأما نمرود - صاحب إبراهيم - فعذّبه الله بأضعف خلقه ببعوضة توغّلت فى خياشيمه، فمكث، أربعين عاما يعذب فى حياته، وكان يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس عنده من جمع يديه، فضرب بهما رأسه، وهو الذى جوّع الأربعة الأَنْسُر، وقرنهن بالتابوت، فلم يزل يرفع اللحم حتى وقع فى ظلمة لا يرى ما فوقه ولا ما تحته، ففزع وألقى اللحم فانفضت النسور، وكان طيرانهم من بيت المقدس وسقوطهم بجبل الدخان، وذلك قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿**وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ**﴾[(١)] الآية.

ثم أخذ بعد ذلك فى بنيان الصرح، فبنى حتى إذا ظن أنه أسنده إلى السماء ارتقى فوقه، ينظر بزعمه إلى إله إبراهيم ﴿**فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾[(٢)] فيقال عند ذلك تبلبلت ألسُنُ الناس من الفزع، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وإنما كان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية.

* * *

إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام -

وتزوج إسماعيل بعد التى أمره أبوه بطلاقها[(٣)]، أُسَيدة بنت مُضاض بن عمرو الجرهمى، وهى التى رضى عنها أبوه، فولدت لإسماعيل اثنى عشر ذكرا، نابت ابن إسماعيل، ويقال نبت، وقيدور ونَبَت هو بِكرُهُ.

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤٦.

(٢) سورة النحل، آية ٢٦.

(٣) زوجه الأولى هى الحيفاء بنت مُضَاض الجرهمية تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٧.

وبعث الله ـ عز وجل ـ إسماعيل إلى العماليق وقبائل اليمن، وقيل إنه لما حضرته الوفاة، أوصى إلى أخيه إسحاق، وقيل إلى ابنه قيدور. وزوج ابنته من عيصو بن إسحاق، وعاش مائة وسبعا وثلاثين سنة، ودفن بالحجر، حيال الموضع الذى فيه الحجر الأسود عند قبر أمه.

وانتشر بنوه فى البلاد وظهروا، وهم نفوا[١] العماليق.

وسمى إسماعيل لأن الله ـ عز وجل ـ سمع دعاء هاجر ورحمها فيه، وقيل إن الله سمع دعاء إبراهيم، وقيل: هو وإسماعيل أول من ركب الخيل على ما تقدم ـ وكانت وحوشا، وأول من عمل قوسا عربية فرمى بها.

* * *

إسحاق ويعقوب ـ عليهما الصلاة والسلام ـ

وتزوج إسحاق رفقا ابنة عمه ـ على ما تقدم ـ وهو قول أهل التوراة[٢].

وقال ابن اسحاق: هى رفقا ابنة بَتُويل بن ناحور بن آزر، فولدت له عيصو ويعقوب توأمين، وذلك بعد أن مضى من عمر إسحاق ستون سنة. فولدت لعيصو من ابنة إسماعيل الروم، فكان بنو الأصفر من ولده، وقيل إن الأشبان من ولده، ولا أدرى أَمِن إسماعيل أم لا؟، وولد عدة أولاد سواه.

قال: ووُلد للعيص ثلاثون رجلا، ومن بنى الأصفر ملوك الروم، ومنهم الإسكندر فى قول الروم، قال عدىّ: [من المتدارك]

وبنـو الأصفرِ الكرامِ مُلوكُ الـ ـرُّوم لم يَبْقَ مِنْهُم أحدٌ مَذْكُور[٣]

وقد اختلف فى الروم، فقيل: إنهم من ولد إسحاق، وقيل: إنما سموا روما بإضافتهم إلى مدينة رومه ـ وليس اسم رجل ـ وكان منزل عيصو الشام، فكثر

(١) فى الأصل «بنو» وهو تحريف.

(٢) تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٨.

(٣) لعدى بن زيد العبادى فى الأغانى ٢/ ٣٤ وروايته:

وبنو الأصفر الكرامِ مُلوكُ الـ ـرُّومِ لم يَبْـق منهم مذكــور

ولده. فصاروا إلى البحر وناحية الإسكندرية، ثم إن الروم غلبوا الكنعانيين.

قال: وكان العيص فيما ذكر يسمى آدم لأدمته، ولذلك سُمِّيَ ولده بنو الأصفر، وكان الروم رجلا أصفر فى بياض، ولذلك سمى ولده بنو الأصفر - فكان أكثر دعاء إسحاق ليعقوب، وظهرت البركة له بدعائه، فغاظ ذلك العيص، وتوعد يعقوب بالقتل، فخرج هاربا إلى خاله ببابل، فكثر جزع يعقوب من أخيه العيص، فأمنه الله - عز وجل - من ذلك.

وكان ليعقوب خمسة آلاف وخمسمائة من الغنم، فساهم أخاه العيص فيها، وأعطاه عشرها استكفافا لشرّه، وخوفا من صولته، بعد أن أمَّنه الله منه، فعاقبه الله فى ولده لمخالفته لوعده، وأوحى الله إليه: لم تطمئن إلى قولى، لأجعلن ولد عيص يملكون ولدك خمسمائة وخمسين سنة، وهو عدد ما أعطى العيص من غنمه، فكانت المدة مذ أخربت الروم بيت المقدس، واستعبدت بنى إسرائيل إلى فتح عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بيت المقدس.

ولم يزل يعقوب يتألف أخاه العيص حتى ترك له البلاد وعبر إلى الروم، فأوطنها، فصار الملك من ولده، وهم اليونانية فيما يزعمون.

وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة، ودفن مع أبيه إبراهيم، وقد كف بصره، .

وأمر إسحاق ابنه يعقوب أن لا ينكح امرأة من الكنعانين وأمره أن ينكح من بنات خاله (لابان) بن ناهزة بن آزر، فنكح بنتيه لايا، وراحيل - بالحديث المشهور - وكانوا يجمعون بين الأختين حتى جاءت شريعة موسى ﷺ

وقيل: إنه لم يتزوج راحيل حتى توفيت لايا، فولد له منها الاثنى عشر سبطا، وكان ولدا راحيل: يوسف وبنيامين، وقيل اثنان سواهما، وقيل: إن الاثنى عشر سبطا من أمتين كانتا لبنتى لايا، جهزهما فوهبتهما له.

ولما توجه يعقوب إلى خاله لينكح ابنته، أدركه الليل فبات فى بعض الطريق متوسدا حجرا، فرأى فيما يرى النائم سلما منصوبا إلى السماء، والملائكة تعرج فيه، وتنزل منه، فأوحى الله إليه: «إنى أنا الله لا إله إلا أنا، وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة، وذريتك من بعدك، ثم أنا معك أحفظك حتى أردك إلى هذا المكان، فأجعله بيتا تعبدنى فيه»، فهو بيت المقدس - عن (ق) -.

ثم كان من أمره مع خاله ما كان، وتوفى يعقوب بمصر وهو ابن مائة سنة وسبع وأربعين سنة، ودفن عند قبر إبراهيم وإسحاق. وكان يعقوب قد أوصى إلى يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه مع أبيه بالشام ففعل.

(ق): وعاش يعقوب مع يوسف بمصر سبع عشرة سنة، وعاش عيصو كعمر يعقوب سواء.

* * *

يوسف ـ عليه السلام ـ

كان بعد دخول يوسف مصر إلى أن دخلها موسى بن عمران أربعمائة سنة، وعاش يوسف بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة، وفى التوراة مائة وعشرة(١).

وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وقد قيل سبعا وسبعين سنة.

وقيل: كان بين رؤياه، ومجئ تأويلها أربعون سنة فتلك مدة مغيبه عنه إذًا، وهذا لا يصح؛ لأنه ألقى فى الجبِّ وهى ابن سبع عشرة سنة، ولم يعش بعد أبيه إلا ثلاثا وعشرين سنة ـ وهذا الصحيح ـ لأنك إذا حملت على هذا سنة إذا خرج عنه، وذلك سبع عشرة سنة، يبقى من عمره ثمانون سنة وهى المدة التى غاب عنه فيها.

وأوصى يوسف إلى أخيه يهوذا، وجعل يوسف لما توفى فى تابوت رخام، وسُدَّ بالرصاص، وطلى بالأطلية الدافعة الهواء والماء، وطرح فى نيل مصر.

ويقال إن موسى جعل جسده فى تابوت عند خروجه من مصر. وقد روى أنه أوصى أن يحمل إلى الشام فيدفن مع أبيه وجديه.

وولد ليوسف أفرائيم، وميشى(٢)، فولد ميشى موسى، تنبأ قبل موسى بن عمران، وهو صاحب الخضر ـ فيما ذكر أصحاب التوراة. صح ط ق.

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ١/ ٤١.

(٢) فى قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٢١٦ «أفرايم ومنا».

(لوط ـ عليه السلام ـ)

وهو مُقَدَّمٌ فى المرتبة، لأنه كان فى زمان إبراهيم.

هو ابن هاران أخو إبراهيم، ولما هاجر إلى الشام ـ على ما تقدم ـ واستوطن إبراهيم فلسطين، أنزل ابن أخيه لوطا الأردن، فأرسل الله لوطا إلى أهل سَدُوم(١) وما حولها ـ وهى المؤتفكات ـ وكانت خمس قريات، وسدوم هى القرية العظمى وهى باقية إلى وقتنا هذا ـ وهى سنة ثلاثمائة واثنين وثلاثين سنة ـ خراب لا أنيس فيها، والحجارة المُسَوَّمة موجودة فيها يراها السفر سودا براقة قال: وكان فى قرية منها مائة الف.

* * *

أيوب ـ عليه السلام ـ

كان فى زمن يعقوب، زوجه بنت يعقوب، وهى المَضْرُوبَةُ بالضِّغث.

وهو أيوب بن عوص بن رعويل، وكان أبوه ممن آمن مع إبراهيم، إذ ألقى فى النار.

وقال ابن إسحاق وغيره: رعويل بن عيصو بن إسحاق، وأم أيوب بنت لوط باتفاق. ويقال إن زوجه المضروبة بالضغث، وهى ابنة إفرائيم بن يوسف.

وكان أيوب كثير المال، كانت له البثنية والجابية من الشام كلها له، فيها ما لا

---

(١) سَدُوم: وتعنى: إحراق، هى المدينة الرئيسية فى مجموعة المدن فى عمق السديم، التى حربت لفساد أهلها. وقد ذكرتها التوراة فى وصف تخوم أرض كنعان.
اختارها النبى لوط مسكنًا، لأن الأرض المحيطة بها كانت أرض سقى مخصبة.. يعتقد العلماء أنها تحت البحر الميِّت جنوب منطقة اللسان، وقد صارت سدوم مضرب الأمثال للخطيئة والشرّ ومخالفة أوامر الله، وإليها تنسب السدومية أى (الشذوذ) الذى انتشر بين قوم لوط، وهؤلاء كانوا قد نزلوا سدوم التى أهلكها الله ولم يَنْجُ منها إلاَّ لوط وابنتاه. معجم بلدان فلسطين ٤٤٥ـ٤٤٦.

يحصى من العبيد، والغنم والدواب، وابتلاه الله فى ماله وولده، فصبر، ثم ابتلاه الله فى جسمه، وبقى مطروحا فى كناسة سبع سنين وشهرا فصبر.

قال (و): مسجده والعين الذى اغتسل فيه مشهور إلى وقتنا هذا، فيما بين دمشق وطَبَرِية(١) على ثلاثة أميال من مدينة نوى.

وعُمِّر ثلاثا وسبعين سنة(٢).

وبعث الله بعده بِشْرَ بن أيوب(٣).

* * *

ذو الكفل - عليه السلام -

وأقام بالشام حتى مات وعُمِّرَ خمسا وسبعين سنة.

قال (ق): لم نجد فيما نقله وهب له ذكرا -.

وهو رجل من بنى إسرائيل(٤) أرسل إلى ملك يقال له كنعان فدعاه إلى الإيمان، وكفل له الجنة، وكتب له كتاب ذِكرٌ - حق على الله - فآمن ذلك الملك، وسُمى ذا الكفل بالكفالة(٥).

* * *

(١) مروج الذهب ١/ ٤١.

(٢) تاريخ الطبرى ١/ ٣٢٤.

(٣) وسُمّى بذى الكفل.

(٤) وذكر الطبرى أنه قيل هو بشر بن أيوب. تاريخ الطبرى ١/ ٣٢٥.

(٥) لأنه كان قد تكفَّل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم، ويقضى بينهم بالعدل فَسُمِّى بذى الكفل. انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٢٣٦.

شعيب ـ عليه السلام ـ

من ذرية مدين بن إبراهيم، وجده شعيب، ابن لوط.

وقال بعضهم: لم يكن شعيب من ذرية إبراهيم، وإنما هو من ذرية من آمن به، إذ ألقى فى النار، وكان عربى اللسان.

وكان شعيب ضرير البصر، حدَّث بذلك ابن جبير فى قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾[1].

ويقال له: خطيب الأنبياء.

بعثه الله إلى مدين، وهم أصحاب الأيكة، وهم من ولد مدين بن إبراهيم، ومن ملوكهم: أبو جاد، وهوزّ، على تواليها.

فكان أبو جاد مُلْكُه مكة وما يليها من الحجاز، وكان هوَّزُ، وحُطِّى ببلاد وجّ، وهى الطائف وما اتصل بها من أرض نجد، وكلمن، وصعفص، وقُرَشت[2] ببلاد مصر[3].

وفيما لحق بهم من عذاب الله يقول المنتصر بن المنذر: [من الطويل]

مُلُوك بنى حُطِّى وصَعْفَصٍ ذى النَّدى
وهَوَّز أربابُ البَلِيّة والحِجْرِ

هم أُمْلِكوا أرض الحجاز بأوْجِهٍ
كمثلِ شُعَاعِ الشَّمْسِ أو صُورَةِ البدر

وهم قطَّنوا أرض الحرام قطونا
وسادوا بالمكارم والفَخْرِ

(١) سورة هود آية ٩١، عن سعيد بن جبير كان أعمى، وعن شريك وأبى نعيم: ضعيف البصر.

(٢) فى الأصل (قريشات)، والتصحيح عن مروج الذهب ٢/ ١٦١.

(٣) فى المسعودى «وكلمن وسعفص وقرشت ملوكًا بمدين، وقيل: ببلاد مصر».

وقال ابن خرداذبة فى تاريخه: كان شعيب ألثغ[1]، وعُمِّر مائة وأربعين سنة، وتوفى بمكة، ودفن عند المسجد الحرام حيال الحجر الأسود وأوصى إلى موسى بن عمران، صهره، وسلط الله ـ عز وجل ـ على قومه حرا شديدا حتى أخذ بأنفسهم، ثم بعث الله ـ سبحانه وتعالى ـ سحابة فوجدوا لها بردا، فلما صاروا تحتها، أرسلها الله عليهم نارا، فذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ**﴾[2]، فاحترقوا كما تحترق الجراد فى المَقْلَى.

وكانوا أهل كفر وبخس فى المكيال والميزان.

ولم يكن أهل مدين قوم شعيب، ولكنها أمة بُعث إليها، وما أدرى كيف هذا؟ والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**﴾[3].

قال: وكان اسم شعيب: يثرين[4].

وروى ابن لهيعة: أن ابا هريرة سأل رجلا فقال: ممن أنت؟ قال: من جِذَام، قال أبو هريرة: مرحبا بأصحاب موسى وقوم شعيب.

فإن صح هذا، فجذام من مدين ولد إبراهيم.

وزعم قوم أن أهل مدين الذين بُعث إليهم شعيب من العرب العاربة، والأمم الدائرة، وليسوا من ولد مدين.

وتزعم قريظة والنضير أنهم من رهط شعيب، وأنهم من جذام.

* * *

(١) فى الحديث «ذاك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه فيما يرادفهم به. تاريخ الطبرى ٣٢٧/١.

(٢) سورة الشعراء، آية ١٨٩.

(٣) سورة الزخرف، آية ٨٥.

(٤) فى تاريخ الطبرى ٣٢٥/١ «يزون» وذكر المحقق فى نسخة «يثرون».

الخضر ـ عليه السلام ـ

الخضر عليه السلام، هو: بَلْيَا بن مَلْكَان بن فالغ بن عابر بن شالخ(١).

وقال عامة [أهل] الكتاب(٢): كان فى زمان أفريدون المتقدم ذكره.

وقيل: إنه كان على مقدمة ذى القرنين، الأكبر الذى كان فى زمن إبراهيم، وبلغ الخضر مع ذى القرنين: نهر عين الحياة، فشرب منه، ولم يعلم به ذو القرنين، ولا من معه، فهو حىٌّ إلى الآن(٣).

وقد قيل: إنه وَلَدُ فارس ـ والله أعلم.

* * *

موسى وهارون ابنا عمران ـ عليهما السلام ـ

موسى وهارون ابنا عمران بن قاهث، بن لاوى، بن يعقوب، صحّ.

وقيل: عِمْران بن يصهُر بن قاهث.

قال: وقارون بن يَصْهُر بن قاهث.

[وقيل]: قارون بن صافر بن قاهث، فهو على هذا ابن عم موسى.

واسم أم موسى وهارون: نوخابت، وقيل: باختة من ذرية يعقوب، من ذرية نفشان بن إبراهيم.

وكان هارون أسنَّ من موسى بثلاثة أعوام، وكانت لهما أخت اسمها: مريم، كانت أسن منهما، وكانت تحت كالب بن يُوفَنَا، ولما قبض الله يوسف ـ عليه

(١) رفعوا نسبه إلى نوح فقالوا هو: بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام ابن نوح. تاريخ الطبرى ١/ ٣٦٥.

(٢) راجع تاريخ الطبرى ١/ ٣٦٥.

(٣) نقل الطبرى عن عبد الله بن شوذب: أن الخضر من ولد فارس وإلياس من بنى إسرائيل، يلتقيان فى كل عام بالموسم.

السلام ـ توارثت الفراعنة من العماليق مُلك مصر، ولم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم حولا، وهم على بقايا من دينهم الذى كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ويوسف، عليهم السلام شرعوا لهم، حتى كان فرعون موسى ـ وهو: الوليدُ بن مصعَب، صحّ عنهم، عن وهب.

وقيل: إن فرعون مصر، هو فرعون يوسف، عُمِّر أكثر من أربعمائة سنة.

قال: وغيره ينكر هذا.

فعذَّب بنى إسرائيل، وكان سيئ المَلْكَة، شديد البطش وكان قد نكح منهم امرأة يقال لها: آسية بنت مزاحم من خيار النساء.

لما أراد الله ـ عز وجل ـ من أمر موسى، فلما تقارب زمن موسى، أعلمه المنجمون بما وجدوا من أمره فى علمهم، وقالوا: قد أظلك زمانه.

وقيل: بل رأى فى منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس، فأحرقت القبط بمصر، وتركت بنى إسرائيل.

فسأل عن رؤياه، فقيل له: يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يديه هلاك القبط.

روى ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ.

فأمر بقتل الغلمان، واستحياء الجوارى، فكان من أمر موسى ما نصَّهُ الله ـ عز وجل.

فلما شبَّ موسى، وكان يركب مثل ما يركب فرعون، ويلبس كلبسه، وكان يدعى موسى بن فرعون؛ لأنه كان تبنّاه، وركب يوما، وقد ركب فرعون، وهو يتبعه، وقد خلت الأسواق لاحتفال الناس مع فرعون، فكان من أمر القبطى والإسرائيلى الذى استنصر بموسى ما كان، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾[1]، ثم خرج خائفا يترقب تلقاء مدين، وكان من أمره وأمر الجاريتين ما نصه الله ـ عز وجل ـ وهما: ليا وصفورة، وتزوج منهما صفورة.

(١) سورة القصص: آية (١٥).

وكلمه الله تكليما، وأمره أن يأتى فرعون، وشدَّ عَضُدَه بأخيه، ثم كان من أمره وأمر فرعون ما كان.

وقيل: إن عدد السحرة الذين حشر له فرعون خمسة عشر ألفا، فكانوا أول النهار سحرة، وآخره شهداء، قتلهم فرعون لإيمانهم لما رأوا الآية المعجزة، وأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى أن يسرى ببنى إسرائيل، فقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً﴾[١] فأمرهم أن لا ينادى إنسان صاحبه، وأن يسرحوا من بيوتهم، ثم خرجوا، وألقى على القبط الموت، فأصبحوا يتدافنون فاشتغلوا بذلك حتى طلعت الشمس، فذلك قوله ـ عز وجل ـ ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾[٢].

وخرج موسى فى ستمائة ألف، وعشرين ألف مقاتل، لا يعد ابن العشرة لصغره، ولا ابن الستين لكبره.

وتبعهم فرعون، وعلى مقدمته هامان فى ألف ألف، وسبعمائة ألف حصان، ليس فيها ماذيانة، أى: حجر.

ولما وعد الله موسى، أتاه جبريل على فرس يقال إنه فرس الحياة، فأخذ السامرىّ من تربة حوافره.

والسامرى: موسى بن ظفر.

واتخذ لهم العجل، وقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِىَ﴾ يقول: أترك موسى إلهه هنا وذهب يطلبه؟ ثم انصرف موسى من عند ربه، ولم يستطع أحد بعد ذلك أن ينظر فى وجهه؛ لما يغشاه من النور، حتى كان موسى يلبس وجهه بحريرة[٣].

وأنزل الله عليه الألواح بطور سيناء من زمرد أخضر، فيها كتابة بالذهب الأحمر، فلما رأى ما أحدثه قومه من بعده، ارتعد، فسقطت الألواح من يده فتكسرت، فجمعها وأودعها فى تابوت السكينة، وكان قد ضرب التابوت من ذهب من ستمائة ألف مثقال وسبعمائة مثقال وجعله فى الهيكل، وكان هارون قيم الهيكل.

(١) سورة الدخان آية ٢٣.

(٢) سورة الشعراء آية ٦٠.

(٣) انظر: تاريخ الطبرى ١/ ٤٢٣.

ثم أظهروا من توبتهم، وبقتلهم لأنفسهم ما ذكر الله ـ عز وجل ـ، ثم أمر الله ـ عز وجل ـ موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى قومه سبعين رجلا، ثم كان من سؤالهم أن يروا الله جهرة، فأماتهم الله ثم أحياهم، فذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[1].

ثم أمرهم الله عز وجل بالمسير إلى أريحا، وهى أرض بيت المقدس، فساروا لما قربوا منها، وبعث موسى اثنا عشر نقيبا من أسباط بنى إسرائيل، فلقيهم رجل من الجبابرة[2]، فجعلهم فى حجزته، وعلى رأسه حزمة حطب، فانطلق بهم إلى امرأته وقال: انظرى إلى هؤلاء القوم الذين يريدون أن يقاتلونا، فطرحهم فى يدها، وقال: الآن أطحنهم برجلى، فقالت امرأته: لا بل خلِّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا، فذلك قول بنى إسرائيل: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[3]، فقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[4].

قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِم...﴾ الآية[5].

فخرج موسى إلى التيه وعددهم ستمائة ألف بالغ، وأتاهم بالآيات المشهورة.

والتقى موسى بعد ذلك عوج بن أعناق، فارتفع موسى فى الهواء عشرة أذرع، وكان طول عصاه مثلها، وطول موسى مثلها ثلاثون ذراعا، فأصاب كعب عوج بن عُنُق فقتله، حدَّث بذلك سعيد بن جبير، عن ابن عباس[6].

وقيل: إن عوجا عاش ثلاثة آلاف سنة.

* * *

(١) سورة البقرة آية ٥٦.

(٢) فى تاريخ الطبرى ١/ ٤٢٩ «اسم هذا الرجل: عاج».

(٣) سورة المائدة: آية ٢٤.

(٤) سورة المائدة: آية ٢٥.

(٥) سورة المائدة: آية ٢٦.

(٦) عن ابن إسحاق، ذكر الطبرى أن طول عوج ثمانمائة ذراع. تاريخ الطبرى ١/ ٤٣١.

القول فى وفاة موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام -

حدث ابن عباس، وابن مسعود رضى الله عنهما، أن الله عز وجل أوحى إلى موسى: إنى مُتَوَفّى هارون، فَأْت جبل كذا، فانطلق موسى وهارون إلى ذلك الجبل، فإذا فيه شجر وبيت مبنىٌّ، وإذا فيه سرير، وعليه فرش، فلما نظر إليه هارون أعجبه، وقال: يا موسى إنى أحبُّ أن أنام على هذا السرير، فقال: نم عليه. قال إنى أخاف رَبَّ البيت، قال موسى: أنا أكفيك، فلما نام هارون قبض الله روحه، ثم رفع البيت والسرير إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل ليس معه هارون، قالوا: إن موسى قتل هارون، وحسده [على] حُبِّ بنى إسرائيل له، وكان هارون أعطف عليهم.

قال: دُفن هارون فى جبل مُوَاب[1] نحو جبال السُّراة مما يلى الطور، وقبره مشهور فى مغارة عادية يُسمع فيها فى بعض الليل دوىٌّ عظيم يجزع منه كل ذى روح.

وقيل: إنه غير مدفون، بل هو موضوع فى الغار ظاهرا، ولهذا خبر عجيب، من وصل إلى هذا الموضع علم ما وصفناه.

وكان ذلك قبل وفاة موسى بسبعة أشهر وثلاثة أعوام.

وقاله أيضا، وتلك التى كان يزيد عليه هارون فى سنه، فماتا فى سن واحد، فكانت سنُّ كل واحد منهما مائة وعشرين سنة.

وقبضا ولم يحدث لهما شىء من الشيب، ولا حالا عن صفات الشباب.

وكانت فى جبهة هارون شامة، وعلى طرف أرنبة موسى شامة وعلى لسانه شامة، وهى العقدة التى ذكرها الله، العقدة حدثت من الجمرة التى وضعها فى فيه لما دنت آسية له جمرا وياقوتا حين نتف لحية فرعون، فأرادوا قتله، فأتى جبريل فوضع فى يده الجمرة.

---

(١) فى الأصل «موازى».

ثم إن موسى كان مع يوشع، إذ أقبلت ريح شديدة، فظن يوشع أنها الساعة، فالتزم موسى، واشتمله من تحت الثياب، فذهب موسى وتركها فى يديه.

فلما رجع يوشع إلى بنى إسرائيل بالثياب، وفقدوا موسى، اتهموه بقتله، وأرادوا قتله، فسألهم أن يؤخروه ثلاثة أيام، فأتى كل رجل ممن كان يحرسه فى منامه أن يوشع لم يقتل موسى، وأن الله عز وجل رفعه إليه.

وذكر ابن إسحاق أن موسى مرَّ برهطٍ من الملائكة يحفرون قبرا، فسألهم: لمن هذا؟

فقالوا: لعبد كريم على ربه.

فقال: إن لهذا العبد من ربه لمنزلا، قالوا: أتحب أن تكون هو؟

قال: وددت ذلك، قالوا: فانزل فاضطجع فيه، وتوجّه إلى ربك، ففعل، ثم تنفس، فقبض الله روحه، وسوّت عليه الملائكة.

قال: وكان فى زمن موسى بَلْعَم بن باعور، وهو من الرهط الذين آمنوا بإبراهيم يوم ألقى فى النار، وكان بقرية من قرى البلقاء، قد أوتى ملكا عظيما، وأُعْطى اسم الله الأعظم، الذى إذا دُعِىَ به أجاب.

فسأله قومه من العماليق أن يدعو على موسى وبنى إسرائيل، فأبى، [فلم] يزالوا به حتى فتنوه، فركب أتانه، وارتفع إلى الجبل يدعو عليهم، فصرف الله لسانه بالدعاء على قومه، ثم أمرهم أن يُرسلوا النساء الحسان إلى عسكر بنى إسرائيل بالسلع، وأن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فوقع رجل من بنى إسرائيل بامرأة، فوقع فيهم الطاعون، فيقال إنه هلك منهم سبعون ألفا.

ففى بلعم أنزل الله: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ الَّذى آتَيْنَاهُ آيَاتنَا﴾** الآية إلى قوله: **﴿يتَفكَّرُونَ﴾**[1]، وهو الذى نطقت أتانه بفضيحته وقالت: وَيْلى منكَ، تنكحُنى

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٧٥ و ١٧٦ ﴿وَاتْلُ عليهم نبأ الذى آتيناهُ آياتنا فانسلخ منها فأَتْبَعَهُ الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنَّه أَخْلَدَ إلى الأرض واتَّبع هواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إنْ تَحْمِل عليه يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذلك مَثَلُ القوم الذين كَذَّبوا بآياتنا فاقْصُص القَصَصَ لعلهم يتفكّرون﴾.

وراجع: تفسير ابن عباس (بهامش الدر المنثور) ٢/ ١٤٠ ـ ١٤١ وفتح القدير ٢/ ٢٦٦.

بالليل وتركبنى بالنهار.

قال (س): فأما السامرية، ذرية السامرى، فهم فى وقتنا هذا، وهى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، فى قرى متفرقة ببلاد فلسطين والأردن إلى نابلس، وأكثرهم فى هذه المدينة، وهم يقولون: لا مساس.

وهم صنفان متباينان كمباينتهم لسائر اليهود، ويقال لأحدهم: الكَوْشان، والآخر: الدَّوْشان[1]، يقول أحدهما بِقِدَمِ العالم، ويزعمون أن التوراة الصحيحة هى بأيديهم، وأن الذى بيد اليهود ليست التى أنزلت على موسى؛ لأنها حرقت وقت سَبْيَهِم[2].

وأن المحدث لهذه التى بأيديهم: رُوبَابيل.

* * *

ذكر يوشع

ثم بعث الله بعد موسى، يوشع بن نون بن أفراييم، نبيا، وأمره بمقابلة الجبارين، فسار ببنى إسرائيل بعد شهر من موت موسى إلى بلاد الشام، وقد غلب عليها العماليق، فسار إليهم ملك الشام، وهو: السُّمَيْدَع بن هَوْبَر، فقاتلهم يوشع يوم الجمعة قتالا شديدا حتى غربت الشمس، فدعا الله أن يرد عليه الشمس، فردها عليه، وزاد فى النهار يومئذ، فهزم الجبارين، واقتحموا عليهم يقتلونهم، فكانت العصابة من بنى إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها فلا يقطعونها.

وأمرهم يوشع أن يُقَرِّبُوا أغنامهم تلك إلى الله، فلم تزل النار تأكلها، وجاء رجل إلى يوشع فصافحه، فالتصقت يده بيده، فقال: هلم ما عندك، فأتاه برأس ثور من ذهب مُكلل بالدر والجوهر كان غَلَّهُ، فجعله فى القربان، وجعل الرجل معه، فأكلتهما النار.

(١) فى المسعودى ١/ ٥٦ «أحد الصنفين يقال له الكوسان والآخر الدّروسان».

(٢) راجع: مروج الذهب ١/ ٥٦-٥٧.

وكان عُمْرُ يوشع مائة وعشرين سنة، فأقام أمر بنى إسرائيل مذ توفى موسى سبعا وعشرين سنة.

وفى هذه الوقيعة يقول عوفُ بن سعد الجرهمى[(١)]: [من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ العَلْقَمِىَّ بن هَوبَرٍ ... بأَيْلَةَ أَمْسَى لَحْمُهُ قَد تَمَزَّعَا

تَدَاعَتْ عليه من يَهُود جَحَافِلٌ ... ثمانين[(٢)] ألفًا حاسِرين وَدُرَّعَا

وفى أُذَيْنَةَ بن السَّمَيْدَع هذا الجبار يقول الأعشى[(٣)]: [من المتقارب]

أزالَ أُذَيْنَةَ عن مُلْكِهِ ... فأخرجَ عن أهله ذا يَزَنْ

وأما نبىُّ إسرائيل بعد يوشع: كالب بن يوفنا

قال: ويوشع وكالب، الرجلان اللذان أنعم الله عليهما[(٤)].

وكالب، زوج مريم أخت هارون.

وأقام فيهم ثمانى سنين.

* * *

ذكر حزقيل

(ط): ثم بعث الله بعد ذلك حزقيل بن بوذا، وهو الذى يُقال له: ابن العجوز؛ لأن أمه سألت الله الولد، وقد كبرت، فوهبه الله لها، وهو الذى دعا القوم الذين ذكر الله فى كتابه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ**﴾[(٥)].

واختلف فى أمرهم كيف كان؟

---

(١) البيتان لعوف بن سعد الجرهمىّ فى مروج الذهب ١/٤٨.

(٢) فى الأصل (ثمانون).

(٣) البيت للأعشى فى ديوانه صـ١٥ ورواية عجزه (وأخرج عن حصنه ذايَزَنْ).

(٤) حكاية ذلك فى سورة المائدة آية ٢٣ ﴿قال رَجُلان من الذين يخافون أَنْعَمَ الله عليهما ادخلوا عليهم البابَ فإذا دَخَلْتُموه فإنكم غالبون وعلى الله فَتَوَكَّلوا إنْ كنتم مؤمنين﴾.

(٥) سورة البقرة آية ٢٤٣.

(ذكر إلياس)(١)

ثم بعث الله من بعده إلى بنى إسرائيل إلياس بن ياسين بن العيزار بن عدون ابن عمران.

قيل: هو من سبط يوشع بن نون إلى قوم من بنى إسرائيل يعبدون بعلا: صنما، وملكهم: أحب أحاب، وامرأته رُوبيل بنت ملك مصر، وكان يستخلفها على مُلْكه، وكانت قتّالة للأنبياء، وهى التى قتلت يحيى بن زكريا، وتزوجها سبعة من ملوك بنى إسرائيل.

واستخفى منها إلياس شفقة على نفسه عند امرأة لها ابن يقال له: اليسع بن أخطوب، وكان به ضرٌّ، فدعا له إلياس، فعُوفى، واتبع إلياس.

فلما رأى إلياس أن قومه لا يجيبوه، وأنهم مقيمون على أخبث ما كانوا عليه، دعا ربه أن يرفعه إليه، ويُؤخر عنه مذاقة الموت، فقيل له: اخرج إلى موضع كذا، فما جاءك من شىء، فاركبه، ولا تهبه، فخرج ومعه اليسع، وأقبل فرس من نور حتى وقف بين يديه، فوثب عليه، فناداه اليسع، فلم يجبه، فكساه الريش وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وجعله أرضيًا سماويًا، ملكيًا، بشريًا.

ويقال: إن الخضر وإلياس يلتقيان فى كل عام فى الموسم.

* * *

ذكر اليَسَعَ

ثم تنبأ فيهم اليسع، فكان فيهم ما شاء الله أن يكون، ثم قبضه الله، فكثرت فيهم الخطايا والفواحش، وسلط عليهم الجبابرة، فأخذت منهم السكينة، غلبوهم عليها فى بعض حروبهم، فمات ملكهم كمدا لذلك، ولم يزالوا مقهورين، حتى بعث الله فيهم إشماويل.

(١) زيادة ليست فى الأصل، يقتضيها السياق.

ذكر إشماويل

هو إشماويل بن هلقانه بن بَرْوخان بن ناحور.

واسم أمه: حَنَّة، من بنى إشمائيل، قالوا: وإشماويل: هو إسماعيل، وهو الذى قالوا له: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1].

ولم يكن بين يوشع وبينه نبى.

وذكر أن من رتب الأنبياء بعد يوشع، هم بعد إشماويل، وكانت مدة ما بين إشماويل واليسع، قال (س): كان بين خروج موسى ببنى إسرائيل من مصر إلى أن ملك عليهم طالوت: خمسمائة سنة واثنتان وسبعون سنة[2]، وملكهم بعد يوشع بن نون إلى أن بُعث فيهم إشماويل، أحد عشر ملكا من أسباط مختلفة وقيل إن ندعون منهم نبى.

وشمويل هو شمعون، فلما طال على بنى إسرائيل البلاء، رغبوا إلى الله أن يبعث إليهم نبيا.

وكان سبط النبوة قد هلك، فلم يبق منهم إلا امرأة حبلى، فأخذوها وحبسوها، خوفا أن تلد جارية، فتبدلها بغلام، فولدت غلاما وسمته شمعون، فتنبأ وهو غلام صغير، فأعلمهم أن الله ـ عز وجل ـ قد بعثه نبيا، فكذبوه، وقالوا له: استعجلت النبوة ولم يأن لك، وقالوا له: إن كنت صادقا فابعث لنا ملكا، فدعا الله، فأتى بعصا تكون على طول الذى يبعث فيهم ملكا، فقال لهم: إن صاحبكم يكون طوله طول هذه العصا، فقاسوا أنفسهم بها، فلم يكونوا مثلها.

❊ ❊ ❊

(١) سورة البقرة آية ٢٤٦.

(٢) مروج الذهب ١/ ٥١.

ذكر طالوت [١]

وكان طالوت رجلا سقاء يسقى على حمار له، فضلّ حماره، وانطلق يطلبه، فلما انصرف، دعوه فقاسوه بها، فكان مثلها، وقيل: كان دباغا، يعمل الأدم.

فقال قومه: ما كنت قط أكذب منك الآن، نحن من سبط المملكة ويُملَّكُ علينا هذا.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

قال: إن كنت صادقا، فأتنا بآية.

قال: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾[٢] يريد: عصا موسى ورُضَاض الألواح.

فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، ينظرون إليه نهارا عند الفجر، حتى وضعته عند طالوت.

روى ذلك ابن وهب عن زيد.

وكان مدة مغيب التابوت ببابل عشر سنين، فأقرُّوا غير راضين.

* * *

(١) اسم طالوت بالسريانية: شاول بن قيس بن أيبال بن ضرار بن بحرت بن أفيح بن أيش ابن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

قال ابن إسحاق: كان النبى الذى بعث لطالوت من قبره حتى أخبره بنبوته أليسع بن أخطوب.

تاريخ الطبرى ١/ ٤٧٥ وراجع تفسيره ٥/ ٣٠٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٨.

ذكر جالوت

واشتد سلطان جالوت، وبلغه أمر طالوت، فسار جالوت من فلسطين بأجناس البربر، فنزل بساحة بنى إسرائيل، فسار إليهم بنو إسرائيل، وسلط عليهم العطش، فابتلاهم بنهر بين الأردن وفلسطين، فشربوا منه هيبة من جالوت، فعبر منهم معه أربعة آلاف، ورجع ستة وسبعون ألفا، فمن شرب منه عطش، ومن لم يشرب منه إلا غرفة بيده روى، فلما رأى الذين معه عدد جالوت ﴿قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِه...﴾ الآية[١].

فرجع عنه أكثر من عبر معه، وخلص إلى جالوت فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا بعدد أصحاب بدر.

وقتل طالوت كل من شرب من النهر عن آخرهم، فعبر داود فيمن عبر معه.

وكان أبوه[٢] له ثلاثة عشر ولدا، أصغرهم داود، قال: وكان يُدَّعَى على أبيه، وكان فيه قصر، وزرق، وقرعٌ فى ناحية من رأسه، وكان داود يأتى أباه فيقول: يا أبتى إنى لا أرمى ببندقتى هذه شيئا إلا صَرَعْتُه، فيقول: أبشر يا بنى، فإن هذا خير أعطاكه الله عز وجل، ثم أتاه يوما فقال له: يا أبتى إنى لأمشى بين الجبال وأُسَبِّحُ، فما من شىء إلا يسبح معى، فقال له مثل مقالته الأولى.

فأتى النبى إشماويل بقرن فيه دهن، وتنور من حديد، فبعث إلى طالوت، وقال: إن صاحبكم الذى يقتل جالوت، يوضع هذا القرن على رأسه، فَيَنْتُنُ[٣] دُهْنُهُ، ولا يَسيلُ على وجهه منه شىء، يكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل فى هذا التنور فيملأه.

فدعا طالوت ببنى إسرائيل، فخوَّفهم[٤]، فلم يوافقه منهم أحد، فلما فرغوا

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩.
(٢) أى سليمان النبى.
(٣) فى الأصل (فيثبت).
(٤) فى الأصل (فجرّبهم).

قال: هل بقى منكم أحد، قال أبو داود: نعم قد بقى ابنى داود، وهو يأتينا بطعام، فلما انصرف داود، كان قد مر فى الطريق بثلاثة أحجار، فكلمته وقالت: خذنا يا داود تقتل بنا جالوت، فأخرج الحجارة فأخذها وجعلها فى مخلاته.

وكان طالوت قال: من قتل جالوت زوَّجته ابنتى، وأجريت خاتمه فى ملكى.

فلما أتى داود وجرّبوه بالقرن، فكان كما قال النبى، وبالتنور فملأه، وكان منحوفا مضمارا، ولم يدخله أحد إلا تغلغل فيه.

وكان جالوت من أجسم الناس، فمشى داود إلى جالوت، فأخرج الحجارة وجعلها فى القذافة، فكلما أخرج حجرا منها قال: باسم أبى إبراهيم، والثانى، باسم أبى إسحاق، والثالث: باسم أبى يعقوب، ثم أدار القذافة فصارت الأحجار حجرا واحدا، ثم أرسله فصدًّ به عينى جالوت، فنقبت رأسه وقتلته، ولم يزل كل إنسان تصيبه بحياله، فهزمهم عند ذلك.

وزوَّج طالوت ابنته من داود، وأجرى خاتمه فى ملكه، فمال الناس إلى داود وقال: سلَّم له طالوت الجباية، وثلث الحكم، ثم حسده بعد ذلك طالوت وأراد اغتياله، وسجى له داود خمرا فى مضجعه، ودخل طالوت فضربه، فطارت نقطة من الخمر إلى فيه، فقال طالوت، يرحم الله داود، ما كان أكثر شربه للخمر. ثم أتى داود طالوت، فوضع سهمين عند رأسه وهو نائم وآخرين عند رجليه، فلما استيقظ طالوت كان عرفهما، وأيقن أن داود خير منه حين كف عنه وقد ظفر به، ثم إن طالوت كان لا ينهاه أحد عن داود إلا قتله.

ثم أدركه الندم من ذلك، وأقبل على طلب التوبة، فسأل امرأة كان عندها الاسم المكنون، فقالت: لا أعلم لك توبة إلا أن تتخلى عن ملكك، وتخرج أنت وولدك فتقاتلوا فى سبيل الله حتى تقتلوا، ففعل طالوت ذلك حتى قُتل.

قال القوطى: وأتى داود غلام حسن حين هزم الجيش من المسلمين الذين كانوا مع طالوت، فقتل طالوت، وأتى بسواريه وقال: وجدته جريحا، فأجهزت عليه، لما علمت أنه عدوك وأتيتك بسواريه، لأحظى عندك بذلك.

فأمر داود بقتله، وقال: قتلت مقدِّس الرب، وأمير بنى إسرائيل، وكان الغلام عربيا من العماليق.

[قيل] إن طالوت لما رأى ظهور داود وميل الناس إليه وصرفهم عنه، مات على سرير ملكه ليلة كمدا.

وانقادت بنو إسرائيل لداود، وبعثه الله نبيا.

واسم طالوت بالسريانية: شاوِل بن قيس، من ذرية يعقوب.

الموضع الذى قتل فيه جالوت: بيَسان، من أرض الغَوْر، من بلاد الأردن.

* * *

داود ـ عليه السلام ـ

هو داود بن إيشا[١]، من ذرية يهوذا بن يعقوب.

أعطاه الله عز وجل ما نصّه الله فى كتابه من الآيات، ولم يزل قائما بأمر بنى إسرائيل أحسن قيام إلى أن كان من أمره بامرأة أوريا ما كان، وهى التى ولدت سليمان بن داود.

فلما واقع الخطيئة، اشتغل بالتوبة، واستخف به بنو اسرائيل، ووثب عليه ابن له يقال له أَبْشالوم، وهو ابن بنت طالوت، وهو بكره، وأراد نزعه من الملك، ودعا إلى نفسه، فاجتمع إليه أهل الزيغ، فلما تاب الله على داود، ثابت[٢] إليه الناس، وحارب ابنه حتى هزمه، ووجه فى طلبه قائدا من قواده، وتقدم إليه أن يتلطف فى أمره ولا يقتله.

فلم يزل يتبعه القائد حتى اضطره إلى شجرة، فتعلقت أغصانها بشعره، ولحقه القائد فقتله مخالفا لأمر داود، فاشتد حزن داود عليه.

وأصاب بنو إسرائيل فى زمانه طاعون، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس يدعون الله، ويسألونه كشف البلاء عنهم، فاستجيب لهم، فاتخذوا ذلك الموضع مسجدا، وذكر أن ذلك لإحدى عشرة سنة خلت من ملكه.

وقد تقدم فى بيت المقدس غير هذا.

(١) فى الأصل (أنيشا) وراجع: تاريخ الطبرى ١/ ٤٧٦.
(٢) فى الأصل (ثاب).

قال: وتوفى قبل أن يتم بناءه، وأوصى إلى ولده سليمان باستتمامه، فبناه فى ثمانى سنين.

وصح عن القوطى قال: ابتدأ سليمان بناءه فى السنة الرابعة من ولايته، وأتمه فى السنة الحادية عشرة.

ويذكر أن سليمان لما فرغ من بنائه، أطعم فتية بنى إسرائيل فيه اثنى عشر ألف ثور.

والذى بنى منه داود، هو المعروف بمحراب داود، وليس فى بيت المقدس بناء أعلى منه فى هذا الوقت، يرى من أعلاه البحيرة الميتة، وبحر الأردن، والبحيرة المنتنة بأرض العراق، وهى لا تقبل الغُرَقاء، ولا يتكون فيها ذو روح من سمك ولا غيره، وإليها ينتهى ماء بحيرة طبرية، وهو الأردن، فإذا انتهى إلى البحيرة الميتة خرقها وانتهى إلى وسطها متميزا من مائها، فيغوص فى وسطها، وهو نهر عظيم، لا يُدرى أين غوصه، من غير أن يزيد فى البحيرة المنتنة شيئا.

ومن البحيرة الميتة تخرج الأحجار التى تستعمل لوجع الحصاة، وهى نوعان: ذكر، وأنثى، فالذكر للرجل، والأنثى للمرأة. ومنها يخرج العقّار[1] المعروف بالحُمر.

وكان عمر داود فيما وردت به الأخبار عن النبى ﷺ مائة سنة.

وقال أهل الكتاب: تسعة وتسعون سنة.

ومدة ملكه: أربعون سنة، كان ملكه على فلسطين والأردن، وكان عسكره ستين ألفا، أصحاب دَرَقٍ وسيوف.

والنصارى يزعمون أن قبره فى الكنيسة الجسمانية ببيت المقدس.

وكان داود إذا قرأ الزبور، يرق له الوحوش حتى تؤخذ بأعناقها، وإنها لَمُصِيخَةٌ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط، والعنوج، إلا على أصناف صوت داود عليه السلام[2].

---

(١) فى الأصل (العقاب).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى ١/ ٤٧٨.

سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ

أمه امرأة أوريا.

أتاه الله عزَّ وجلَّ النُّبُوَّة، وسأل ربه أن يؤتيه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فسخر الله له الجن والإنس والطير والريح غدوها شهر ورواحها شهر[١].

ذُكر أن منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه: نحن نزلناه وما بنيناه، ومبنيا وجدناه، غدَوْنا من اصطخر فقلناه، ونحن رائحون الشام إن شاء الله».

وخبره مع بلقيس مشهور، ويذكر أنه تزوجها، ويقال إنه إنما أنكحها من تُبَّع ملك همدان، فردَّها إلى اليمن، ولم يزل زوجها ملكا باليمن، حتى مات سليمان ﷺ.

ولما غلب سليمان والدَ جرادة المَلِك، وقتله، واصطفى جرادة وكانت من أجمل الناس، فأحبها سليمان حبا شديدا، وكانت لا تزال تبكى أباها، فوجد لذلك سليمان وجْدًا شديدا، حتى سألته أن يأمر الجن فيصوروا لها صورة أبيها، فلعلها تسكن، فأمر سليمان الجن بذلك، فعمدت إلى الصورة فلبستها وعممتها، وجعلت تسجد لها هى ووَلَائِدُها غدوة وعشية، وبلغ ذلك آصَفُ، وكان صدّيقا، فأعلم سليمان، فكسر الصنم وعاقب المرأة، فسلبه الله خاتمه عقوبة، وقد ذكر الحديث بطوله فى أخبار جزائر البحر الأخضر.

وروى أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان إذا رأى شجرة نابتة بأرض المقدس، أو فى أرضه، يقول لها: ما اسمك؟ ولأى شىء أنت؟، فإن كانت لدواء كُتبت وعُلِّمت،

فبينما هو يمشى إذ رأى شجرة قائمة، فقال: ما اسمك؟ قالت: الخرُّوب،

(١) قال تعالى فى سورة سبأ، آية ١٢ ﴿ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورواحها شَهْرٌ وأَسَلْنا له عَيْنَ القطْرِ ومن الجنِّ من يعملُ بين يديه بإذن ربِّه، ومن يَزِغ منهم عن أمْرنا نُذِقْهُ منَ عذَابِ السَّعير﴾.

قال: ولأى شىء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان: اللهم غُمّ[١] على الجن موتتى، حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب.

فنحتَ الخرّوب، وأخذ منها عصاه، وتوكأ عليها ميتا حولا كاملا، فأكلت الأرضة العصا، حتى خرَّ سليمان، فلما خرَّ سليمان شكرت الجن للأرضة، فهى تأتيها بالماء والطين، وتنقل إليها الطين حيث كانت. وقال: ألم تر الطين الذى يكون فى جوف الخشب، هو مما يأتيها به.

وكان جميع عمر سليمان نيفا وخمسين سنة، اثنتين وخمسين سنة، وبعد أربع من مملكته ابتدأ بناء بيت المقدس.

قال: وكانت مملكته أربعين سنة، صح لهم.

قال القوطى: ولى وهو ابن سبع عشرة سنة، وبقى أربعين سنة، فعمره على هذا سبع وخمسون سنة.

قال القوطى: أول حُكْمٍ حكمَ به فى الصبا فى أمر الصبى، الذى ادعتاه امرأتان، فدعا بالسيف، وأمر بشق الصبى وقسمته عليهما، فرضيت بذلك التى لم يكن لها، وقالت أمه: بل نعطيه الأخرى حيا، فحكم به لها، وعجب بنو إسرائيل من حكمه وفهمه.

ثم حكم بعد سليمان ابنه رجيعا[٢]، فتفرقت عليه بنو إسرائيل، سبعة عشر عاما، وتوارث ذلك عقبه، ولم يزالوا برهة (يجتمعون على ملك منهم ثم يفترقون إلى رأس مائتى سنة من موت سليمان إلى أن بعث الله عز وجل)[٣] فيهم شعيا نبيًا.

* * *

(١) فى الأصل (عَمٍّ).

(٢) فى تاريخ الطبرى (رُحُبْعُم بن سليمان).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل.

ذكر شعيا ـ عليه السلام ـ

هو شعيا بن آمُوص[١]، وهو الذى بشر بعيسى ابن مريم ومحمد ﷺ.

وكان فى زمان حَزْقيا ملك لبنى إسرائيل، من ذرية سليمان، هذا الصحيح، وقد قيل فى زمن جَدِّه، وقيل: يُوَطان.

وكان حزقيا الملك مستقيم السيرة، صحيح الإيمان، نابذا للأوثان التى كان اتخذها بنو إسرائيل من قبله، وقطعها من جميع أرض يهودا.

فلما حان انقضاء ملكه، بعث الله عليهم سَنْحَاريب ملك بابل، ومعه ستمائة ألف راية ـ سنحاريب ملك الموصل ـ حتى نزل أرض أَيْلياء، والملك مريض.

وأوحى الله عز وجل إلى شَعْيا أنْ سِر إلى الملك، وأعلمه أنه ميت، وأمره أن يستخلف من شاء على ملكه.

فلما قال له ذلك شعيا، بكى وجزع، وتضرع، فأوحى الله عز وجل إلى شعيا، أن قد أخرت أجله خمس عشرة سنة، وإنى منجيه من عدوه، فشكر الملك، وسجد لله عز وجل.

قال القوطى: وبعث الله الطاعون على عسكر سنحاريب، فهلك منهم فى ليلة واحدة، مائة ألف وخمس وثمانون ألفا، لم يسلم منهم إلا سنحاريب وخمسة من كتابه وقواده، أحدهم: بُخت نصر بعد أن فروا فأدركوا فى مفازة، وأوتى بهم ملك بنى إسرائيل، فخر ساجدا من حين طلعت الشمس، حتى كان وقت العصر وأمر بأن توضع الجوامع فى رقابهم، ويطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس، ثم أرسله ومن معه لينذروا من وراءهم.

وكان ملكه إلى [أن] توفى سبعة وعشرين سنة.

وبقى الملك فى ولده إلى ملك لهراسيف ملك الفرس.

---

(١) فى الأصل (راموص).

(٢) فى تاريخ الطبرى: لهراسب.

تنافس بنو إسرائيل الملك، فأمر الله شعيا أن يقوم فيهم بِوَحْيِه، فلما فعل قتلوه، فسلط الله عليهم عدوهم، فوجه لهراسيف بخت نصَّر، فبنى مدينة بلخ، وسماها الحُسْنَى، فقاتل الترك، واشتدت شوكة بخت نصَّر، حتى أتى دمشق فصالح ملك بنى إسرائيل، وهو رجل من ولد سليمان، وأخذ منه رهائن، وانصرف، فوثب بنو إسرائيل على ملكهم فقتلوه، وقالوا: راهنت أهل بابل وخذلتنا، فكر بخت نصَّر راجعا إليهم فأخذ المدينة عُنوة، وقتل وسبى، وحرق البيت، وهدم أسوار المدينة.

وكان آخر ملوك بنى إسرائيل شدخش، وقيل، خَرْخش، من ذرية سليمان بن داود، فانقطع سلطان بنى إسرائيل، ووجد فى سجن بنى إسرائيل: إرميا النبىّ.

***

ذكر إرميا النبى ـ عليه السلام ـ

وكان الله قد بعثه إليهم يحذرهم مما حلَّ بهم من بخت نصَّر، إذا لم يتوبوا فضربوه وسجنوه، فسأله بخت نصر عن شأنه، فأخبره، فأحسن إليه، وخلّى سبيله، وانصرف بخت نصَّر بعد أن غزا مصر لما منع منه ملكها، فأتى بنى إسرائيل، وقتل ملكها، فهو فرعون الأعوج[1]، وسبى أهله، ورجع ومعه شىء كثير، فيهم: عُزَير ودانيال وغيرهم.

وفى ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل، فنزل بعضهم بأرض الحجاز يثرب ووادى القرى وغيرها، وانتهى عدد سَبْيِه من بنى إسرائيل ثمانية عشر ألفًا.

قال: وعمد بخت نصَّر إلى التوراة، وإلى ما كان فى هيكل بيت المقدس من كتب الأنبياء وطرحه فى بئر، وعمد إلى تابوت[2] السكينة، فأودعه فى بعض المواضع من الأرض.

***

(١) فى تاريخ اليعقوبى ١/ ٦٥ «فرعون الأعرج».

(٢) فى تاريخ اليعقوبى ١/ ٦٥ «أن الذى أخذ تابوت السكينة هو أرميا النبى».

ذكر دانيال - عليه السلام -

(ق): فأما دانيال، فهو الذى عبَّر رؤيا بخت نصَّر، فنزل منه بأحسن المنازل، وكان قبره بناحية السوس.

ووجده أبو موسى الأشعرى، فأخرجه وكفَّنه، وصلَّى عليه، ثم قبَّره.

وقال فى أخبار الفرس: إن دانيال كان بين نوح وإبراهيم.

وثبت هذه المقالة، وقال: وهو الذى استخرج العلم، وما يحدث فى الأزمان إلى أن تنقضى الأرض ومن عليها، وعلوم ملوك العالم، وما يحدث فى السنين والشهور من الحوادث، ودلائل ذلك فى الآفاق.

وفى مدينة (بابل) الخَرِبَة التى كانت مملكة الفرس جُبٌّ يعرف بجبِّ دانيال، الذى تقصده النصارى يوم عيدهم، واليهود فى أعيادهم.

قال أبو عبَّاد فى كتاب الأقوال: لما فتحوا السُّوس[1]، وأميرهم أبو موسى الأشعرى، وجدوا دانيال فى بَدَن[2]، وإلى جنبه مال موضوع، من شاء اقترض منه إلى أجل، فإن أتى به إلى ذلك الأجل، وإلا برِص.

والتزمه أبو موسى وقبَّلَهُ، وقال: دانيال وربِّ الكعبة، وكتب فى شأنه إلى عمر، فكتب عمر إليه: كفِّنْهُ، وحنِّطْهُ، وصلِّ عليه وادفنهُ كما دُفِنت الأنبياء[3]، واجعل ماله فى بيت المسلمين.

قال: فكفَّنه فى قباطٍ بيضٍ، وصلَّى عليه ودفنه.

قال: حدثنا بذلك حسان بن عبيد الله، عن السدّى بن يحيى عن قتادة.

* * *

---

(1) السُّوس: بضم أوله وسكون ثانية وسين مهملة أخرى، بلفظ السُّوس الذى يقع فى الصوف، بلدة بخوزستان، فيها قبر دانيال النبى عليه السلام. معجم البلدان (سوس).

(2) فى الأصل (جرن).

(3) أى مكان، فإن الأنبياء يدفنون حيث يموتون.

ذكر عزير

فأما عزير، فأقام لبنى إسرائيل التوراة، بعدما أُحرقت، حين عاد إلى الشام، فقال طائفة منهم: هو ابن الله.

وهو الذى أكثر المناجاة فى القدر، فمحى الله اسمه من الأنبياء، فلا يذكر فيهم، وهو رسول.

وبقى إرميا بأرض مصر حتى أوحى الله إليه، أن اخرج فالحق بإيليا فلتكن بلادك، حتى يبلغ الكتاب أجله.

فخرج إرميا مذعورًا، فركب حماره وانطلق حتى رُفِعَ له شخصُ بيت المقدس، فرأى خرابًا لا يوصف ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾[١] الآية، فبعث الله ملكًا من ملوك الفرس يقال له كَوْش[٢]، فعمر بيت المقدس، وملك لهراسيف مائة وعشرين سنة، وملك بعده يستاسف[٣] ابنه، فبلغه خراب بلاد الشام، وإنه ليس بها أحد من الإنس، فأذن لبنى إسرائيل أن يرجعوا إلى الشام، ونودى فى الناس بذلك، وملَّك رجلاً من آل داود عليهم، فعمروها، وذلك بعد سبعين سنة.

وإنما فعل ذلك الملك الفارسى، لأنه كان إستخلص جارية من بنى إسرائيل، فسألته ذلك، قال: والذى ملَّك عليهم: روبابيل، فأقام فيهم ستة وأربعين سنة.

وقيل إن رجوعهم كان فى أيام كورش الفارسى الملك، وكان دانيال حل هذا الملك، ثم أحيا الله سبحانه وتعالى إرميا عليه السلام.

---

(١) سورة البقرة آية٢٥٩ ﴿أَوْ كالذى مَرَّ على قريةٍ وهى خاويةٌ على عُرُوشها قال أَنَّى يُحْيِى هذه الله بعد موْتِهَا فأماتَهُ الله مائة عامٍ ثم بَعَثَهُ قال كم لَبِثْتَ قال لَبِثْتُ يومًا أو بعض يومٍ قال بل لَبِثْتَ مائة عامٍ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يَتَسَنَّه وانظر إلى حمارِك ولنجعلَكَ آيةً للناس وانظر إلى العظام كيف نُنشِزُهَا ثم نكسوها لحمًا فلمَّا تَبيَّن له قال أَعْلَمُ أَنَّ الله على كل شىءٍ قديرٌ﴾.

(٢) فى الأصل (كوشك).

(٣) فى تاريخ الطبرى ١/ ٥٤٠ «يشتاسب».

ذكر زرادشت الذى تدعى بنبوته المجوس

وفى زمان يستاسف[١] صاحب بابل، ظهر زرادشت بن اسبيتمان[٢] الذى تدعى المجوس أنه نبيهم، وكان من علماء أهل فلسطين، خادمًا لإرميا، فخانه، فدعا الله عليه، فبرص، ولحق ببلاد آذربيجان، وشرع فيها دين المجوسية، وقصد الناس على الدخول فيه، وقَتَل فى ذلك وعذَّب، حتى دانوا له.

وأتى زرادشت بالمعجزة الباهرة، وأخبر عن الكائنات من الكليات والجزئيات، وأتى بكتاب يدور على ستين حرفًا من المعجم، وهى لغة معجز عن إيرادها، ولا يدرك كنه مرادها.

وكتب هذا الكتاب فى اثنى عشر ألف مجلد بالذهب، فيه وعد ووعيد، وأمر ونهى، وغير ذلك من العبادات، واسم هذا الكتاب بَسْتاه[٣]، وأول سورة منه سورة حَنَرِفْت، فيها ذكر مبتدأ الخليقة، وأصول الطبائع وامتزاجها، وعمل له زرادشت تفسيرًا سماه بازَنْ، وهو كتاب يعجزُ عن حفظه، وأكثر ما يحفظونه أسباعًا، إذا انتهى الحافظ للسبع، ابتدأ الحافظ للسبع الثانى وكانت نبوة زرادشت فيهم خمسة وثلاثين سنة، وهلك وهو ابن سبع وسبعين سنة.

* ومما تحمل الفرس عنه: أن القديم تعالى طالت وحدته، فطالت فكرته، فلما طالت فكرته اشتدت وحشته، فلما اشتدت وحشته تولد الهَرْمَنْدُ، فصار مُضادًا للنور الأكبر.

والهرمند: هو الشيطان، وأن الله ـ عز وجل ـ لو كان قادرًا على إفناء الهرمند، لما ضرب له أجلاً ولا أخره أمرًا، يغوى عباده، ويفسد بلاده وهذا هو المحال عينه، والناقص نفسه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا.

---

(١) فى تاريخ الطبرى ١/ ٥٤٠ «لهراسب».
(٢) فى الأصل (أستيمان).
(٣) فى الأصل السناه.

ولم تزل الفرس تتدارس نواميس هذا الكتاب جيلاً فجيلاً، حتى ظهر فيهم خَاهَشْت الغلام، فشرح لهم تأويلاً، وأحدث لهم قرابين فى مذاهبهم اعتمدوا عليها، واتخذوا بيوت النيران، وقربوا لها القرابين، ورتبوا لها السدنة، ووضعوا لها أيضًا الهَرَابِذَةُ، واحدهم: هَرْبَذ، وتأويله: فقيه الدين، ووضعوا مَرْزُبَانًا، وتأويله: قاضى القضاة، وهو بالفارسية: الدِّين، وهو حافظ الدين.

وكانت لهم صلوات، وزمزمة وقرابين يقربونها فى بيوت النيران.

وجملة اعتقادهم محصور فى الكتاب الذى جاءهم به زرادشت.

وكان ملك يستاسف مائة سنة واثنتى عشر سنة.

وبخت نصَّر رجل من العجم، عاش دهرًا طويلاً جاوز ثلاثمائة سنة. وخدم عدة من ملوكهم، آخرهم بَهْمَن، وهو ابن يستاسف[١].

وبهمن أبو دارَاى، دارا الذى قُتِل فى عهد الإسكندر الأكبر، ودارا الأكبر، هو الذى عقد له أبوه بهمن التاج، وهو فى بطن أُمِّه حنانا ابْنَتَهُ، فلما رأى ذلك ساسان بن بهمن، وكان يتصنَّع للملك لا يشك فيه - وهو رجل كامل - لحق بإصطخر، وتزهد، وخرج من خَلِيَّتِه، وتعبَّد، واتخذ غنمًا، فكان يتولى ماشيته بنفسه، واستساغت العامة ذلك عنه، ونطقت به، فمن ساسان: الساسانية وهم الفرس الثانية، أوَّلَهم أَرْدَشِير بن بابل بن ساسان أبو أربعة إلى ساسان بن بهمن.

* * *

عيسى وزكريا - عليهما الصلاة والسلام -

كان زكريا بن آزن، وعمران بن ماتان بن أليقيم[٢] من ولد سليمان بن داود من سبط يهودا، وكانا فى زمان واحد.

فتزوج زكريا أشياع بنت عمران أخت مريم، واسم أمها: حنة وكان يحيى وعيسى ابنى خالة، وكان زكريا نجارًا، وأشاعت اليهود أنه ركب من مريم

---

(١) فى الأصل (يشتاسف).

(٢) فى الأصل (بغائيم) وانظر تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٤٣.

الفاحشة، ففر منهم، فلما أحس بهم، دعا الله ـ عز وجل ـ أن يفتح له جوف شجرة فدخل فيها، ودلهم إبليس عليه، وبقى هَدْب ردائه ظاهرًا، فنشروا الشجرة، ونشروه معها، ولذلك يتخذ أهل الكتاب الهُدْبَ فى أَرْدِيَتِها.

* * *

ذكر يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ

وأما يحيى فكان مولده قبل عيسى بستة أشهر، فنبَّأه الله واستظهر به عيسى، وبعثه الله فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس، فكان ما نهوا عنه بنو إسرائيل [نكاح] ابنة الأخ، وكان لملكهم ابنة أخ تُعْجِبُهُ، أراد أن يتزوجها، فبلغ نهيهم أمها، فحقدت على يحيى حين نهى أن يتزوج الملك ابنتها، وأمرت ابنتها أن تتلطف للملك وتسقيه، وتتعرض له، فإن أرادها على نفسها أبت حتى يعطيها ما سألته، فإن أعطاها، ذلك سألته أن يُؤْتَى برأس يحيى، ففعل الملك ما سألته، وهو أحب، وأمرأته أزبيل وقد تقدم ذكرها.

قال: فلما وضع رأس يحيى بين يديه، جعل يتكلم ويقول: لا تحل لك، واستمر غليان دمه، فأمر بتراب فألقى عليه، فما ازداد إلا انبعاثًا.

فبعث الله عليهم ملك من ناحية الشرق، يقال له: خردوش، فقتل منهم على دم يحيى بن زكريا سبعين ألفًا، إلى أن سكن دمه.

وذكر أن الذى فعل ذلك بخت نصَّر، وهذا لا يُسْتَفْهَم، لأنه كان من خراب بيت المقدس على يد بخت نصَّر إلى مولد عيسى ـ عليه السلام ـ خمسمائة سنة وسبعون سنة، تعد مَلِكًا مَلِكًا.

كما أنه لا يستفهم أن يكون أحب هو الذى قتل يحيى، وهو الذى بُعِثَ إليه إلياس بن ياسين، وبين يحيى وإلياس مثل هذه المدة.

قال: وولد فى أيام ملوك الطوائف[1] لِمُضِى ثلاثمائة سنة وثلاث وستين سنة من وقت غلبة الأسكندر على بابل، هذا هو الصحيح.

(١) فى الأصل: الطائف، وهو تحريف.

وقال وهب بن منبِّه: إن الإسكندر كان فى الفترة بعد عيسى، وهذا وَهْمٌ؛ لأن ملوك الطوائف إنما كانت بعد الإسكندر.

ويقال: إنه لما وُلِدَ عيسى، لم يبق على وجه الأرض صنم يُعْبَدُ إلا سقط على وجهه، ففزعت الشياطين، وجاء إبليس فأخبروه، فقال: إن لهذا شأنًا، وذهب يطوف الأرض، حتى مر بالمكان الذى ولد فيه عيسى - عليه السلام - بيت لحم يهودا، فرأى الملائكة محدقين به، فأراد أن يأتيه، فمنعته الملائكة، ورجع إلى أصحابه فأخبرهم.

وفرت بعيسى أمه إلى أرض مصر، خوفًا من هذا، وخوفًا من هرادش فذلك قول الله - عز وجل: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[١] ثم ردته إلى الشام بعد اثنتى عشرة سنة من عمره.

وجاءه الوحى بعد ثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين، وآتاه الله الآيات التى نص عليها، وأنزل الله عليه المائدة، سفرة حمراء مغطاة بمنديل بين غمامتين.

(س): ومر عيسى ببحيرة طبرية، وعليها ناس، فدعاهم إلى دين الله، فاتبعه ثلاثة من الصيادين، واثنى عشر من القَصَّارين، فهم الحواريُّون[٢].

وذُكِرَ أن أحد الحواريون دل اليهود على عيسى، حتى[٣] هموا به، ثم ندم على ما فعل، فاختنق، وقتل نفسه، وقد كان عيسى عليه السلام ذكر لهم ذلك.

وقال: ثم لقيه الحواريين بعدما رُفِعَ، وليزيلَ ما فى نفوسهم، فسألهم عنه، فقالوا: قتل نفسه، قال: لو تاب، تاب الله عليه.

وذكر ابن خرداذبة[٤]: أن الذى صُلب مكانه أَيْشُوع بن قَيْدَار، وأنه كان بين هبوط آدم إلى الأرض ورفع المسيح خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وثلاثون سنة.

قال القوطى: وكان بين انقضاء أمر المسيح وكُفر اليهود وتفرق جماعتهم وتمام اللعنة عليهم إلى يوم القيامة، وإخراجهم من ديارهم على يدى قيْصر طَيْطُوش؟

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥٠.

(٢) مروج الذهب ١/ ٦٠.

(٣) فى الأصل (حين).

(٤) فى الأصل (قرداذبة) وهو تحريف.

تسع وثلاثون سنة.

قال القوطي وغيره: وكان انقضاء أمر المسيح زلزلة عظيمة، عمّت الدنيا شرقا وغربا، انهدّت لها الجبال، وتصدّعت الصخر، وتهوّرت المدن، دليلها وشاهدها الكور التى وضع عنها الخراج لانهدامها، وذلك موجود فى الدواوين، وكُسفت الشمس ذلك اليوم من الساعة السادسة إلى آخر النهار، حتى صار ذلك النهار ليلا، وفى ذلك قال شاعر اليونانيين ترجمناه عربيا: [من الكامل]

فَزعَت له الدنيا وَظَنَّت أنَّه ليلٌ عليها ما يزالُ مُؤَبَّدا
لَمَّا رأى الناس الكسوف على خلاف سبيله ظنوه ليلاً سرمدًا

لأنها كسفت فى انتصاف الشهر، والشمس لا تعرف كسوفها إلا فى انقضاء الشهر، وعند اجتماع النَّيِّرين.

* * *

يونس بن متى

وقد كان من الأنبياء قبل عيسى، يونس بن متّى ـ عليهما الصلاة والسلام.

وكان من أهل قرية من قرى الموصل، يقال لها نينوى.

وكان قومه يعبدون الأصنام، فكان من أمر قومه ما نصه الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾(1).

* * *

(1) سورة يونس آية ٩٣.

[ذكر من كان بين موسى وعيسى عليهما السلام][1]

• **ومن كان بين موسى وعيسى - عليهما السلام**: (بنو حضور بن عدى): وكانوا أمة عظيمة ذات بطش.

وزعموا أنه من ولد يافث، وقيل من العرب الداثرة.

بعث الله عز وجل إليهم: شُعَيْب بن ذى مَهْرَم بن حضور نبيًا، فكذبوه وقتلوه، وهذا غير شعيب، صاحب مدين، بينهما مئون من السنين.

• **وقد كان بين موسى وعيسى ألف نبىٍّ**، فسلط الله على بنى حَضور جبارًا يقال له: بخت نصَّر، فسار إليهم بجنوده، وغشى ديارهم، وصاح بهم صائح من الهوى، وقد استعدُّوا لحربه، فعم الصوت أسماعهم [من الطويل]:

سيُغْلَب قَومٌ غالبوا الله جهرةً ... وإن كايدوه كان أقوى وأكْيَدَا

كذاك يُضِلُّ الله من كان قَلبُهُ ... مَرِيضًا، ومَنْ وَالَى النفاق وألحدَا

فعلموا أن الأمر نازل بهم، فانفضت جموعهم، وحصدهم السيف أجمعين يقول الله - عز وجل - فيهم: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[2].

• **ومن كان فى الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ: جُرْجُس**:

وهو من أهل فلسطين، وبُعِثَ إلى ملك الموصل يدعوه إلى الإسلام، فقتله بالعذاب مرات، وأحياه الله - عز وجل - آية لهم وعبرة، ونشره قطعًا ورماه إلى الأُسْد الضارية، فخضعت الأُسْدُ برءوسها، وضلَّ قومُه كذلك، فلما أدركه الليل جمعه أوصاله، ورد روحه، ثم أقبل عليهم اليوم الثانى يعظهم، ويغلظ عليهم، فلما استمروا فى عُتُوِّهم وكفرهم بعث الله عليهم نارًا فأحرقتهم عن آخرهم.

• **ومن كان فى الفترة**، الذين حكى الله - عز وجل عنهم فى قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ...﴾[3] الآية،

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة للضرورة.

(٢) سورة الأنبياء، آية ١٢.

(٣) سورة يس آية ١٣.

وأسماؤهم: صادق، وصدوق، والثالث: شلوم، الثالث بَطْرُس بالرومية، وبالسريانية: شمعون، وبالعربية: سَمْعَان، وقد سمى الاثنين أيضًا بالرومية، فقيل: بُطرُس، وبولس، وقيل: يَرْما ويُومن.

بعثهم الله إلى فرعون من الفراعنة، كان بمدينة أنطاكية، أصل هذا الاسم بالرومية: أنطجين، وهو لقب للملك الذى بناها، وتفسيره: مُحَوِّط الحيطان، فلما افتتحها المسلمون حرفت الأحرف إلا الألف والنون والطاء.

ويقال: إنهم من الحواريين، ولم يكونوا من الأنبياء، والذى جاء يسعى رجل اسمه: حبيب، كان يعمل الحرير[1]، فلما قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾[2]، وطئوه بأرجلهم، حتى خرج قضيبه على دبره، فأدخله الله الجنة حيًا يرزق فيها، فذلك قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[3].

قال: وصلب الكافر لعنه الله المرسلين منكوسين، فأهلكهم الله جميعًا، فذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[4].

فلما ظهر دين النصرانية، جعل الرُّسُل[5] فى أخزنة من البلور وهم فى كنيسة هنالك بمدينة رومية، ولها بناء عظيم.

*** وممن كان فى الفترة: أصحاب الأخدود:**

فإنهم كانوا بنجران من اليمن، وبلغ ذا نواس أن قومًا بنجران على دين المسيح، وكان هو يهوديًا، فنهض إليهم بنفسه، وحفر لهم الأخاديد، وأضمرها نارًا، ثم دعاهم إلى اليهودية، فمن أجاب نجا، ومن لم يجب قذفه فى النار، فأُوتى بإمرأة معها طفل من سبعة أشهر، فأبت أن ترجع عن دينها، فأدنيت من النار، فجزعت، فأنطق الله الطفل، قال: امضِ على دينك، فلا نار بعدها،

(١) فى الأصل (الحديد).

(٢) سورة يس آية ٢٠.

(٣) سورة يس آية ٢٦.

(٤) سورة يس آية ٢٩.

(٥) فى الأصل(النصرانية).

فألقيت فى النار، فسلط الله عليهم الحبشة وغلبوهم على أرض اليمن، إلى أن كان من أمر ذى يزن واستنجاده أنو شروان ما كان.

* * *

جملة من القول فى جزيرة العرب وذكر شىء من أخبارها

قال جعفر بن محمد: سألت المغيرة بن عبد الرحمن عن جزيرة العرب فقال: مكة والمدينة واليمامة واليمن.

قال يعقوب: والقَرْح أول تهامة.

قال أبو عبد الله: جزيرة العرب ما بين حفر أبى موسى إلى أقصى اليمن من الطول، وأما العرض، فمن بين يَبْرِين إلى منقطع السَّماوة وحفر أبى موسى، على خمس مراحل من البصرة.

قال الأصمعى: جزيرة العرب: عدن أَبْيَن، إلى ريف العراق فى الطول، وأما العرض، فمن جُدَّة وما والاها من ساحل البحر إلى أطرار الشام[١].

قال أبو يوسف يعقوب بن شيبة الخراسانى المُحَدِّث، قال شَرْقِيُّ بن القطامى وغيره: كانت أرض الجزيرة خاوية، ليس فى تهامتها ونجدها وحجازها وعروضها كثير أحد، لإجلاء بخت نصَّر إياها وإخلائها من أهلها، إلا من اعتصم برءوس الجبال وأشعابها.

وبلاد العرب على خمس أقسام: من جزيرة بطعة، وهى التى صارت فى قسم من أنطق الله عز وجل بها اللسان العربى حين تبلبلت الألسنة ببابل فى زمان نمروذ، فقسَّم فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح الأرض بين ولده.

وإنما سمتها العرب الجزيرة[٢]؛ لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها، وصاروا منها فى مثل الجزيرة، وذلك أن الفرات أقبل من ناحية بلاد الروم فظهر بناحية

---

(١) معجم ما استعجم ١/ ٩.

(٢) انظر: معجم ما استعجم ١/ ٩.

قنسرين ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق، حتى [وقع] فى البحر(١) من ناحية البصرة والأُبُلَّة، وامتد البحرُ من ذلك الموضع لمطيفها منقطعا عليها، فأتى على سفوان وكاظمة، ونفذ إلى القطيف، وبنجد وأسواق عمان والشحر، ومال منه عنق إلى حضرموت، وناحية أبين وعدن ودهلك، واستطال ذلك العنق، فطعن فى تهائم اليمن ببلاد بُرْسان وجاور، وحكم، والأشعريين، وعكّ، ومضى إلى جُدَّة، ساحل مكة، والجار ساحل المدينة، ثم إلى ساحل الطور، وتيماء، وخليج أَيْلَة، حتى بلغ قُلْزُم مصر، وخالط بلادها، وأقبل النيلُ فى غربى هذا العنق، من أعلى بلاد السودان، مستطيلا مُعارضا للبحر حتى وقع فى بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين، فمرَّ بعسقلان وسواحلها، وأتى على صور ساحل الأردن، وعلى بيروت وذواتها من ساحل دمشق، ثم نفذ إلى ساحل حمص وسواحل قنّسرين، والجزيرة إلى سواد العراق.

* قال أبو نصر سعيد بن غالب الجيهانى: حدُّ جزيرة العرب مما يلى الشمال فى الخط الذى يخرج من ساحل أَيْلَة، فيمرُّ مستقبل الشرق فى أرض مَدْيَن إلى تبوك، ودومة الجندل إلى البلقاء، وتيماء، ومأرب وهى كلها من الشام، ويمضى فى وادى شيبان وبكر وتغلب، ويصل بالكوفة والنجف والقادسية والحيرة، ونجران السواد، وهى على يسار الكوفة، وعن يمين هذا الخط مما يلى الجنوب أرض الهجر ووادى القرى، واسمها وَجّ فى القديم، وهى أرض لثمود، وما دونها إلى الأغوار والتهائم والنجود، إلى أن يصل ساحل حضرموت، كُلُّ ذلك من أرض العرب، ومما يلى الشمال من هذا الخط، فمن بلاد الأردن الشمالى.

وحدُّ جزيرة العرب مما يلى الشرق، وهو مهبُّ الصَّبَاء، بطائح البصرة، حتى ينتهى إلى الجزيرة، ثم فيض البصرة، وهو نهرها الذى البصرة عليه، وكان زياد بن سُمَيَّة حفره إلى الأبلّة، ثم استوى إلى سفوان وكاظمة وقطيف، وأسياف، والبحرين، وعمان.

ثم يستمر منحدرا من الشمال على ساحل البحر، حتى يأتى غبّ عدن والغَبُّ ينزوى فيه الماء شبه الخليج، فينعطف عنق من البحر، ويأخذ مع الصَّبَاء منعطفا

(١) فى الأصل: البحرين.

على جزيرة العرب.

* ويستمر نحو الهند على الشمال، والبحر مع دجلة البصرة فى هذا الموضع غربيه يسمى أرض العرب، وشرقيه يسمى فارس، وما وراء ذلك من شرقى البحر عند منقطع أرض فارس، فهو من بلاد الهند، ويتسع البحر ويصير جزائر.

* وحدُّ جزيرة العرب مما يلى الجنوب، ساحل هذا العنق من الصباء، وهذا العنق على يمين الذاهب منه جزيرة العرب إلى ضفة البحر، وعلى يساره بلاد الزنج.

* وفى ساحل هذا العنق يصاب العنبر، ويمضى ذلك العنق حتى يمر بساحل حضرموت وأبين، وينتهى إلى عدن، وعدن منتهى هذا العنق، ثم ينعطف هذا العنق من عدن إلى الجنوب،فيمر منعطفًا على جزيرة العرب مستقبل الشمال، فعن يمين الذاهب منه جزيرة العرب، وعن يساره بلاد السودان، والحبشة، وغيرهم.

ثم يمر هذا العنق ببلاد العرب على سواحلها، دهلك، وبلاد برسان وحكم، والأشعريين، وعك وغيرها، حتى يتصل إلى جدة، وهو ساحل مكة.

ثم يصير إلى الجار، وهو ساحل المدينة، ثم يمضى إلى الحوراء، وهو ساحل وادى القرى، ثم إلى خليج الأُبُلَّة، ثم إلى ساحل الطور، وساحل راية، حتى ينتهى إلى القلزم، ويقارب بلاد مصر، ثم ينقطع ذلك العنق ويقف.

قال ابن شيبة والجيهانى معًا: فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة على خمسة أقسام: تهامة، والغور، والحجاز، والعروض، واليمن.

وذلك أن جبل السراة، وهو أعظم جبال العرب، أقبل من أرض اليمن حتى بلغ أطراف بوادى الشام، فسمته العرب حجازًا؛ لأنه حجز بين الغور وهو هابط، وبين نجد وهو ظاهر ـ فصار ما خلف ذلك الجبل فى غربيه إلى أسياف البحر، من بلاد الأشعريين، وعك، وكنانة ـ لم يذكر الجيهانى كنانة ـ وغيرها، إلى ذات عرق والجحفة، وما طابقها، وعارض أرضها.

قال الجيهانى: وما صار فيها، وغار من أرضها الغور، غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله، وصار ما دون ذلك فى شرقيه بين الصحارى، النجد إلى أرض العراق، والسماوة وما بينهما، ونجد يجمع ذلك كله.

وصار الجبل نفسه سراته، وهو الحجاز، وما انحجز فى شرقيه من الجبال، وانحاز ناحيته، فمر والجبلين إلى المدينة، ومن بلاد مذحج، تثليث وما دونها إلى ناحية فيد، حجازًا، والعرب تسميه نجدًا وجلسًا وحجازًا والحجاز: يجمع ذلك كله.

حدُّ الحجاز السُّويداء، والمدينة أربعة وأربعون ميلاً.

قالا: وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما العروض، وما فيها نجدًا، وغورًا؛ لقربها من البحر والانخفاض، ومواضع فيها مسائل وأودية، والعروض تجمع ذلك كله، وصار ما خلف تثليث، وما قاربها إلى صنعاء، وما والاها من البلاد إلى حضرموت، والشحر، وعمان اليمن، وفيها التهائم والنجود، واليمن تجمع ذلك كله. انتهى قولهما.

وقال الجيهانى، دون يعقوب: فإذا انتهى[1] إلى ناحية نخلة، كان منها خيطى ويسوم، وهما جبلان بنخلة، وكان يطلع منها إلى جبل العرفج، وجبل العرس، والأشعر، والأسود: جبلان، من جبال جهينة، ولها أودية وشعاب كثيرة.

وذكر عن عمر بن الخطاب أنه قال لعتبة بن غزوان، حين بعثه إلى البصرة، إذا قطعت أقصى أرض العرب، وبلغت إلى أرض العجم، فانزل فكان مناخه بباء البيضاء.

وطول جزيرة العرب، من آخر حدود الشام وأول حدود الحجاز إلى عدن، اثنتان وخمسون مرحلة بسير الإبل، وذلك ألف وخمسمائة ميل، وعرضها من بحر جدة إلى بحر الأبلة، على الاستقامة ثلاثون مرحلة بسير الإبل، وذلك ثلاثمائة ميل.

وفى مواضع منها يختلف هذا الطول والعرض، على حسب دخول البحر فى أرضها، وخروجها عنه، ونزحه منها.

واسم هذه الجزيرة فى كتب الأوائل مقدس، وذلك بإبيان منها وهبوب الرياح إليها، ويسميها اليونانيون. . . وتسميها العرب: السعيدة.

(١) يعنى جبل السراة الذى مبدؤه بلاد اليمن، ويمتد حتى يبلغ الشام.

ذكر شيء من أخبار العرب العاربة، والأمم الداثرة ومذاهبهم، وديانتهم، وسيرهم واعتقادهم

أما طسم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وجديس بن عابر بن إرم بن سام، فإنهم ساروا ونزلوا البحرين واليمامة.

واسم اليمامة: جوف(١)؛ وإنما سُميت اليمامة بامرأة(٢).

فمكثوا كذلك برهة، وبلادهم أفضل البلاد، وأكثرها خيرًا، حدائق ملتفة، وقصورًا مصطفة، إلى أن غمطوا النعمة، وانتهكوا الحرمة، فملكهم رجل من طسم يقال له: عملوق، فظلم وغشَمَ، لا ينهاه شيء عن هواه، فاختصمت إليه امرأة من جَدِيس يُقال لها هُزَيلة بنت مازن، مع زوج قد فارقها فى ابن لهما، أراد أخْذَه منها، فتشاجرا فى ذلك، فأمر الملك أن يؤخذ الولد منهما فيُجعل فى غلمانه، فقالت هُزيلة فى ذلك: [من الطويل]

أَتَيْنَا أَخَـا طَسْمٍ لِيَحْكُـم بَيْنَنَا ... فَأبرمَ أمْـرًا فى هُزَيْلَـة ظالمًا

لَعَمْرِى لقـد حُكِّمـت لا مُتَوَرِّعًا ... ولا فَهِمًا عنـد الحكومـة عَالِمًا

نَدِمْتُ فلم أقْـدِرْ علَى مُتَزَحْزَحٍ ... وَأَصْبَحَ زوجى حَائِرَ الرَّأى نَادِمًا(٣)

فبلغ عملوق قول المرأة، فغضب، وأمر ألا تتزوج امرأة من جَدِيس، فتُهدى إلى زوجها، حتى تُحمل إليه فيَفْتَضَّها، موجدة على النساء، فلقوا من ذلك ذُلا عظيما طويلا، حتى تزوَّجت الشَّموس بنت غفار، وقيل اسمها غُفيرة أخت الأسود بن غفار.

(١) جوف: هو اليمامة، وقيل: هو قصبة اليمامة، وقيل: بل قصبة اليمامة حَجْر.
والمعروف فى قصبة اليمامة، أنَّ اسمها جَوّ. معجم ما استعجم ٢/٤٦.

(٢) جوّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: اسم اليمامة فى الجاهلية حتى سَمَّاها الحميرىّ لمّا قتل المرأة التى تسمّى اليمامة باسمها، وقال الملك الحميرىّ:

وقُلْنَا فَسَمُّوها اليمامة باسْمِها ... وسِرْنا وقلنا لا نريـدُ إقامـهْ

معجم ما استعجم ٢/٤٨.

(٣) الأبيات لهُزيلة بنت مازن فى مروج الذهب ٢/١٤٨.

وكان الأسود سيدا فى جديس، فلما كانت ليلة إهدائها، حُملت إلى عملوق، ليطأها، ومعها القينات يغنين ويقلن[١]: [من الرجز]

ابْدِى بعملوق وَقَوْمِى فَارْكَبِى
وَبَادِرِى الصُّبْحَ بأمرٍ مُعْجَبِ
فمـا لبكرٍ بَعْدَكُمْ مِنْ مَـذْهَبِ

فلما افتضّ عملوق غُفَيرة، خرجت على قومها فى دمها[٢]، شاقَّةً عن جيبها، وعن قُبُلِها ودُبُرِها، وهى تقول[٣]: [من الرجز]

لا أَحَدَ أَذَلُّ من جَدِيس!
أهكـذا يُفْعَلُ بالعَرُوس؟

وأبت أن تمضى إلى زوجها، وقالت تُحرِّضُ قومها[٤]: [من الطويل]

أيصلُح مـا يُؤْتَى إلى فَتَيَاتكم ... وَأَنْتُم رجـالٌ فيكمُو عَـدَدَ النَّمْلِ[٥]
فَإِن أَنْتُمُ لَمْ تَغْضَبُوا[٦] بَعْدَ هَذه ... فكونوا نسـاءً لا تَفِرُّوا من الفَحْلِ[٧]
ودونكمو طِيبُ العَرُوسِ وإنَّمَا ... خُلقتم لأثواب العروسَة والكحل
فلو أننا كنا الرِّجـال وكنتُمـو ... نساءً ، لكنا لا نُقِرُّ على الذُّلِّ

فلما سمعت جديس ذلك، أنِفت وغضبت، واجتمعت إلى الأسود بن غفار، فأجمعوا أن يصنعَ الأسود لعملوق وأصحابه طعاما، فيدعوهم إليه، فإذا جاءوه متفضّلين فى الحُلل والنعال، نهضوا إليهم بأسيافهم، فأتوا عليهم، فقالت غُفَيرة لأخيها: الغدر عار، وعاقبته بوار، صبِّحوا القوم فى ديارهم، تظفروا بهم، أو تموتوا كراما.

---

(١) الرجز فى مروج الذهب ٢/ ١٤٨ والأغانى وفيه (فما لبكر عنده من مَهْرَب).
(٢) ذكر ابن منظور فى اللسان (٩/ ٤٢٤ قصة غفيرة) مادة (عنز).
(٣) الرجز لعفيرة فى اللسان (عنز) ٩/ ٤٢٤ بالعين المهملة.
(٤) انظر: مروج الذهب ٢/ ١٤٩ .
(٥) فى المروج (عدد الرمل).
(٦) فى المروج (لا تغضبوا).
(٧) فى المروج (لا تفروا من الكحل).

فقالوا، الغدر أمكن من نواصيهم.

فانقاد لمذهبهم، واصطنعوا طعاما، واخترطوا سيوفهم ودفنوها فى الرمل، فلما توافى القوم إلى المائدة، واستكملوا فى المدعاة، أتوا عليهم أجمعين.

وهرب من طَسْم رجل من مُرَّةَ، وهو رِيَاحُ بن مُرَّة[١]، فأتى حسان بن تُبَّع، فأعلمه غدر جَدِيس بقومه، واستعداءه عليهم، فكان من إيقاعه ما كان، وشهر وسبى نساءهم وصبيانهم.

وهرب الأسود بن غفار حتى نزل بديار طىّ، فأجاروه. ونسله اليوم فى طىّ، وسارت وَبَارُ بن أُمَيْم بن لاوذ بن إرم بن سام إلى رمل عالج، وهى الأرض المعروفة بأرض وبار، فأهلكهم الله، لما كان من بغيهم فى الأرض، فانقرضوا.

وسار داسم بن عمليق بن لاوذ بن سام، وهم من العماليق إلى أرض السماوة، وهى بين العراق والشام، فأهلكهم الله بالريح السوداء؛ لإفسادهم، فلم يبق منهم باقية.

وكانت بلاد داسم الجولان، وبلاد حوران[٢]، والبَثَنِيّة[٣]، وذلك بين دمشق وطبرية، وانقرضوا وأبادهم الله جميعهم. وكذلك بنو طخم بن إرم نزلوا الطائف، فدثروا ببعض غوائل الدهر، وهم أول من وضع حروف المعجم.

فجميع العرب من أقطار الأرض من ولد عدنان بن قحطان.

والعرب تزعم أن ديار وبار، سكنتها الجن، وحمتها من كل من أرادها، وكانت أخصب بلاد الله ـ عز وجل ـ وأكثرها شجرًا وأطيبها ثمرًا، وإذا دنا أحد من تلك البلاد ساهيًا أو متعمدًا سَفَتْ الجن عليه سوافى الرمل، وأثارت عليه الزوابع فخبلوه وربما فتكوه، وقال الشاعر فى ذلك[٤]: [من الطويل]

---

(١) انظر اللسان ٩/ ٤٢٤ مادة (عنز).

(٢) فى الأصل (جرجان) وهو تحريف، وحَوْران على وزن فَعْلان: أرض بالشام أتى به امرؤ القيس مذكرًا فقال:

ولمَّا بدا حَوْران والآلُ دُونَهُ ... نظرتَ فلم تنظر بعينك مَنْظرا

انظر: معجم ما استعجم ٢/ ١٠٥.

(٣) البَثَنِيّة: هى بالشام معروفة، من كُور دمشق. معجم ما استعجم ١/ ٢٠٩.

(٤) البيت لرجل من وبار ـ مروج الذهب ٢/ ١٥٤.

دعا جحفلا لا يُهْتَدى بمقيله[١] من اللُّوْم حتى يُهْتَدى لِوبَارِ

فيزعمون أن ليس بهذه الأرض، إلا الجنّ، والجمال الوحشية وهذا عند كثير من ذوى الحِجَى باطل.

والعرب تعتقد أن نفس الإنسان دمه، والروح هو المحرك له، فلذلك سموا المرأة نُفَسَاء[٢]، لما خرج منها من الدم.

واختلف الفقهاء فيما له نفس سائلة، إذا سقط فى الماء[٣]، وقال تأبط شرًا لخاله الشَّنْفَرَى، وقد سأله[٤]: ألْجَمْتُهُ غَضبًا، فسالت نفسه سكبًا.

واحتجوا أن الميت لا ينبعث منه دم، إلا ما كان محقونًا قبل موته.

وقد زعم بعضهم أن النفس هى، الهامَةُ، الطائر الذى يصرخ على القبر، ولذلك قال بعض الشعراء فى أصحاب الفيل: [من الخفيف]

سُلِّط الطَّيرُ والمَنُونُ عَلَيْهم فَلَهُم فى صَدَى المقابِرِ هَامُ[٥]

ويزعمون أنها تُعلِم الميت بما يكون من شأنه بعده.

قال أمية[٦]: [من الكامل]

هَامِى تُخَبِّرُنى بما استَشعرُوا[٧] فَتَجَنَّبُوا الشنعاءَ والمكروها

وقال توبة، ويُنسبُ إلى غيره: [من الطويل]

لَسَلَّمْتُ تسليم البشاشة أوزقا إليها صدًى من جانب القبر صائحُ[٨]

(١) المقيل: موضع القيلولة.

(٢) انظر: مروج الذهب ٢/ ١٦٥.

(٣) يعنى: هل ينجّسه أم لا؟

(٤) سأله عن قتيل قتله، كيف كانت قصته؟

(٥) البيت بلا نسبة فى مروج الذهب ٢/١٦٦.

(٦) نسبه المسعودى فى المروج ٢/ ١٦٦ للصلت بن أمية، وقال الشارح: لعلّه والد الشاعر أُمَيّة بن أبى الصلت.

(٧) فى المروج: تستشعرُ.

(٨) لتوبة بن الحُمَير فى الأغانى ١٠/ ٧٧ ومروج الذهب ٢/ ١٦٦ وقبله البيت:

ولو أنّ ليلى الأخيلية سَلَّمَتْ عَلَىَّ ودونى جَنْدَلٌ وصفائِحُ

فدلَّ أن الصدى والهام تنزل إلى قبورهم، وتصعق حتى قال رسول الله ﷺ «لا هامَ ولا صَدًى»[١].

* * *

ذكر الغول

فأما الغُولُ، فثابت عندهم، وقد ذكر عمر بن الخطاب عنه أنه شاهدها فى بعض أسفاره، وضربها بسيفه، وذلك قبل الإسلام.

وقد زعم بعض المتفلسفين، أنه حيوان مشَوَّه، لم تُحْكِمْهُ الطبيعة، فلما خرج منفردا فى هيئته ونفسه، توحَّش فى مسكنه، وهو بين الإنسان والحيوان البهيمى.

وقد ذكر أهل الهند أن ذلك إنما يظهر من فعل ما كان عائبا من الكواكب عند طلوعها، فيُحدث رأس الغول عند طلوعه تماثيل وأشخاصا تظهر فى الصحراء، فسميت غولا باسم الطالع، وهى ثمانية وأربعون كوكبا.

ويُحدث طلوع الكلب، وهو الشِّعْرَى العبور داءً فى الكلاب، وسُهيل فى الجِمال، حتى قيل إنه لا يقع عليه عين جَمل إلا أهلكه.

قال تأبَّط شَرًا فى الغول[٢]:

وأدْهَم قد جُبتُ جِلْبَابَه ... كما جابت الكاعِبُ الخَيْعَلا[٣]

---

(١) الحديث «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» رواه الشيخان عن أنس وأبى هريرة وأحمد عن أبى هريرة بزيادة (وفرَّ من المجذوم فرارك من الأسد)، ولفظ مسلم، لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر، وفى لفظ له: لا عدوى ولا هامة ولا طيرة وأحب الفأل الحسن. وكشف الخفاء ٢/٣٣٦ حديث رقم ٣٠٧٩.

(٢) الأبيات لتأبط شرًا فى مروج الذهب ٢/١٦٨ مختار الأغانى ٣/ ٢٤٥ والأول منها نسب أيضًا لحاجز السروى فى اللسان (خعَل) ٤/ ١٥٠ وروايته:

وأدهم قد جُبْتُ ظَلْمَاءَهُ ... كما اجتابت الكاعِبُ الخَيْعَلِا

(٣) الكاعب: الفتاة قد نَهَد ثدياها.

الخَيْعَل: قميصٌ لا كُمَّىْ له، أو ثوب غير مخيط الفرجين يكون من الجلود ومن الثياب. اللسان (خعل) ٤/ ١٥٠.

على إِثْرِ نارٍ ينُـورُ بهـا فَبِتُّ لهـا مـدبرًا مُقْبِـلاَ
فأصبحتُ والغولُ لى جارةٌ فيا جارتى أنت ما أهولا
وطالبتُهـا بُضْعَهَـا فالْتَوَتْ بوجـهٍ تَغَـوَّلَ فاسْتَغْـوَلاَ
فمن كان يسألُ عن جـارتى فإنَّ لهـا باللّـوى مَنْـزِلاَ

وقد زعموا أن رجليها رجلا عير، والعرب ترتجز فى الفيافى وتقول: [من الرجز]

يا رِجْلَ عير[1] انهقى نهيقا
لم نترك السَّبْسَبَ والطَّرِيقا

وذلك أنها تتراءى لهم بالليل وأوقات الخلوة، وتناديهم فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها فتضلَّهم، قال الشاعر: [من البسيط]

* وحافر عير فى ساقٍ خدلَّجة *

وقد ذكر المصنفون: وهب بن مُنَبِّه، وابن إسحاق، وغيرهما أن الله عز وجل خلق الجانّ من نار السَّمُوم، وخلق منه زوجته، كما خلق حواء من آدم، فغشيها فحملت وباضت إحدى وثلاثين بيضة، فمنها القطاربة، وهى أمثال الهرة، والأباليس من بيضة زعيمهم الحارث أبى مرة، ومسكنهم البحور، والمردة من بيضة أخرى، ومسكنهم الجزائر، والغيلان من بيضة أخرى، ومسكنهم الفلوات، والسعالى من بيضة أخرى، ومسكنهم الجبال، والنهاريس من بيضة أخرى، ومسكنهم الحمامات، والسبَّاطات والهوام من بيضة أخرى، ومسكنهم الهواء فى صور من الحيَّات ذوات أجنحة.

* * *

(١) فى مروج الذهب «غير» (٢/١٦٨).

ذكر النسناس

فأما النسناس، فيزعمون أنه ببلاد حضرموت، وأنه كمثل نصف الإنسان، بيد واحدة ورجل واحدة، يثب وثبًا، ويعدو عدوًا شديدًا، وأنه يغتذى بجميع النبات، ويصبر على العطش.

ويروون خبرًا عن شيب بن شيبة بن الحارث التميمى قال: قدمت الشحر فنزلت على زعيمها، فتذاكرنا النسناس، فقال: استعدوا فإنا خارجون فى قنصهم.

فلما خرجنا ألظَّ كلبان منهما بواحد، وله وجه كوجه الإنسان، وشعرات فى ذقنه، رجلاه كرجل الإنسان، قال: فجعل يعدو وهو يقول:

الوَيْلُ لِى مِمَّا به دَهَانى
دَهْرِى من الهُمُوم والأحزانِ
قِفَا قليلاً أيّها الكلبانِ
إليكما حتى تُجَارِيانى
ألفيتمانى حاضرًا عنانى
لَوْ بى شباب ما ملكتمانى
لكن قضاء الملك الرحمانى
يُذِلُّ ذا العزة والسُّلْطانِ(١)

فالتقيا به فأخذاه، فعمدوا به إلى موضع فيه شجر، فذبحوه، فقال قائل منهم، من شجرة: سبحان الله ما أشد حمرة دمه.

قالوا: نسناس، خذوه، فأخذوه، فأجابه آخر من شجرة أخرى، قال: لأنه كان يأكل السُّمَّاق.

قال: خذوه، فأخذوه.

فقال آخر: لو سكت لم يعلم بمكانه.

(١) الأبيات فى مروج الذهب ٢/ ٢٣٩.

فقالوا: خذوه، فأخذوه.

فقال آخر: أنا صامت، فقالوا: خذوه، فأخذوه.

فقال آخر: يا إنسان احفظ رأسك.

فقال: خذوه.

قال (س): ورأيت أهل الشحر وحضرموت يستطرفون أخبار النسناس، ويتوهمون أنه ببعض البلاد، وهذا يدل على عدم كونه، وأنه من هوس العامة، كما وقع لهم خبر عنقاء مغرب[(١)].

* * *

ذكر عنقاء مغرب

وأما عنقاء مغرب، فرووا فيه حديث عروة عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما - أنه طائر فضل به بنو إسرائيل، ذكر وأنثى، فانتقل نسله بعد يوشع بن نون، وانتشر إلى بلاد قيس عيلان بحدود الحجاز، فأذى الصبيان والولدان، فشكوا ذلك إلى خالد بن سنان، وكان بين عيسى ومحمد ﷺ، فدعا الله أن يقطع نسل العنقاء، فقطع نسلها، وبقيت صورتها تصور فى البُسُطِ.

وكان من أجمل طائر خلقه الله تعالى وأعظمه، وكان وجهه على هيئة وجوه الناس، وقد ذهب ناس من أهل الدرايات أن قولهم: عنقاء مغرب، إنما هو للأمر العجيب.

والعَنَقُ: السرعة.

وقد ذكر أن حنين بن إسحاق حمل النسناس إلى المتوكل، وكان أمره وغيره من الحكماء أن يوردوا عليه ما يأتى لهم من مثل هذا.

قال: والخبر عن النسناس كالخبر عن القُبَينى[(٢)] وغيره، والصحيح أن النسناس: السِّفْلة من الناس والأرذال.

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٤٠.

(٢) كذا بالأصل.

ذكر الهواتف

فأمَّا الهَوَاتف، فقد كانت كثرت فى العرب، واتصلت بديارهم، لاسيما بين يدى مولد النبى ﷺ وهى أصوات مسموعة من غير رؤية منصوب.

وقد ذكر جماعة أن ذلك من قبلِ التوحُّد فى القفار، والتفرد فى الديار، والإنسان إذا توحَّد توحَّش، وإذا توحَّش فكَّرَ، وإذا فكَّر وَجِلَ، فداخله الظنون الكاذبة، والهموم السوداوية الفاسدة، فوهّمته المحال من الأصوات والأشخاص.

والعرب لا تختلف أن علقمة بن صفوان بن أمية بن حجر الكندى، جدّ مروان ابن الحكم لأمه، قتلته الجن، وأن شقًا اعترض له، فقال علقمة[1]: [رجز]

شَقٌّ مـــا لى ولَكْ
اغْمِد عَنِّى مَنْصُلَكْ
تقتلِ مَنْ لا يَقْتُلُك

فقال شق: [رجز]

عَلْقَم، غنيـتُ لَكْ
كيمـا أبيحُ مقتلَك
فاصبر لأمرٍ حُمَّ لَكْ[2]

فضرب كل واحد منهما صاحبه، فخراً ميِّتَيْن.

وممن قتلته الجن: حرب بن أمية، ورَثَتْهُ الجنَّ.

وقتلت: مرداس بن أبى عامر، والد العباس بن مرداس.

وقتلت الفريض [المغنّى]، لشعر غناه، كانت نهته عنه.

وهذا متعارف عندهم مشهور.

* وقد ذكر أبو عبيدة عن منصور بن يزيد الطائى، أن قبر حاتم طيٍّ حوله قدور

(١) الرجز فى مروج الذهب ٢/ ١٧٤ لعلقمة بن صفوان.
(٢) الرجز لشق الكاهن فى المروج ٢/ ١٧٥.

عظيمة من بقايا قدوره التى كان يطعم فيها مُكَفَّأة فى نواحيه، وعن يمين قبره أربع جوار من حجارة، وعن شماله مثلهن محتجرات على قبره كالنائحات، لم يُرَ مثل بياض أجسامهن وجمال حسنهن، وربما رآهن الرائى فيفتن بهن، ويميل إليهن، فإذا دنا منهن رأى حجارة، وهم يزعمون أنها من عمل الجن، فهن بالنهار كما وصفوا، وإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه.

قالوا: ونحن فى منازلنا نسمع ذلك إلى طلوع الفجر.

وكان رجل يكنى أبا البخترى[1]، مر فى نفر من أصحابه بقبر حاتم، فجعل يناديه: أبا الجعد أَقْرِنا، فقالوا له: تنادى رِمَّةً بالية، فقال: إن طيًا تزعم أنه لم ينزل به أحد إلا قراه، فنزلوا فناموا، فانتبه أبو الخيبرى، مذعورًا ينادى: وا راحلتاه.

فقال له أصحابه: ما بالك، قال: خرج حاتم من قبره بالسيف، وأنا أنظر حتى نحر راحلتى، فنظروا، فإذا بها منجدلة، تنبعث، فقالوا: قد والله قراك، وظلوا يأكلون لحمًا مشويًا وطبيخًا، ثم ارتدفوه وانطلقوا سائرين، فإذا راكب بعير يقود آخر، قد لحقهم وقال: أيكم أبو الخيبرى؟ قال الرجل: أنا، قال الراكب: أنا عَدِىّ ابن حاتم وإن حاتمًا جاءنى الليلة، فذكر أنك استقريته واستبطأته، وهو ينشدك: [من المتقارب]

أبا البخترى وأنت امرؤٌ ... ظلوم العشيرة شَتَّامُها
أتيتَ بصحبك تبغى القِرَى ... لدَى حُفْرةٍ صَدَحَتْ هَامُها
أتبغى لى الضَّيم عند المبيت ... وحولك طىّ وأَنْعَامُها
فإنا سَنُشْبِعُ أضيافَنَا ... ونأتى المَطِىّ فَنَعْتَامُها[2]

وقال الشاعر فى عدى بن حاتم: [من الطويل]

أبوك أبٌ سَبَّاقَة الخير لم يَزَلْ ... لَدُن شَبَّ حتى مات فى الخير رَاغبَا
قَرَى قَبْرُهُ الأضيافَ إذ نزلوا به ... ولم يَقْرِ قبرٌ قَبْلَهُ الدَّهرَ راكبَا[3]

(١) فى الأصل الجيبرى والتصحيح عن مروج الذهب ٢٠/ ١٧٥.
(٢) نعتامها: نأخذ أفضلها.
(٣) البيتان لسالم بن زرارة الغطفانى فى مروج الذهب ٢/ ١٧٦.

ذكر القيافة والزجر

القِيَافَة والزَّجْر من خواص العرب، فضلاً بهما دون سائر الأمم.

فأما ما يوجد من الزجر فى الإفرنجة، فإنما أخذوه ممن جاورهم من العرب فى سالف الدهور، ويمكن أن يكون أخذوه ممن جاورهم من العرب ببلاد الأندلس بعد ظهور الإسلام، ولعل الله قد خصَّ بالزجر أمة غير العرب، والأول أشهر.

والقيافة من القَفْوة، وهو تتبُّع الأثر والبحث عليه والتنقير. وأصل ذلك أن الأشكال انفصلت فى الصور، فتشكل، فخصَّ الأجناس ثم خصت الطبيعةفى كل نوع من الجنس بفضل إبانته من أغياره، وكالطول فى أزد شنوءة، فكذلك خُصت أيضا أحاد الأشخاص المنفصلة فى الهيئة عن أقفارها، فالقائف الهيئات، فيحكم للأقرب صورة.

وكان نظر القائف إلى القدم؛ لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة، والولَدُ لو خالف أباه فى سائر شكله، لوافقه فى القدم،وقد صَدَّق رسول الله ﷺ محرزًا المُدْلِجى.

وقال بالقيافة أكثر فقهاء الأمصار[١]، وأنكر جماعة منهم الحكم بها. وحُجج الأولين: خبر المُلاعنة، لما أتت به على النعت المكروه، وخبر ابن وَليدة زمْعَة، وغير ذلك.

واحتج الآخرون بإلحاق النبى ﷺ الصبى بأبيه الذى شك فيه لما وُلد أسود حين قال: «ولعل عِرْقا نزعه»[٢] على ما سنورده.

والكهانة فى اليمن خصوصًا، والقيافة والزجر فى نزار، ورثوها عن آبائهم، على ما سنورده، ثم خُصت بنو أسد بالزجر، وبنو مُدلج بالقيافة.

وقد قَفَتْ القافة بقريش أثر رسول الله ﷺ وأبى بكر على الحجر الصّلد،

(١) فى الأصل (الأنصار).

(٢) مروج الذهب ٢/ ١٨٤، والحديث أخرجه البخارى ـ كتاب الطلاق ٢٦، وكتاب الحدود ٤١ ومسلم كتاب اللعان ١٨و ٢٠ وأبو داود كتاب الطلاق ٢٨ وراجع: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ٦/ ٤٠٦.

والجبل الجَرْدِ، حيث لا تكتسى الأقدام فى رمل ولا تراب حتى انتهوا إلى باب الغار، فحجبهم الله ـ عز وجل ـ عنهم بما كان من نسج العنكبوت، وبما[1] سَفَتْ عليه الريح.

وبلاد الجفار بين مصر والشام، بها بلاد ناس من العرب يتخذونهم الولاة يقصُّون آثار الناس، فيخبرونهم بالآثار، أىُّ الناس هم، ممن طرد تلك البلاد، وهم إنما عاينوا الأثر لا القدم، وهذا حِسٌّ دقيق، ومعنى لطيف.

ولما حضرت نزار الوفاة، قال لإياد هذه الجارية ـ لجارية له شمطاء ـ وما أشبهها لك.

ودعا أنمار وهو فى مجلس له، فأعطاه بَدْرَة، وقال: هذه البَدْرَةُ والمجلسُ لك وما أشبهها لك.

ودعا ربيعة، فأعطاه خباء له أسود من شَعر، فقال: هذا وما أشبهه لك.

وأعطى مُضَرَ قُبَّة حمراء، وقال: هذه وما أشبهها لك، ثم قال: وإن أشكل عليكم شىء، فأتوا الأفعى الجرهمىّ، وكان ملك نجران.

فلما مات، ركبوا رواحلهم يريدون الأفعى، فلما كانوا من نجران على يوم، فإذا هم بأثر بعير، قال إياد: هذا أثر بعير أعور. وقال أنمار: وإنه لأبتر، قال ربيعة: وإنه لأزْوَر، قال مُضَر: وهو شَرُود لا يستقر.

فلم يلبثوا أن رُفع لهم راكب، فلما غشيهم قال لهم: هل رأيتم من بعير ضال، فوصفوه له، قال: إن هذه لصفته عينا، فأين بعيرى؟

قالوا: ما رأيناه.

قال: أنتم أصحاب بعيرى، وما أخطأتم من نعته شيئا.

فلما أناخوا بباب الأفعى، واستأذنوا عليه، فأذن لهم، صاح الرجلُ بالباب، فدعا به الأفعى، فقال له، ما تقول؟

قال: أيها الملك، ذهب هؤلاء ببعيرى،

فسألهم الأفعى عن شأنه، فأخبروه.

(١) فى الأصل (وربما).

فقال لإياد: ما يدريك أنه أعور؟

قال: قد رأيته قد لحس الكلأ من شِقّ، والشق الآخر وافر، فعلمت أنه أعور.

وقال أنمار، رأيته يرمى ببعرٍ مجتمعا، ولو كان أهلب مضغ به، فعلمت أنه أبتر.

وقال ربيعة: أحد رجليه ثابتة، والأخرى فاسدة، فعلمتُ أنه أزور.

وقال مُضَر: رأيته يرعى الشُّقة من الأرض، ثم يتعداها، فيمرُّ بالكلأ الغضّ، فلا ينهش منه شىء، فعلمت أنه شرود،

فقال الأفعى: صدقتم، وليسوا بأصحابك، التمس بعيرك.

سألهم الأفعى عن نسبهم، فأعلموه، فرحَّب بهم وحباهم، ثم قصُّوا عليهم قصة أبيهم، فقال: فكيف تحتاجون إلىَّ وأنتم على ما أرى؟

فقالوا: قد أمرنا بذلك أبونا.

فأمر خادم دار الضيافة أن يحسن إليهم ويكرمهم، وأمر وصيفا له أن يلزمهم، وينتقد كلامهم.

فأتاهم القهرمان بشَهْدٍ فأكلوا وقالوا: ما رأينا شَهْدًا أعذب ولا أحسن منه.

فقال إياد: صدقتم، لولا أن نحلة صنعته فى هامَةِ جبَّار.

ثم جاءهم بشاةٍ مشوية، فأكلوا، فاستطابوها.

فقال أنمار: صدقتم، لولا أنها غُذِّيت بلبن كلبة.

ثم جاءهم الشراب، فاستحسنوه.

فقال ربيعة: صدقتم، لولا أن كَرْمَهُ نبت على قبر.

ثم قالوا: ما رأينا منزلا أكرم قِرًى، ولا أخصب رَحلا من هذا الملك.

قال مُضَر: صدقتم، لولا أنه لغير أبيه.

فذهب الغلام إلى الأفعى فأعلمه، فدخل الأفعى على أمه، فقال: أقسمت عليك إلا أخبرتنى من أبى؟

فقالت: أى بُنَىَّ، أنت ابن الأفعى الأعظم.

قال: حقًا تصدقينني.

فلما أَلَحَّ عليها: فقالت: أى بُنَىَّ، إن الأفعى كان شيخا كبيرا قد أنفل، فخشيت أن يخرج هذا الأمر عنا أهل البيت، وكان شاب من أبناء الملوك، اشتملتُ عليك منه.

ثم بعث إلى القهرمان، فقال: أخبرنى عن الشَّهْدِ الذى قدمته إلى هؤلاء النفر، ما خطبه؟

قال: جُزنا بدير فى طَيْفٍ فيه عظام نَخِرةٌ، وإذا النحل قد عسَّلَت فى جمجمة من تلك العظام، فأمرت باستزباره، فأتوا بعسلٍ لم يُر مثله قط، فقدمته إليهم لجودته.

ثم بعث إلى صاحب مائدته، فقال: ما هذه الشاة التى أطْعَمتها هؤلاء النفر.

فقال: إنى بعثت إلى الراعى أن يبعث إلىَّ بأسمن ما عنده، فبعث بها، فسألته عنها، فقال: إنها أول ما ولدت من غنمى، فماتت أمها، وأَنَست السخلة بجراء كلبة ترضع معهم، فلم أجد فى غنمى مثلها، فبعثت بها إليك.

ثم بعث إلى صاحب الشراب، فسأله عن شأن الخمر، فقال: هى كَرْمَة غرستها على قبر أبيك، فليس فى بلاد العرب مثل شرابها فعجب الأفعى من القوم، وقال: ما هم إلا شياطين.

ثم أحضرهم فسألهم عن وَصِيَّة أبيهم.

فقال إياد: جعل لى جارية شمطاء، وما أشبهها من ماله.

فقال الأفعى: إنه إن ترك غنما، فهى لك، ووعاؤها مع الخادم.

فقال أنمار: جعل لى بَدرةً ومجلسه، وما أشبههما من ماله.

فقال الأفعى: لك ما ترك أبوك من الرقة والأرض.

وقال ربيعة: جعل لى بيتا أسود، وما أشبهه.

فقال الأفعى: إن ترك أبوك خيلا دُهْما، وسلاحا، فهى لك وما فيها من عبيد، فقيل: ربيعة الفرس.

وقال مُضر: جعل لى قبة حمراء وما أشبهها.

فقال: إن أباك ترك إبلاً حمرًا فهى لك، وما أشبهها، فقيل: مُضَر الأحمر.

فكانوا كذلك زمانًا، إلى أن أصابتهم سَنَةٌ، فأهلكت الشاة وعامة الإبل، وذهبت بالرقة والمتاع، فكان ربيعة يغزو على خيله، ويغير، ويعول إخوته.

وكان سبب تحول أنمار إلى اليمن، أنه تعرق عظمًا فى جنح الليل ورمى به، وهو لا يبصر، فانفرز فى عين مضر ففقأها، وصاح مضر وتشاغل إخوته به، وجرد أنمار بعيرًا من كرائم إبله، فلحق بأرض اليمن.

ومن عجيب الزمان خبر عبيد الراعى، لما خرج فى ركب من قومه يريدون رئيس بنى أسد، فسنحت لهم ظباء سنوحًا منكرًا، ثم أعرضت الركب مقصرة فى حصرها، واقفة بين شأوها، فأنكر ذلك عبيد، فلم يأبه أصحابه لما كان السانح عندهم محمودًا، فقال عبيد: [من الطويل]

ألم تدر ما قال الظباء السوانِحُ أطَفْنَ أمام الرَّكب، والرَّكب رائحُ
فكبَّر من لم يعرف الزجر منهم وأيْقَنَّ قلبى أنهنّ نوائحُ

* * *

ذكر الكهانة

أما الكهانة، فلم تخل أمة إلا قد كان فيها كهانة، وهى من الأمور المثبوتة غير المرفوعة فى جميع الأمم.

فزعم اليونانيون أن النفس إذا صفت اطلعت على أسرار الطبيعة، وما يريد أن يكون منها؛ لأن ظهور الأشياء عندهم فى النفس الكلية، ولذلك كان فيثاغورث يعلم علومًا من الغيب، وضروبًا من الوحى.

وهم يعرفون هذه الطائفة الرومانية، وهذه علة النبوة عند الصابئة ولذلك كان عندهم هرمس وأغاثيمون وغيرهم أنبياء.

وذهبت طائفة أن سبب الكهانة الوحى الفلكى، وأن ذلك فى المولد عند ثبوت عطارد على شرفه، وكان سائر الدرارى فى عقد متساوية الدفاع متكافئة، ومناظر متوازية، فيجب حينئذ لصاحب المولد التكهن.

وذهب كثير إلى أن كون ذلك فى القرانات الكبار لعلل ذكروها.

وادعى قوم أن الأرواح المسعورة من الجن تخبرهم بالأشياء قبل كونها، وأن أرواحهم لما صفت صارت لتلك الأرواح من الجنّ موافقة.

وقول الشرعيين إن الشياطين تسترق السمع، وتلقيه على ألسنة الكهان.

وزعم كثير ممن تقدم أن النفس إذا هى قويت وزادت، قهرت الطبيعة، وغلب القسم النفسى القسم الجسدى، فأباحت للإنسان كل سر لطيف، وخبرته بكل معنى شريف، ولذلك وجد الكهان من نقصان الخلق ما يوجدون كشق الأنمارى، وسطيح الغسانى واسمه ربيع بن ربيعة، وسَمْلَقة، وزوبعة الكاهنين وعمران أخى عمرو بن عامر مزيقياء، وحارثة، وجهينة، وكاهنة باهلة.

وقد كان سطيح يدرّج جسده كما يدرّج الثوب، خلا جمجمة رأسه إذا لمست باليد، أثرت فيها للين عظمها.

وشق هذا الأنمارى، هو غير شق الأوّل، وشق الأول هو ابن حويل بن إرم بن سام بن نوح، وهو أول كاهن كان فى العرب، وإرم أبو الجبابرة من عاد وثمود وجديس، وطسم وغيرها.

ويقال: إنه كانت له عين واحدة فى جبهته، ويقال: إن الدجال من ولده، ويقال: هو الدجال بعينه، أَنْظَرَهُ الله إلى الوقت المعلوم، وهو محبوس فى بعض الجزائر، ويقال إن الشياطين تأتيه بما يأكله، ويقال إنه لا يحتاج إلى غذاء، وقيل: إن أمه امرأة من الجن تعشق أباه حويل فتزوجها وأولدها الدجال، واسمه: حوض ابن حويل. وهو مُشَوَّه مبذول.

وكان إبليس يعمل له الأعاجيب، فلما كان وقت سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ دعاه فلم يجبه، فحبسه فى جزيرة فى البحر.

ويقال إنه كان له أخ فاستهوته الجن، لما كانت أمه منهم، وإنه ملك بوار التى غلبت عليه الجن، وهى مدائن العرب، وإن الجنّ فى طاعته. وقيل أن مجلسه كان فى قُبَّة بوادى برهوت فى اليمن، فكانوا يحجُّون إليه، وإنه لم ينم قط.

وكانوا يرون من عينيه نارًا بيضاء، وموضعه الذى هو فيه مسجون، وأنه يعلو

مكانه بالنهار دخان، وبالليل نار مضيئة.

ومذهبهم أن النفس لا يحويها البدن، وإذا بطلت أفعالها من البدن لم تبطل هى فى ذاتها، والروح يحويه البدن، فإذا فارق البدن بطل.

وفى هذا تنازع كثير واختلاف، وليس هذا موضع استقصائه.

وسبب صدق الرؤيا عندهم من هذا، لأن النفس تخلص فى المنام من شوائب الأجسام، فنشاهد الأشخاص[1] بالقوة الروحانية لا بالقوة الجسمانية.

فمن كانت نفسه صافية، لم تلد رؤياه كذب، ثم تكون الرؤيا بقدر مراتب النفس من الصفاء والكذب.

* * *

ذكر العراف

فأما العرَّافُ، فهو دون الكاهن، مثل: الأبلق الأسدى، والأجلح الزهرى، ورياح بن كملة، وعراف اليمامة الذى قال الشاعر فيه: [من الطويل]

فقلت لعرَّاف اليمامة داونى فإنك إن داويتنى لطبيبُ

وكان أول من تكَهَّن سطيح الغسانى، بأمر سيل العرم، وأنذر به قومه، ولم تزل أرض سبأ من أخصب أرض، وأهلها فى أرغد عيش، وكانت مسيرة شهر للمجد الراكب فى مثل ذلك، وكان المار يسير فيها جلالاً من أولها إلى آخرها، لا تواجهه الشمس، ولا يفارقه الظل، مع تدفق الماء، وصفاء الهواء، واتساع الفضاء، فمكثوا كذلك ما شاء الله، لا يعارضهم ملك إلا قصموه، ولا يعارضهم جبار إلا كسروه، وكانت شمسه الذى يتملك البلد باسمه، قال الشاعر: [من المنسرح]

من سبإ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سَيْلِه العَرِما[2]

---

(١) فى الأصل (الغزلان).

(٢) البيت للأعشى فى معجم ما استعجم ٤/ ٥١ وينسب لأمية بن أبى الصلت فى الروض المعطار ٥١٦ وهو له فى ديوانه ٥٩ وللنابغة الجعدى فى ديوانه ١٣٤ وجمهرة اللغة ٢/ ٧٧٣ و١٠٢٢ وسمط اللآلى ١٨ وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٢٤١ واللسان (عرم).

وقيل أن مأرب سمة لقصر ذلك الملك فى صدر الزمان، قال أبو الطَّمَّحان: [طويل]

ألم تروا مأربًا ما كان أحصنه   وما حَوَالَيْه من سور وبُنيان؟[1]

وكانت أرض سبأ فى بدء الزمان عامرة، تركبها السيول، فجمع ملك من ملوك حمير الحكماء، وأحضر البصراء، وشاورهم فى رفع ذلك تمامًا، وحصره، وإزالة ما كان من أمره، فأجمعوا على حفر مصارف له إلى جدار يواريه إلى البحر، فحشد الملك أهل مملكته، حتى صرف الماء، واتخذ له سدًا فى الموضع الذى كان فيه بدوّ جريان الماء من الجبل إلى الجبل، وذلك نحو فرسخ، وصَفَّه بالبنيان والحجارة والحديد، وجعل فيه ثلاثين مخراقًا للماء فى استدارة الذراع، على أصح هندسة، وأكمل تقدير، ويجتذبون منها مقدارًا للماء معلومًا، وشربًا للأرض مقسومًا.

قال ابن وهب: بعث الله اثنى عشر نبيًا، وكان من بعث عليه سَيْلَ العَرِمِ منهم يعبدون الشمس، فأرسل الله - عز وجل - عليهم رسلاً يدعونهم إلى الحق، ويزجرونهم عن الباطل، ويذكرونهم آلاء الله تعالى صادقين، فأنكروا نعمة الله، وقالوا: إن كنتم صادقين فادعوا الله أن يسلبنا ذلك حتى قالت امرأة منهم[2]: [من الرجز]

إن كان ما نُصْبِحْ فى ظِلاَلَهْ
من ربكم فَلْيَنْطَلِق بما لَهْ
إليه عنّا وإلى عِيَالِهْ

فدعت عليهم الرسل، فأرسل الله عزوجل عليهم سَيْلَ العَرِمِ بفأرة خرقت ذلك السد المحكم، والصخر المُنْضَمّ، ليكون أثبت فى العبرة وأبين فى الحجة، وأبادَ الله غضراءهم، وأذهب أموالهم، ومزقهم كل ممزق، وباعد بين أسفارهم، ففى ذلك يقول الأعشى: [من المتقارب]

(١) البيت لأبى الطمحان القينى فى مروج الذهب ٢/ ١٩٧.
(٢) الرجز لامرأة من مأرب فى مروج الذهب ٢/ ٢٠٥.

ففى ذاك للمؤتَسى أسوةٌ ومأرِبُ قَفَّى عليها العَرِمْ
رُخَــامٌ بَنَتْهُ لهم حِميَر إذا جــاءَهُ مَاؤُهم لم يَرِمْ
فأَرْوَى الحروثَ وأعنـابهـا على سعة ماؤها قد قُسِم
فكـانوا كـذلك فى خفيـة فمـال بهم جارِفٌ مُنْهَـدِم
فصَــاروا أباديد ما يقدرو ن منه على شرب طفل فُطِم[1]

وكان سطيح وعمران بن عامر أخوا مزيقياء، وصريفة الكاهنة ينذرون مزيقيا بذلك.

وطريفة امرأة من أهل ردمان، فكان عمرو مزيقيا يقول لطريفة: وما آية ذلك؟

فتقول: إذا رأيت جرذا يكثر بيديه فى السَّدِّ الحفر، ويقلب برجليه الصخر، فاعلم أنه قد اقترب الأمر.

فيقول: ما هذا الأمر؟

فيقول: وَعْدٌ من الله نزل، ونكال بنا نكل، فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل، وكان عمرو يحرس السَّدَّ، حتى رأى به يوما جرذا، يقلب بيديه صخرة ما يقلبها خمسون رجلا، ورجع وهو يقول[2]: [من الرجز]

أبْصَرْتُ أمرًا هاج لى بَرْحُ السَّقَمْ
من جرذ كفحـل خنزير أجَمْ
له مخــاليب وأنيــاب قُضُمْ
يَسْحَبُ فِهْرًا من جَلاميـد العَرِمْ
مـا فاته سَجْلاً من الصخر قصَمْ
كأنهـا تَقْرِض قطعًا من أَرِمْ

فأجمع عمرو على الخروج من سبأ، وبيع ماله بها، وأعمل الحيلة فى أن لا

(١) الأبيات للأعشى فى ديوانه ٤٣ ببعض الاختلاف، فرواية الأخير:
فطار واستراعا ومـا يقـدر ون منه لشرْبِ صَبِىٍّ فطِمْ
(٢) راجع الأبيات فى مروج الذهب ٢/ ٢٠١، باختلاف ثَمَّ.

ينكر الناس ذلك منه، فقال لابنه: إنى صانع طعامًا، وادع إليه أهل مأرب، فاجلس عندى، ونازعنى الحديث، وارْدُدْ عَلَىَّ مثل ما أقول لك، ففعل ذلك، وتشاءما، وصاح عمرو: وا ذُلاَّه يوم فخر عمرو ومجده، يضرب وجهه صبى، وحلف لا يقيم ببلد صنع به ذلك فيه، فجعل يبيع أمواله.

فقال بعضهم: اغتنموا غضبة عمرو، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى، فلما اجتمع لعمرو أمواله، أخبر الناس بسيل العرم، فأجمعوا على الجلاء.

فقال لهم عمران الكاهن أخو مزيقياء، سأصف لكم البلدان، فاختاروا أيها شئتم، من كان منكم ذا هم بعيد، وجمل غير شديد، فليلحق بالشعب من كرود، فلحق به همدان، ووداعة دخلت فيهم.

قال: ومن كان منكم ذا سياسة وصبرعلى أزمات الدهر، فليلحق ببطن مر، فلحقت به خزاعة، وهم بنو عمرو بن يحيى، انخزعت هناك من أخواتها، ولذلك يقول حسان: [من الطويل]

ولما هبطنا بطن مُرٍّ تَخَزَّعَتْ خُزَاعَةُ مِنَّا فى الحُلُولِ الكراكرِ(١)

وهم: مالك وملكان بنو قصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء.

قال: ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوحل، المطعمات فى المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل، فنزلها الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو.

قال: ومن كان منكم يريد الخمر والخمير، والديباج والحرير، والأمر والتأمير، فليلحق ببصرى وحفير، وهى من أرض الشام.

فنزلها غسان.

وقال الزبير بن بكار: أنه قال: من كان يريد خمرًا وخميرًا، وبرًا وشعيرًا، وذهبًا وحريرًا، فلينزل بصرى وسريرًا.

وزاد أنه قال: من كان ذا جمل رفق، وهو راض بدق، فليلحق بأرض شق.

فلحق عمران بن عامر بن نعمان، وبها يومئذ شق غسان، وهم جفنة:

(١) البيت لحسان بن ثابت فى مروج الذهب ٢/٢٠٣ وديوانه ١١٩ (ط/ دار صادر) ومعجم ما استعجم ٤/٨٣.

الحارث، وعوف، وكعب، ومالك، والنعمان، بنو عامر، ومعهم عمرو بن عامر أبوهم، وبنو مازن، والأزد، وسموا غسان؛ لأنهم نزلوا على ما بين الأشعريين وعك، يقال له: غسّان، فنسبوا إليه، قال شاعرهم: [من البسيط]

أَمَّا سألت فإنا مَعْشَرٌ نجبٌ   الأَزْدُ نِسبَتُنا والماء غَسَّانُ[1]

قال الكاهن: ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق، والخيول العتاق، والذهب والأوراق، فليلحق بالعراق، فلحق بها بكر بن مالك بن فهم الأزدى، وهم من كان بالحيرة من غسان.

* * *

القول فى مذاهب العرب وغيرها

قال أبو عبيد: فأما مذاهب العرب وغيرها فى عبادة الأصنام على صور الملائكة، فعبدوها، وقربوا إليها القرابين.

وذهبت فرقة إلى أن الكواكب أقرب الأجسام فى المرتبة إلى الله، وإنها حية ناطقة[2]، وإن الملائكة تختلف فيما بين الله - عز وجل - وبينها، وإن كل ما يحدث فى العالم، فإنه على قدر ما تجرى به الكواكب، وقربوا لها القرابين لتنفعهم، فلما رأوها تخفى بالنهار، وفى بعض أوقات الليل، وبعض الأزمان جعلوا لها أصنامًا وتماثيل على صورها، وبنوا لذلك البيوت والهياكل وسموها بأسماء الكواكب، على أنهم إذا عظموا من ذلك شيئًا تحركت له الأجسام العلوية بكل ما يريدون، فيقول الله - عز وجل - حكاية عنهم:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[3] الآية.

* * *

(١) البيت بلا نسبة فى مروج الذهب ٢/ ٢٠٥.

(٢) فى الأصل (قاطعة).

(٣) سورة الزمر آية ٣.

ذكر معبودات العرب، وعلة عبادتهم للأصنام

قال: وذكر أن ابتداء عبادة العرب الأصنام، هو أن عمرو بن لُحَى[١]، خرج من مكة إلى الشام، فلما قدم مأرب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وهم يعبدون الأصنام، فسألهم إياها، فأعطوه هُبَل، صنم، فقدم به مكة، فنصبه وأمر بعبادته.

وقيل: أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل، لأن الرجل منهم كان إذا ظعن من مكة، حمل مع نفسه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم، فحيث ما نزل، طاف بالكعبة، حتى خلفت الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه، وصاروا يعبدون ما استحسنوه من الحجارة، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالة.

فقد كانت لقوم نوح أصنام يفعلون عليها، كما قال الله ـ عز وجل ـ[٢]، وقيل علة ذلك أن إسافًا ونائلة كانا رجلاً[٣] وامرأة من جرهم، فجرا فى الكعبة فمسخهما الله.

وذكرت علة رابعة: إن أول صنم عُبِد من دون الله (وَدّ)، وذلك أن ودًا رجل مسلم من أهل بابل، وكان محببًا فى قومه، فلما مات، عسكروا حول قبره فى أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم، تشبَّه فى صورة إنسان وقال: أرى جزعهم على هذا الرجل، فهل لكم فى أن أصوركم مثله، فيكون فى ناديكم فتذكرونه، قالوا: نعم، فصنع لهم تمثالاً جعلوا يقبلون عليه ويذكرونه، حتى اتخذ كل واحد منهم تمثالاً فى منزله يعظمه ويتبرك به، ثم تناسلوا على ذلك.

---

(١) حدث ابن هشام فى سيرته ١/ ٧١ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ عمرو بن لُحَى يَجُرُّ قُصْبَه فى النار، فسألته عمن بينى وبينه من الناس، فقال: هلكوا».

(٢) فى قوله تعالى: ﴿وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدًا ولا سُواعا ولا يغوث ويَعُوقَ ونَسْرًا وقد أضَلُّوا كثيرًا﴾ سورة نوح الآيتان ٢٢ و ٢٣.

(٣) فى الأصل «رجلين» وهو تحريف.

القول فى البيوت المعظمة فى الجاهلية

وقد ذهب قوم إلى أن البيت الحرام، هو بيت زحل، ولذلك طال مقامه معظمًا على مرور الدهر، لأن زحل من شأنه البقاء والثبوت، وذكروا أمورًا أعرضنا عن ذكرها، منها استعمال الثغت والشعت عند حجه، وغير ذلك.

والبيت الثانى من السبعة: بيت على رأس جبل أصبهان على ثلاثة فراسخ منها، ويقال له **ماربين**[١]، وكانت فيه أصنام، فجعله يستاسف بيت النار، لما تمجَّس، وهو معظَّمٌ عند المجوس إلى هذه الغاية.

والبيت الثالث من السبعة: ببلاد الهند، يدعى **مندوسان** فيه من القوة الدافعة والجاذبة والمنفرة، وأوصاف لا يسع ذكرها، وهو بيت مشهور، ومن أراد البحث عليه فليبحث.

والبيت الرابع من السبعة: هو التوبهار، الذى بناه منوشهر الهندى بمدينة بلخ من خراسان بنيت على اسم القمر، وكان من يلى سدانته يعظمه الملوك، وتنقاد إليه الأموال، واسم الذى يلى سدانته: برمك، وبه سميت البرامكة، لأن خالدًا كان من ولد من ولى هذا البيت، وكان بنيانه من أعلى المبانى تشييدًا ينصب فى أعلاه شقائق الخز الأخضر، طول الشقة مائة ذراع لتدفع عنه قوة الريح، فخطف الريح يومًا بعض تلك الشقاق فرمت به على مسافة خمسين فرسخًا، وهذا يدل على ذهابه فى الجو.

وعلى باب التوبهار كتاب بالفارسية، فيه قال بوداسف: أبواب الملوك تحتاج إلى خصال ثلاث: عقل وصبر ومال، وتحت هذه الكتابة مكتوب بالعربية: كذب بوداسف، الواجب على الحُرِّ إذا كانت معه واحدة من هذه الخصال، ألا يلزم باب السلطان.

والبيت الخامس: بيت غُمْدان[٢] الذى بمدينة صنعاء، وكان الضَّحَّاك بناه على

---

(١) فى الأصل (لها مارس).

(٢) انظر: البلدان ٢١٢.

اسم الزهرة، وخَرَّبه عثمان، فهو فى وقتنا هذا خراب، وقد صار تلاً عظيمًا، وجبلاً ضخمًا، وكان الوزير على بن عيسى بن الجراح لما نفى إلى اليمن احتفر فيه بئرًا، وبنى عليه سِقَايةً. ويزعم أهل اليمن أنه سيبنى على يد غلام يخرج من بلاد سبأ يؤثر فى هذا العالم تأثيرًا عظيمًا.

وقال الجاحظ: وكان أربع عشرة طبقة بعضها فوق بعض.

وقيل: إن ملوك اليمن كانوا إذا قصدوا على هذا البنيان بالليل، وأشعلت السرج، رُئِىَ ذلك على أيام كثيرة.

والبيت السادس: كاوُسان، بناه كاوس الملك، ولهذا خبر طريف ذكر فى كتاب «أخبار الزمان» وكان الملك كاوسا بناه على اسم المدبّر الأعظم وهو الشمس، بمدينة فرغانة، من مدن خراسان، خرَّبه المعتصم.

والبيت السابع من البيوت، بأعالى بلاد الصين، بناه ولد عامور بن سوبل ابن يافث بن نوح، على سبعة أبيات، فى كل بيت منها سبع كوى، تقابل كل كوة صورة كوكب من الخمسة، والنَيِّرين من أنواع الجواهر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب.

ولهم فيه أسرار بزعمهم فى اتصال الأجسام السماوية وأفعالها بعالم الكون وتأثيرها، وقد قرب ذلك إلى عقولهم، بأن جعل لهم مثالاً من الشاهد يدل على ما غاب عنهم.

* * *

[ذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين]

والذى بنته اليونانية من البيوت والهياكل ثلاثة:

* **بيت أنطاكية:** من أرض الشام على جبل داخل مدينتها، على يسرة الجامع اليوم، وكانت فيه تماثيل من الفضة والذهب، وأنواع الجواهر بناه سقلايوس[1]، وخرَّبه المسلمون.

(١) فى الأصل (شعلا بيوس).

ولقد كان ثابت بن قُرَّة بن كرايا الصابى الحرانى حين وافى المعتضد بالله فى سنة تسع وثمانين ومائتى سنة، أتى هذا الهيكل وعظمه.

* **وبيت ثان الهَرَم**(١)، الذى يرى على أميال من الفسطاط.

* **وبيت المَقدس**، والشرعيون يذكرون أن داود بناه، وأتمه سليمان عليهما السلام. وقد قيل.

* فأما بعل الصنم الذى ذُكِرَ فى التنزيل، فكانت اليونانية اختارت له جبل لبنان، فاتخذوا له هناك هيكلاً فيه نقوش عجيبة فى الحجر، لا يتأتى حفر مثلها فى الخشب.

* * *

[البيوت المعظمة عند الصقالبة]

وللصقالب بيوت ثلاثة، فيها مخاريق مصنوعة، وآثار موسومة تدلهم على الجبل الذى ذكرت الفلاسفة أنه أحد جبال العالم، وعلى الجبل الأسود.

والبيت الثانى تحيط به مياه عجيبة، وأشجار ذوات طعوم مختلفة، وفيه صنم عظيم على صورة رجل، هيئته شيخ، بيده عصا، يحرك به عظام الموتى، وتحت رجله اليمنى صور لأنواع النمل، وتحت رجله اليسرى غرابيب سود مصورة من صور الغداف وغيرها.

والبيت الثالث: يحيط به خليج من(٢) البحر مبنى بأحجار المرجان الأحمر والزمرد الأخضر، فى وسطه قبة عظيمة فيها صنم أعضاؤه من جواهر أربع: زبرجد، وياقوت، أحمر، وأصفر، وبللور أبيض، رأسه من الذهب الأحمر، وبإزائه صنم على صورة جارية.

* * *

---

(١) فى الأصل (انهدم).

(٢) فى الأصل (فى).

[بيوت الصابئة]

وكانت للصابئة هياكل، منها: هيكل الصورة الأولى، وهيكل العقل، وهيكل الصورة، وهيكل النفس، مستديرات الأشكال، وهياكل الكواكب والنَّيِّرَيْنِ على أشكال مختلفة من التسديس، والتربيع، والتثليث، وكانت لهم فيها رخن وقرابين، يطول وصفها.

والذى بقى من هياكلهم المعظمة الآن بحران، بيت فى باب الرقة يعرف بمقليتيا، وهو هيكل آزر أبى[1] إبراهيم، ولهم فى آزر وابنه إبراهيم كلام كثير.

وعنه سراديب أربعة لأنواع صور الأصنام التى على صور الأشخاص السمائية، وما ارتفع عن ذلك من الأجرام العلوية، وما يظهر من أنواع أصواتها، وفنون لغاتها، بِحِيَلٍ قد اتخذت، ومنافخ قد عملت، ومخاريق قد وصلت، يقف السدنة من وراء الجدار، وتتكلم بأنواع الكلام، فتجرى الأصوات فى تلك المنافخ والمخارق إلى تلك الصورة المجوفة، فيظهر منها نطق على حسب ما دبر فى قديم الزمان، على هيئة كيفية هندسته.

والصابئة حشوية الفلاسفة، وإنما يضافون إلى الفلسفة إضافة، وليس كل يونانى حكيمًا.

وعلى باب مدينة حَرَّان مكتوب بالسريانية قول أفلاطون وهو: «من عَرَف ذاته تألَّه».

وهذا يشبه قوله: «الإنسان نبات سماوى».

ولأفلاطون كلام فى النفس كثير:

* وهل النفس فى البدن، أو البدن فى النفس، كالشمس: هل هى فى الدار؟ أو الدار فى الشمس؟ وكيف انتقالها من جسد إلى جسد بالتدبير.

وبطلان ذلك الشخص الذى تنتقل عنه.

---

(١) فى الأصل (أبو).

وهى فى ذاتها لا تفسد، ولا يستحيل جوهرها.

والصابئة من الحرَّانيين يقربون[1] فى بعض قرابينهم فى وقتٍ مأثورًا أسود يشد عيناه، ثم يظهر من الاختلاج والحركات، فيكون ذلك دليلا على أحوال السنة.

ولهم فى قرابينهم أسرار ومخبآت.

وفى أقاصى أرض الصين هيكل مُدَوَّر، له سبعة أثواب فى داخله قُبَّة مُتسعَةٌ عظيمة الشأن، فى أعلاها جوهرة أكبر من رأس العجل، يضىء منها جميع أقطار ذلك الهيكل، وقد أراد جماعة من الملوك أخذها، فلم يَدْنُ منها أحد على عشرة أذرع، إلا مات.

وإن رام أخذها بشىء من الآلات الطوال، إذا بلغ ذلك المقدار، انعكس، فليس يتأتى تناولها بوجه ولا بسبب.

وإن تعرض أحد لهدم شىء من الهيكل، مات مكانه، قوة دافعة منفِّرة قد عُملت من أنواع الأحجار المغنطيسية.

وفى هذا الهيكل بئر، وعلى رأس البئر شبه الطَّوْق، مكتوب عليه بكتاب قديم بقلم المسند هند: «هذه البئر تؤدى إلى مخزن الكتب الأولى، وتاريخ الدنيا، وعلوم السماء، وما كان فيما مضى وما يكون فيما يأتى».

وتؤدى هذه البئر إلى خزائن غرائب هذا العالم، لا يصل إلى الدخول إليها، والاقتباس مما فيها، إلا مَن وازنت قدرته قدرتنا، وساوى علمه علمنا.

وإن وقع البصر على هذا الهيكل، وقع فى قلب الرَّائى له جزع منه، وحنين إليه مختلطان.

وهو على جبل شامخ من حجر صلد، لا يتأتى فيه حَفْرٌ أَلْبَتَّةَ.

* * *

(١) فى الأصل (يفرقون).

ذكر بيوت النيران

فأما بيوت النيران واتخاذها، فأول من رأى ذلك: أفريدون وقيل غيره قبله، لأنها من جنس الآلهة النورية، وأن بالنور صلاح هذا العالم، والنورية تجذب الحيوان كالفراش الطائر والوحش والغزلان، ومن الطير ما يُصاد بالسُّرج ليلا، كما يصاد السمك من الماء ببلاد البصرة ليلا فى الزواريق المُسْرَجة من جهتها، فيظهر السمك من الماء حتى يقع فى جوف الزورق.

والنور عندهم أصل لكل حى، ومبدأ لكل تمام، ولهم فيه كلام يكثر عن إيراد مجمله، فكيف مفصّله، فاتخذ بيتا للنار بطوس، وبيتا بمدينة بخارى، ثم اتخذ الملوك بعده بيوت النار فى المماليك.

ومن البيوت الباقية لها المعظمة عند أهلها: بيت بمدينة دَارَابجِرْد من أرض فارس، كان زرادشت قد أمر يستأسف الملك أن يطلب نارا كان يعظمها جمّ، فطلبت، فوجدت فى مدينة خوارزم، فنقلها يستأسف إلى درابجرد، وهى تسمى آذرجُوى، وتفسيره: نار النهر، وذلك أن آذر: أحد أسماء النهر، وجوى: من أسماء النار، وهذا بالفارسية الأولى، والمجوس تعظم هذه النار الآن أشد تعظيما، وهى أعظم نيرانهم.

وكان لهم بيت نار بإصطخر بأرض فارس يعظمونه، وهو الآن لا نار فيه، والناس يذكرون أنه مسجد سليمان.

قال (س)[1]: قد دخلته وهو على نحو فرسخ من مدينة أصطخر، فرأيت بنيانا عجيبا، وهيكلا عظيما، وفى أعلاه صور من الصخر محكمة عظيمة القدر من الخيل وسائر الحيوان، يحيط بذلك كله سور عظيم منيع من الحجر، وفيه صور الأشخاص قد شكلت وأنبتت وأتقنت، يزعم من جاور هذا الموضع أنها صور الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٦٩.

وفى جوف هذا الهيكل، الريح غير خارجة منه فى ليل ولا نهار، لها هبوب وخفوق.

يذكر من هنالك من المسلمين، أن سليمان حبس الريح فيه، وأنه كان يتغذى ببعلبك من أرض الشام، ويقبل بمدينة تدمر فى الملعب المتخذ فيها، وهى فى البرية بين العراق ودمشق، وبينهما وبين أرض الشام ستة أيام، ثم يتعشى بها فى المسجد.

وبتدمر خلق من العرب، من قحطان.

* وبمدينة جور الذى يضاف إليها الورد الجورىّ، بيت للنار بناه أردشير، له عيد، وهو على عين هناك عجيبة، وإليه منتزّهاتهم، وفى وسط جور بنيان كانت تعظمه الفرس، يعرف بالطربال، خرّبه المسلمون.

وإنما فضل ماء وردهم؛ لصحة التربة، وصفاء الهواء، قالوا: إن سكانها فى غاية الحسن من الاعتدال الحمرة والبياض، وبين جور وشيراز، وهى قصبة فارس عشرون فرسخا.

* * *

القول فى الأرضين والأنهار والبحار

أبو عبيدة: اتفقوا أن طول عمران الأرض من الأميال التى الميلُ منها أربعة آلاف ذراع، الذراع: الذى وضعه المأمون لذراع الثياب، ومساحات البناء، وهى أربعة وعشرون إصبعا.

قال الدولابى، وهو ذراع السواد، وذلك ألفان وثلاثمائة وثلاثون خطوة، وهو بالذراع الهاشمى: ثلاثة آلاف ذراع، ثلاثة عشر ألفا وخمسمائة، وذلك أن أقصى جزائر أقتابس الستة.

وأقتابس: البحر المحيط، الذى لا يُدرى ما وراءه غربا، إلى أقصى عمران الصين شرقا، والشمس إذا غابت فى أقصى الصين، طلعت على الجزائر، وبالضدّ.

فأما الأقاليم السبعة:

فالأولى: أرض بابل، منها خراسان، وفارس، والأهواز، والموصل، وأرض الجبل.

له من البروج: الحَمَل.

ومن النجوم: المشترى.

والثاني: السند، والهند، والسودان.

له: الجدى، وزُحل.

والثالث: مكة والمدينة، واليمن، والحجاز، وما والاها.

له: العقرب، والزهرة.

والرابع: مصر وإفريقية، والبربر، والأندلس.

له: الجوزاء، وعطارد.

والخامس: الشام والروم والجزيرة.

وله: الدلو، والقمر.

والسادس: الترك، والخزر، والديلم، والصقالبة.

له: السَّرْطان، والمِرِّيخ.

والسابع: الدَّيْبُل، والصين.

له: الميزان، والشمس.

وذكر صاحب كتاب «الزِّيج»(١) عن خالد بن عبد الله المروزى أنه رَصَد الشمس للمأمون ببرية ديار ربيعة، بريّة سنجار، فوجد مقدار درجة من الفلك: ستة وخمسين ميلا من الأرض، فضرب العدد فى ثلاثمائة وستين ميلا، فهو دور كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر، فقطعوها على هذا ستة آلاف وأربعمائة وأربعة وعشرين ميلا، ونصف عشر بتقريب.

والمعمور نصف هذا القطر من خط الاستواء إلى الشمال، ومنتهى العمران فى

(١) هو حسين المنجّم.

الشمال: جزيرة نَوْل فى بريطانية.

ذكر جغرافيًا، أن عدد هذه الأرض المعمورة عشرة آلاف ميل وخمسمائة وثلاثون ميلا، وإن عدد البحار المحيطة بالأرض: خمسة، وجميع العيون الكبار: مائتان وثلاثون عينا، والأنهار الكبار الجارية: مائتان وسبعون.

وذكر أن طول كل إقليم من الأقاليم السبعة: تسعمائة فرسخ، فى مثلها.

وقد زعم المجسْطى، أن دور كرة الأرض: أربعة وعشرون ألفا وثلاثون ميلا، وأن قطرها وعمقها: سبعة آلاف وستمائة وتسعة وثلاثون ميلا.

قال (ط): تسعة آلاف، وإنهم أدركوا ذلك بأنهم أخذوا ارتفاع القطب الشمال، فى مُدَّتين على خطٍّ واحد، أعنى أن يكون جميعا، واقعتين تحت خط نصف النهار، فيتفقان فى الطول ويختلفان فى العرْض، مثل الاتفاق الذى وقع بين تدمر فى برية العراق، والرقة، فوجدوا ارتفاع القطب الشمال فى الرقة خمسة وثلاثين، وفى مدينة تَدْمُر أربعة وثلاثين وثلثًا، ثم مسحوا مسافة ما بينهما، فوجدوه تسعة وثمانين، فوجب أن يكون مقدار الدرجة من الفَلَك فى الأرض ستة وثلاثين ميلا، وثُلثى ميل للتقريب، ثم ضربوا ذلك فى ثلاثمائة وستين، وإذا قُسِم دور الأرض على ثلاثة وسبع، كان مما يخرج مقدار الأرض، وذلك إذا ضَربوا مقدار القُطْر فى الدور، كان مما يجتمع مسافة جميع الأرض، مكسورا، ولذلك قال مرجان الفيلسوف: إن دور جميع الأرض، على ما امتحنه أردستانس الحكيم، مائتان وخمسون ألفا، إسْتبروا بالرومية، واستباد يوميل، وذلك واحدٌ وثلاثون ألفا ومائتان وخمسون ميلا.

وحقيقة الإسباديو عندهم: أربعمائة باع، والربوة: عشرة آلاف عُلوة.

قال: والأرض كلها مسيرة خمسمائة عام عندهم، ثُلُث: عمران، وثلث: بحار، وثلث: قفار، غير مسكونة.

وذكر فى السفر الثانى أن استدارة الأرض ست وثلاثون درجة، والدرجة خمسة وثلاثون فَرْسخا، والفرسخ: اثنا عشر ألف ذراع، والذراع اثنان وأربعون إصبعا، والإصبع ست حبات وتسعان، ومصفوفة بعضها إلى بعض، فيكون ذلك تسعة آلاف فرسخ، وهذا غير ما تقدم، فى كثرة العدد، وكِبر الذراع.

ثم قال: وإنما ننقل فى كُلٍّ موضع من هذا الكتاب ما ينسخ لنا، وعندنا كتب الناس، فننقل ذلك عنهم على حسب ما نجده، لا ما نقطع على صِحَّته.

وقد مسح جماعة ممن أتى بعد بطليموس مقدار الدرجة من درج الفلك فيما بين مدينة الرَّقة وتدمر على ما ذكرناه. ووجد حساب الدرجة الواحدة خمسة وعشرين فرسخا، فوجب على هذا أن تكون مساحة أعظم دائرة تقع على كرة الأرض تسعة آلاف فرسخ، إلا أن بطليموس وتيتوس صاحب تركيب كتاب الأفلاك أنكر أن تكون مساحة الدرجة الواحدة تنتهى إلى أكثر من ستة وثلاثين ميلا وثلثى ميل.

وذكروا أن المعمور من الأرض أقل من الثلث وأكثر من الربع، وطول الجزء المعمور من الأرض مبدؤه من الجزائر الخالدات التى هى أقصى بلاد المغرب إلى مدينة شيراز إلى أقصى بلاد الصين، وذلك على الخط الموازى لدائرة معدل النهار، فرأس هذا الخط الذى مبدؤه الجزائر الخالدات هو نظير درجة الشمس بالسواء، إذا كانت الشمس برأس الحمل.

وطول هذا الخط مائة وثمانون جزءًا من أجزاء الفلك.

فأما بَدْءُ عَرْض البلاد، فإنه من ناحية مجرى سُهَيل من أرض الحبشة عن مسافة عشرين ليلة فى سمت مهبّ الجنوب من عدن إلى نول الجزيرة الواقعة تحت الخط الذى يجرى لمنتهى الشمال، وهى بلاد الصقالبة والخزر.

ونول هذه الجزيرة، هى الواقعة تحت منتهى الخط الشمالى.

* * *

جملة جمعتها من كتب فلاسفة اليونانيين فى الأقاليم السبعة

جعل طول الأقاليم جميعها من المشرق إلى المغرب، وهى مسافة اثنتى عشرة ساعة من دورة الفلك، وبين عرض كل إقليم والذى يليه نصف ساعة معتدلة من النهار الأطول.

فالإقليم الأول يميل وسطه على الموضع الذى يكون طول نهاره الأطول ثلاث عشرة ساعة، والسابع يمر وسطه على المواضع التى يكون طول نهارها الأطول ست عشرة ساعة.

* **فالإقليم الأول:** من حيث يكون طول نهاره الأطول اثنتى عشرة ساعة وربع ساعة، إلى حيث يكون طوله ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة، ومن حيث يرتفع القطب من الأفق ستة عشر جزءًا وثلثى جزء، إلى حيث يكون ارتفاعه عشرين جزءًا ونصف جزء، وذلك مسافة أربعمائة وأربعين ميلاً من أقاصى بلاد الصين.

وفيه مدينة مَلِكُها اسمه وَاسْكَرَا، وهى مرسى الصين، ثم يمر على سواحل البحر فى جنوب بلاد السند، ثم يمر فى البحر على جزيرة الكوك، ويقطع البحر إلى جزيرة العرب وأرض اليمن.

ففيه من البلاد المشهورة بلاد ظفار وعُمَان وحضرموت وعدن وصنعاء وما وراء تُبَالة[١] وجُرَش ومَهْرَة، (وسبأ، ثم يقطع الإقليم بحر قلزم فيمر على بلاد الحبشة، ويقطع نيل مصر، وفيه هناك مدينة ملك)[٢] الحبشة تسمى جرمى دنقلة، ثم يمر الإقليم فى بلاد المغرب (أعلى جنوب بلاد البربر)[٣]، إلى أن ينتهى إلى بحر المغرب.

* **والإقليم الثانى:** من حيث يكون طول النهار الأطول ثلاث عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة، ومن حيث يكون ارتفاع القطب أربعة وعشرين جزءًا وعشر

---

(١) فى الأصل: ثبالة.

(٢) ما بين المعقوفين عن الأعلاق النفسية ٩٦.

(٣) ما بين المعقوفين عن الأعلاق النفيسة ٩٦.

جزء، إلى حيث يكون سبعة وعشرين جزءًا أو نصفًا، وهو مسافة أربعمائة ميل، يبتدئ من المشرق فيمر على بلاد الصين. ثم على بلاد الهند، ثم على بلاد السند، وفيه المنصورة والنيرون، ثم يمر بملتقى البحر الأخضر وبحر البصرة، ويقطع جزيرة العرب فى أرض نجد وأرض تهامة. وفيه من المدن المشهورة هناك: اليمامة والبحرين وهجر ومدينة يثرب والجار ومكة والطائف وجدة، ثم يقطع عرض القُلْزم، (ويمر بصعيد مصر فيقطع النيل، وفيه من المدن هناك: مدينة قوس وأخميم وإسنا وأنصنا وأسوان، ثم)[١] يمر فى أرض المغرب على وسط بلاد إفريقية إلى بحر المغرب.

* **الإقليم الثالث:** وسطه من حيث يكون طول النهار الأطول أربع عشرة ساعة إلى حيث يكون طوله أربع عشرة ساعة وربع ساعة، ومن حيث يكون ارتفاع القطب ثلاثين جزءًا وثلاثة أخماس ونصف خمس، إلى حيث يكون أربعة وثلاثين جزءًا، وذلك مسافة ثلاثمائة ميل وخمسين ميلاً. وهو يبتدئ من المشرق فيمر على شمال بلاد الصين، ثم يمر على بلاد الهند.

وفيه مدينة القَنْدَهار[٢]، ثم يمر على شمال بلاد السند على كابل وكرمان وسجستان وجيرفت والسيرجان، وعلى سواحل بحر البصرة، وفيه من المدن هناك: مدينة إصطخر وجوردفا وسابور وجنايا وسينيز وماهير وبان[٣].

ويمر بكور الأهواز والعراق والبصرة وواسط وبغداد والكوفة والأنبار وهيت حتى يمر على بلاد الشام، وفيه من المدن هناك: خيار وسلمية وحمص ودمشق وصور وعكا وطبرية وقيسارية وبيت المقدس والرملة وعسقلان وغزة والمدائن والقلزم، ثم يقطع أسفل أرض مصر، وفيه هناك: الفرما وتنّيس ودمياط وفسطاط مصر والفيوم، ثم يقطع الإسكندرية، ثم يمر على بلاد برقة وإفريقية وفيه مدينة أطرابلس، والقيروان، ومدينة فاس، وينتهى إلى بحر المغرب.

* **الإقليم الرابع:** وسطه من حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة

---

(١) ما بين المعقوفين عن الأعلاق النفيسة ٩٦.

(٢) فى الأصل: القيدهار.

(٣) انظر: الأعلاق النفيسة ٩٧.

ونصف إلى حيث يكون أربع عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة، وارتفاع القطب سبعة وثلاثين جزءًا، وذلك مسافة ثلاثمائة ميل، ويبتدئ من المشرق فيمر ببلاد التبت إلى خراسان، فيكون فيه من المدن: فرغانة وخُجَنْدَة وأَشْرُوسَنَة وسمرقند وبخارا وبلخ وآمد وهراة ومرورود وسَرْخَس وطوس ونيسابور وجرجان والرى وإصبهان ونهاوند والدينور وحلوان وشَهْرَزور وسُرَّ من رأى والموصل ونصيبين وآمد ورأس العين وقالى قلا[1] وشمْشاط وحران والرقة وقَرْقِيسيَا[2] ويمر على شمال الشام وفيه من المدن هناك: بالس ومنبج وملطية وزبطرة وحلب وقنسرين وأنطاكية وطرابلس الشام والمصيصة والكنيسة السوداء وأذنة وطرسوس وعمورية واللاذقية، ويمر فى بحر الشام على جزيرة قبرس ورودس، ثم يمر فى أرض المغرب على بلاد طنجة، وينتهى إلى بحر المغرب.

وفى هذا الإقليم تقع قرطبة وما يليها؛ لأن طول نهارها فى تناهيه أربع عشرة ساعة وثلثا ساعة، فبينها وبين الإقليم الرابع نصف سدس ساعة، وذلك خمسة وعشرون ميلاً سواء.

* **الإقليم الخامس:** وسطه من حيث يكون طول النهار الأطول خمس عشرة ساعة وربع ساعة، ومن حيث يكون ارتفاع القطب واحدًا وأربعين جزءًا ونصف جزء، وذلك مسافة مائتى ميل وخمسة وخمسين ميلاً.

وهذا الإقليم يبتدئ من المشرق من بلاد يأجوج ومأجوج، ثم يمر على بلاد خراسان، وفيه من المدن هناك: الطراز، وهى مدينة البحار ونوكث واسبيجاب، ثم يمر فى بلاد الروم على خرشنة، ثم يمر بسواحل الشام مما يلى الشمال، ثم

---

(١) قالى قلا: مدينة من مدن أرمينية، مداخلة لبلاد الروم، وهى ثغر لأهل أذربيجان وأرمينية، وهى مدينة حسنة جليلة عامرة وتغلّب عليها الروم وعلى ما جاورها مرّات، واستنقذها المسلمون من أيديهم، وبينها وبين تفليس أربع مراحل، ومنها ابتداء الأنهار العظام، وإليها ينسب أبو علىّ القَالى صاحب النوادر. انظر: آثار البلاد ٥٥١-٥٥٢ والروض المعطار ٤٤٧ ونزهة المشتاق ٢٦٧.

(٢) قرقيسيا: كورة من كور ديار ربيعة، بين الحيرة والشام، وفى الجانب الشرقى من الفرات، فتحها عنوة عمرو بن مالك بن عبيد بن نوفل بن عبد مناف وأجاب أهلها إلى الجزية. الروض المعطار ٤٤٥.

يمر على بلاد الأندلس؛ لأن طول نهارها فى تناهيه خمس عشرة ساعة، فعليها يمر وسط الإقليم الخامس بالسواء.

* **الإقليم السادس**: من حيث يكون طول النهار الأطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة إلى حيث يكون خمس عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة، وارتفاع القطب واحد وأربعون جزءًا وخمس جزء إلى سبعة وأربعين جزءًا وربع جزء، وذلك مسافة مائتى ميل وعشرة أميال.

وهذا الإقليم يبتدئ من المشرق ويمر على بلاد الخزر، فيقطع وسطه بحر طبرستان إلى بلاد الروم، فيمر على جزران وأماسيا وخلقيذيون والقسطنطينية وبلاد برجان، وينتهى إلى بحر المغرب، وفى هذا الإقليم تقع لابردة وأواخر بلاد إفرنجة وبلاد شاخس.

* **الإقليم السابع**: وسطه حيث يكون طول النهار الأطول ست عشرة ساعة إلى حيث يكون ست عشرة ساعة وربع ساعة، وارتفاع القطب ثمانية وأربعون جزءًا وسدس جزء، إلى حيث يكون خمسين جزءًا ونصف الجزء، وذلك مسافة مائة وخمسين ميلاً وقيل خمسة وثمانون ميلاً.

وهذا الإقليم يبتدئ من المشرق ومن شمال يأجوج، ثم يمر على بلاد الترك، ثم على سواحل بحر طبرستان مما يلى الشمال ثم يمر ببلاد برجان والصقالبة، وينتهى إلى أوائل جزائر المتاشبيتش.

فأما ما وراء هذا الإقليم إلى آخر المعمور، فإنه يبدأ من المشرق[1] من بلاد التغزغز على أرض الترك على بلاد اللآن، ثم يمر على برجان، ثم على الصقالبة، وينتهى إلى بحر المغرب.

وهذا الإقليم خارج عن الأقاليم السبعة، وطول نهارهم زائد على ست عشرة ساعة ونصف إلى نحو سبع عشرة ساعة.

وقيل إن المعمور يبلغ إلى طول ما يكون أطول النهار، وأطول الليل عندهم ثمانى عشرة ساعة، كما أن قبل الإقليم الأول إلى خط الاستواء ببلاد السودان الذين يأكلون الناس.

(١) فى الأعلاق النفيسة ٩٨ «فإنه يبدأ من المشرق من بلاد يأجوج ثم يمرُّ على بلاد التغزغر».

أخبرنى (د) قال: ذكر لى رجل من أهل الحذق والمعرفة بالهندسة قال: دخلتُ بلاد غياروا من وراء بلاد غانة وأطول نهارهم من اثنتى عشرة ساعة ونصف.

وذكر أنه لا ظل لنصف نهارهم من شهر مايه - وهو حزيران - ثم يكون ظلهم من ناحية الجنوب إلى نصف شهر شتنبر بلا ظل أيضا نصف نهارهم ينعكس بعد ذلك فيكون من ناحية الشمال.

وأهل هذا الموضع أشد سوادا، وشعورهم أشد تفلفلا، وخلقهم أشد تشويها من سائر السودان[1]، وطباعهم وحشية، ونفوسهم سبعية، وكثير منهم يثبون على الناس كالكلاب الكَلِبة.

فأما الذى لا يُعمر من الأرض، ولا يكون فيه حيوان ولا نبات، فهو ما كان من الجنوب، عرضه عن خط الاستواء تسع عشرة درجة؛ لأن الشمس إذا صارت فى السُّنبلة فى حدّ ثلاث درجات إلى أن تبلغ خمس درجات من الحوت، قَرُبت منه وثبتت عليه فأحرقت كل شىء هنالك.

وأخبرنى العذرى قال: أخبرنى رجل من قريش أنه كان على حافة البحر المحيط - بحر المغرب - فأصبح على أحد بيوت ذلك الموضع طائر قد وقع على البيت وانهدم البيت من وقوعه، ودخلت فى حوصلته خشبة من خشب البيت فألقى ميتًا، وزعم أنه من طرف جناحه إلى الطرف الثانى ثمانون شبرًا، ولم نر أحدًا ذكر أنه عاين شيئًا من هذا الحيوان دون خط معدل النهار إلا الفيلة؛ فإنها تجلب من هناك، وتعيش فيما ولدت بها من الأقاليم ولكنها لا تتوالد.

وذكر بطليموس أن مدن الأرض فى عهده أربع ألاف ومائتان[2].

وقد بين أهل العلم بالهندسة بغير وجه من البراهين، أن الأرض ثابتة فى وسط العالم، قائمة فى مركزه لا حركة لها فى ذاتها، وأنها مستديرة الشكل، وأن جميع الأثقال تميل وترجع إليها بالطبع، وأن كل جزء من أجزائها البعيدة عن المركز بدور الارتفاع والانخفاض مطيعة إلى مركزها، وأن الفلك المستقيم يدور عليها بجميع ما

(١) انظر: الأعلاق النفيسة ١٠١.

(٢) ذكر المسعودى فى مروج الذهب ١/٨٦ أنَّ مدن الأرض فى عهد بطليموس أربعة آلاف وخمسمائة وثلاثون مدينة.

يحيط به من الأفلاك والكواكب السيارة والثابتة دورة واحدة فى كل أربع وعشرين ساعة مستوية، التى هى جملة النهار والليل من آخر النهار.

وركب الله عز وجل على الأرض جرم الشمس، ليعلمه بالحكمة التى ينبغى أن يكون عليها تركيب العالم فى فلك أخرج مركزه عن مركز الأرض بدرجتين ونصف من درج فلك البروج، فلذلك ما اختلفت حركة الشمس على الأرض، فحمى مزاج جوهر الهواء المحيط بالناحية الجنوبية، وكان الجزء المعمور من الأرض فى الناحية الشمالية، إذ كان كل حيوان بطبعه أحمل للبرد منه للحر، ألا ترى أنه يتولد فى الماء من الحيوان ما لا يحصى كثرة، وكذلك من النبات؟

ولا يتكون فى النار منه شىء إلا الشاذ النادر ـ إن صحَّ ذلك فيه ـ كما زعموا أنه يتكون فى أفران الزجَّاجين ضرب من سام أبرص حمر الألوان، فإذا خرجت عن النار هلكت.

فوجب لهذه العلة أن يكون رسم الأقاليم السبعة وبحدودها فى الجزء الشمالى من الأرض ـ كما ترى ـ .

وأهل القطب الشمالى يَرَوْنَ بَنَات نَعْشٍ[1]، ولا يرون كواكب القطب الجنوبى كسُهيل، فإنه لا يرى بخراسان، ويرى بالعراق فى السنة أيامًا، ولا يقع عليه عين جمل من الجمال إلا هلك، فهذا خاصة فى هذا النوع من الحيوان، وسهيل يظهر فى البلدان الجنوبية السنة كلها.

* والأرض كلها نصف عشر ثمن جزء من الشمس، فهى أعظم منها مائة وستين مرة، وقطب الشمس اثنان وأربعون ألفًا، وسائر الكواكب العلوية أعظم من الأرض بدون هذه النسبة، وما تحت الشمس منها أقل من الأرض.

فأما القمر، فإنه أعظم من الأرض سبعًا وثلاثين مرة وأقرب بعد القمر من الأرض مائة ألف وثمانية وعشرون ألف ميل، وبُعْدُ زُحَل من الأرض سبعة وسبعون ألف ميل إلا شيئًا.

* * *

(١) بَنَاتُ نَعْشٍ: سبعة كواكب تُشاهد جهة القطب الشمالى، شُبِّهت بحملة النَّعْشِ.

القول فى البحار

زعم كثير من الفلاسفة وأهل العلم بالهندسة أن البحر الأعظم محيط بالأرض من جميع جهاتها، لأسباب ذكروها، ليس هذا موضع ذكرها، وأن الشكل الذى ينسب إلى العنصر المائى السيال الجوهر، هو شكل ذو ثمانى قواعد مثلثات، وذلك جسم يحيط به ثمانية سطوح مثلثات متساوية الأضلاع قائمة الزوايا، يسمى كعبًا، وهو شكل الأرض على رأى أفلاطون وكثير من القدماء.

وجميع بحار الأرض فروع من هذا البحر، وهى متصلة الأجزاء ملتقية المياه.

وقد نقل بعض المؤرخين أن أحد ملوك الأرض أراد أن يعلم صحة ذلك، فأنشأ سفنًا ضخمة حصينة، وشحنها بالرجال والأزواد والمال، وأرسلها نحو المشرق والمغرب والشمال والجنوب، فأصابوا جميع أجزاء البحر يتصل بعضها ببعض، وألفوها كلها تتشعب من البحر الأعظم المحيط.

وقال أهل العلم بهيئة الأرض والبحار، إن الأمهات الكبار المتفرعة من البحر المحيط أولها البحر الأعظم الآخذ من المغرب إلى الجنوب، وكذلك عرف بالبحر الجنوبى، وهو يأخذ من المغرب إلى القلزم ويمر بوادى القرى إلى الجار[١] وجُدَّة وأَيْلَة وعدن أَبْيَن والشّحر وعمان وعبادان إلى أرض السودان، ويمر بالنصف ببلاد العود إلى أكثر الهند إلى واق واق (فى الصين)[٢].

وله جناحان أحدهما يأخذ إلى جزيرة العرب، ويمر باليمامة وعمان ومهرة والشحر، والجناح الآخر يأخذ إلى بلاد فارس، وعليه يقع سيراف والمولتان[٣] والدَّيْبُل، وبهذين البحرين سمى البلد بالبحرين.

* وأما البحر الثانى الذى يتلو البحر الجنوبى فى العظم، فهو البحر الشمالى الآخذ من الشمال إلى ناحية الجنوب، وابتداؤه من طول واحد، ويمتد إلى طول

---

(١) فى الأصل (انجار).

(٢) ما بين المعقوفين عن مختصر البلدان ١١.

(٣) فى الأصل (ماوه) والتصحيح عن مختصر البلدان ١١.

سبعة عشر على صورة الطيلسان إلى أن يأتى شكله شكل قطعة دائرة، ثم يمر احديداب إلى أن يأتى شكله شكل الثابورة[١].

وليس على هذا البحر من المدن إلا مدينة واحدة يقال لها مولية، ولا يركبه أحد لغلظ جوهر مائه وظلمته وتكاثف الهواء عليه، وإنما يدخل منه الموضع الموازى لسمت المغرب، فإنه يركب من هناك إلى الجزائر التى من أقاصى بلاد المغرب.

* وأما البحر الثالث، فهو البحر الرومى السد، وهو يأخذ من أنطاكية إلى أقصى بلاد المغرب، وهو يلتقى البحر المظلم، ويخرج إلى الجزائر الخالدات[٢]، ويخرج من هذا البحر الرومى خليج كبير يمر بجزيرة الأندلس، ثم يمر هذا البحر إلى السُّوس الأقصى من بلاد فارس والأهواز، ثم يأخذ هذا البحر الثالث من أنطاكية فيصير بحرا رابعا إلى القسطنطينية، ثم ينعطف إلى ناحية المغرب آخذا إلى الأبواب من ناحية بلاد الخزر.

وعلى هذا البحر المنعطف تقع المدن الخمس التى يأخذ الخزر عليها فى ممرهم إلى القسطنطينية، منها المدينة البيضاء.

وعلى ساحل هذا البحر تقع طَرَسوس والمَصِّيصة والإسكندرية وأنطاكية واللاذقية وعرقة وأطرابلس الشام وسائر ما يتلو هذه البلاد، ثم يدور إلى بَلْخ مدينة الخزر الموضوعة، ومن هناك يأخذ إلى باب الأبواب.

* * *

(١) كذا بالأصل.

(٢) جزائر الخالدات، ويقال لها أيضًا جزائر السعادات، فى البحر المحيط فى أقصى بلاد المغرب، كان بها مقام جمع من الحكماء بنوا عليها ابتداء طول العمارات، قال أبو الريحان الخوارزمى: هى ستّ جزائر واغلة فى البحر المحيط، قريبات من مائتى فرسخ، وإنما سُمِّيت بجزائر السعادات؛ لأنَّ غياطها أصناف الفواكه والطيب من غير غرس وعمارة، وأرضها تحمل الزرع مكان العُشب، وأصناف الرياحين العطرة بدل للشوك. آثار البلاد ٢٩.

بحر الهند

وهو البحر الحبشى، وهو بحر الصين والهند والسند والزَّنج والبصرة والأُبُلّة وفارس، وكما زعموا وعمان والبحرين والشحر واليمن وأَيْلَة والقُلْزُم.

وليس فى المعمور أعظم منه، طوله من المشرق إلى المغرب ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، وعَرْضه فى موضع آخر ألف وتسعمائة ميل، وقد اختلف فى ذلك، وهذا أصحّ.

وهذا البحر وإن كان واحدا، فهو ستة أبحر متخرقة بعضها إلى بعض، والأدلاَّء يعرفون فصل ما بينها؛ لأن لكل بحر لونا وريحا وسمكا ونسيما ليس للآخر.

فمنها: بحر لاروى، وعليه بلاد صَيمُور وسوبارة وتانة وسَنْدان وكنباية، وغيرها من بلاد الهند.

ثم بحر هَرْكند، ثم بحر كلاَّبار، وهو بحر كَلّه والجزائر، ثم بحر كَنْدُرنج، ثم بحر الصَّنْف الذى يضاف إليه العود، ثم بحر الصين وهو بحر صَنْغَى، لا يُحَدُّ ما وراءه.

وفى هذه البحار جزائر لا تحصى، وأمم لا تكتب عدا، وأكثر غذائهم النارجيل، وبين بحر لاروى وهَرْكند جزائر المملكة التى ذكرناها قبل هذا، وأموالها الوَدَع.

وذكر أن ورق النارجيل يطرح على البحر نحو ضفّته فيتراكب عليه حيوان ثم يؤخذ ويُلقى فى الهواء فتحرقه السَّموم ويكون وَدَعا فيملأ فى ذلك بيوت الأموال.

وذكر بطليموس أن مراقى بحر هركند، وهى جزائر هذه المملكة ألف وتسعمائة جزيرة عامرة سوى الغامرة.

وبجزائر هذه المملكة يكون العنبر الجيد، وربما انتهى منها القطعة بقدر البيت، وسنذكر أين يكون العنبر وأصله عند ذكر البحر الأخضر، وفيه ـ إن شاء الله.

وفى جزائر بحر الصنف مملكة المَهَراج، ولا يستطيع أن يطوف بجزائره بأسرع المراكب فى سنين كثيرة.

وفى جزائره أنواع من الطيب والأفاويه، وليس لأحد بالهند من ذلك مالَهُ. وجزيرة الملك المهراج التى هى قراره ـ مفرطة الكبر متصلة العمارة، كثيرة الخصب، ذكر بعض التجار الذين دخلوها، الموثوق بنقلهم أن الدِّيكة إذا رقَّت بما فى الأشجار، تجاوبت لمائة فرسخ؛ لاتصال عمارتها وانتظام مساكنها، لا مفازة فيها ولا خراب، وأن المسافر يسافر فى أقطار تلك الجزيرة بلا زاد، ويحُل على الطعام وخصب العيش حيث أراد.

ومتصل جزائره بجبال شوامخ فى أعنان السماء تظهر منها بالليل نار حمراء تقذف بأشد ما يكون من صوت الرعد والصواعق، وربما سمع منها صوت مهول مفظع خارق للعادة ينذر بموت ملكهم وتليها الجزيرة التى يسمع منها على دوام الأيام أصوات الطبول والسرنايات والعيدان وسائر أنواع الملاهى، وأنواع الرقص والتصفيق يفهم ويميز بعض ذلك عن بعض.

ويزعمون أن الدجال بتلك الجزيرة[١].

وفى جزيرة المهراج هذه جزيرة من أربعمائة فرسخ، والله أعلم.

* فأما بحر الصين، فإن من عجائبه أن فيه نوعًا من السراطين، يخرج منها كالذراع والشبر، فإذا بان عن الماء وصار إلى البر عاد حجرًا، وانقلب عن الحيوانية، وهو يدخل فى أكحال العين.

* وليس فى ممالك السند والهند من بعد المسلمين مملكة مثل البَلَّهْرَى، وهم تطول أعمارهم، بخلاف المعلوم من غيرهم، ويقولون بِسُنَّة العدل.

وتليه مملكة الطَّاقَى، ولهم جمال، والتجار يتنافسون فى شراء نسائهم، (ثم يلى هذا الملك مملكة دَهْرَم. وهذه سمةٌ لملكهم).

وهو ذو مملكة عظيمة، وهو يحارب البَلَّهْرَى، ويقال إن عدد الغسالين والصناع بعسكره خمسة عشر ألفًا، وماله الودع.

---

(١) مروج الذهب ١/ ١٥٨.

وفى بلادهم من الذهب والفضة ومعادنها مالا يحصى كثرة.

وفى بلده الحيوان المعروف بالبشان، وهو الكركدن، وقد يكون بالهند، إلا أن الذى هنا أجلد، وقرنه أنقى، والفيل يرهبه، وهو أشد خلق الله عز وجل، وهو دون الفيل فى الخلق، وهم يأكلون لحمه كلحوم الجواميس، فى صورتها صور جميع الحيوان، فأحكم ما يكون سوادًا فى بياض، وربما كان بياضًا فى سواد، وهو قليل تصنع منه المناطق بالألف.

وأكثر ملوك الهند لا يرون حبس الريح فى الجوف، وكذلك حكماؤها[١] لا يستحيون فى إظهارها فى كل أحوالها، ويزعمون أن حبسها أصل الأذى، ويرون أن الجشاء والسعال أقبح منها، ويزعمون أن صوت الضرطة دفعها، والمذهب لريحها، وقد ذكر ذلك فى القصيدة المعروفة بذات الحُلَلِ: [من الرجز]

قَدْ قالَ ذو العلم الفصيح الهندى
مقالة أفصح فيها عندى
لا تَحْبِسِ الضّرْطة إذَا حَضَرَتْ
وَخَلِّها وافتحْ لها ما استَفْتَحَتْ
فإنَّ ذا[٢] الدَّاير فى إمْسَاكِها
والرّوح والراحة فى فكَاكِها
والقُبْحُ فى السُّعَالِ والمُخَاطِ
والشُّؤْمُ فى العُطَاسِ لا الضُّراطِ
أمَّا الجُشَاءُ ففُساءٌ صَاعِدُ
ونَتْنُهُ على الفُساءِ زائدُ[٣]

ومن مذاهبهم أن ما ينالهم من النعيم فى المستقبل مُؤَجَّلاً هو بقدر ما تُعَذِّبُ به أنفسهم فى هذه الدار مُعجلاً.

(١) للمزيد من ذلك راجع المسعودى ١/ ١٧٩ فى بعض عوائد الهند والصين.

(٢) فى المسعودى (أدوا).

(٣) أبيات الرجز فى المروج ١/ ١٧٩.

قال[1] : ولقد رأيت منهم رجلاً ببلاد صيمور، وبها من المسلمين نحو من عشرة آلاف، وذلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وهو يطوف فى أسواقهم ومعه جماعة من أهله، وقد ظهرت له الناس، وقد وضع على رأسه الجمر والكبريت، فيسير وهامته تحترق، وروائح دماغه تَتَضَوَّع، فلما دنا من النار أخذ خنجراً، فوضعه على فؤاده، فشقه ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده، فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر ودفعها إلى بعض إخوانه تهاونًا بالموت، ولذة بالنقلة ثم هوى بنفسه فى النار.

زعموا أن جزيرة الصنف بينها وبين قمار التى يجلب منها العود القمارى مسيرة شهر، وبين قمار ونيومة ـ وهى الجزيرة التى يكون بها العود الهندى ـ خمسة أيام.

وذكروا أن شجرة العود الطيب تكون بقدر شجر الرمان، إلا أن ورقها مثل ورق الريحان، فما كان منها بين الحجارة فهو العود الطيب يكون رطبًا، وسائره يكون أجناسًا عشرة، كل جنس لا يشبه الآخر، فمنه ما يكون ورقه مثل ورق الكمثرى والخوخ، وذلك فى جبل الصنف وتساير فى جبل الصنف هذا، إذا جئت فى البحر بالريح الطيبة نحو خمسة عشر يومًا، وأكثر شجرها عود، ومنه عامة ما يخرج إلى البلاد، واللَّك فيه كثير أيضًا.

ومن حيوان هذا الجبل الفيل والكركدن.

ويخرج من هذا ـ بحر الهند ـ خليج يتصل بأرض الحبشة والزنج، يسمى البربرى، طوله خمسمائة ميل، وعرضه خمسمائة ميل، وليس فى البحار أطول من هذا الخليج، وموجه أعمى لا ينكسر، ولا يظهر منه زبد ككسر أمواج سائر البحار، يرتفع موجه ارتفاع الجبال الشواهق، ثم ينخفض كأخفض ما يكون من الأودية، وفيه يكون السمك المعروف بالأوال، طول السمكة أربعمائة ذراع إلى الخمسمائة ذراع، بالذراع العمرى، وهو ذراع أهل ذلك البحر، وربما ظهر منه طرف كالشراع العظيم، وينفخ الصعداء بالماء، فيذهب الماء فى الجو أكثر من علو سهم، ويحشر بذنبه وأجنحته السمك إلى فيه، وهو قد فغر فاه فتهوى إلى فيه جريًا.

(٤) النقل هنا عن المسعودى.

فإذا بغت هذه السمكة، بعث الله لها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلتصق بأصل ذنبها، فلا يكون لها منها خلاص، فتخترق البحار، وتضرب بنفسها حتى تموت وتطفو فوق الماء، فتكون كالجبل العظيم.

وكذلك التمساح آفته من دويبة فى ساحل بحر النيل[١]، وهو أن التمساح لا دبر له، وما يأكل يتكون فى بطنه دودًا، فإذا أذاه ذلك خرج إلى البر، فاستلقى على قفاه فاغرًا فاه، فينقضُّ إليه طير الماء من أنواع كثيرة، فتأكل ما يظهر فى جوفه، قد اعتادت ذلك منه، وتكون تلك الدويبة قد كمنت فى الرمل، فتثب إلى حلقه، وتلج جوفه، ثم تخرق جوفه وتخرج، وربما قتل نفسه قبل أن تنقر جوفه، وهى دويبة تكون نحو الذراع على صورة ابن عُرْسٍ[٢] ذات قوائم شتى ومخالب.

وبين بحر هركند ولاروى من هذه البحار التى ذكرنا ـ جزائر نحو ألف، وبين كل جزيرة الفرسخ ونحوه، تملكها امرأة، كذلك كانوا على قديم الزمان، وهذه الجزائر تعرف بالديجبات، ولا تحصى جيوشها لكثرتهم.

وآخر هذه الجزائر جزيرة سَرَنْدِيب[٣]، وتتصل بهذه الجزائر جزائر مختلفة لا تحصى جيوشها.

وهذه البحار المذكورة كلها تذيب الحديد، وتمحق مسامير السفن، فلا تزال تندق، وإنما يتخذ أهلها سفنهم من الساج، محيطة بليف النارجيل بدلاً من المسامير.

وبجزيرة سرنديب هيكل عظيم من ذهب يفرطون فى مبلغ زينته وقيمة الجوهر الذى عليه، وإليه تجتمع أهلها فيتدارسون سير آبائهم وقصص ملوكهم، ويقال إن جزيرة سرنديب ثمانون فرسخًا فى مثلها.

---

(١) النصّ عن المسعودى ١/١٠٨.

(٢) ابن عُرْس: دويّبة كالفأرة تفتك بالدَّجاج ونحوها جمع بنات عرس.

(٣) سرنديب: جزيرة الهند فى بحرهم المسمّى هركند، وهى جزيرة كبيرة مشهورة وهى ثمانون فرسخًا فى ثمانين فرسخًا، وبهذه الجزيرة نزل آدم حين أُهْبط من الجنة ويذكر البراهمة أنَّ على هذا الجبل أثر قدم آدم عليه السلام مغموس فى الحجر طوله سبعون ذراعًا. انظر: الروض المعطار ٣١٠ والمسالك والممالك لابن خرداذبة ٦٤ ومختصر البلدان ١٠.

(ح) وبسرنديب جبل منيف ذاهب فى السماء، يراه من فى البحر على مسيرة الأيام، وهو الذى ذكر أنه أهبط عليه آدم عليه السلام ـ وقد ذكرت البراهمة أن عليه قدم آدم مغموسة فى الجبل خمسين ذراعًا. وعلى هذا الجبل تلألأ نور يشبه البرق أبدًا. وعلى هذا الجبل وحوله أنواع الياقوت الأحمر والأصفر والأكحل، والأحمر أشرفها وأنفسها، وذلك أنه إذا بقى عليه النار، ازداد حمرة وحسنًا، وإن كانت عليه نكتة شديدة الحمرة، ونفخت عليه النار، انبسطت فى الحجر تلك الحمرة فحسنته ولونته.

قالوا: إن مبارد الحديد لا تؤثر فى ألوان الياقوت، وقد زعم أرسطاطاليس أن من تقلد حجرًا أو تختم به من هذه الأصناف الثلاثة التى ذكرنا، من الياقوت، وكان فى بلد قد وقع فيه الطاعون منع منه أن يصيبه ما أصاب أهل البلد.

وقال (ح): إن سرنديب ليس فى مملكة هذه المرأة كما قال (س)، وإنما هى لملك البهل، وهو يشرب الخمر، تحمل إليه من بلاد العرب فيشربها، وليس فى ملوك الهند من يشربها غيره، وأنه يشربها ويحللها لأهل مملكته.

. . . ومماليك هذه المملكة تسمى بران، وهى تدعى البرانية، وهى شديدة المملكة، وإن ملك البهل فى جيشه وعظيم مملكته يعجز عنها، وبلادها وبية، من سكنها من غير أهلها فكان آجالهم تنفق فيها.

ولفِيَلتهم من العِظَم ما ليس فى سائر الممالك.

وملوك الهند يشترون كل ذراع يزيد على خمسة أذرع فى ارتفاع الفيل بألف دينار إلى سبعة أذرع، وبحساب ذلك فيما نقص عن ذراع. ولا يوجد عندهم ما يزيد على سبعة أذرع إلا فِيَلة عند البرانية، إلى عشرة أذرع، وليس فى فيلة ملوك الهند أجرأ على القتال من فيلة الصيلمان ـ ملك من ملوكهم ـ وإنما يختبرون جرأتها بأن يوقدوا لها نارًا عظيمة، ثم يحملونها عليها، فما اجترأ عليها منها، فإنه جرئ، وما حام عنها أو جبن عن اقتحامها، فإنه يصلح لنقل المتاع وحمل الأثقال.

ويمتد من البحر خليج آخر ينتهى إلى القلزم، وبينها وبين فسطاط مصر ثلاثة أيام، وعليه مدينة أيلة والحجاز وجدة واليمن.

وطوله ألف وأربعمائة ميل، وما ذكرنا من البلاد على شرقيه وعلى غربيه صعيد

مصر وما والاه، وأرض البجاة وما اتصل بها، ثم بلاد الأحابيش والسودان، إلى أن يتصل بأقاصى أرض الزنج، وهناك بلاد سفالة أرضهم.

وقد كان بعض ملك من ملوك اليمن حفر بين القلزم وبين البحر الرومى حفيرًا، ليصل بينهما، فلم يتأت له ذلك لارتفاع القلزم وانخفاض بحر الروم، والله ـ عز وجل ـ قد جعل بينهما حاجزًا، كما قال فى كتابه العزيز(١).

والنهر الذى حفر ببحر القلزم يعرف بذنب التمساح. على ميل من مدينة القلزم، عليه قنطرة عظيمة يجتازها حاجّ مصر(٢).

فلما لم يتأت له هذا، احتفر خليجًا آخر من بحر الروم مما يلى تَنّيس ودمياط، ويعرف هذا الخليج بالزبر والخبية، فاستمر الماء فى هذا الخليج من بحر الروم إلى موضع يعرف بِنَعْنعَان(٣)، فكانت المراكب تدخل من بحر الروم إلى هذه القرية، وتدخل من بحر القلزم إلى آخر ذنب التمساح، فيقرب حمل ما فى كل بحر إلى الآخر، ثم ارتدم ذلك على طول الدهر، وآثار الحفر فى هذا الموضع بينة.

وقد هَمَّ الرشيد أن يصل ما بين هذين البحرين من أعلى مصب النيل من نحو بلاد الحبشة وأقاصى صعيد مصر، فلم يتأت له قسمة ماء النيل، فرام ذلك مما يلى بلاد الفرما نحو بلاد تَنّيس، فقال له يحيى بن خالد: إن تم هذا اختطف الروم الناس من المسجد الحرام ومكة، فامتنع من ذلك.

وقد أراد عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ محاولة هذا عند تولّيه أمر مصر، فمنعه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه.

ويتشعب من هذا البحر خليج ثالث، وهو بحر فارس، وطوله ألف وأربعمائة ميل، وعرضه فى الأصل خمسمائة ميل، وينتهى إلى بلاد الأبلة والخشبات وعبادان من أرض البصرة.

وخشبات البصرة سمى الموضع بذلك، لأنها علامات من خشب منصوبة فى

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة النمل، آية ٦١ ﴿أَمَّن جَعَلَ الأرضَ قراراً وجعلَ خِلالَها أنهاراً وجعلَ لها رَوَاسِىَ وجعلَ بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثَرُهم لا يعلمون﴾.

(٢) فى الأصل: حاج نيل مصر.

(٣) فى الأصل: بقيعان.

البحر للمراكب إلى عمان، وهذا أوَّلُ حَدّ فارس، وهذا الخليج مثلث الشكل، تنتهى زاويته بلاد أبلّة، وعليه مما يلى الشرق ساحل فارس، وساحل سيراف، وساحل كرمان، وبلاد مكران، وهى أرض الخوارج، وهذه كلها أرض نخل[١]، ثم ساحل الهند وفيه مصب مهران، وهو نهر السند، ثم يتصل إلى أرض الصين ساحل واحد عامر، ويقابل ما ذكرنا مما يلى الغرب جزائر قطر، وشط بنى جذيمة، وبلاد عمان، وهى تقابل بلاد كرمان، ثم أرض الشحر والأحقاف وحضرموت.

وأهل الشحر ناس من قضاعة، ويدعى من سكن هذه البلاد من العرب المهرة، وهم يجعلون الشين بدلاً من الكاف[٢].

وعندهم أجود العنبر المدور الأزرق النادر، ولهم نجب يركبونها على الساحل، فإذا أحست بالعنبر بركت عليه، وقد ريضت لذلك واعتادته، وبهذا الساحل يكون الكندر، ومنه يحمل.

وأجود العنبر بجزائر الزنج، وهو شئ يتكون فى قعور البحار فيكون كأنواع الفطر والكمأة، وربما بلغ منها شيئًا الحوت المعروف بالأوال، فيقتله فيطفو، وله ناس يرصدونه من الزنج، فيطرحون فيه الكلاليب والحبال، ويشقون عن بطنه فيخرجون العنبر منها، ويعرف ذلك العنبر العطارون بالعراق وبالهند، وبساحل بحر الأندلس عنبر جيد بموضع يقال له شنترين وشَذُونَة[٣].

وفى هذا الخليج جزائر كثيرة مثل جزيرة خارج، وفيها مغاص اللؤلؤ، وهو المعروف بالخاركى، وجزيرة أوال فيها بنو قعن وخلائق كثيرة من العرب.

وفى هذا البحر الجبال المعروفة بكُسَيْر وعُوَيْر وثالث ليس فيه خَيْر، وهى جبال سود ذاهبة فى الهواء، لا نبات لها ولا حيوان منها، يحيط بها موج من البحر متلاطم تجزع منه النفوس، ولابد للمراكب من الدخول فى وسطها، والاجتياز عليها، فتخطئ وتصيب. وهى فى طريق من قطع من عمان إلى سيراف، وبين

---

(١) فى الأصل: نجد، وهو تحريف.

(٢) تعرف هذه الظاهرة بالكشكشة.

(٣) فى الأصل: شَنترة وبشاونة.

هذا الخليج وخليج القلزم المذكور من المسافة فى البر ألف وخمسمائة ميل، وهذه المسافة داخلة فى البحر من أكثر جهاتها وهذه البحار كلها واحد: بحر الصين والهند وفارس واليمن، وتختلف فى ارتجاجها وتتضاد، فأول ما تبتدئ صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة إلى أن تصير إلى برج الحوت، وبحر الهند بالضد، فهما شبيهان بطبيعة المدتين اللتين يهيجان فى وقتهما، فأما بحر فارس فإنه يركب سائر السنة.

وليس فيما ذكرنا من خلجان هذا البحر أنتن ريحًا ولا أقل خيرًا فى بطنه وظهره من بحر القلزم، وهو على يمين بحر الهند ولا أوحش منه، ولا أكبر جبالاً، والمراكب لا تسير فيه إلا نهارًا، فإذا جن الليل أرست فى مواضع معروفة كالمراحل.

وهو حد بحر الهند والسند الذى فى قعره اللؤلؤ والعنبر، وفى جباله الجوهر ومعادن الذهب والفضة.

ومن معادنه الأبنوس والخيزران والعود، وأشجار الكافور والقرنفل والصندل، وأنواع الطيب.

ومغاص اللؤلؤ من بلاد خارك قطر وعمان وسرنديب وغيرها من هذه البحار خاصة، وغيره من البحار لا لؤلؤ فيه.

والغاصة لا يتناولون شيئًا من اللحمان إلا السمك، ولابد من شق أصول آذانهم لخروج النفس؛ لأنهم يحملون على أنوفهم الذبل، وهو ظهور السلاحف، ويجعلون فى آذانهم قطنًا فيه دهن، يعصرون من ذلك الدهن فى قعر البحر فيضيء ضياءًا نيرًا، ويطلون سوقهم وأيديهم بالسواد خوفًا من بلع دواب البحر لهم، فتنفر من السواد، ويتصايحون صياح الكلاب فى قعر البحر فينفرها أيضًا، وربما خرق الصوت البحر فيسمع.

والغوص إنما يكون من أول نيسان إلى آخر أيلول.

* * *

البحر الأخضر

فأما البحر الرومى، وهو بحر الشام ومصر والأندلس، فإنه خليج بحر أقيانس، طوله خمسة آلاف ميل، وقال السرخسى عن الكندى: ستة آلاف، وعرضه مختلف فيه ثمانمائة ميل وعشرة أميال.

وقيل اثنا عشر ميلاً، وهو ما بين ساحل سبتة وطنجة وساحل الأندلس، وهو الموضع المعروف بالزقاق، وسنذكر فى أخبار مصر إن شاء الله ـ القنطرة التى كانت بين هذين الساحلين، وما ركبه من ماء هذا البحر.

وعلى المدِّ الذى يخرج من هذا الخليج من بحر أقيانس منار النحاس الذى بناه هرقل ـ الملك الجبار ـ عليه الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديها: لا طريق ورائى، ولا مسلك فى ذلك البحر، ولا تجرى فيه جارية، ولا حيوان فيه، ولا تدرك له غاية، ولا يحاط بمقداره وهو بحر الظلمات، والأخضر، والمحيط.

وقد خاطر بنفسه فتى من أهل الأندلس اسمه خشخاش، وكان من فتيان قرطبة، فى جماعة من أحداثها، فركبوا مراكب استعدُّوها ودخلوا هذا البحر، وغابوا فترة، ثم أتى بغنائم واسعة وأخبار مشهورة. وإنما يركب من هذا البحر مما يلى المغرب والشمال، فذلك من أقاصى بلاد السودان إلى برطانية الجزيرة العظمى التى فى أقصى الشمال، وفيه ست جزائر تقابل بلاد السودان، تسمى الخالدات، وفيه بقرب جزيرة برطانية إحدى عشرة جزيرة، وجزيرة تسمى غديرة تقابل الأندلس، قسمت الخليج المعروف بالزقاق، ثم لا يعرف أحد ما بعده.

* * *

بحر الروم

وهذا الخليج هو بحر الروم وطرطوس والمصيصة وأنطاكية واللاذقية، وأطرابلس، وصور، وغير ذلك من سواحل الشام ومصر والإسكندرية.

وفى هذا البحر جزائر كثيرة نحو: جزيرة قبرس، يحيط بها البحر مائتى ميل، وجزيرة إقريطش يحيط بها البحر ثمانمائة ميل، وجزيرة صقلية يحيط بها البحر خمسمائة ميل، وجزيرة سردانية يحيط بها البحر ثلاثمائة ميل، وغيرها.

ومن بحر إفريقية وصقلية يخرج المرجان، وهذا المضيق الذى قدمنا ذكره، وهو الخليج الذى عليه طنجة متصل ببلاد المغرب وإفريقية والسوس وأطرابلس المغرب والقيروان وساحل برقة والرمادة إلى بلاد الإسكندرية، إلى تنّيس ودمياط وساحل الشام، ثم ساحل الروم إلى بلاد رومة، إلى أن يصل إلى ساحل الأندلس راجعًا إلى الخليج الضيق الذى بدأنا بذكره.

ويخرج من هذا خليج إلى ناحية الشمال قرب رومة، يكون طوله خمسمائة ميل يسمى أدريس، وهو الذى تعرفه الروم بماء ريجينه، ويخرج منه خليج آخر إلى أرض نربونة، يكون طوله مائتى ميل.

* * *

بحر نيطش

وبحر نيطش يمر على بلاد لاذقة[1] إلى القسطنطينية أيضًا، وطوله ألف ومائة ميل، وعرضه ثلاثمائة ميل، وهذا البحر بحر نيطش، وهو بحر أمم من الترك والبرغر والروس وغيرهم، وهو يمتد من الشمال من ناحية المدينة التى تدعى لاذقة ـ ثلاثمائة ميل، وهى من وراء القسطنطينية، ويتصل هذا البحر من بعض جهاته ببحر الخزر المذكور من خلج وأنهار عظام هناك، ولذلك غلط بعض مصنفى

(١) فى الأصل (اللاذقية).

الكتب فزعموا أن بحر نيطش وبحيرة مانيطش وبحر الخزر هو واحد.

وأما بحر مانيطش فمنه ينفجر خليج القسطنطينية الذى يصب إلى بحر الروم، وهو البحر الشامى، وطول هذا الخليج ثلاثمائة وستون ميلاً، وعليه من الجانب الغربى القسطنطينية، وينعطف أيضًا عليه من جهة الشمال، ثم يتصل ببلاد رومة والأندلس وغيرهم.

وعرض هذا الخليج من موضع انبعاثه عشرة أميال، وقيل ستة أميال وعليه هناك مدينة تسمى مسنَّاة، ثم يضيق الخليج عندها، ويضيق عند القسطنطينية فيرجع إلى أربعة أميال.

وفى بحر مانيطش يصب النهر العظيم المعروف بطنائس، ومبدؤه من الشمال، وعليه بعض ولد يافث، يكون مقدار جريانه على الأرض ثلاثمائة فرسخ عمائر متصلة، وهو نهر عظيم فيه أنواع من الأحجار والحشائش والعقاقير، ويشق هذا النهر بحر مانيطش حتى يصب إلى بحر نيطش.

قال (د): إن مانيطش بحيرة فى الشمال، وهو بحر ضخم، وإن كانت تسمى بحيرة، طولها من المشرق إلى المغرب ثلاثمائة ميل، وعرضها مائة ميل، ويخرج منها عند القسطنطينية خليج يجرى كهيئة النهر، ويصب فى بحر الشام، وعرضه عند القسطنطينية ثلاثة أميال.

البحر الأعظم هو نيطش، والبحيرة هى مانيطش.

* * *

بحر باب الأبواب

فأما بحر باب الأبواب، وهو بحر الخزر والجبل[1] والدَّيلم وجرجان وطبرستان، وأنواع من الترك فينتهى من إحدى جهاته نحو بلاد الخوارزم من بلاد خراسان، ويعرف أيضًا بالبحر الخراسانى وطوله نحو ثمانمائة ميل، وعرضه ستمائة ميل، وهو مُدوَّر الشكل إلى الطول، وهذا هو بحر الأعاجم، معمور من جميع جهاته.

(١) انظر: المسالك والممالك للإصطخرى ١٢٨.

وهذا البحر كثير التنانير، وكذلك بحر الشام.

وقد اختلف الناس فى التِّنّين، فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون فى قعر البحر فتظهر إلى الجو فتلحق بالسحاب كالزوبعة إذا ثارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار وهشيم الأرض والنبات ثم ذهبت فى الجو صعداء، فيتوهم الناس أنها حيات سوداء، لسواد السحاب وذهاب الضوء، وترادف الرياح.

ومنهم من رأى انها دواب تكون فى قعر البحر، فتعظم وترعى دواب البحر فيبعث الله عليها ملائكة وسحبًا فتخرجها منه، وهى على صورة الحية السوداء، لها بريق ولمعان، لا يمر ذنبه بشئ إلا أتى عليه من بناء أو شجر أو جبال، وربما تنفَّس فأحرق الأشجار الكثيرة، فتلقيه السحب فى بلاد يأجوج ومأجوج يروى عن ابن عباس. وقال قوم أنها حيَّة البرِّ تلقيها السيول فى البحر، فتعظم وتطول أعمارها، فيبقى عمر الواحد خمسمائة عام.

والفرس تزعم ان له رؤوسًا سبعة وتسميه الأجدهاق. وهذا من الأخبار التى رواها حشوية أصحاب الحديث[1] أن قبة فى وسط البحر الأخضر على أربعة أركان من الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق، ينحدر من كل ركن من هذه الأركان نهر ينقسم إلى جهات أربع فى ذلك البحر غير مخالط ولا ممايع حتى ينتهى إلى سواحل البر، أحدها النيل والثانى سيحان والثالث جيحان، والرابع الفرات. ومنها أن الملك الموكَّل بالبحر يضع عقبه فى أقاصى بحر الصين، فيفور البحر ويكون المدُّ، ثم يشيل عقبه فيرجع الماء إلى مركزه.

وإن كان كل ما ذكرنا عنه ممكنًا، فإنه من طريق الأفراد، ولم يجئ مجئ التواتر الموجب للعلم والعمل، فإذا صحَّت هذه الآثار، وجب التسليم والانقياد. وسيأتى ذكر بناء الباب إن شاء الله.

وعلى هذا البحر مما يلى الباب والأبواب[2] الموضع المسمى باغة[3]، وهى

---

(١) انظر فى هذا مروج الذهب ١/ ١٢٤ـ١٢٦ فى حديث المسعودى عن التنّين وآراء الناس فيه، ورأينا أنه حديث خراقة.

(٢) راجع: الروض المعطار ٧٧.

(٣) الروض المعطار ٧٨ـ٧٩.

النَّفَّاطة، من هنا يحمل النفط الأبيض، وهناك آطام وهى عيون النيران ـ تظهر من الأرض، وترى فى الليل على مسافات، كأطمة صقلية، وأطمة وادى برهوت من بلاد الشحر وحضرموت، وأطمة أشك بين بلاد فارس والأهواز، ترى بالليل من مسيرة أربعين فرسخًا، والأطمة العظيمة التى فى مملكة المهراج ـ ملك جزائر الزابج ـ والمهراج سمة لكل مَنْ ملكها، يلحق لهب هذه الأطمة بأعنان السماء؛ لذهابها فى الجو، ويُسْمَع منها كالذى يُسْمَعُ من أصوات الرعد والصواعق، وربما ظهر منها صوت عجيب مفزع، يسمع من البلاد النائية، فينذر بموت بعض ملوكهم، وربما كان أخفض من ذلك، ينذر بموت بعض رؤسائهم، قد عرفوا ذلك بطول التجارب والعادات على قديم الزمان، وإن ذلك غير مختلف من التنبيه.

فهذه البحار الخمسة(١): البحر الأعظم بحر أقيانس، والبحر الحبشى، والبحر الرومى، والبحر الخزرى، وبحر مانيطش فيها إلا أنه صغير عنها، وليس شئ من هذه البحار يتصل بالبحر الحبشى، وأما سائرها فمتصلة، وهى من بحر واحد، إلا أن بحر الخزر قد اختلف فيه، هل يتصل ببحر أقيانس أَوْ لاَ، والصحيح عندنا أنه لا يتصل بشئ من هذه البحار.

قال: وقد زعموا أن خليج القسطنطينية الآخذ من مانيطش متصل ببحرٍ أيضًا، وذلك لا يصح.

وحدُّ بحر فارس مما يلى المشرق من فوهة دجلة العوراء، وينتهى آخره إلى جزيرة يقال لها تيزمكران، وهى حَدُّ أول السند.

وحدُّ بحر فارس من الغرب من فوهة دجلة العوراء إلى ان ينتهى إلى غب عدن، وفى شرقيه من المدن بلاد فارس ومكران وكرمان، وفى غربيه بلاد العرب، وهى: البحرين وعمان ومسقط وسقطرة، إلى أن يبلغ غب عدن، وهى آخر جزيرة العرب، وهناك الموضع الذى يقال له الدوارع، وهو طريق فى البحر يؤخذ منه إلى بحر جدة، ومما يلى من البحر الفارسى شاطئ الفرات يؤخذ فيه حب اللؤلؤ القطرى الجيد.

وحدُّ بحر الهند مما يلى المشرق جزيرة تيزمكران وآخر بلاد الصين، وحده مما

---

(١) فى الأصل: الستة.

يلى المغرب غب عدن، وآخره بلاد الزنج.

فإذا قطع الراكب البحر هنا من غبّ مدينة عدن، فإن أول أرض يصل إليها جزيرة يقال لها بربر، وفيها جنس من الزنج يتصلون ببلاد السودان.

وفى تلك الناحية العربية بلاد الزنج والزابج، وأمم كثيرة كلهم يمطرون فى الصيف، ما خلا أعلى بلادهم التى بعدت من البحر كبلاد التّبت وكابل وغيرها.

ولم يحد لنا شمال هذين البحرين، ولا جنوبهما، ولا من سكن تلك الناحيتين، ومن أراد الصين والهند من ركاب بحر الهند، فإنما يميل إلى شرقيه ويدور عليه حتى يصير فى غربيه؛ لأنهم إذا قطعوه موسّطه يبقون فى ظلمات لا تنفرج إلا أقل من ستّ ساعات فى كل يوم.

وأما بحر الشام، وهو البحر الرومى، فإنه لا تجرى فيه جارية، ولا يُسْتَطَاعُ ركوبه منذ تسير الشمس فى أول العقرب إلى ان تصل إلى الحوت، وذلك أربعة أشهر؛ لأن الشمس تتباعد وتحدث فيه الرياح والعواصف والأهوية المهلكة، وبخاصة الناحية الشمالية منه.

* * *

ذكر علة المد والجزر (١)

فأما عِلَّةُ المَدِّ والجزر فمختلف فيها، فقد قيل: علة ذلك القمر على ما بَيَّن أبو معشر.

وقال قوم: هما الأبخرة التى تتولد فى باطن الأرض، فإنها إذا كثفت حينئذ ماء هذا البحر، فلا يزال على ذلك حتى تنقص موداها، فيتراجع الماء حينئذ إلى قعور البحار، فكان الجزر، فهذا يدل عليه كونه فى كل أوان، وفى غيبة القمر وطلوعه.

وقال آخرون: ان هيجان البحر كهيجان بعض الطبائع بالإنسان ثم تسكن.

(١) مروج الذهب ١/ ١١٣.

وقال آخرون: إن الهواءَ المطلَّ على البحر يستحيل دائمًا، فإذا استحالَ عَظُمَ ماء البحر، ثم يعاقب ذلك استحالة ماء البحر، فيتنفس ويعود البحر إلى ما كان عليه، وإن الماء يستحيل هواء والهواء يستحيل ماء.

وقال الشرعيُّون: كل حال لا يعلم له فى الطبيعة مجرى، فهو فعل إلهى لا يدخله قياس ولا يدرك بحس.

قال (س)[١]: وقد زعم قوم من نواتية البحر الفارسىَ أن المدَّ والجزر لا يكون فيه إلا مرتين فى العام، فإذا كان الصيف كان الماء فى مشارق البحر بالصين وما والاه، وفى الشتاء بالضِّدّ.

قال (س)[٢]: ورأيت بمدينة كنباية من أرض الهند، وهى مملكة البَلَّهْرَى، وكانت على خليج من البحر أعرض من النيل، فيجزر الماء فى هذا الخليج حتى يبدو الرمل وقعر الخليج، ويبقى فيه اليسير من الماء. فرأيت الكلب على هذا الرمل الذى نضب ماؤه وصار كالصحراء، وقد أقبل المدُّ وأحس به الكلب، فأقبل يشتد ليفوت الماء، فلحق الماء بشدّة دفعت الكلب ففرقته.

وأمَّا علَّةُ ما لا يظهر فيه مَدٌّ ولا جَزْرٌ من البحار، فهى التى تبعد عن مدار القمر ومسافته بعدًا كبيرًا، وقيل إنها التى يكون الغالب على أرضها التخلخل فينفذ الماء منها إلى غيرها من البحار، وتنفس الرياح الكائنة فى أرضها. وسنورد من أخبار هذه البحار مع ذكر اسمها وممالكها ما فيه شفاء إن شاء الله عز وجل - والله أعلم.

* * *

(١) مروج الذهب ١/ ١١٦.

(٢) مروج الذهب ١/ ١١٧.

ذكر البحر المحيط وعجائبه
وجمل من عجائب سائر البحار المتقدّم ذكرها
سواء ما ذكرناه من ذلك مستخرجًا من كتاب «عجائب البلدان»

زعموا أن فى البحر الأخضر عرش إبليس، تشبَّه بالبارى سبحانه وتقدَّست قدرته، حوله نفر من الأبالسة والعفاريت العظام وسائر أصناف الجن.

فمنهم من لا يفارقه من حُجَّابه وخُدَّامه، ومنهم من يتصرف بأمره فى فتنة الناس وكيدهم وتضليلهم.

وله جزيرة اتخذها سجنًا لمن خالف أمره من الجنّ، وفى تلك الجزيرة هيكل سليمان بن داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفيه جسده، وهو قصير عجيب البناء واسع الفناء.

وفى هذا البحر جزائر لا تزال على مرّ الزمان تقذف نارًا تعلو مائة ذراع وأكثر، وفيه سمك طول السمكة مسيرة الأيام المختلفة، وهى مختلفة الأشكال، مشوَّهَةُ الخلق، وفيه مدائن تطفو على الماء آهلة بغير الإنس.

وفى هذا البحر الأصنام التى عملها أبرهة ذو المنار قائمة على الماء:

أحدها: أصفر يومئ بيده كأنه يخاطب من ركب ذلك البحر يأمره بالرجوع.

والثانى: أخضر رافع يديه باسط لهما كأنه يريد إلى أين تذهب.

والثالث: أسود يومئ بإصبعه إلى البحر: من جاز هذا المكان غرق، مكتوب على صدره بالمُسْنَد[1]: هذا ما صنع أبرهة ذو المنار الحِمْيَرى لسيدته الشمس، تقربا إليها.

ويختلف عمق هذا البحر، فمنه ما لا يلحق له قعر، ولا يُعرف له مقدار غوره، ومنه ما يكون عمقه سبعة آلاف باع أو أكثر.

(١) فى الأصل (بالسند).

* وأما البحر الأسود الزفتى، وهو متّصل به، وهو شديد النّتن، وليس فيه غير قلعة الفضّة، يقال إنها معمولة، وقيل إنها خِلْقة، ومن هذا البحر يخرج بحر الصين، وأوله بحر فارس، وقد تقدّم ذكره، وفيه اثنا عشر ألف جزيرة، وفيه الدّرْدور[١]: موضع يدور فيه الماء، فإذا وقع فيه مركب لم يزل يدور فيه حتى يُتلف.

وفيه كُسَير وعُوَير، وقد تقدم ذكرهما. وفيه عجائب كثيرة من الحيوان، وفيه سمك طول السمكة منها مائتا ذراع وأكثر وأقل.

وفيه جزائر تُنبت الذّهب، وفيه مغاوص اللؤلؤ الجيد.

وفى هذا البحر قصر من البلّور منيف رفيع على قلعة تُنِيرُ برجًا داخلها لا تطفأ، وأراد النزول به الإسكندر، فمنعه بهرام ـ فيلسوف الهند ـ وعرّفه أنه من نزل به وقع بقلبه السبات، وظهر قوم قصار زُعْرٌ لباسهم ورق الشجر، فسأل الإسكندر بهرام عن صبرهم على المقام هناك، قال: عندهم شجرة إذا أكلوا منها زال عنهم ذلك.

وبُعْدُ هذا البحر لا يُدرك قعره، ولايضبط غوره، تقطعه المراكب بالريح الطيبة فى شهرين، وليس فى جميع البحار الخارجة من البحر المحيط أكبر منه ولا أشد حولا.

وفى عرضه بلاد واق واق[٢]، وهن جوار تحمل بها شجر مُعلقة بشعورها، ولها ثدى وفروج كفروج النساء، وأبدان حسان، ولا يزلن يصحن واق واق، فإذا قطعت عن الأشجار التى تحملها أقامت يوما وبعض يوم آخر ثم تهلك، وربما نكحهن الناس فى أطيب رائحة، وألذ مباضعة.

---

(١) الدردور: موضع فى بحر فارس مِمَّا يلى شَطّ البحر حيث جبلا كُسَير وعُوَير وهو موضع يدور فيه الماء كالرحى دورانًا دائمًا من غير فتور ولا سكون فإذا سقط إليه مركب أو غيره فلا يزال يدور حتى يتلف، وهو يضيق على مقربة من جبل كُسَير وعُوَير، تَسْلُكه السفن الصغار ولا تسلكه الكبار. الروض المعطار ٢٣٤.

(٢) الواق واق: أرض الواق واق متَّصلة بأرض سفالة، وفيها مدينتان حقيرتان، وساكنها قليل لضيق عيشها وتكدُّر رزقها، وبينهما قرية كبيرة تُسَمَّى دغرغة، وهم سودان قباح الوجوه، مشوهو الخلق وكلامهم نوع من الصفير، وهم عراة لا يستترون بشىء. الروض المعطار ٦٠٢.

وبلاد الواق واق لا يسكنها بشر، إنما يسقط إليها أهل المراكب فى الندرة، وهى أكثر الأرض طيبا، وبها ثمر وفواكه لا تعرف فى غيرها، لا يعلم ما هى ألذ مأكولا وأطيب مشمومًا.

وتليهم أمَّةٌ بجزيرة على شبيه النساء، سبط الشعور، نواهد الصدور، يقال لهن بنات الماء[1]، لهن قهقهة وضحكة وكلام لا يُفهم.

وقد أولد بعض البحريين منهن واحدة غلاما، وهو مُستوثق بها، ثم ظن بعد ولادتها أنها ستألف ابنها ولا تفارقه، فأرسلها من وثاقها فتغفَّلته وتروَّت فى البحر، وذهبت سابحة، ثم ظهرت له بعد يوم وألقت له صدفا فيه دُرٌّ نفيس، ثم ولت ذاهبة، فكان ذلك الغلام يُعرف بابن البحرِيَّة.

وفى هذا البحر أسماك طيَّارة، تطير ليلا فترتعى فى البرارى، فإذا أزف طلوع الشمس عادت إلى البحر، وفيه سمكة خضراء شهباء، من أكل منها، اعتصم من الطعام أياما كثيرة، وتجزَّأ بها عنه، فلم يَرِدْهُ ولم يجد لفقده مساءة.

وفيه سمكة ربما نبتت على ظهرها الحشيش والصدف، وربما أرسى عليها أصحاب المراكب، فيظنون أنها جزيرة، وإذا رفعت إحدى جناحيها كانت مثل الشراع العظيم، وإذا رفعت رأسها من الماء كان كالجبل الضخم، وإن نفخ الماء من فيه كان كالصومعة الجليلة، وإذا سكن البحر جذب السمك بذنبه ثم فغر فاه فغاصت فيه كأنما غاصت فى بئر، ويقال له القيدور، وأهل المراكب يحذرونه على سفنهم ثم يضربون بالنواقيص طول ليلتهم، وهذه السمكة أيضا تكون فى بحر هركند.

وفى بحر هَرْكَنْد حيات عظام تخرج إلى البر فتبتلع الفيلة، وتكتف الصخور فى البر فتكسر عظامها فى أجوافها، ويُسمع لذلك صوت هائل، وقليل ما تظهر، وربما احتال بعض الملوك لها - أعنى ملوك الهند والزنج - فيصيدونها ويطبخونها ويستخرجون دهنها، فيدهنون به، فتزيد فى قوتهم ونشاطهم وهيبتهم، ويستعملون من جلودها فَرْشًا.

وهى جلود موشاة ملمَّعة ألين من الحرير إذا جلس عليها صاحب السُّلِّ أمن السل أن يصيبه أبدا.

(١) انظر: آثار البلاد ٣٣ وأخبار الزمان ١٦-١٧ والروض المعطار ٦٠٢.

وزعم صاحب كتاب العجائب أن بحر هركند يليه بحر يقال له ذانجد، وبينهما ألف وسبعمائة جزيرة.

قال: وفى هذه الجزائر يكون العنبر الرفيع الدّسم، تكون القطعة منه مثل البيت.

وفى كتاب الطيب الذى ألفه إبراهيم بن الهنيرى، أن أحمد بن حفص العطار قال: كنت جالسا فى مجلس أبى إسحاق وهو يُصفِّى عنبرا قد أذابه وأخرج ما كان فيه من الحشيش الذى حلّقه مناقير الطير، فسألنى فقلت: هذه مناقير الطير الذى تأكل العنبر إذا راثته دوابّهُ.

فضحك أبو إسحاق وقال: هذا قول تقوله العامة، ما خلق الله دابة تروث العنبر، وما العنبر إلا شيء يكون فى قعر البحر.

ولقد عنى الرشيد بالمسألة عن العنبر وأصله، وأمر حماد الزبيرى بالمسألة عنه، فكتب إليه أن جماعة من عدن أعلموه أنه يخرج من عيون فى قعر البحر، تقتلعه الرياح بالأمواج الصعبة فيطفو على الماء، ويقذفه الموج بالساحل، كما أن بأرض هيت عيون تسيل بالقار، وبأرض الروم عين الزفت الرومى.

قال: وآخر هذه الجزائر سرنديب، وقد تقدم ذكر ما فيها.

قال: وهذا البحر ربما أظلته السحاب ثلاثين يوما لا تَصْحَى ولا يسكن وابلها، فلا يظهر فيه حيوان، ويلوذ بقعر البحر.

قال: ويخرج من هذا البحر إلى بحر الصنف الذى فى جزائره مملكة المهراج، وهناك يكون العود النفيس، وهى جزائر لا يُحصى ما فيها من العجائب، ولا يُحاط بها لكثرتها. وفيها يكون جميع أفاويه الطيب.

ويقال إن فى هذا البحر قصر أبيض يسير على الماء، ويتراءى لأهل المراكب فيستبشرون به إذا هم أبصروه، ويكون لهم دليل السلام.

وفى هذا البحر جزيرة قرطايل[١] التى يُسمع فيها فى الليل والنهار المعازف والطبول، ويقال إن فيها الدَّجَّال، وقد مضى ذكرها.

---

(١) برطايل: جزيرة فى بحر الصين الذى فى جزائره مملكة المهراج، قيل إنه يُسمع بها فى الليل والنهار الضرب والطبول، ويقال إن فيها الدَّجال، وفيها أشجار القرنفل. الروض المعطار ٩٠.

وفيها أشجار القرنفل، وتشتريه التجار من قوم لا يرونهم، إنما يضعونه أكواما على الساحل، فتأخذه التجار، وتترك هناك العِوض.

وقيل إن التجار يتركون البضائع على الساحل، ويعودون إلى مراكبهم، فإذا أصبح من غد ذلك اليوم جاءوا فوجدوا إلى جانب كل بضاعة كوما من القرنفل، فإن رضيته أخذه وترك البضاعة، وإلا أخذ بضاعته وترك القرنفل، وإن أخذهما معا لم تقدر مراكبهم على السير حتى يردوا القرنفل، وربما طلب أحدهم الزيادة فيترك البضاعة والقرنفل، فيزاد فيه.

وشجر القرنفل على نهر هناك يعرف بنهر القرنفل لم يدخل إليه قطٌّ أحد، ولم يذكر أنه رأى شجره.

وقد ذكر بعضهم أن الجنّ يبيعونه من التجار، وذكر بعضهم أنه دخل الجزيرة وأمعن فيها، فرأى قوما فى زى النساء مُرْد بغير لحاء، وذوى شعور مرسلة، فغابوا عنه، وأن التجار أقاموا بعد ذلك مُدَّةً يخرجون إلى ساحل البحر فلا يجدون شيئا من القرنفل، فعلموا أن ذلك من أجل من نظر إليهم، ثم عادوا بعد ذلك بسنين إلى ما كانوا عليه.

ويقال إنه إذا كان رطبا، كان حلو المطعم، يأكلون منه فلا يمرضون ولا يهرمون.

وليس لهذا البحر حد يعرف، ورأسه يخرج من الظلمة الشمالية ويمر على بلاد الواق واق.

وفى هذا البحر ـ بحر الصنف ـ جزيرة فيها مساكن ظاهرة وقباب بيض لائحة، كلما هم بالوصول إليها أحد وقرب منها تباعدت عنه فلا يزال كذلك حتى ييئس وينصرف عنها، يقال لها جزيرة الصَّريف[١]، وهم يرون فيها شخوصا وشجرا وعمارة ودواب، ولا يُعلم أحد وصل إليها.

وفيها البَرَّاقة[٢]، وهى مدينة لطيفة من حجر أبيض برّاق، يُسمع بها صياح

(١) الروض المعطار ٩١.

(٢) البراقة: مدينة فى جزيرة الصريف فى بحر الصنف، حيث مملكة المهراج، وهى مدينة لطيفة =

وصوصوة، ولا يُرى بها ساكن، ولما نزل بها البحريون فأخذوا من مائها وجدوه حلوا زلالا، فيه روائح الكافور.

وبعرض بحر الصنف هذه الجبال التى تتوقد ليلا ونهارا، يُسمع منها مثل صوت الرعد القاصف والأصوات الهائلة التى تدل على هلاك ملكهم، وقد مضى ذكرها.

وبعد بحر الصنف بحر الصين، وهو بحر خبيث وبارد، ريحه من قعره كغليان الماء على مجامر[1] النار، ويخبر الثقات من ركابه أنه بحر مسكون، له أهل فى باطن الماء، وأنهم يرونهم إذا هاج البحر ليلا كهيئة الزنج، ويطلعون إلى المراكب.

وفى بحر الصين سمكة مثل الحرَّاقة يرمى بها الموج إلى الساحل، فإذا جزر الماء بقيت على الطين، ولا تزال تضطرب حتى تنسلخ فى اضطرابها من إهابها، فيكون لها جناحان تستقل بهما فتطير.

وفى هذا البحر يكون اللخيم - سمكة تلتقم الناس - وربما مات الرجل من ركاب البحر، فيُرْمى به فى البحر، فلا ينحط إلا وهو فى قاع اللخيم، كأنه كان له مرصدا.

وفى هذا البحر يُرى وجه عظيم على صورة الإنسان إلا أنه مفرط الكبر مُستدير يشبه لونه لون القمر يسد ثنية بين جبلين.

وفى البحر الرومى بإزاء مدينة بقمولية - وهى القسطنطينية الأولى - كنيسة فى جوف البحر، ينحسر البحر عنها يوما فى السنة، فيحجُّون إليها ذلك اليوم، ويقيمون عليها ويتقربون ويهدون إليها، فإذا كان العصر أخذ الماء فى الزيادة، وتبادر الناس بالانصراف؛ فلا يزال كذلك حتى يغمرها الماء فلا يظهر منها شىء، وتبقى كذلك إلى رأس السنة.

وذكر بطليموس أن فى البحر الأخضر سبعة وعشرين ألف جزيرة عامرة وغامرة، منها جزيرة فيها أمة من بقايا النسناس، ولهم شجر يقال له اللوف،

= من حجر أبيض برّاق، يُسْمَع فيها صياح وضوضاء، ولا يُرَى بها ساكن، وربما نزل بها البحريون، وأخذوا من مائها فوجدوه زلالاً حلوًا فيه روائح الكافور. الروض المعطار ٩١.

(١) فى الأصل (جماجم) وهو تحريف.

يأكلون ثمره، ويلتحفون بورقه.

ومنها جزيرة المرجان فى ضحضاح ماء بين الملوحة والعذوبة الذى يتجهز اليوم به إلى البلاد فى بحر الأندلس خاصة، وينبت فى قعر البحر القريب منه مثل الشجر، فينزل إليه الغوّاصون ويشدون فيه الحبال ثم يقتلعونه، وهو أنفس وأنفق شىء فى الهند والصين.

ومن جزائر البحر الأخضر جزيرة فى وسطها كالهرم العظيم من حجر أسود براق لا يُدرى ما داخله، وحوله مَوْتى، وعظام كثيرة، ورمم بالية.

وقد كان بعض الملوك سار إليها، فلما نزل إليها وقع على أصحابه النعاس وخدر الأجساد وضعف النفوس، فلم يقتدروا على الحراك، فتبادر ذو الشدة منهم إلى المراكب، وهلك أكثرهم هناك.

* وفى هذا البحر جزيرة فيها أمم رءوسهم كرءوس الكلاب العظام، بادية أنيابهم، يخرج من أفواههم مثل لهب النار، ولما قر بهم ذو القرنين، خرجوا إليه فحاربوه وحاربهم حتى تخلص منهم.

* وفيه جزيرة بيضاء واسعة كثيرة الأشجار والأنهار، فيها قوم شُقر، وجوههم فى صدورهم، للواحد منهم فرجان - فرج امرأة وفرج رجل - يتكلمون بمثل كلام الطير، وطعامهم نبت يشبه الفطر والكمأة.

* وفيها جزيرة التنّين كان بها تنين قد نال أهلها بكل مكروه، فلما دخلها الإسكندر، استغاثوا به، وذكروا له أن التنين أتلف مواشيهم حتى جعلوا له ثورين كل يوم ضريبة ينصبونهما فى موضعه،فيخرج فيبتلع الثورين، ثم يعود إلى مكانه.

قال: أرونى موضعه، فنصبوا له الثورين، وأقبل كأنه السحابة السوداء، وعيناه كالبرق اللامع، والنار تلهب من فيه، فابتلع الثورين وعاد إلى موضعه. فأمر الإسكندر بثورين عظيمين فسُلخا وحشى جلودهما زفتا وكبريتا وكلسا وزرنيخا، وجعل مع تلك الأخلاط كلاليب حديد كثيرة، وجعلها فى ذلك المكان، وخرج التنّين على عادته فالتقمهما وانصرف، فانضربت تلك الأخلاط فى جوفه، فلما أحس بثقلها ذهب ليلقيها، فتشبثت تلك الكلاليب فى حلقه، فخرج وفغر فاه يستروح.

فأمر الإسكندر بقطع الحديد، فَحُميت وحُملت على ألواح من حديد، وقُذفت فى حلقه فمات، فكان ذلك فتحا عظيما لأهل تلك الجزيرة. فألطفوا الإسكندر، وحملوا إليه من طرائف ما عندهم، فكان من ذلك دابة فى خلق الأرنب شعره أصفر يبرق كما يبرق الحديد أو الذهب، وفى رأسه قرن واحد يسمونه نفواجًا، وهوام الأرض إذا رأته، والأسد والوحش كلها، والطير هربت منه.

* وبهذا البحر جزيرة تظهر ستة أشهر وتغيب ستة أشهر بمن فيها، وهى جزيرة مدوّرة.

وبه جزيرة ملكان، وهى دابة عظيمة بحرية قد استوطنت تلك الجزيرة وعرفت بها، ولهذه الدابة رءوس كثيرة ووجوه مختلفة.

وقيل إنها مركب لبعض ملوك البحر، لأن لها جناحين إذا أقامتهما وجمعت بينهما، صار كأنه رَقٌّ عظيم منكس يظل من الشمس.

وقد ذكرتها الأوائل، وهى مثل الجبل العظيم الضخم.

* ومنها جزيرة صيدُون، وهى مسيرة شهر فى مثله.

وصيدون هذا ملك. وكانت فيها عجائب كثيرة ومصانع رفيعة وأنهار وأشجار. وكان صيدون ساحرًا، وكانت الجن تطوف به وتعمل له العجائب، وكان له فى وسط الجزيرة مجلس من ذهب على عمد من رفيع الجوهر يشرف على الجزيرة، فدل بعض الجن سليمان عليه فغزاه وخرَّب الجزيرة وقتله، وقتل أكثر أهلها؛ لأنهم كانوا يعبدونه، وأسر منهم خلقا فآمنوا. وأسر ابنه صيدون، ولم يكن على وجه الأرض أجمل منها وجها، ولا أكمل جمالا وظرفا، واصطفاها لنفسه وتزوجها.

فكانت تديم البكاء لمفارقتها أباها وأنس مملكته. فقال لها سليمان: مالى أن أراك كئيبة، وأنا خير لك من أبيك، ومُلكى أجل من مُلكه. قالت: أجل، ولكن إذا ذكرت كونى مع أبى، وأنسى به، هاج لى ذلك حُزنا ووجدا، فلو أمرت الشياطين أن يُصوروا لى صورته؛ لأنى إذا رأيتها سَلَوْتُ عنه.

فأمر الشياطين فعملوا لها صورة أبيها فى مجلس مثل المجلس الذى كان فيه، وكان المتولى لذلك شيطانا يصحب أباها، وهو الذى أشار عليها بذلك.

فكان ذلك المجلس والصورة فى مقاصيرها التى صنع لها سليمان، وقد غرس لها فيه بدائع الأشجار، وفجَّر فيها الأنهار فى فناء ذهب وفضة مُطوَّقة بأصناف الجوهر. فعمدت إلى الصورة فألبستها أصناف الحرير من الثياب المنسوجة بالذهب، وجعلت على رأسه إكليلا من الجوهر النفيس، وألبسته تاجا منظوما بالجوهر الفاخر الملون، وجعلت حوله مساند الديباج المُذهب، ونثرت عليه سحيق المسك، وأوقدت بين يديه دخن العنبر وضروب الطيب. وفرشت بحذائه على بعد منه أصناف الأفاويه والرياحين. فكانت تدخل إليه بكرة وعشية فتسجد له مع جميع وصائفها وخدمها كما كانت تصنع لأبيها.

وكان قد دخل فى هذا الصنم شيطان يخاطبها بلسان أبيها فيقول: قد أحسنت فيما فعلت، وما فقدت بك شيئا.

فاتصل أمرها بآصف بن بَرْخيا، وكان كاتب سليمان ومن أهله، وهو الذى كان عنده علم من الكتاب، وهو الذى أحضر عرش بلقيس، وكان عَلِم موضع المرأة من قلب سليمان وحُبَّه لها، فلم يَدْر كيف يتوصل إلى تعريفه بما أحدثت عنده، إلى أن اتجه له وجه ذلك.

فقال: يا نَبِىَّ الله إنى قد كبرت، ولا آمن الموت، وقد أردت أن أقوم مقاما أذكر فيه الأنبياء وأثنى عليهم، فتأمر بإحضار الناس ووجوه بنى إسرائيل، فيجلسون فى مراتبهم.

فأجابه سليمان إلى ذلك، فقام آصف بن برخيا على المنبر، فخطب فحمد الله وأثنى عليه واستغفره، وأقبل يذكر الأنبياء نبيا نبيا، ويثنى عليهم فى صغرهم وكبرهم ومُدَّة أيامهم، إلى أن بلغ إلى داود، فأثنى عليه واستغفر له، ثم ذكر سليمان فأثنى عليه فى صغره خاصة، ولم يذكره فى كبره، ولا ذكر شيئا من أيامه بخير، ولا بشَرّ. فاستحفظ ذلك سليمان، فاستدعاه حاليا ووقَّفه على ذلك، فقال: ذكرتُ ما علمتُ. فلما ألح عليه قال له: وبم استحققت أن أثنى عليك فى أيامك، وغيرُ الله يُعبدُ فى دارك منذ أربعين يوما، وما هذا جزاء نعمته عليك ولا شكر تمليكه لك.

قال: فارتاع سليمان لذلك وقام فعاقب المرأة، وكسر الصنم، فهرب الشيطان

فظفر به بعد ذلك وسجنه.

وفتن لذلك سليمان، وأخذت الجن خاتَمه وخرج من ملكه، وكان يطوف فى بنى إسرائيل فينكرونه. فردَّ الله عزَّ وجلَّ مُلْكه وخاتمه، وذلك بعد أربعين يوما، وهى عدة الأيام التى سجدت المرأة فيها للصنم، ثم إن المرأة تابت وصَحَّ إسلامها، وكان ولد سليمان عليه السلام منها، وذكر المؤرخون أن اسمها جرادة.

* ومنها جزيرة الزود، وهم خلق ذوو أجنحة وشعور وخراطيم يمشون على رجل واحدة كما يمشى الناس، وعلى أربع كالبهائم، ويطيرون فى الهواء مع الطير.

* ومنها جزيرة القابس، وهى دابة عظيمة مُلَمْلَمَة مثل الكرة، تصيح صياحا شديدا، ولا يُدرى من أين يخرج صياحها، ولا يُعرف ما هو، ولا ما غذاؤه.

* ومنها جزيرة مَرَّ بها قوم وقد هاج البحر وعظم، فنظروا فإذا شيخ أبيض الرأس واللحية، وعليه ثيابٌ خضر، مستلق على الماء وهو يقول: سبحان من دبَّر الأمور، وعلم ما فى ضمائر الصدور، وألجم بقدرته البُحُور، وستروا بين الشمال والشرق حتى تنتهوا إلى جبل الطروق وأوسطه، فاسْلُكوا تنجوا بحول الله وتَسْلَموا.

فركبوا السَّمْتَ الذى حَدَّ لهم حتى انتهوا إلى جزيرة يقال لها: سَنْدَروسة[1]، فيها أمة طوال الوجوه، ومعهم قضبان الذهب المخلوقة، يعتمدون عليها ويحاربون بها، على رءوسهم الذهب، وثيابهم منسوجة بالذهب، وطعاهم الموز والفطر. فأقاموا عندهم شهرا، وأخذوا من قضبان الذهب التى عندهم ما استطاعوا حمله، ثم ساروا على السمت فخلصوا.

وكان الذى أرشدهم الخضر - عليه السلام - وتلك الجزيرة مكان قراره، وهى وسط البحر الأعظم.

* وهناك جزيرة الفيروج[2]، بها صنم بزجاج أخضر، يجرى من عينيه دمع لا يزال يسير على مر الأيام، وزعموا أنه باك على قومه الذين كانوا يعبدونه، فغزاهم

(١) الروض المعطار ٣٢٧.

(٢) الروض المعطار ٤٤٤.

بعض الملوك، واستباحهم وقتلهم، وأراد كسر الصنم، فكانوا إذا ضربوه بشىء، لم يؤثر فيه، وعاد الضرب على ضاربه، فتركوه، وإذا دخلت الريح فى أذنيه صفَّر تصفيرا عجيبا.

* وفى البحر الأخضر جزيرة تُرى على بُعْد، فإذا قرب منها القاصد، غابت عنه، وإذا رجع الموضع الذى رآها منه ونظر إليها، رآها بادية بيِّنة.

وقيل إن فيها شجرة تطلع بطلوع الشمس، فلا تزال تطلع إلى نصف النهار ثم تعود إلى الانحطاط حتى تغيب الشمس.

ويقول البحريون: إن فى ذلك البحر سمكة صغيرة يقال لها: النشاكل، إذا حملها الإنسان معه أبصر تلك الجزيرة ودخلها، وهذا شىء عجيب طريف.

* وفيه جزيرة طاوران، وطاوران اسم ملكهم، وله أربعة آلاف امرأة، ومن لم يكن منهم مثل ذلك، فليس بملك. ويتفاخرون بكثرة الأموال والأولاد، وعندهم أشجار إذا أكلوا منها، قووا على الباءة قوة عجيبة.

* وفى مملكة هذا الملك الجزيرة السيارة، والبحريون مجتمعون على تثبيتها، ومنهم من يزعم أنه رآها مرارا كثيرة، لا يشكُّون فيها.

وهى جزيرة فيها جبال وشجرة وعمارة، فإذا هبت الريح من المغرب، صارت إلى المشرق، وإذا هبت الريح من المشرق صارت إلى المغرب، هذا دأبها.

ويذكرون أن حجارتها هفَّافة خفيفة جدا، تكون زِنَة الحجر الضخم الذى يُقدر مثله بقنطار، عشرة أرطال وأقل، ويحمل الإنسان القطعة الكبيرة من جبالها على عاتقه.

* وفى تخوم بحر الصين جزيرة النساء(١)، لا يسكنها إلا النساء، وهن يلقحن من الريح، ويلدن النساء. وقيل إنهن يلقحن من شجر عندهن يأكلن منه.

ويذكر أن الذهب عندهن عروق مثل الخيرزان، وأنه وقع إليهن رجل، فهممن بقتله، فرحمته امرأة منهن وحملته على خشبة، فأدارته الأمواج حتى أتته به بعض بلاد الصين، فوصل إلى ملك الصين، وعرَّفه حال الجزيرة، فجهز إليها بعض

(١) انظر: آثار البلاد ٣٣ والروض المعطار ٣٧٠.

المراكب، فأقاموا معه يطوفون فى البحر ثلاثة أعوام يطلبونها، فلم يقعوا لها على أثر.

وفى خبر ذى القرنين أنه وقع إلى جزيرة بيضاء ممرَّعة خصبة، ذات أنهار وأشجار، وفيها أمة على خلق الناس فى الانتصاب، رءوسهم رءوس السباع، فلما دنا أهل المراكب منهم غابوا عنهم. وفى وسط الجزيرة نهر شديد البياض، عليه شجرة عظيمة، فيها من كل ثمرة طيبة المطعم، ورقها كالحلل المنتشرة حسنا ولينا، والشجرة تطلع بطلوع الشمس، فتتباهى بطلوعها إلى وقت الزوال، ثم لا تزال تنقص حتى تغيب بمغيب الشمس، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وورقها أطيب ريحا من المسك. فحمل من ثمرها وورقها إلى الإسكندر، فضرب حاملو ذلك، ووقعت عليهم آثار السياط، ولا يرون من يضربهم، وصيح بهم: ردوا ما أخذتم من هذه الشجرة، ولا تقرضوها فتهلكوا، فأمروا ذلك وركبوا مركبهم ذاهبين.

ودخل الإسكندر جزيرة العبادة، فوجدها قفارا لا تنبت شيئا غير الحشيش، وفيها غدران ماء، ووجدوا قوما قد نهكتهم العبادة، وصاروا كالحمم سودا، فوقف بهم فسلم عليهم، فردوا عليه، فقال، ما عيشتكم فى فلاتكم هذه؟ قالوا: ما يأتينا من رزق ربنا من أسماك البحر، وأصول النبت، وشرب ماء الغدران. قال: أفلا أنقلكم إلى موضع أخصب من هذا؟ فقالوا: وما نصنع به؟ إن عندنا فى جزيرتنا هذه ما نغنى عن جميع العالم. وانطلقوا إلى بلاد تتلألأ بأنواع الجواهر واليواقيت فوق ما تتوهمه النفوس، ويجرى على الأفكار، وأخرجوه من ذلك إلى أرض عريضة وبساتين عجيبة، فيها من أصناف الثمار والفواكه ما لا يوجد مثله فى بلد من البلدان، وقالوا له: أتصل أنت إلى مثل هذا؟ قال: لا والله. قالوا: هذا بين أيدينا، وفى تمليك الله عز وجل لنا، ما نلتفت إلى شىء منه، وإنا لنؤثر الحشيش على هذه الفواكه. فذهب من كان مع الإسكندر ليأخذ من ذلك الجوهر، فمنعهم وودع أهل الجزيرة وانصرف إلى مراكبه ممتلئا عجبا فيهم.

* * *

ذكر الأخبار عن انتقال البحار

ذكر صاحب المنطق أن موضع البر قد يكون بحرا، وموضع البحر قد يكون برا. قال: وليس مواضع الأرض الرطبة أبدا رطبة، ولا اليابسة أبدا يابسة. قال: وللمواضع شباب وهرم وحياة كما فى الحيوان[١].

قال (س): وقد كان البحر فيما سلف فى الموضع المعروف بالنجف، وهو بالحيرة. وكانت ترسى هناك سفن الهند والصين، تردُ على ملوك الحيرة. فصار بين الحيرة وبين البحر الآن مسيرة أيام كثيرة، ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا[٢].

ولما أقبل خالد بن الوليد، فى سلطان أبى بكر - رضى الله عنه - بعد فتح اليمامة وقتل كذَّابها يريد الحيرة، تحصَّن منه أهلها فى الحصن الأبيض، وفيه كان إياس بن قبيصة، وقصر القادسية، وقصر بنى نفيلة، وقصر بنى مازن. قال: وهذه قصور الحيرة.

قال: وهى فى وقتنا هذا سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، خراب وبين هذه القصور وقصر القادسية ثلاثة أميال.

وسِّميت القادسية؛ لأن الأعاجم جعلوا قساء من قادس خراسان، وقادس يومئذ أسفل منها اليوم، مما يلى عين الشمال.

وذكر الحكماء أن رستم لما أراد العبور، أمر بسكر العتيق بجبال قادس، فباتوا ليلتهم يسكرونه بالتراب والقصب والبراذع حتى جعلوه طريقا، فاستتم بعد ما ارتفع النهار من الغد. وذلك عند عبوره للقاء سعد بن أبى وقاص.

فنزل خالد بالنجف، وبعث إليهم أن ابعثوا رجلا من عقلائكم. فبعثوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة الغسانى.

---

(١) مروج الذهب ١/ ٩٦.

(٢) مروج الذهب ١/ ١٠٢.

وبُقَيْلَة: هو الذى بنى القصر الأبيض، ودُعى بُقيلة؛ لأنه خرج يوما وعليه ثياب خضر، فقال قومه: ما هذا إلا بقيلة.

وعبد المسيح هو الذى أتى سطيحا يسأله عن رؤيا الموبذان، وارتجاج الإيوان، وما كان من ملك بنى ساسان، فأتى عبد المسيح خالدًا ـ وله يومئذ ثلاثمائة وخمسون سنة ـ وأحب أن يُريه من نفسه ما يعرف به عقله.

قال له خالد: من أين أقْصى أثرك؟

قال: من صُلب أبى.

قال: فمن أين جئت؟

قال: من بطن أمى.

قال: فعلى ما أين ويحك؟

قال: على الأرض.

قال: أتعقل؟

قال: أى والله، وأقيد.

قال: ابن كم أنت؟

قال: ابن رجل واحد.

قال: اللهم اخزهم من أهل بلدة، فما يزيدوننا إلا غما، أسأله عن شىء، فيجيبنى عن غيره.

قال: لا والله ما أجبتك إلا عن سؤالك، فسل عما بدا لك.

قال: أعرب أنتم أم نبط؟

قال: نبط استعربنا، وعرب استنبطنا.

قال: فحرب أم سلم؟

قال: بل سلم.

قال فما هذه الحصون؟

قال: بنيناها للسفيه نمنعه، حتى يأتى الحكيم فينهاه.

قال: كم من سنة أتت عليك؟

قال: خمسون وثلاثمائة.

قال: فما أدركت؟

قال: أدركت سُفن البحر ترقى إلينا من هذه النجف بمتاع الهند والصين، وأمواج البحر تضرب ما تحتك، ورأيت المرأة من أهل الحيرة تأخذ مكتلها، فتضعه على رأسها، لا تتزود إلا رغيفا، فلا تزال فى قرى عامرة، وعمائر متصلة، وأشجار مثمرة، ومياه عذبة غَدِقة حتى تَرِد الشام، وتراها اليوم قد أصبحت فيافًا، كذلك دأب الله فى البلاد والعباد.

قال: فوجم خالد لما سمعه، وعرف من هو، وكان مشهورا فى العرب بصحة العقل وطول العمر.

قال: ومعه سُم ساعة يقلبه فى يديه.

فقال له خالد: ما هذا معك؟

قال: سمّ ساعة، فإن يك عندك ما يُسرُّ به ويوافق أهل بلدى، قبلته، وحمدت الله عليه، وإن يكن الأخرى، لم أكن أول من ساق إلى بلده ذلا، فآكل السم وأستريح.

فقال له خالد: هاتِه، وأخذه ووضعه فى راحتيه، ثم قال: بسم الله وبالله بسم الله رب الأرض وربَ السماء، وهو السميع العليم، ثم استرطه، فلحقته غشية، ثم سرى عنه وأفاق كأنما نشط من عقال. فانصرف العبادى إلى قومه، والعِبَاديون[1] هم النسطورية، من النصارى، فأخبرهم بما رأى وقال: يا قوم صالحوه، فإن القوم مصنوع لهم، وأمْرُهم مُقبل، وأمر بنى ساسان مدبر، وسيكون لهذه الأمة شأن، ثم تحدث بها هنات وهنات، فصالحوه وقال عبد المسيح: [من الوافر]

أَبَعْدَ المُنْذرين أرَى سَوَامًا   تُرَوَّح بالخَوَرْنَقِ والسَّديرِ

(١) المشارقة من النصارى أضيفوا إلى نسطورس لأنهم اتبعوه، وقالوا بقوله، وكانت المشارقة بالحيرة وغيرها من الشرق تُدعى بالعباد، وسائر نصارى المشرق يأبون هذه الإضافة إلى نسطورس، ويكرهون أن يقال لهم النسطورية. مروج الذهب ١/ ٣٣٧.

فَصِرْنا بَعْدَ هَلْكِ أبى قُبَيْسٍ كَمِثْلِ الشَّاةِ فى اليوم المَطِيرِ
تَقَسَّمْنَا القبائلَ من مَعَد عَلانيةً كأَيْسَار الجَزُورِ
كذلك الدَّهْرُ دَوْلَتُه سِجَالٌ فيومٌ من مساةٍ أو سُرُورِ

ونحو هذا ما حدث فى الجانب الآخر الشرقى ببغداد، من المواضع المعروفة برقة الشمَّاسية، وما نقل إليها من الجانب الغربى من الضياع التى كانت بين قُطْرَبَّل ومدينة السلام، فإن ذلك عدد من ضياع قطربّل.

وقد كان لأهلها مطالبات مع أهل الجانب الشرقى ممن يملك رقة الشماسية بحضرة الوزير على بن عيسى[1]، وما أجاب فى ذلك.

قال: وذكر جماعة أن السنة التى بعث فيها رسول الله ﷺ إلى كسرى، وذلك سنة سبع، زاد الفرات والدجلة زيادة لم يُر مثلها، واتسعت بثوق عظيمة، حملت السُّكور والمسنيات وطلب الماء الوِهاد، وجهد أبرويز أن يرد مسنياتها، ويقيم شاذَرْوَاناتِها، فغلبه الماء، وطَما على العمارات، فغرق الكور والسطوح، وشُغلت الأعاجم بحرب العرب.

فلما ولى معاوية، ولَّى عبد الله بن دَرَّاج مولاه خراج العراق، فغلب الماء المسنيّات والسكور، واستخرج له من الأرض ما بلغت غلته خمسة عشر ألف ألف.

واستخرج الحجَّاج أيام الوليد من البطيحة نحو خمسين فرسخا فى مثلها.

* * *

(١) هو على بن عيسى بن داود الجرّاح، استوزره المقتدر، ثم خلع عليه سنه إحدى وثلاثمائة، وقبض عليه سنة أربع وثلاثمائة.

ذكر الأنهار والعيون

اختلف الناس فى الأنهار، فقالوا: إنها فى الأرض كالعروق فى البدن.

وقال آخرون: حق الماء أن يكون على سطح، فلما اختلفت الأرض، فكان منها العالى والهابط، انحاز الماء إلى أعماق الأرض، فلما انحصرت المياه فى الأعماق، طلبت التنفس لضغط الأرض من أسفل، فتنبثق حينئذ عيونا وأنهارا.

* **فأما النيل**(١)، فإن مبعثه من تحت جبل القمر، وراء خط الاستواء بسبع درجات ونصف من اثنتى عشرة عينا، فيجتمع فى بحيرتين كالبطائح.

قال: وهاتان البحيرتان هنا فى البلاد المحترقة الجنوبية التى لا يكون فيها نبات ولا حيوان، ثم يتشعب من كل بطيحة ثلاثة أنهار تجتمع مع جميعها إلى بطيحة فى الإقليم الأول، فيخرج من هذه البطيحة نيل مصر، ثم ينبعث بين جبال ورمل، ثم يخترق أرض السودان مما يلى بلاد الزنج، ويطيف بأرض النوبة، فيتشعب منه خليج يصب إلى بحر الزنج، وهو بحر جزيرة قَنْبَلو ـ وسنذكرها إن شاء الله. فيخرق البحر أكثر من ميل عذبا حلوا، يتكدر إبّان زيادة النيل، وفيه السُّوسْمار، وهو التمساح الكائن فى نيل مصر، ويُسمى الوَرَل أيضًا.

وذُكر أن النيل يجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ، ويقال ألف، بين عامر وغامر.

وقال غيره: إن مسافة جريانه من لدن منبعه إلى مُصَبِّه فى البحر خمسة آلاف وتسعمائة وثلاثون ميلا.

ويقال إنه يجرى فى الخراب غير العمران مسيرة أربعة أشهر، فى بلاد المسلمين مسيرة شهر، وفى بلاد السودان مسيرة شهرين.

قال الجاحظ: وكل نهر فى الأرض مخالف للنيل، وهو مستقبل الشمال، قال الشاعر: [من الرجز]

(١) انظر: صورة الأرض لابن حوقل ١٣٨ـ١٤١ ومختصر البلدان ٥٩ـ٦٤.

مصر ومصر شأنها عجيب

وماؤها يجرى به الجنـوب[١]

وبالنيل السمك الرعّاد، من صاد منها سمكة، لم تزل يده ترعد، مادام فى شبكته أو شصّه.

* وجبل آمد يراه أهله، من انتضى سيفه ثم أولجه فيه، وقبض على قائمه بجميع يديه، اضطرب السيف فى يديه، وارتعد هو، ولو كان أشد الناس بأسًا، وإذا أحدٌ بحجارة ذلك الجبل سكين أو سيف، وحمل عليه الحديد، لم يؤثر فيه، ويجذب الإبر والمسال أشد جذب من جبال المغناطيس، ولا يبطل الثوم عمله كما يبطل المغناطيس، بل تبقى تلك القوة فى ذلك الحديد على مر الأيام، وحجر الجبل نفسه لا يجذب الحديد، فإن أحد عليه سيف أو سكين، جذب الحديد، وهذه عدة أعاجيب.

* وإلى بلاد أسوان من صعيد مصر، تصعد المراكب من فسطاط مصر، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار، يجرى النيل فى وسطها، وهذا الموقع فارزٌ بين سفن الحبشة فى النيل، وسفن المسلمين فيقطع النيل الصعيد، ثم يمر بالفسطاط، ثم بأرض الفيوم، ثم يمر هابطًا، فينقسم خلجانًا إلى أرض تنِّيس دمياط والإسكندرية، كل يصب إلى البحر الرومى، وقد أحدث بحيرات فى هذا الموضع.

(د): إذا انتهى إلى دمياط، يصب فى بحيرة كبيرة فيها جزائر، منها تَنّيس[٢]. فماء تنّيس وجزائر تلك البحيرة، عذب إذا هبَّت الجنوب، وهم عند ذلك يطرقون بها إلى مصانع صنعوها لذلك، فإذا هبَّت الشمال مَلُحَ ماء البحيرة.

وقد كان النيل إذ بنى الإسكندر هذه المدينة يتصل بأسواقها، ويمر فى سككها،

(١) الرجز بلا نسبة فى مروج الذهب ١/ ٣٥٥.

(٢) وبأرض مصر بحيرة يفيض فيها ماء النيل، تتصل ببحر الروم، تعرف ببحيرة تنّيس (المنزلة الآن)، إذا امتد النيل فى الصيف عَذُب ماؤها، وإذا نقص فى الشتاء إلى أوان الحرّ، غلب ماء البحر عليها، فملح ماؤها، وفيها مدن مثل الجزائر، تطيف البحيرة بها، فلا طريق إليها إلا فى السفن. انظر: المسالك والممالك للأصطخرى ٤١ وصورة الأرض ١٤٦.

وقد بلطت مجاريها بالمرمر، ثم صار الآن النيل منهم على نحو يوم، وصار شربهم من الآبار، وهذا مما قدمناه.

قال (د): والنيل يتشعَّب دون الفسطاط شعبتين، فتصير شعبة إلى الرشيد بقرب الإسكندرية، وتصير شعبة أخرى إلى دمياط.

فأما خليج النيل الذى يتشعَّب إلى بحر الزنج، (فهو فارز بين بلاد الزنج وبين أقاصى بلاد) أصناف الأحابيش، ولولا هذا الخليج ومفاوز ورمال تليه، لم يكن للحبشة مقام فى بلادها مع الزنج لكثرة الزنج وبطشها.

* **وأما نهر بلخ** الذى يسمى جَيْحُون ـ وهو جيحان ـ وقد جعلها اثنين، وهو صحيح.

قال: وجيحان منبعه من بلاد الروم، ويجتاز بين المصيصة وكفر بيا، ويصب فى بحر الشام، ولم يزد على هذا.

وقد ذكر (س) نحو هذا فى جيحون، ووافقه أحمد على ذلك، فقال: هما نهران، وذكره عند الجيهانى، قال: منبعث نهر جيحون من بلاد التبت، يقبل من الشرق مع الصبا، فيمر ببلاد وخان، ويسمى هناك وخاب، ثم يصير إلى أعلى حدود بلخ مما يلى المشرق، ثم ينعطف إلى ناحية الشمال مع الجنوب إلى أن يصير إلى الترمذ، ثم يقبل منها إلى زم، ثم إلى خوارزم، فيمر بمدينتها، فإذا جاوزها، تشعبت منه أنهار وخلجان ذات اليمين وذات الشمال، فصارت منه بطائح وآجام ومروج، أسفل من مدينة خوارزم بنحو أربعة فراسخ، ثم يمر مستقبل الشمال بين الجرجانية ـ أسفل من المدينة بأربعة وعشرين فرسخًا ـ وبين دور المزداخكان من الشاطئ الشرقى، وبه يدعى السمك هو وابك. فإذا انحدر من هذه المواضع تشعب ذات اليسار إلى ورغدة، وهى المسماة بساكرة، وهى أسفل من الجرجانية بأربعة فراسخ، فتصير منه هناك بطائح تسمى الخلجان، وهو الموضع الذى يصاد فيه السمك المجلوب من خوارزم إلى النواحى، ويجرى بقية النهر إلى البحيرة المذكورة.

قال الجيهانى: ودور هذه البحيرة نحو مائة فرسخ، ومسافتها نحو أربعين يومًا فى مثلها.

(ج): وماؤها ملح، وليس لها مغيض ظاهر، ويقع فيها نهر جيحون، ونهر الشاس، وأنهار غيرهما كثيرة، فلا يعذب ماؤها، ولا يزيد فيها، ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون بينها وبين بحر الخزر خرق يتصل بمائها، وبين البحرين نحو عشرين مرحلة على السمت.

وأضيق أعبار جيحون على رباط بلخ عرضه نحو ميلين هذا كله من التنبيه.

فأما نهر بلخ الذى يسمى جَيْحُون[١] ـ وهو نهر المصيصة ـ فإنه يجرى من أعين، فيمر ببلاد الترمذ واسفرائين من بلاد خراسان، حتى يأتى بلاد خوارزم، فيفترق فى مواضع هناك، ويمضى باقيه فيصب فى بحيرة الجرجانية أسفل خوارزم.

وليس فى العمران بحيرة أعظم منها؛ لأن طولها مسيرة شهر فى نحو ذلك من العرض، ودورها أربعمائة فرسخ، وإليها يصب نهر فرغانة والشاش، وعليها مدينة للترك، يقال لها الجديدة، فيها المسلمون. والسفن تجرى فى هذه البحيرة.

* وقد زعم قوم من أهل الخبرة أن مبتدأ نهر جيحون يستمر خارجًا إلى بلخ، ثم يصب فى البحر، وهو يصب فى ساحل المصيصة من البحر الرومى، ومقدار جريه على الأرض مائة وخمسون فرسخًا، وقيل أربعمائة.

وقد زعم قوم أنه يصب فى مهران السند، (وذكر الجاحظ أن مهران السند) من نيل مصر، واستدل بوجود التمساح فيه. ذكر ذلك فى كتاب الأمصار.

ونهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة فى أعلى بلاد السند من أرض فتح من مملكة بوروة.

* **الفرات**: مبتدؤه من بلاد قَالَى قَلاَ من ثغور أرمينية من جبل هناك يُدعى أفردخش على نحو يوم من قَالَى قلا، ثم يجرى فى بلاد الرُّوم، إلى أن يأتى ملطية، وإذا توسّط بلاد الروم تجلّبت إليه مياه كثيرة وأنهار، ثم ينتهى إلى جسر مَنْبج، ثم إلى بالس، ويمرُّ بصِفّين فى موقع حرب أهل العراق وأهل الشّام، وينتهى إلى الرقّة والرَّحْبة وهيت الأنبار. وتأخذُ منه هناك أنهار، مثل نهر عيسى

---

(١) الروض المعطار ١١٥ وآثار البلاد ٥٢٥.

الذى ينتهى إلى مدينة السَّلام، فيصبُّ فى دجلة وغيرها. ثم يأخذ الفرات إلى بلاد سورا وقصر ابن هبيرة والجامعين والنرس والطفوف، إلى البحيرة التى بين البصرة وواسط.

(د): وهو يقبل من الشمال فيكون مقدار جريانه على وجه الأرض نحو خمسمائة فرسخ، وقيل ستمائة فرسخ. وقد كان الفرات ينتهى إلى بلاد الحيرة ونهرها بين إلى هذا الوقت، فيعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم، وهى وقعة القادسية، فيصب فى البحر الحبشى، وكان البحر يومئذ فى الموضع المعروف بالنجف، وقد تقدم ذكر هذا.

ويقع فى الفرات فى أرض الجزيرة نهر الخابور بموضع يسمى قرقيسيا. وبالبطائح تجتمع هذه المياه، وهى ثلاثون فرسخًا فى ثلاثين، حد منها جزيرة العرب وحد أرض ميسان، وحد دجلة بغداد وحد مصب الفرات والنهروان.

وهذه البطائح هى مزارعهم وأشجارهم، وقد أخرجت من هذه البطائح أنهار، منها: نهر مرة، وهذا النهر منسوب إلى مرة بن أبى عثمان مولى عبد الله بن أبى بكر، وهو عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، كتبت عائشة بالوصاة به إلى زياد، فأقطعه ذلك النهر، وفيض البصرة يقع فى نهر الأبلّة، حتى يخرج إلى دجلة العوراء، ثم يقع فى بحر الهند، وفيض البصرة هو نهرها الذى البصرة عليه.

* **وأما الدجلة** فإنها تخرج من الإقليم الخامس من بلاد آمد من ديار بكر، موضع يُعْرَف بحصن ذى القرنين، وتصبُّ إليه أنهار سَرْيَط وساتيدما، الخارجة من بلاد أَرزن ومَيَّافارقين، وتمر بالموصل، ويصب فيها نهر الخابور الخارج من بلاد أرمينية، والتقاؤه بدجلة من بلاد قَرْدَى، وقال: تلك من بلاد الموصل، وهذه الديار ديار بنى حمدان وفيها يقول الشاعر: [من الطويل]

بِقَرْدَى وبازَبْدَى مصيفٌ ومَرْبَع ... وعَذْبٌ يحـاكى السَّلسبيل بَرُود
وبَغْدَادُ ما بغدادُ ، أمَّا تُرَابُها ... فَجَمْرٌ وأمَّـا حَرُّهـا فَشَدِيدُ(1)

وليس هذا نهر الخابور الذى يجرى من مدينة رأس العين ويصب فى الفرات.

---

(١) مروج الذهب ١/ ١٠٤.

ثم تمر دجلة فيصب فيها أسفل من الموصل نهر الزَّاب بين الموصل وجرد والحديثة على فراسخ من الحديثة من الجانب الشرقى، فهذا الزاب الأكبر والأصغر الواردان من بلاد أرمينية وآذَرْبيجان، ثم تنتهى إلى تكريت وسامرا وبغداد، فيصب فيها نهر عيسى وغيره التى ذكرنا أنها تتشعب من الفرات. ثم تخرج دجلة من بغداد فتصب فيها أنهار كثيرة مثل النهر المعروف بنهر بين ونهر رُوان، مما يلى جرجرايا والسّيب ونيل النعمانية، وإذا خرجت الدجلة عن مدينة واسط، تفرقت أنهار آخذة إلى بطيحة البصرة مثل سردود وسايس والمصب الذى ينتهى إلى القَطْر، وفيه تجرى أكثر سفن البصرة من بغداد وواسط، ومقدار جريان دجلة ثلاثمائة فرسخ، وقيل أربعمائة.

وقال أحمد بن عمر: أما دجلة التى تُدعى اليوم بالعوراء، فإنها كانت قبل الإسلام تستقيم من عند المذار، وهى اليوم منقطعة فتمر ما بىن المذار وعَبْدَسَى من كور دَسْت مَيْسان حتى تخرج عند الخيزُرَانة فوق فم الصلح، بحضرة واسط، فتمر حتى تأتى المدائن، فكانت سفن البحر تجرى من بلاد الهند فتدخل فى دجلة البصرة حتى تأتى المدائن، فتمر حتى تخرج فوق فم الصلح، فتصير إلى دجلة بغداد، فتأتى المدائن. ثم إنها خرقت الأرض حتى مرَّت بين يدى واسط حتى صبت ماءها فى هذه البطائح، والبطائح يومئذ أرض تُزرع متصلة بأرض العرب، ومن قبائلها يَشْكُر وباهلة، وبنو عبس، متصلة بناحية مَيْسَان وأرضها، فغلب الماء على ما كان من تلك الأرضين منخفضًا، فتلك المواضع معروفة بالبطائح تسمى سرطغان وطستخان، قد يُرى أثرها فى الأرض - أعنى أرض البطائح - تحت الماء عند ركود الماء وصفائه، فيُعلم أنها كانت أرضين.

وصارت البطائح الأولى وما والاها صحارى ومفاوز، ويصيب المارة فيها فى الصيف سموم شديدة. فلم يبق اليوم من دجلة العوراء إلا من المذار إلى بحر الهند، وذلك مقدار ثلاثين فرسخا. وهى دجلة البصرة وإليها ينتهى مَدُّ البحر وجزره.

وكان كسرى أبرويز قد سكر دجلة عند الخيزرانة، وإنه أراد أن يعيد الماء إلى دجلة العوراء وأنفق عليها مالاً عظيما، فأعياه ذلك وجرت فى موضعها الذى هى

اليوم فيه بين يدى واسط.

ورام بعد ذلك خالد بن عبد الله أن يسكرها، وأنفق الأموال فى ذلك، فصفت دجلة ذلك البنيان وخرقته، وآثار ذلك البناء تُرَى إذا قلَّ الماء فى دجلة من آجرّ وصاروج، وربما عطبت فيه السفن المارة.

* **وأما سيحان**، فهو فى الثغر الشامى، وهو نهر أذنة، ومخرجه من نحو ثلاثة أميال من مدينة ملطية، ويجرى فى بلاد الروم، وليس عليه للمسلمين إلا مدينة أذنة، بين طَرْسوس والمصيصة، ويصب فى البحر الرومى من الثغر الشامى.

* * *

ومن أنهار الأرض المشهورة

* **نهر كَنْك**: ببلاد الهند، ونهر مِهْران وهو نهر السند، ويخرج من جبال شقنان، ويقال إنه يخرج من جبل يخرج منه بعض أنهار جَيْحُون، وتمدُّه أنهار كثيرة، وعيون غزيرة، فيقطع أرض الهند والسند، ويظهر على نوافره بناحية الملتان، ثم يمر على المنصورة، حتى يقع فى البحر، شرقى الدّيبل.

وهو نهر كبير عذب يقال إن فيه تماسيح كتماسيح النيل، وهو مثله فى الكبر وجريُه بالأمطار الصيفية، وينتشر على وجه الأرض، ثم ينضب فيزرع عليه حسب ما يزرع بأرض مصر.

* **نهر الرَّس**: وهو نهر أرمينية، يمر برستاق بناحية الفرس وشرقيه، ثم يمر بديبل وبأرَّان، فيقع فيه من جبال أرمينية وجبال أرَّان أنهار، ثم يمر بوَرْثان إلى مرويح، فإذا جاوزها انصب فى بحر طبرستان.

* **النهروان**: وإن منبعثه من جبال أرمينية، ويمر بباب صلوى، ويسمى هناك ثامَرّاً، ويستمد من القراطيل، فإذا صار بباب كسرى، يسمى النهروان، وينصب فى دجلة أسفل جبُّل.

* **نهر الخابور**: منبعثه من رأس العين من أعلى أرض الجزيرة، ويمتد من الهرباس، وهو نهر ينصب فى الفرات بموضع يسمى قرقيسيا.

* **نهر بَرَدى**: نهر دمشق: فينبعث من جبالها، فيجتازها فيسقيها ويسقى غوطة دمشق، وينصب فى بحيرة دمشق.

* **نهر قَوَيق**: نهر حلب، ينبعث من قرية تُدعى سُنياب، على سبعة أميال من دابق، ثم يمر إلى حلب ثمانية عشر ميلا، ثم يفيض فى الأجمة.

* * *

(ومن الأنهار المنصبة فى جيحون)

* **وَخْشَاب**: وهو أعظمها، يُقبل من أعلى بلاد الترك، فيصير إلى بلاد فامر، ثم إلى بلاد الراست، ثم إلى بلاد الكميذ، ثم يمر بين الجبلين، فيما بين حدود الواسجرد ورستاق من أرض الخُتَّل، فيستقبل جريه بلاد الخُتَّل ذات يمينه، وبلاد الواسجرد ذات يساره، ثم يجرى حتى إذا صار فى أرض الخُتَّل، صب فى جيحون بموضع يعرف بميلة فوق مدينة الترمذ.

* **ونهر وخّاب**: يكشف بلاد الخُتَّل من الشق الآخر، وهو الذى يخرج من بلاد التبّت، وهو أصل جيحون على ما قدّمناه، وفى أعلى هذا النهر موضع يخرج منه الذهب قطع صغار مثل رءوس الإبر.

* * *

ذكر بعض الأنهار الخارجة من صحراء المغرب

من جبل درن، وهذا الجبل معترض فى الصحراء، وهو فاصل بين الصحراء والساحل، ومنه يتفجر كل نهر هناك، وهم يختلفون فى تسمية هذا الجبل، فأهل فاس وسِجِلْمَاسة يسمونه درن، والمصامدة ونول يُسَمُّونه يشكوا، وهوارة تسميه أوراس، فمما ينفجر منه نهر نفيس، ووادى أغمات، ونهر موقوا، وهو يقع فى وادى وانسقين، وهو يجرى إلى بلاد برغواطة.

ومنها وادى وارزين، وهو يقع فى وانسقين، ومنها وادى أقديم، وهو وادى

سلا، ويخرج من هذا الجبل فى القبلة إلى الصحراء نهر درعة، وهو نهر عظيم، ينصب فى بحر نول فى البحر المحيط، ومن هذا الجبل ينبعث وادى غريس، وهو نهر سجلماسة الذى يعرف بوادى زيز، وينصب فى هذا الوادى عدة أودية تنبعث كلها من ذلك الجبل، واجتماعها كلها فى موضع يقال له فاكنسا، وهذا الوادى يقع فى البحر وراء درعة بعد مسافة بعيدة.

* * *

ومن الأنهار المشهورة ببلاد الأندلس

نهر قرطبة، ويعرف بنهر بيطى، مخرجه من ناحية ريمية، وبين منبعثه إلى موقعه فى البحر بغربى إشبيلية ثلاثمائة ميل وعشرة أميال. ويقع فيه سنجيل، وهو ينبعث من الثلج فى فحص ألبيرة. وتقع فيه عيون لوشة، وتقع فيه عين وادى سوس ومخرجه من جبال باغة، ويقع فيه الوادى الأحمر، ومخرجه من جبال النشكة. وبأقل جَدْول من هذا النهر يستحيل ماء نهر قرطبة وتعلوه حمرة وكدرة. وينصب فيه بلون وأنهار كثيرة: نهر ترميد: ومخرجه بقرب من مخرج نهر قرطبة من ناحية كَشْكَه، وجريه إلى الشرق وانصبابه فى البحر الشامى، ونهر تضغطه الجبال بموضع يعرف بِرْقوط، على ثمانية عشر ميلا من مرسيه، ولولا هذا الجبل لغرق السيل مرسية.

ونهر آنة، ومنبعثه بين شمال الأندلس وشرقها فيما بين الجبل المسمى البويرة، وبين مدينة روقول. وهى فوق مدينة ريمية. ومصبه فى البحر المحيط بأشكونية، ومسافة طوله ثلاثمائة وعشرون ميلا، ونهر آنة هذا يغيض بين لابردة وبطليوس، فيجرى متواريا حتى يبدو بموضع يُعرف بفجّ العروس من فحص الفجّ. ثم يغيض فيخرج بقرية من قرى قلعة رباح، يقال لها آنة لكثرة صنوبره.

ومصبّه فى البحر المحيط بين مدينة قلموية ومدينة برتقال. ومسافة جريه تسعمائة ميل وثمانون ميلا، وتقع فيه نحو عشرة أنهار.

ونهر أبره، يخرج من عين يقال لها: قونت أبير، وهى فوق أرض القلاع، ومجراه من الجوف إلى القبلة، ومصبه فى البحر الشامى بناحية طرطوشة، ومسافة

جريه مائتا ميل وأربعة أميال، وهو مخصوص بالحوت المعروف بالطرنجة، وهو حوت عظيم، وليس له إلا شوكة واحدة.

وتقع فيه عدة أنهار.

نهر جِلَق: وهو يقع فى نهر أبرة، ومخرجه من جبال الشّيرطابنين.

* * *

ومن أنهار بلاد الإفرنجة وجليقة المشهورة

* نهر مينية، مخرجه من جبال ألتبه، ويشق بلاد جلّيقية من شرق إلى غرب، ويقع فى البحر المحيط بناحية حائط جليقية، وعدد أمياله ثلاثمائة ميل وثلاثة أميال.

* نهر رووية ـ وهو بلدغاليش، ومخرجه من فحص بلدغاليش.

ونهر آخر يعرف بقرنيش، وهو الذى تدعوه الصقالبة وادى رين. وعليه حضورهم عند خروجهم من بلدهم، وعليه مدينة الإفرنج العظمى التى تُدعى مغنج.

وعلى هذا النهر جسر ممدود من مراكب، قد ختم بعضها إلى بعض، وسُمرت بمسامير الخشب، وعقد بعضها إلى بعض، والأرحال منصوبة عليها، فإذا كثر ماء النهر ارتفعت بارتفاعه، وانخفضت بانخفاضه، وهى تطحن مستسرّ، وجزء منه يصب فى البحر المتوسط وجزء فى البحر المحيط، ومسافة جريه مائتان وخمسون.

ومن الأنهار العظام نهر بدوينة ـ والله أعلم بغيبه وأحكم.

* * *

ابتداء الممالك

مملكة الهند

وهى عند جميع ملوك الكفار بإجماع منهم مملكة الحكْمة. والحكمة من الهند بدؤها. وزعموا أنهم أول من ضمَّ المملكة ونصب لها ملكًا.

فأولهم: البَرْهَمن الأكبر، وهو الذى أظهر المملكة والحكمة وابتدعها، وصنع السيوف وآلات الحرب، وشيَّد الهياكل، ورصَّعها بالجواهر، وصوَّر الأفلاك والبروج والكواكب، وجعل ذلك كتابة قريبة إلى العقول، وأثبته فى الأفهام، وأشار إلى المبدأ الأول المُعطِى لسائر الموجودات وجودها، وذلك الكتاب كتاب السند هند، أى دهر الدهور، ومنه تفرعت الكتب: كتاب المَجِسْطى، والأرجَبْهَد، وغيرهما.

وكان اعتقاد البرهمن أن الخالق نور لا كالأنوار التى نراها بالأعين لأنه نور عليم سميع بصير.

وتزعم الروم وغيرها أنهم إنما يعبدون أسماء لا يعرفون معناها، وهو أول من تكلم فى أوج الشمس، وأنه يقيم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة، وأنه إذا انتقل الأوج إلى البروج الجنوبية، انتقلت العمارة، فصار العامر غامرًا، والغامر عامرًا.

وقد زعموا أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يُفنى العالم، وينشأ عالم آخر، وذلك مُدَّة قطع الكواكب الثابتة أوج الشمس. وإذا أنشأ الله عالمًا آخر، ألهمهم إلى المنافع والمضار، وما يعمرون به الأرض.

وهذا مذكور فى كتاب السند هند.

* وقد كان البرهمن جمع سبعة من حكمائهم، فقالوا: تعالوا ننظر من العالم، ما سِرّه؟ ومن أين أقبلنا، وإلى أين نمرّ؟ وهل إخراجنا من عدم إلى وجود حكمة؟ أم ضد ذلك؟ وهل خالقنا ومخترعنا يجتلب منفعة أم هل يدفع بفنائنا مَضَرَّة؟ وما وجه إبلائه إيانا وإفنائه لنا بعد إيجادنا؟

فقال الحكيم الأول: أترى أحدا من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على

حقيقة الإدراك فظفر بالبغية، واستراح بالثقة؟

وقال الحكيم الثانى: لو تناهت حكمة الخالق فى حد العقول، لكان ذلك نقصا فى حكمته، وكان الغرض من غير مدرك، والتقصير مانعا من الإدراك.

وقال الحكيم الثالث: الواجب أن نبتدأ بمعرفة أنفسنا التى هى أقرب الأشياء إلينا قبل أن نتفرغ إلى علم ما بَعُد عنا.

وقال الحكيم الرابع: لقد ساء موقع من وقع موقعا احتاج فيه إلى معرفة نفسه.

وقال الحكيم الخامس: من هاهنا وجب الاتصال بالعلماء المُمدّين بالحكمة.

وقال الحكيم السادس: يجب على المرء المحب لنفسه أن لا يغفل عن ذلك، لاسيما إذا كان المقام فى هذه الدار ممتنعا.

وقال الحكيم السابع: ما أدرى ما تقولون، غير أنى خرجت إلى الدنيا مضطرا وعشت فيها حائرا، وأخرج منها كارها.

واختلف الهند ممن خلف وسلف فى آراء هؤلاء السبعة وأقوالهم وتنازعوا فى مذاهبهم، فافترقوا على سبعين فرقة. منهم من يثبت الخالق والرسل - عليهم الصلاة من الله والسلام - ومنهم النّافى للرسل. ومنهم النّافى لكل ذلك[1].

وقد زعموا أن البرهمن هو آدم، والأكثر منهم على أنه ملك الهند.

والهند تزعم أن آدم سابع سبعة من الآدميين، وأن كل آدمى منهم كان مدة ولده ونسله سبع آلاف سنة.

ولا يجعلون للدهر ابتداء ولا انتهاء. ويقول: إن الله أول لا ابتداء له، ودائم لا نفاد له ولا غاية، يخلق عالما بعد عالم، وجيلا بعد جيل، وينشئ أمة بعد أمة، فكما لا تعقل أوليته ولا غايته، فكذلك لا يحيط عباده بمعرفة حكمته ولطف قدرته.

والهند تزعم أنهم يدركون بالرُّقى والوهم ما أرادوا به، وأنهم يحلُّون ويعتقدون بزعمهم[2].

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ٧٠ ونزهة المشتاق ١/ ٩٦و٩٨.

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة ٧٠.

وكان مُلك البرهمن ثلاثمائة سنة وستين سنة، وولده يُعرفون بالبراهمة إلى وقتنا هذا، والهند تعظمهم، وهم على مر السنين لا يغتذون بشىء من الحيوان، ولا يشربون الخمر ولا الأنبذة، وفى رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر متقلدين بها كحمائل السيوف فرقا بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند.

* **ثم ملك بعده الباهيود ابنه**، فسلك مسلك أبيه. وفى أيامه عُملت النَّرد مثالا للمكاسب، وإنها لا تزال بالكيس. وملك مائة سنة، وقد قيل إن أردشير وضع النرد وجعلها اثنى عشر شكلا عدد الشهور، والكلاب ثلاثين عدد أيام الشهر، والفُصَّيْن مثالا للقدَر وتقلبه.

* **ثم ملك دينام ـ وقيل اسمه دبشلم ـ** وهو واضع كتاب كليلة ودمنة، وكان ملكه مائة وعشرين سنة.

* **ثم ملك بَلْهيت**، وصُنعت فى أيامه الشطرنج، بيّن فيه الظَّفَر الذى يناله الحازم، والنكبة التى تلحق الجاهل.

وللهند فى الشطرنج سر يسرُّونه فى تضاعيف حسابها، ويتغلغلون بذلك إلى ما علا من الأفلاك، ويجعلونه متصلا بالأجسام السمائية. ولم تزل كل طائفة تستعمل عليها فنون المُلَح والنوادر المضحكة المُدهشة.

ويزعمون أن ذلك مما يبعث على لعبها، وانصباب الموادّ، وصحيح الأفكار وهو بمنزلة الارتجاز للمقاتل، والحد للمُغَنى، وقال بعض الشعراء: [سريع]

نوادر الشطرنج فى وقتنا أحرُّ من ملتهب الجمر
كم من ضعيف اللَّعْب كانت له عونا على مُسْتحسن القمرِ[1]

وذكر بعض أهل النظر من الإسلاميين أن واضع الشطرنج كان عَدْليا مستطيعا فيما يفعل، وأن واضع النرد كان مُجْبرا.

فبيّن باللعب بها أنه لا استطاعة له، بل تصرّفه فى أمره على حسب ما يوجبه القدر. ولذلك قال الشاعر الكاتب المعروف بكشاجم: [بسيط]

لا خيرَ فى النرد، لا يغنى ممارسها فضلُ الذكاء إذا ما كان محروما

(١) البيتان بلا نسبة فى محاضرات الأدباء ٢/ ٧٢٧.

تزيلُ أفعــال فَصَّيْهـا بحكمهما ... ضِدَّين فى الأمر ميمـونًا ومشؤوما

فمـــا تكـــادُ ترى أخا أَدَبٍ ... يفوته القَمْرُ إلا كــان مظلوما

وقال أبو نواس: [طويل]

ومأمـــورة بالأمر تأتى بغيـره ... ولم تَتَّبع فى ذاك غيًا ولا رُشـدا

إذا قُلْتُ لم تفعل وليست مطيعة ... وأفعل ما قالت فصرتُ لها عَبْـدا

وقال اليعفيلى: لم تَلْتهِ الملوك والسادة وأهل المروَّة والشرف بشىء أحسن من الشطرنج، وإنها حكمة وأدب وتدبير ونظر، ولم تضعها الحكماء لتكون لعبا ولا لهوا ولا هزلا. وإنما وضعتها للبيان، يتبين بها صحة النظر فى ابتداء الأمور وعواقبها. ولا يكون إقدام المقدم إلا بعد رؤية، ولا تأخير المتأخر إلا بعد هزم.

وقد لعب بها التابعون ورخص فيها. وحدثنا سليمان بن داود عن ابن معاوية الضَّرير عن الزبير بن عدى قال: رأيت الشعبى يلعب بالشطرنج وإلى جانبه قطيفة، فإذا مر جماعة أدخل رأسه فيها، وكان يجيز شهادة اللاعب بها ما لم يكن قمارا، ولم يؤخر بسببها صلاة.

وكان الرشيد حبس موسى بن جعفر بن محمد فى دار السندى بن شاهك، فربما خرج عليهم من الموضع الذى هو فيه فيراهم يلعبون بها فيقومون عنها، فيقول لهم، ارجعوا فإنه أحسن ما تشاغل به الناس ما لم يكن فيه قمار.

وملك بلهيت ثمانين سنة، ثم ملك كورث، وهو الذى عُمل له الكتاب الأعظم فى الأدواء والعِلل وعلاجها، وشكلت الحشائش وصُوِّرت.

وبعد ملكه تخربت أحزاب الهند، وتفرقت آراؤها ومملكتها:

فتملك أرض السند ملك، وأرض القَنَوج ملك ـ وهو بروزة سمة لهم ولا بحر لهم ـ وأرض القَشْمير ملك، والمانكير ملك ـ وهى الحوزة الكبرى ـ فسُمى البَلَّهرى[1]، فصارت سمة لمن طرأ من الملوك فى هذه الحوزة إلى وقتنا هذا.

(١) تفسير بلَّهرا: ملك الملوك، وهذا الاسم يتوارثه الملوك المستأخذة عن الملوك الماضية، وكذلك سائر الملوك بالهند إذا صار الملك لملك منهم تسمًّى باسم الملك الذى كان قبله، وأسماؤهم متوارثة بينهم لا ينتقلون عنها،وقد صار ذلك بينهم سيرة ينتهجونها. نزهة المشتاق ١/ ١٨٣ـ١٨٤.

وبلاد البلَّهرى يقال لها الكمكم، ومنها يجلب الساج وبها يكون. . . وهى مملكة واسعة، وقد ذكرنا أن من حوله من الملوك يصلون إليه.

وينضاف إلى مملكة الهند مُلك الزَّابج، وهى ملكة المَهْراج ـ ملك الجزائر، وهذه المملكة فرق ما بين الهند والصين.

ومعنى المَهْراج عندهم: ملك الملوك[1].

قال: وليس له مملكة غير الجزائر، وليس فى ملوك الهند أكثر خيرا منه، ولا أقوى دخلا، ويقال إن دخل قمار الدّيوك[2] خاصة يبلغ كل يوم فى مملكته خمسين منّاً من ذهب، ويكون بطوران من جزائره كافور ومعدنه جزيرة رامنا.

* ومن كبار ملوكهم ملك قمار والبرانية ملكة الجزائر. وملك قمار قليل المملكة، تكون فى مملكته مسيرة أربعة أشهر، ويركب له خمسون ألفا، إلا أنه أحسن الملوك مكافأة، يكافئ على الجزء بمائة جزء، وهو أشبههم سيرة بالمسلمين.

ومنهم ملك يقال له الفارطى[3]، وملك يقال له الصَّيلمان[4]، وينتهى جنده إلى سبعين ألفا، إلا أن فِيَلَته قليلة، وهى أجزأ فيلة الهند.

ومنهم ملك يقال له نجابة، وهو شريف فيهم، وهم السَّلوقيون، ولايتزوجون إلا فيهم لشرفهم.

والكلاب السَّلوقية[5] إنما وقعت من بلادهم، فأما الصندل الأحمر، إنما يكون فى بلاد نجابة.

ويليه ملك يقال له الجُرْز[6]، العدل فى مملكته مستفيض، ولو أن رجلا نشر ذهبا ولؤلؤاً يمينا وشمالا فى سبل مملكته وطرقات جهاته، لما رزأ أحد منهم شيئا.

والعرب تدخل إلى بلاده بالتجارات كثيرا، فإن سألوه عند انصرافهم خفراً، قال

---

(١) البلدان ٧٢.

(٢) الأعلاق النفيسة ١٣٨.

(٣) فى الأعلاق النفيسة ١٣٣ العارطى بالعين المهملة.

(٤) الأعلاق النفيسة ١٣٤.

(٥) الأعلاق النفيسة ١٣٥.

(٦) الأعلاق النفيسة ١٣٥.

لهم: إن حدث بأموالكم حادث، فارجعوا بذلك عليَّ، فأنا الضامن، له ثقة بأمن بلاده، وانتشار العدل فى رعيته. وهو شجاع وذو مكيدة فى الحرب، وإن لم يقاوم جيشه، حبس كبراءهم.

وملك يقال له دَهْرَم.

قال الجَيْهانى: إنى سمعت من أثق به يقول: ربما خرج فى معسكره بثلاثمائة ألف فصاعدا. ومن بلاده يُجلب العود الهندى، وليس من شجر بلاده، إنما هو يقع هناك من بلاد ملك يقال له القامَرُوب، وليس لأحد عود هندى إلا لملك القامروب، وهو ملك قليل الجيش، ومملكته تصل ببلاد الصين، وهؤلاء الملوك كلهم مُخَرَّمو الآذان.

قال (ح): وأهل مملكته يُسمونه ملك الحولا، وله فى مملكته مدينة يقال لها هذكيرة، سوقها نحو من فرسخ، وبلاده تشرع على بحر الأغياب.

وهو بحر خبيث ـ ومن مدائن مملكته: مياسر وسمندر وهركر.

ويُعمل بمياسر حصر من الخيزُران، لا يشاركهم فيها أحد. والذى يجلب إلى بلادهم الشنك، وهو أنفق شىء فى بلادهم، والودع وهو النون الذى يُتَّخَذ منه الأبواق، فإنهم يتخذون منه الحُلى لنسائهم، ويخترقونهم بدلا من الذهب والفضة، وهم يتبايعون بالودع ويسمونه الكنج.

وهو أعز عندهم من الذهب، وربما اشتريت جارية بالودع وأخرى بالذهب، فتفخر التى اشتريت بالودع وتقول: أنا اشتريت بالكنج.

وملك يقال له الطرسول، وهم بيضُ الألوان، يلبسون القُمُص السمولية، ولهم شعور يُدلونها، وهم بلد واسع المملكة.

ويليه ملك يقال له المُوجَه، والمسك عندهم كثير، ومدينتهم حصينة جدا.

وملك يقال له المابُد، وبلاده متصلة ببلاد الصين، ويقال إن هؤلاء الثلاثة: الطرسول والمُوجَه والمابُد، يقاتلون ملوك الصين. فأول بلادهم على البحر متصلة ببلاد الصين مسيرة سنتين، وملوكهم يلبسون الحلىّ والجواهر الفاخرة والأسورة والقلائد والوشائح مثل النساء.

قال: وبين البَلَّهَرى ونجابة ملك يقال له الطاقى - هذه عبارة سمته - وهو ضيِّق المملكة، كثير المال، عامر البلاد، وأهل مملكته لهم بياض وجمال ليس يشركهم فى ذلك غيرهم.

وملك سرنديب والصوليان - غير الصيلان التى تقدم ذكرها - يسكن ملكها مدينة بيحور، يحيط بها سوران، وله أربعة أبواب: باب من جهة الجنوب يقال له باب البلادج، والبلادج عندهم الصِّهريج الذى يجتمع فيه الماء من المطر، وباب يعرف بباب هوسته، وهذا الباب الذى يخرج منه النصارى بصلبانهم فى معايشهم.

والثالث يقال له: باب العشور، وهو الذى يعشر فيه أمتعة التجار.

وفيها أديان شتى من المسلمين واليهودية والنصارى والمجوسية والثنوية وأقربهم من الملك رئيس الثنوية، فإنه بنى له بجانب قصره دارا وأنزله فيها، وسيوفهم وحرابهم وجميع ما يصنعون من حديدهم لا يقاربه شىء فى المضاء والحِدَّة.

أخبرنى العُذرى قال: حدّثنى ابن الحسن البخارى التاجر أنه قدم على ملك سرنديب، وهو صاحب مطية، وأدخل عليه مع أصحاب المطايا.

قال: ورأينا فى يده ياقوتتين حمراوين تتَّقدان كالجمرتين، زنة كل واحدة منهما خمسون مثقالا، وهو يلعب بهما من يد إلى يد.

وأخبرنا الملك أنه مما يتوارثه ملوك ذلك البلد فى قديم الدهر، وأنه لا يوجد مثلهما فى جميع بلاد الدنيا. ورأينا فى عنقه سلك جوهر فيه ثلاثون حبَّة مثل بيض الحجل، زنة كل حبة منها عشرة مثاقيل كأنها قد خرطت خرطا مع تصدع بياضها وجودة فريدها، إلا أن فى بعضها حبتين متصلتين غير منفصلتين.

قال: وأمر الملك فوزنت بين يديه ونحن شهود.

والهند مُتَّصلون بخراسان مما يلى الجبال، والسند متصلة بأرض التُّبت، والهند فى سياستهم وعقولهم[1] بخلاف سائر السودان من الزنج والأحابيش وغيرهم.

وقد ذكر جالينوس: فى الأسود عشر خصال لا توجد فى غيره: تفلفل الشعر، وخفة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغِلَظ الشفتين، وتحديد الأسنان، ونَتْن

(١) فى البلدان ٤٣٦ «أهل الهند أهل غفلة وشجاعة ولين».

الجلد، وسواد الخلق، وتشقق الأطراف، وطول الذكر، وكثرة الطرَب ـ وكثرة طربه لفساد دماغه وضعف عقله، ولحمو موضعه ومنشئه جذبت الرطوبات إلى أعلاه وأهدلت شفتيه، وقصرت أنفه وعظمت، وأشالت رأسه، فخالف بذلك مزاج دماغه عن الاعتدال، فلم تقدر النفس على إظهار فعلها فيه كاملا، وقد كان طاوس لا يأكل ذبيح الزنج ويقول، هو مشوهً الخلق.

وكان أبو العباس الراضى بالله ابن المقتدر لا يتناول شيئا من يد الأسود.

* والهند لا تُملِّك الملك حتى يبلغ أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا فى برهة من الدهر معروفة؛ لأن فى نظر العوام إليها دائما عندها خرقا لهيبتها واستخفافا لحقها، ورئاستهم وسياستهم صحيحة. وهم يمنعون من شرب المسكر، ويعيبون شاربه، وإذا صح عندهم ذلك من ملك من ملوكهم استحق عندهم الخلع.

قال الجيهانى: ولا يشربه من ملوكهم إلا ملك البهل[1]، وهو صاحب جزيرة سرنديب، فإنه يحمل إليه من بلاد العرب، وأشدهم فيه ملك قمار[2]، فإنه يعاقب فى السكر والزنا بالقتل، والزنا عند سائر ملوكهم مباح إلا فى المحصنين، وملك قمار أشدهم غَيرة.

قال الكندى: قال أبو عبد الله، وقد رأيت تجار الهند لا يشربون الشراب قليله ولا كثيره، ويعافون الخل لذلك فيحمِّضون ماء الأرز ويستعملونه[3].

والملك مقصور فى أهل البيت، وكذلك القضاء والوزراء وسائر المراتب لا تُغَيَّر ولا تُبَدَّل.

ومن اعتقاد الهند وأحكامهم قالوا: إن أصل كتب الهند وسنَّتهم من قمار[4]، وحكمهم أن من ذبح بقرة ذُبح بها[5]، وعبَّاد قمار لا يقربون المسلمين، ويقولون

(١) فى الأصل «المهل» وانظر: الأعلاق النفيسة ١٣٢.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٨٣ والبلدان ٧١.

(٣) الأعلاق النفيسة ١٣٢ـ١٣٣.

(٤) الأعلاق النفيسة ١٣٣.

(٥) نزهة المشتاق ١/ ٨٣ والأعلاق النفيسة ١٣٩.

لهم: إنكم أنجاس لأنكم تأكلون لحوم البقر.

وذكر بعض من لابسهم من المسلمين أنه سمع رجلا من كبار عبّادهم يقول: كشامرشون، قال: ففهمتُه عنه، ومعناه بالهندية: يا من ليس كمثله شيء. قال: فعجبت من ذلك، قلت له: أتعرف ما تقول؟ قال: واعجباه وتعرفون أنتم ما تقولون؟ قلت له: فلم تعبدون الأصنام من دونه؟ قال: هذه قبلتنا يا جاهل.

ومن عقوبة ملك قمار على شرب الخمر، أن تُحمى مائة حلقة من حديد بالنار، ثم توضع على بدن الرجل، فربما أتلفت نفسه. ومن رأوه من المسلمين يشرب فهو عندهم خسيس لا يعتنون به، ويقولون: هذا رجل ليس له قدر فى بلاده.

وأصل العُباد فى بلد قمار، ويقولون إن فيها مائة ألف عابد، وهم أصحاب تسبيح، ومعهم سبح لا تفارقهم.

ولملك قمار ثمانون قاضيا، ولو ورد عليهم ولد الملك لأنصفوا فيه وأقعدوه مقعد الخصم، ووجهوا عليه صريح الحكم[1].

وأهل قمار ليس عندهم صنم، وإنما يتقربون إلى شيء يسمونه اللنج من حجارة، يكون فى ارتفاع قامة الإنسان فى صورة إحليل الرجل، وظهر لهم بجبل قمار فى شجر عود الطيب، وهو جبل عريض طويل على صورة هذا اللنج الذى من حجارة، فعمل عليه سقف من ذهب وعبدوه أيضا، ولفراش ملك قمار أربعة آلاف امرأة.

ومن عجيب حكم المهراج فى بلاد قَنْصور، وهم قوم يتحالفون بالنار إذا خاصم الرجل لصاحبه فى دَيْن أو زنى بمحصنة أو سرقة، يأمر السلطان فتؤخذ قطعة حديد قدر رطل أو أكثر فيحمسونه بالنار، ثم يعمدون إلى ورق هناك يشبه ورق الغار فى الغلظ والمتانة، وتوضع منها سبع ورقات فى كفه، ثم تؤخذ تلك الحديدة بالكُلاّب فتوضع على تلك الأوراق، فيمر بها ذاهبا وراجعا مقدار ما يخطر الماشى مائة خطوة، فإن احترقت يده والورق جميعا، ألزم الذنب، فإن كان عليه القتل قُتل، وإن كان عليه الغُرم أُغرم، وإن لم يكن له مال كان عبدا للسلطان

(١) الأعلاق النفيسة ١٣٣.

يبيعه، وإن لم تحرقه النار، قيل للمُدَّعى: إنك مبطل[1].

وحكم آخر: يغلى الماء فى قدر يحبس يوما إلى الليل، حتى يصير لو قطرت منه قطرة فى يد إنسان لأحرقته، ثم يطرح فيه خاتم حديد ويقال للمدعى عليه: أدخل يدك فتناول الخاتم الذى هو فى هذا الماء، فيدخل يده فيه فيتناوله، وإن كان بريئا أخرج يده سالمة، وإن كان مقارفا للذنب، نضجت يده.

وليس فى بلاد الصين من هذه الأحكام شيء، ولهم بدائع من الملاهى لا توجد عند غيرهم.

ومن طريف أخبارهم أن ملكا من ملوك قمار ولى هذا الصقع الذى يضاف إليه العود القمارى وهو شاطئ بحر وجبال لا جزيرة له، وهم يجتنبون كثيرا من القاذورات مثل الزناء وغيره[2]، ويتشبهون كثيرًا من خلق الإسلام، وهذه المملكة موازية لمملكة المهراج صاحب الجزائر، وبين موضع ملك صاحب قمار والبحر مسيرة يوم - فتُذُوكر عنده يوما عظم مملكة المهراج وجلالها.

فقال لوزيره: فى نفسى شهوة أحب بلوغها، وكان حدثا متسرعا.

فقال: ما هى؟

فقال: كنت أحب أن أرى رأس المهراج بين يدى. فعلم الوزير أن الحسد أثار ذلك الفكر فى نفسه، فأنكر الوزير ما سمع منه وقال: إنه لم يتقدم منا ومنهم خلاف ولا تُرَّة ولا رأى فريق منا ومنهم سوءا من الآخر، وينبغى أن لا يعيد الملك هذا القول، ولا يأخذ فيه مع أحد.

وبين موضع مملكة المهراج ومملكة قمار نحو عشرة أيام فى البحر.

فلم يسمع فيه، وأذاع ذلك فى قُواده حتى اتصل بصاحب المهراج، وكان جزلا محنَّكًا.

فأمر بإعداد ألف مركب بآلتها وتجهيزها بأكمل السلاح وأهل العناء والنجدة بما تحمله كل مركب فيها، وأشاع أنه يريد التنزُّه فى جزائر مملكته، وكتب إلى ملوك

(١) الأعلاق النفيسة ١٣٩.

(٢) البلدان ٧٢.

الجزائر بما عزم عليه من زيارتهم، وأمر بتلقّيه محتفلين ليرهب من والاه.

فلما استتمت أموره، دخل المراكب فعمد إلى قمار واتصل بدار مملكة صاحبها، وله نهر يصب فى البحر، فصيّر فيه رجاله فأتوه على حال غرّة وأحدقوا به، فاحتوى على مملكته، وأمر مناديا أن ينادى بالأمان فى الناس، وقعد على سرير المملكة، وقد أخذ صاحب السرير أسيرا.

فأحضره وأحضر وزيره وقرَّرَه على تَمَنّيته، فلم يجد جوابا.

فقال له المهراج: أما إنك لو تمنيت مع ما تمنيته من إباحة أرضى وملكها، لاستعملت ذلك فيك، لكنك تمنيت شيئا بعينه فأنا فاعله بك، لتكون عظة لمن بعدك. وضرب عنقه وجعله فى طست بين يديه، وقال للوزير: جُزيت من وزير خيرًا، فانظر من يصلح للملك بعد هذا الجاهل فأقمه مقامه، وانصرف راجعا إلى بلاده من غير أن يمُدَّ هو أو أحد من أصحابه يده إلى شىء مما كان فى بلاده، وحمل الرأس معه.

فلما قعد فى مملكته وعلى سريره على غدير لَبِن الذهب، وضع الرأس بين يديه فى طست، ودعا وجوه أهل مملكته وأخبرهم خبره.

ثم أمر بالرأس فغُسل وطُيب، ووَجَّه به إلى الملك القائم بمدينة قمار، وكتب إليه: إنما حملنا على ما فعلنا بصاحبك بغيُه علينا، وقد بلغنا منه ما أردنا ورأينا رد رأسه إليك إذ لا درك لنا فى حبسه، والسلام.

واتصل الخبر بالملوك، فعظم المهراج فى أعينهم، وصارت بعد ذلك ملوك قمار تقوم بوجوهها كل صباح نحو بلاد الزَّابج، فتسجد تعظيما للمهراج.

قال (س): وأعظم ملوك الهند الآن البلَّهَرى، وأكثر ملوك الهند تتوجه فى صلاتها نحوه، وبين دار مملكة البلهرى والبحر ثمانون فرسخا سندية ـ الفرسخ من ثمانية أميال.

ومن مدن الهند المشهورة قامهل، وهى أول حدود الهند إلى موضعها إلى صيمور، وهى مدينة كبيرة أيضا، وكنبايه وسوباره وأساول وجداول وسندان والجندور والسندروز. فمن كنبايه إلى صيمور بلد البلهرى، ويعرف الملك باسم الناحية. والغالب على هذا البلد الكُفر، وفيهم مسلمون، لا يلى عليهم فى زماننا

من قبل بلهرى إلا مسلم يستخلفه عليهم، وكذلك فى كثير من البلدان التى فى أطراف المسلمين، فيغلب عليها ملك الكفر كالخزر واللاّن وغيرهم، لا يقبل المسلمون هناك معنى حكم الكافر، ولا يقيم عليهم شهادة إلا المسلمون، وإن قلُّوا.

وزىُّ المسلمين هناك واحد فى اللِّبسة وإرسال الشعور.

وبين المنصورة وقامهل ثمانى مراحل، وبين قامهل وكنباية أربع مراحل، وكنباية على نحو فرسخ من البحر، وبين سوباره وسندان نحو خمس مراحل، وهى أيضا على نصف فرسخ من البحر، وبين سندان وصيمور خمس مراحل، وبين صيمور وسرنديب خمس عشرة مرحلة.

* وأعظم أنهارهم نهر مهران، وقد تقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب، ونهر سندروذ، وهو يصب فى مهران بين بسمد والمُلتان، ونهر جندور، وهو نهر كبير من أعذب المياه، وهو فى نواحى المنصورة.

وزعموا أيضًا أن الهند اسم نهر هناك، وبه سُميت الهند.

* * *

ذكر ملوك الصين [1] والترك

من ولد عامور بن سويل بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ مدينة الملك بالصين هى أنمو، بينها وبين ساحل البحر الحبشى ـ بحر الصين ـ مسيرة ثلاثة أشهر.

قال (ح): إن مدينة الصين العظمى التى ينزل ملوكها تسمى خمدان، وحوالى هذه المدينة مائة وعشرون قرية، فى كل قرية ألف رجل مترتبة لحراستها.

والمدينة مقسومة نصفين: نصف يكون فيه أهل بيت الملك وخاصّته وعماله، ونصف يكون فيه عامتهم وأشرافهم.

وللملك ثلاثمائة وستون مدينة، يُحْمل إليه كل يوم من كل مدينة خراجها للباسه، ولكل جارية من جواريه. وفى قصر الملك بخمدان ثلاثمائة وثمانون كوسًا منكسة، فإذا كان قبيل المغرب مع غروب الشمس قرع بها قرعة واحدة، فيتبادر الناس للانصراف إلى منازلهم، فلا يبقى أحد خارجًا عن داره، حتى يخترق عسكر الملك السّكك والطرق بسيوف منتضلة، فمن وجدوه خارجًا عن داره ضرب عنقه كائنًا من كان، واحتزّ رأسه وألقى فى موضع قد أعدّ لذلك وكتب على ظهر المقتول: من رأى هذا فلا يتعدى أمر الملك.

قال: وسكك هذه المدينة مظللة بخشب السّاج، وتكنس فى كل يوم ثلاث مرات. ودورهم واسعة مُبَخّرة المجالس كثيرة التماثيل. وللملك أربعمائة ألف مرتزق، وهو لا يكاد يبرز لأحد ولا يراه أحد إلاّ وزيره أو حاجبه أو رسول ملك يرد إليه، أو وجوه أصحابه يصلون إليه فى كل أسبوع. فإن تعذّر ذلك أكثر من هذه المدّة، ضجّوا وسألوا الوصول إليه كى لا يكون قد مات وأخفى ذلك عنهم، وإذا أراد الملك أن يركب ضرب بجرس فيدخل الناس منازلهم ويخلون الطريق.

وإنما سميت الصين، لأن أول من نزلها صائن بن عامور بن سويل بن يافث فأثار معادن الذهب، وعمل الحكم ودقائق الصناعات، وملكهم مائتى سنة.

فلمّا هلك جعلوا جسده فى تمثال ذهب، وأجلس على سرير من ذهب مرصع

(١) البلدان ٦٩ـ٧٣ وآثار البلاد ٥٣ـ٥٥.

بالجواهر، وبنوا له هيكلاً يكون فيه فيسجدون له. واتخذ لهم بعض ملوكهم سياسة شرعية وفرائض عقلية، وجعلها رباطًا ورتب لهم قصصًا وحدودًا ومستحلات للمناكح، وصلوات تقربهم إلى معبودهم، إنما لا سجود فيها، وأمرهم بقرابين للهياكل ودفن، واتخذه أيضًا للكواكب.

فهم باقون على ذلك، إلا أنه دخل فيهم اعتقاد المانية والدهرية والثنوية فتناظروا واختلفوا فى الاعتقاد، وأصلهم فى شرعهم لا يختلف.

ولهم مدينة عظيمة مما يلى مغرب الشمس، يقال لها مدو تتصل ببلاد من الأتراك، والحرب بينهم سجائل، وملة الصين تدعى الشمينة.

ولهم أفخاد وقبائل كقبائل العرب، يرفع الرجل منهم نسبه إلى خمسين أبًا، وأكثرهم يعد إلى عامور. ولا يتزوج منهم فخذ إلا فى فخذ آخر ويزعمون أن فى ذلك صحة النسل وقوام البنية.

ولم تزل أمور الصين مستقيمة الأحوال إلى سنة أربع وستين ومائتين، فإنه ظهر فيهم رجل من غير بيت المملكة يسمى يانشو، فاجتمع إليه أهل الذعارة والشر، فافتتح مدينة خانقوا، وهى من كبار مدائنها، وفيها أخاليط الناس من كل ملة فاستباحها بما فيها، وكان مذهبه الإفساد، لأنه لم يكن من بيت المملكة فيطمع فيها. فانتهى من قتل فيها مائتا ألف، وإنما حصى ذلك لأن ملوك الصين تحصى من فى مملكتها من الأمم وتتعاهد ذلك وتضمّه فى دواوين لها، وعلى ذلك قوم مرتبون لا يشتغلون بسواه.

ولم يزل أمره ظاهرًا حتى استولى على دار المملكة بعد أن هزم الملك مرارًا. ونجا الملك إلى مدينه خانقوا ـ وهى مدينة استباحها يانشو القائم على الملك أولا ـ فالتقى الفريقان، فكانت الحرب بينهما سجالاً نحوًا من سنة، ثم فُقد يانشو، ويقال إنه أحرق، ثم رجع الملك إلى دار مملكته.

وهم يسمونه بغبور، وتفسير ذلك ابن السماء، أى إنما أنزل من السماء فولينا، والعرب تسميه المغبون، مكانِ تسمية أولئك ببغور، وربما تقارب اللفظان، أى المغبون فى دينه.

وتغلب رأس كل ناحيه من بلاد الصين على ناحيته كتغلب ملوك الطوائف حين

قتل الإسكندر دارا ملك الفرس، وكنحو ما نحن بسبيله. فر حتى ملك الصين منهم بالطاعة، وأغار كل فريق منهم على من يليه فعُدم انتظام ملكهم إلى الآن.

ومن سيرهم أن المرأة إذا لم تكن محصنةً، وأرادات الفجور دفعت رقعة إلى الملك فجاء لها وما ذهبت إليه، فيبعث إليها حلقا من نحاس فجعلها فى عنقها، ولبست المصبغات، وعملت ما شاءت علانية فإذا ولدت الذكور حظوا، واستعملهم الملك فى داره وأعماله، وإن كانت التى ولدت أنثى كانت على رسم أمها.

ومن سننهم أن يورثوا الإناث أكثر من الذكور، ومن سننهم أن لهم عند حلول الشمس الحمل عيدًا معظمًا عندهم، يأكلون فيه ويشربون سبعة أيام.

وجزيرة كُلّه، يُقال لها المَنْصفُ، وهى بين أرض الصين وأرض العرب - وتكسيرها ثمانون فرسخًا، ولكنها مجتمع الأمتعة والتجار من الصينيين والمسلمين، وإليها يتجهز من عُمان فى وقتنا هذا فتجلب منها أصناف الطيب كله، والرصاص القلعى، والأبنوس والبقم، وغير ذلك وقد كانت لهم سياسات وعدل وحكمة.

ومن طريف أخبارهم أن رجلاً من قريش من ولد هبّار بن الأسود، خرج من البصرة، إذ كان من خبر صاحب الزَّنج ما كان، وصار بسيراف، ثم لم يزل يخترق أرض ممالك الهند، إلى أن انتهى إلى بلاد الصين، فصار بمدينة خانفو[1] وبينها وبين البحر مسيرة الأيام اليسيرة، ثم وعته همَّته إلى حضور مجلس الملك فلم يزل حتى وصل إليه، بعد أن أعلم الملك أنه من أهل بيت النبوة، فأمر بإحضاره والبحث عن قوله ونسبه، فلما تحقق أمر ذلك أوصله إلى نفسه، فقال للترجمان: سله عن منزلة الملوك عندهم فلم يدر ما يجيب فى ذلك. فقال الملك: إنا نجد الملوك خمسة: .

فرأس الملك وأوسعها ملكًا، الملك الذى يملك العراق، وما والاها لأنه فى وسط الدنيا، والملوك محدقة به. ونجد اسمه عندنا ملك الملوك.

وبعده ملكنا، ونجد اسمه ملك الناس لأنه لا أحد أسوس للرعية. منا، ولا

(١) خانقوا مدينة عظيمة فى الصين على نهر عظيم أكبر من دجلة أو نحوها يصبُّ إلى بحر الصين، وبهذه المدينة خلائق من المسلمين النصارى واليهود والمجوس وغيرهم من أهل الصين. الروض المعطار ٢١٠.

أطوع للملوك من رعيتنا، فنحن ملوك الناس.

ثم ملك السّباع وهو ملك الترك الذى يلينا، وهم سباع الإنس.

ثم ملك الفيلة، وهو ملك الهند، ونجده عندنا ملك الحكمة، وبعده ملك الروم وهو عندنا ملك الرجال لأن ليس فى الأرض أتم(١) خلقًا من رجاله، فهؤلاء أعيان الملوك، والباقون دونهم.

ثم قالوا للترجمان: قل له أتعرف صاحبك إن رأيته؟ يعنى النبى ﷺ. قال: فقلت كيف لى برؤيته. قال فأمر بسفط فأخرج ووضع بين يديه، وتناول منه دَرْجًا، فأرانى صورة عامة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فلما رأيتهم حركت شفتى بالصلاة عليهم، فقال للترجمان سله عن تحريك شفتيه، فأخبرته. فرأيت نوحًا فى السفينة ينجو بمن معه، وعيسى على حماره والحواريون معه. قال: وفوق كل صورة كتابة طويلة بأخبارهم، وأعمالهم، وبلادهم، وأسمائهم، ثم كذلك سائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قال: حتى رأيت صورة نبينا محمد ﷺ على جمل وأصحابه محدقون به وفى أرجلهم نعال عربية، وفى أوساطهم حبال الليف، قد علقوا المساويك منها. قال فبكيت، فسألنى عن بكائى، فقلت إنى ذكرت أمر نبينا محمد ﷺ بهذه الصورة ثم سألنى عن عمر الدنيا فأخبرته بما أتى فى ذلك، فضحك ضحكا كثيرًا إنكارًا لذلك. ثم قال: من قال هذا؟ فقلت: نبينا محمد ﷺ فقال ما أظن نبيكم قال هذا، وأمر له بجائزة وحمله على البريد إلى خانفو وكتب إلى صاحبها بالوصية به، والثمار كلها موجودة بالصين إلا النخل وهم من أحذق خلق الله كفًا وصناعة، ومما أعانهم على ذلك أن الملك إذا أوتى بمعجز من الصناعات، والرقوم والنقوش وضعه على باب دار مملكته حولاً كاملاً، فإن ذكر أحد فيه عيبا وصل وحُرِم الصانع، وإلا أجزلت صلة الصانع، وإن رجلاً منهم صور سنبلة عليها عصفور فى ثوب لا يشك أنها سنبلة عليها عصفور وبقى الثوب مدة حتى اجتاز به رجل أحدب فعابها فأدخل للملك وحضر صانعها فسئل عن العيب، فقال المتعارف أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، وهذه منتصبة، فَصُدِّق، ولم يثب الصانع بشىء، وقصدهم فى هذا وشبهه الرياضة.

(١) فى الأصل (لهم).

* **فأما التُّرْكُ**: فهم من ولد عامور أيضا، ومعظم مملكتهم من الصين وبلاد خراسان وأشدهم شوكة الطغزغز[١] وهم أصحاب مدينة كوشان وما والاها، وملكهم أقرحان، ومذاهبهم مذاهب المانية، وممالكهم كثيرة: الشاش، وفرغانة، والختل وهم سكان الختلان وروسان والصغد - وهم بين بخارى وسمرقند وأهل بيت المملكة منهم بفرغانه وفيهم كان الملك وهو[٢] خاقان الخواقين وكان يجمع ملكهم فلما مات انتشرت مملكتهم وتسمّى بهذا الاسم فريق ببلاد التبت وكان ممن ينقاد إلى خاقان فلما انحل عقد نظامهم تسمى بذلك تشبيها به. قال (س) فى السفر الثانى: وقد زعم قوم أن الترك من ولد طوج بن أميزيرون وهذا غلط لأن أمزيرون قد ولى على الترك الولاة، كما ولى على الروم وغيرها وأخذ قوم من ولد عامور يسره المشرق على سَمْت الشمال فصاروا عدة ممالك: الديلم، والجيل[٣]، والطيلسان، والبرقار، والبتر، والخزر، وكشك، وأهل جبال الكبخ، وسائر تلك الأمم، وانتشرت هناك إلى بحر مانيطش ونيطش، وبحر الخزرالى البرغر، وما اتصل بهم من الأمم.

وجبل الكبخ خاصة يحتوى على اثنتين وسبعين أمة، لكل أمة ملك ولغة، وهو جبل شنيع، طوله مسيرة شهرين أو أكثر وهو من أخشن الجبال وفيه أمة لا يعرف بعضهم بعضًا لخشونته وكثرة غياضه وأشجاره وعظم صخوره، وتسلسل مياهه، وله أنهار وشعاب وأودية.

ومدينه الباب والأبواب على شعب من شعابه، وهذا البناءُ بناه كسرى أنوشروان، وجعله حاجزًا بين بلاده وهذه الأمة لما كان من إفسادهم، فجعل هذا السور[٤] فى وسط البحر على مقدار ميل مارًا فى البحر، بناه بالصخر والحديد والرصاص المفرغ على أزقاق البقر المنفوخة.

فكلما ارتفع البناء نزلت تلك الأزقاق إلى أن استقرت فى قعر البحر وقد ارتفع السور فغاصت الرجال، حينئذ بالخناجر على تلك الأزقاق فنقبتها وتمكن السور

(١) فى الأصل (البرغز).

(٢) فى الأصل (وهى).

(٣) فى الأصل (والختل).

(٤) فى الأصل (الصور).

على الأرض فى قعر البحر، وهو باق إلى الآن فى وقتنا هذا، ثم مدَّ السور فى البحر ما بين جبل الكبخ والبحر مارًا فى أعالى الأرض ومنخفضاتها نحو أربعين فرسخًا إلى أن انتهى ذلك إلى قلعة يقال لها طَبَرسْتان، وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور بابًا من حديد وأسكن من داخله أمة تراعيه وتحرس ما يليه، وجعل لكل أمة ملكًا، ِحول هذا السور أمم لا يحصيهم إلا خالقهم، ولم يبنه أنوشروان إلا عن استيلاء عليهم، وحينئذ أذعنت له ملوك الآفاق وهادَنَتْهُ وراسلته.

وصاحب الباب والأبواب الآن مسلم اسمه محمد بن يزيد من ولد بهرام واسمه محمد هذا ومن ولى بِمَوْضعِهِ شروان شاه، ومملكته نحو من شهر وإنما أسلم أهلها من يوم دخلها مسلمة بن عبد الملك وقد غلب محمد هذا على كثير من مماليك الكبخ.

ويلى ملك هذا المعروف بشروان ملك طبرستان وهو لرجل مسلم من الأنصار.

ويلى البار، والأبواب مملكة الخزر وكان موضع مملكتهم مدينة يقال لها سَمَنْدَر[1] وهى على ثمانية أيام من الباب وملكهم الآن بمدينه آتل، وبينها وبين الأول سبعة أيام وفيها من كل ملة وإنما انتقل ملكهم إليها لأن سَمَنْدَر افتتحت فى أول الاسلام ثم رجعت إليهم، ودين الخزر اليهودية، تهوَّد ملكهم زمن الرشيد فبقوا على ذلك وكان سبب ذلك إكراه ملك الروم من كان فى ملكه من اليهود على النصرانية، فتهارب قوم من اليهود إلى بلاد الخزر فتهودوا، وأكثر جيوش الخزر مسلمون، وهم ناقلة من الخوارزم لجدب وقع فى بلادهم، صدر الإسلام أجلاهم إلى الخزر، وظهر منهم فى الحرب بأس وشدة، فأقاموا على الإكرام والإحسان وإظهار الاسلام، ووزير الملك منهم، وإذا كانت للملك حروب مع المسلمين وقف المسلمون من جنده حرزة لا يقاتلون، وصومعة المسلمين فى جامعهم الأعظم تشرق على دار الملك.

وتتصل بهذه المملكة مملكة البرغر وملكها الآن مسلم أسلم بعد العشرة وثلاثمائه برؤيا رآها وذلك أيام المقتدر[2]، وكان هذا الملك يغزو بلاد القسطنطينية

---

(١) فى الأصل (سمندو).

(٢) مروج الذهب ١/ ١٨٧.

فى نحو خمسين ألف فارس ويشن الغارات إلى بلاد رومة، والجلالقة والإفرنجة، ومنه إلى القسطنطينية نحو من شهرين، وهم أمة شدادا لا تطاق، والفارس منهم يقاتل أمة من الروم ولا يمتنعون منهم إلا بالجدران والليل عند البرغر فى نهاية القصر سائر السنة ويزعم أحدهم أنه لا يقدر أن يطبخ قدره حتى يصبح.

ويتصل بهؤلاء الروس، وهم أجناس كثيرة، وهم أهل جزائر ومراكب وقوة على البحر وتصرّف كثير فيه، متصلون ببحر نيطش المتقدم ذكره، وهذه أمة مجوسية، وهى تطرأ إلى الأندلس فى المائتين من السنين، ويتصل إليه من خليج بحر أقيانس وليس بالخليج الذى عليه منار النحاس، وهو خليج يتصل ببحر مانيطش ونيطش.

ومن يتصل بمملكة الباب والأبواب **خيزان** وهم شر الناس عليهم وملكهم الآن مسلم ليس فيهم مسلم غيره، وأهل بيته يعرف بسليفان[١] سمة لمن وَلِىَ هذه المملكة، وبينهم وبين الباب والأبواب أمة من المسلمين عرب على نحو من ثلاثة أيام من مدينة الباب وهم هناك بأنهار وأشجار وغياض، وهى أمة طرأت من بوادى العرب منذ افتتح ذلك الصقع فبقيت على أعرابيتها ولغاتها، وتلى مملكة خيزان مملكة يقال لها زيكران[٢]، وتفسير ذلك عمال الزرد لأنهم صناع بالزّرد والسيوف، وغير ذلك من الآلات وبلدهم بلد خشن قد امتنعوا بخشونته، عن من جاورهم.

ويليه **ملك السرير**[٣] **ويدعى فيلان شاه** وهو من بلد بهرام جوبين ويدين بالنصرانية، وكان يزدجرد وهو آخر ملوك ساسان حين ولى هذا الصقع، قدم سرير الذهب، وخزائنه، وأمواله، مع رجل من ولد بهرام جوبين، وأمره أن يسير بها إلى هذه المملكة ويحرزها هناك إلى وقت موافاته، فمضى يزدجرد إلى خراسان فقتل هناك فى خلافة عثمان رضى الله عنه، فبقى الرجل على حاله.

ويلى هذه المملكة **اللاّن**[٤] وهى مملكة واسعة يركب لها ثلاثون ألف فارس،

---

(١) فى الأصل (يعرفوا بسيفلان).

(٢) فى الأصل (زيركان).

(٣) الأعلاق النفيسة ١٣٧.

(٤) الأعلاق النفيسة ١٣٨.

وبين ملك اللاَّن وبين صاحب السرير مصاهرة، وبين مملكة اللاَّن وجبل الكبخ قلعة عظيمه، وقنطرة على وادٍ عظيم بنتها الفرس الأولى لتمنعهم عن جبل الكبخ، ولا طريق لهم إليه إلا عليها وهذه القلعة على صخرة صماء لا وصول إليها إلا بإذن وفى أعلاها عين ثرّة، وهى إحدى قلاع العالم الموصوفة بالمنعة، قد ذكرتها الفرس فى أشعارها، ولو أن رجلاً واحدًا فى هذه القلعة منع سائر ملوك الكفار أن يجتازوا بهذا الموضع، وكان مسلمة قد أسكنها قوم من المسلمين فهم فيها الآن.

ويلى مملكة اللاَّن أُمَّة يقال لها **كَشَك**(١) وهم بين جبل الكبخ وبحر الروم، وهى منقادة إلى دين المجوسية ومعنى هذا الاسم التيه، والصلف وليس فى الأمم أنقى أبشارًا، ولا أصفى ألوانًا ولا أصبح نساءً ولا أقوم قدودًا، ولا أرق أخصارًا، ولا أعدل أكفالاً من هذه الأمة. ونساؤُهم مع ذلك موصوفات بلذّة الخلوات، ولباسهن الصقلاطون والدِّيباج، وعندهم أنواع من الثياب تصنع من العنّب منها ما هو أرقُّ من الدبيقى، وأبقى على الكدّ، يبَاع الثوبُ منه بعشرة دنانير، واللاَّن ظاهرة على هذه الأمة، إلا أنهم يمتنعون بقلاع لهم وحصونٍ منيعة.

ويليه أمَّةٌ يقال لها **السَّبَع بُلْدَان** وتليهم أمة عظيمة بينها وبين بلاد كَشْك نهر عظيم كالفرات يصب إلى بحر الروم يقال لهذه الأمة إرَم(٢)، ذات خلق عجيب وأراؤها جاهلية وتأتيهم فى كل سنة من هذا النهر سمكة عظيمة فيتناولون منها، ثم تعود فى ذلك الوقت عامًا ثانيًا اللحم الذى أخذوه، يعرفون ذلك لا يشكُّون فيه.

ويتصل بهذه الأمة على البحر آجامٌ وغياض ومواضع ممتنعة، فيها نوع من القُرود منتصبة القامات على قُدود الناس، مستديرات الوجوه كَصُوَرِ الناسِ، ذات شعور، وربما وقع فى النادر القرد منها إذا احتيل لاصطياده، فيُهادَى به الملوكُ فيكون فى نهاية الفهم، وتعلَّمها الملوك القيام على رأسها بالمذابّ، ولا يأكل الملك طعامًا حتى يقدّمه إليه لما فى القرود من الخاصية بمعرفة السُّموم فيلقى إليه من

(١) مروج الذهب ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) هى إترم ذات العماد التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم. انظر: مروج الذهب ١/ ٢٠١.

الطعام شىء فإن أكلَهُ أكَلَ المَلِكُ.

ويجانسها فى الفهم قرود اليمن، وهى ببلاد مأرب صنعاء وكَحْلان.

وكحلان: قلعة من مخاليف اليمن فيها أسعد يَعْفَر ملك اليمن فى هذا الوقت مُحْتَجب عن الناس إلا عن خواصّه وهم بقيةٌ من ملوك حِمْير وحوله من الجنود نحو خمسين ألفًا. وكانت له مع القرامطة بعد عام مائتين حروبٌ معروفة، وهذا من خواصّ البلدان. قال (س) والعَرْبَدُ[1] هو نوع كالحيَّات بأرض اليمامة لا يوجد فى غيرها، وقد جهَّز حُنَين بن إسحاق[2] أن يجلب إلى سُرَّ مَنْ رأى[3] إلى المتوكل حين كَلَّفَهُ مثل هذا من الأعاجيب، وذلك أنه إذا خرج عن اليمامة إلى موضع معروف المسافة عُزِل من الوعاء، وأهل اليمامة ينتفعون به لمنع الحيّات والعقارب وسائر الهوام، كانتفاع أهل سجستان بالقنافِذ، وفى عهد أهل سِجسْتان فى القديم، ألاَّ يُقْتَل قُنْفُذ ببلادهم، ذلك أن بلدهم كثير الرمال، بناه ذو القرنين فى مطافه، وهو كثير الأفاعى والحيّات، ولولا كثرة القنافذ لتلف من هنالك، وقد جلب حُنَيْن إلى المتوكل اثنين من النِسْنَاس إلى سائر المُسْتَغْرَبات، ولم يقدر على العَرْبد.

ويتصل بهذه المملكة ممالك شتى لأمم مختلفة، ولولا هذا السور بالباب، والأبواب لكانت هذه الأمم تخترق بلاد بَرْذَعة والبيْلَقَان وآذرْبيجان وقَزْوين، وهمدان، والدَّيْنَوَر، ونهاوَنْد وغيرها، ولوصلت الكوفةَ والبصرة، لا سيمّا مع ضعف الإسلام الآن.

---

(١) العرْبَدُ: كقَرْشَبْ، وتكسر الباء: الشديد من كل شىء، والذَّكَرُ من الأفاعى، وحَيَّةٌ تنفخ ولا تؤذى، أو حية حمراء خبيثة. القاموس (عربد) ٣/ ١٨٢.

(٢) حُنَين بن إسحاق: طبيب ومترجم، يُنسب إلى العُبَّاد، وهم قوم من النصارى انفردوا على الناس فى قصور ابتنوها لأنفسهم بظاهر الحيرة، وتسموا بالعبادين نسبة إلى عباد الله. نصرانى نسطورى تتلمذ على يحى بن ماسويه، وترجم عن اليونانية إلى السريانية والعربية. اتَّصل بالخليفة المتوكل وخدمه بالطب الذى ألَّف فيه كتبا ومقالات كثيرة لخَّص حَنين كتب بقراط وجالينوس وأوضح معانيها ومن كتبه المترجمة فى الفل نة «تيماوس» و«القوانين» لأفلاطون و«المقاولات» و«الطبيعيات» و«الأخلاق الكبرى» و«المعادن» لأرسطو، كما ترجم الإنجيل إلى العربية». الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٧٤٣.

(٣) سُرَّ مَنْ رأى: هى المدينة التى بناها المعتصم بالعراق سنة عشرين ومائتين نزلها بأتراكه. ومعنى هذا الاسم: سُرور من رأى. معجم ما استعجم ٣/ ٢٤.

ذكر ملوك السُّريانيين

تنازع الناس فيهم، فقيل إنهم نبط وقيل إخوان النبط، وكان ملكهم مِمَّا يلى السند والهند، وأما النبط وهم مُلوكُ بابل فقد زعموا أنهم أول ملوك العالم وأن الفرس أخذت عنهم الملك كما أخذت الروم عن اليونانيين، وأول ملوك النبط نَمْرود، وهم الذين شيَّدوا البُنْيَان، ومدَّنوا المدن، وكَوَّروا الكور وشقوا الأنهار، ورتَّبوا الجيوش، وجَزَّأوا الألوية والأعلام، ورتبوا العلامات فى أقسام الجيش على ألوان توافق كل قسم، وصَوَّرَوا فيها من الصور ما يجانسه، مثل أن يجعلوا فى الميمنة والميسرة صور الطير، لأنها أجنحة الجيوش، وفى القلب صورة الأسد والفيل، وما عظم وأرهب من الحيوان وثقلت وطأته، وفى الكُمَناء صور الحيّات وما خفى من الهوام وتغلغلوا فى ألوانها إلى ما علا من الاجسام السمائية، وكانت مملكة الموصل ونينوى للنبط أيضًا، ونينوى من قردى وبازيدى وبينهما وبين الموصل نهر دجلة، وإلى أهل نينوى، بُعث يُونسُ - عليه السلام - وهى الآن خرابٌ فيها قرى ومزارع، وآثارها بَيِّنة، وفيها أصنام من حجارةٍ مكْتُوبَة على وجهها، وهناك عَيْنٌ تُعْرَف بعين يونس، ويَأْوى إلى المسجد النُّسَّاكُ، وأوَّلُ من بنى هذه، المدينة مَلِكٌ عظيم يقال له نينوس، وملكُهُ من شاطئ دجلة إلى أرمينية إلى بلاد آذربيجان إلى حد الجزيرة، والجودى إلى بلاد الزَّوْزان، والنبط سريانيون، وإنَّما بانَ النبط عنهم فى أحرفٍ يسيرة وكان مَلِك الموصل مُمَارِيًا ومحاربًا لملك نينوى، ثم غلب ملك الموصل على نينوى، ورجعت هذه الممالك إلى ملوك فارس حتى أتى الله بالإسلام.

ومن بلاد الصُّغْد الذى ذكرناه بين بُخَارى وسَمَرْقَنْد يُؤْتَى بالنوشادر وهى جبال من نحو مائة فرسخ فيها نيران، وقد يُسْلَكُ عليها من جبال خراسان إلى بلاد الصين وذلك إذا نزل الثلج، وخمدَ ذلك اللهب، ولا يُسْلَكُ على ظهرٍ، وهناك قومٌ يرغَّب إليهم فى الأجرة ويحملون الأمتعة على ظهورهم فتوصل إلى الصين من خراسان فى أربعين يومًا، ومسافة ما بينهما أربعة أشهر فى غامر وعامرٍ، يركب فى القوافل فى خفارة أنواع من الأتراك. وخُراسان تتصل بالسِّند والهند مما يلى

المنصورة والمُولْتَان.

فأما **التُّبَّت**: فمملكة متميزة عن مملكة الصين وصاحبها حِمْيَرى وهو من بيت المملكة فيهم، وبواديهم أتراك لا يقام لهم، ولا تحصى عجائب أنواع ثمار التُّبَّت ولا زهره، ولا أنهاره، وهو بلد تَقْوى فيه طبيعة الدم على الحيوان فلا يزال الإنسان بها ضاحكًا فرحًا مَسْروراً لا يعرض لهم حزنٌ، وذلك عامٌّ فى الشيوخ والكهول والشبان، وفى أهله رقَّةُ طَبْعٍ وأريحية تبعث على استعمال المُعَاقرة.

وإذا مات المَيِّتُ فيهم، لا يكاد يَدْخُل أَهْله كبيرَ حُزْنٍ.

وهذا البلد سمى بمن ثَبَتَ فيه من رجال حِمْيَر لثبوتهم، وقد افتخر بذلك دِعْبِل[1] فقال فى مفاخرة الكُمَيْت: [من الوافر]

وَهُمْ كَتَبُوا الكتَابَ بِبَابِ مَرْو ... وَبَاب الصِّين كَانوا الكاتبينا
وهم سَمُّوا السِّهَام بِسَمَرْ قَنْد ... وهَمْ غَرَسُوا هنَاكَ التُّبَّعِينَا[2]

وإنَّما رتب حمير هناك بعض التَّبَابعة، وهم يُسَمُّون مَلِكَهم الآن تُبَّعًا.

وأفضل المسك من التُّبَّت، ولا يكون إلا بها وبالصين، وإنما فُضِّل التبت لأن ظِبَاءَهُ ترعى سُنْبُلَ الطيب، وأنواع الأفاويه، وظباء الصين ترعى الحشيشَ.

وأيضا فإنَّ أهل الصين يخرجون المسك ويدخله الغشُّ، وأهل التُّبت يتركونه مَحْضًا، ولا فرق بين غزلاننا وغزلان المسك فى الصورة، وإنما تُبَايِنُها بِنَابَيْن لها أَبْيَضَين كأنياب الفيل، كُلّ نابٍ منها نحو الشبر.

وأطيب المسك ما نضج فى نوافجها فتفزعُ حينئذ إلى الأحجار الحادَّة فتحتك بها مُلْتذَّةً فيسيل على تلك الأحجار، فيودَعُ نوافج عندهم قد اتّخذوها من غِزْلانٍ اصْطادوها.

والنفَاجَةُ[3]: اسم فارسىِ معناه السُّرَّة.

---

(١) هو دِعْبِل بن عَلِىّ بن رُزَين بن سليمان، خُزَاعِىّ، يكنى أبا علىّ، كُوفِىٌّ شاعرٌ مُبرِّزٌ من شعراء الدولة الهاشمية. سمط اللآلى ١/ ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) البيتان من الوافر لدِعْبِل بن على الخُزَاعى فى مروج الذهب ١/ ١٦٢.

(٣) نافجة المِسْك: أعجمية مُعَرَّبة. المعرب للجواليقى ٣٤١.

وهى وعاؤه الذى يجتمعُ فيه فى اللسان (نفج)، وعن الألفاظ الفارسية المعرَّبة لأدى شير: معناه سُرَّةُ غزال المِسْك.

فأما ما يُصْطَادُ من الظباء فتقطع نوافجها عنها فإنه يكُونُ فيه سُهُوكة[١] فتبقى زمانا حتى تزول عنها تلك الرائحة، وإنما ذلك كالثمر إذا لم ينضج.

* * *

ذكر بلاد السند [٢]

ومن ملوك السند قَشْمير، ومملكته نحوٌ من ستين ألفًا، بين مدينةٍ وقرية، وهى قد أحاط بها جبالٌ شوامخُ، لا يتسلّق منها الوحشُ ولا شىء من الدوابّ ولا يُوصَلُ إلى مملكته إلا على موضعٍ واحدٍ، وهو يُغْلَقُ على جميعها بابًا واحدًا، وذلك أحد عجائب الدنيا وهو مشهور معروف ومملكةُ بورة التى قدمنا ذكرها. وهو ملك القَنُّوج[٣]، مملكته نحو مائة وعشرين فرسخًا سنديةً، الفرسخ منها من ثمانية أميال، وله جيوش أربعة، كل جيش من أربعمائة ألف.

وعلى مهابّ الرياح الأربع يحارب بالشمال صاحب المُلْتَان وبالجنوب البَلَّهرى، وبالغربى والشرقى من يليه أيضًا، ولهذا المَلكُ أَلْفَا فيل مقاتلةٍ، وإذا كان الفيل ممارسًا شجاعًا وراكبُه كذلك وكان فى خرطومه القَرْطَلُ، وهو نوعٌ من السيوف شَنِيعُ المنظر، وكان خرطومه مُغَشًّى بالزرَد، وعليه تجافيف من القرن والحديد وقد أحاطت به، ومن خلفه خمسمائة راجلٍ أنجادٍ كَرَّ على خمسة آلاف فارس، وقام بهم ودخل وخرجَ، وجالَ عليهم.

قال: ورأيتُ لصاحب المنصورة فيلَين عَظِيمين كانا موصوفين عند أهل الهند والسِّند، لهم أخبار عجيبة وكانت لهما فى فلِّ الجيوش سوابق، وتقدّم، وكان أحدهم يسمّى حَيْدَرَة، ومات بعض سُوَّاسه فبقى لاَ يطعم ولا يَشْرَب، يُبْدى الحنينَ ويُظْهِرُ الأنينَ، وتسيل دموعه لا يتماسَك. وخرج ذاتَ يومٍ من داره وهىِ دَارُ الفِيلَةِ وهو يقدّم ثمانين فيلاً، فاستقبل امرأةً فلما رأته غشى عليها فسقطت

---

(١) السَّهُوك: الرّيح السَّاهكة الكريهة. المعجم الوسيط (سهك) ١/ ٤٦١.

(٢) انظر المسالك والممالك للأصطخرى ١٠٢ ـ ١٠٧.

(٣) فى الأصل «القنج».

وانكشفت ثيابُها فاعترض فى الطريق مانعًا لِمَا وراءَهُ من الفِيَلَة، وجَعَلَ يُومِئُ إليها ويُشير لها بخَرْطُومه بالقيام ويُلاَطفها ويجمع عليها ثيابها حتى قامَتْ وخلَّى سبيلَ الفِيَلَة. وقال: إن السِّند مما يلى الإسلام ثم الهند ولغتهم غير لغة الهند، وصاحب المُلتان الذى ذكرناه من ولد سامة بن لؤى، وهذا ذو جيوش ومَنَعَة وهو ثغرٌ من ثغور المسلمين الكبار، وأكثر أمواله من الصَّنم المعروف بالمُلتان، يقصده الهند والسِّند من أقصى بلادهم، وينذر إليه الهند أنواع الجواهر والطِّيب ويجمع إليه الألوف ويُحَملُ إليه من العود القمارِىّ الذى يؤثِّرُ فيه الختم، كما يؤثر فى الشمع يبلغ المَنُّ منه مائتى دينار، وهو إذا عجز عن غارة مَنْ نَاوَأَهُ منهم هدَّدَه بكسر الصنم فيكُفّ عنه فكان دُخُولى المُلْتان، والملك أبو اللهاب منبّه بن أسدٍ القُرَشى.

* * *

حدُّ بلاد السند

حدها من شرقها مُكْرَان وطوران، والبدهة وشىء من بلاد الهند وبحر فارس فى شرقىّ ذلك كُلّه، وحَدُّها فى غربيها كرمان، ومفازة سجستان وأعمالُها وفى الشمال منها بلاد الهند، وفى الجنوب مفازة ما بين مُكْرَان والقُفص، ومن وَرَائها بحرُ فارس وإنَّما وصلها بحر فارس بشرقى هذه البلاد وهو محيط بشرقيها وجنوبها من وراء هذه المفازة من أجل أن البحرَ يمتدُّ من صَيْمور على الشرق إلى تيزمُكْرَان، ثم ينعطف على هذه المفازة إلى أن يتقوس على بلاد كرمان[١] وفارس. وَسُمِّيت المنصورة باسم منصور بن جمهور، عامل بنى أمية، وأصحابها الآن من ولد هَبَّار بن الأسود[٢] وبها من ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه خلقٌ كثير، ومَمْلَكَتُه تُصَاقب مملكة المُلْتان، ومسافة ما بينهما، أعنى مواضع مملكتها. خمسة وسبعون فرسخًا سندية. وللمنصورة من القرى ثلاثمائة ألف قرية، وهو محارب للسّند وله فِيَلَةٌ كثيرة، قال: وتجرى الأنهار فى العالم من الجنوب إلى الشمال إلا

(١) فى الأصل «مكران».

(٢) المسالك والممالك للأصطخرى ١٠٣.

النيل، ومِهْرَان السند، وأنهار بساحل بحر الأرزن فإنها تجرى بالضد من الشمال إلى الجنوب.

* * *

ملوك الفرس الأول وأنسابهم [1]

أجمع الناس على أنَّ الفُرْسَ الأُولى من ولد سام بن نوح إلاَّ ما سنذكره من زَعْم بعضهم، ولا نلتفتُ إليه، واختلفوا فى رفع نسبهم إلى سام، فالذى عليه الجمهور أنهم من ولد أميم بن لاوذ بن سام بن نوح، ومنهم من قال إنهم من ولد فارس بن سام بن نوح، وفارس أخو نبيط أبو النبط، وقيل هم من ولد بوّان بن إيران بن ياسور[2] بن سام بن نوح، وبوّان هو الذى يُنْسَبُ إليه شِعْبُ بوّان من بلاد فارس، وهو أحد المواضع المشهورة فى العالم بالحُسْنِ، ومنهم من يقول إن أبا الفرس إيران بن أفريدون، ويعرفون إيران فيقولون إيرج. ومَنْ لم يقل إنهم من ولد فارس يقول سُمُّوا فُرسًا بالفُرُوسيّة.

وفى ذلك يقول خطاب بن المعلى الفارسىّ: [من الخفيف]

وبِنَا سُمِّى الفوارسُ فرسا ... نًا ومِنَّا مناجبُ الفتيان

والأول أصحّ، إنهم من ولد أميم بن لاوذ بن إرم بن سام، وقد قال قوم إنهم من ولد جابر بن يافث. وزعم آخرون أنهم من ولد أفريدون المَلك كما أجمعوا أن أول ملوكهم جَيُومَرْث، فمنهم من زعم، وهم الأَقلّون عَدَدًا ـ أنه ينبوع النسل ويقول إنه نَباتٌ من نبات الأرض وهو الدحْناس، وكذلك زوجته. ومنهم من زعم أنه آدم ويقول إنه جيومرث كلْشَا أى: ملك الطير.

وقال الأكثرون: إنه أَوَّلُ من حَلَّ فارس ونزل أصطخر، وهو أَوَّلُ مَنْ مَلَكَ ووضعَ التاجَ على رأسه، ولهم فى التاج أسرارٌ يذكرونَها، وذكروا أنه جَيُومَرْث وهو أوَّلُ من أمر بالسكوت على الطعام، لتأخذ الطبيعة بقسطها فيأخذ البدَنُ مما يَرِدُ

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ٢/ ١٥٤ ـ ١٥٧.

(٢) فى الأصل (سابور).

عليه وتسكن النفس عند ذلك، فيأخذ كل عضو من الأعضاء تدبيرًا بما فيه صلاحه من أَخْذِ صَفْوِ الطعام، وأن الإنسان متى شُغِل عن طعامه بضربٍ من الضروب انصرف قِسْطٌ من التدبير، وجزء من التقدير إلى ذلك، ووقع الاشتراك، فأضرّ ذلك بالنفس الحيوانيةَ والقوى الإنسانية، وإذا كان ذلك أدَّى إلى مفارقة النفس الناطقة لهذا الجسد المُرِّى، ولهم فى ذلك أسرارٌ لِطَافٌ، ثم ملك بعده أُوشَهَنْج ملك الأقاليم السبعة، وهم يزعمون أنه مهلائيل، ثم ملك بعده طَهْمُورث بن ويجهان بن جواد بن أوشَهَنْج.

والفرس تزعم أن طهْمُورث هو نوح عليه السلام[1]، وفى ملك طهمورث منهم، ظهرَ رَجُلٌ يُقَال له يوخاسف، أحدث مذاهب الصابئة، وهو مبنى على الأفلاك والاجسام العُلْوِيّة، وإن ذلك هو المدبّر، والُمَدَبّر هو الله ـ تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، قال: وديارُ هؤلاء الصابئة ومواضعهم فى ناحية واسط، والبصرة من أرض العراق.

ثم ملك أخو طهمورث جِم بن ويجهان، وفى أيامه أحدث النيروز وادّعى الألوهية ويزعمون أنه طالع إلى الفلك وملك ثلاثمائة سنة وستين سنة.

ثم ملك بعده بيوراسب وهو الذى ادعى النبوة فكان ذا نواميس ومُلك. ويزعمون أنه الضَّحَّاك الحِمْيَرِىّ، وأسره أفريدون، وغَلَّهُ وقيَّدَهُ فى جبال دُنْبَا وَنْد ـ وقد تقدّم شىءٌ من خبره ـ عند ذكر نوح عليه السلام.

ثم ملك بعده أفريدون وكانت دار مملكته بابل، وهى على شاطئ نهر من أنْهَار الفُرات بأرض العراق وهو نهر النَّرْس، وإليه تُضَافُ الثياب النرسية، وهذه المدينة خرابٌ، وإذا أشرف الإنسان عليها تَبِينُ منها آثارٌ عظيمة، وذهب الناس إلى أن فيها هَارُوتَ وَمَارُوت، وفيهَا جُبٌّ يُعْرفُ بِجُب دَانيال، الذى تقصِدُه النصارى واليهود فى أعيادهم.

ومَلَكَ أفريدون وقسَّم الأرض بين ولده، ولم يزل الأمر فى ولده إلى أن ولى فَراسياب[2] وهو من ولده، إلا أنه من التُّرك فلذلك غلط من غلط من أصحاب

---

(١) مروج الذهب١/ ٢٣٠.

(٢) فى الأصل «فرياب».

التواريخ فزعم أنه تركى (ط): هو من التُّرْك وتَملَّك الفُرْسَ بعد هلاك مَنُوشهر الملك فكثر فساده، فى مملكة فارس إلى أن ظهر زاب بن طهماسف، فطرد فَراسياب من مملكة أرض فارس حتى ردَّه إلى الترك بعد حروب يطول ذكرها، واتّخذ العجمُ ذلك اليوم عيدًا، وأحسن زاب السّيورة، ووضع الخراج وبنى مدينة الزاب بالسّواد، وهو المستخرج نهرها، وهو أول من اتخذ ألوان الطبخ، وأصناف الأطعمة.

ولم تزل الحرب بين ملوك الفرس وفراسياب بعد ذلك سجالاً إلى أن قتله كيخسرو القائم بالملك بعد جده كيْقاوس وكان مظفرًا، وهو القائم، وإنَّ الشياطين سُخِّرت له بعد سليمان عليه السلام، وكان فى زمنه وإنه كان يأكل ويشرب، ولا يُحْدث، وأعطاه الله عزّ وجلّ قوةً يرتفع بها إلى السحاب حتى حدثته نفسه إنه يطيقَ الصعود إلى السماء، ويُطالعُ ما فيها، فسلَبَهُ اللهُ جميع ذلك، ومَزَّق مُلْكَهُ، وأسره أبْرَههَ، ذو الأذعار ملك اليمن واستباح ملكه، وكان كيقاوس قد غزا بلاد اليمن واستباح ذو الأذعار عسكرَهُ وحبَسَه فى بئرٍ وأطبق عليه. فخرج رستم من سِجسْتان مع مَنْ وثق به من الناس حتى أتى بلاد اليمن فاستخرج كَيقاوس من البئر، فملكه كيقاوس من بلاد سجستان، فلم تزل بيد رستم دَهْرًا طويلاً.

ثم لم يزل الأمر فى ولد أفريدون(١).. ويُدْعى نهر جَيْحُون وهو نهر بلخ - كَالف، وكذلك يُسَمِّيه أهل خُرَاسان. ولهراسف وهو الذى أخرج بخت نصّر من مَرْزُبانه إلى أهل الشام، فكان من أمر بيت المقدس - ما قد تقّدم ذكره - وكثير من الناس يجعلون بخت نصّر مَلكًا برأسه وإنما كان مَرْزُبَانًا وقد أَرَّخ يطليموس كتابه المجسطى مُنذ عهد بخت نصّر مرزبان المغرب، ونسبه يأتى بعد.

ثم ملكَ بعدَهُ ابنه يَسْتاسف، وفى زمانه ظهر زرادشت على ما تقدّم فى خبر إرْميا عليه السلام، وكان ملكه تسعين سنة، ثم لم يزل الملك فيهم إلى داراميوس، وهو دارا بن دارا الذى قتله الإسكندر وهو دارا بن دارا بن بَهْمَن بن إسفنديار بن

(١) فى الأصل «أفريك» وهو تحريف.

وهنا سقط من الأصل، وفى مروج الذهب للمسعودى ١/ ٢٣٤ وهؤلاء القوم كانوا يسكنون بلخ، وكانت دار مملكتهم، وكان يُدْعَى نهر بَلْخ، وهو جَيْحُون».

يستاسف بن لهراسف كلهم ملوك[١].

وقد تقدّم من خبرهم ما يتمّم هنا إن شاء الله تعالى.

كان بَهْمَن أحسن الناس سيرة وهو الذى بعث بخت نصرّ إلى بنى إسرائيل لما بلغه أنَّ بناحية المغرب بأرض الشام قومًا أَحْدَثُوا دِينًا وأمرَهُ بقَتْلِهِم وَسَبْى ذَرَارِيهم، ففعل ذلك ونفاهم عن بيت المقدس وفرقهم فى البلاد. وقيل إنَّ بخت نصّر هو ابن بدمين رجل من أهل كورة أرمنت من كور مصر، وكان بدمين من أهل العلم بالنجوم، فنظر فى علمه فرأى أنه يخرج من صلبه رجلٌ يخرّب مصر، فأعطاه الله عز وجل عهدًا أنه لا ينكح امرأة أبدًا فخرج إلى فارس، فمرَّ بقرية منها وكان لصاحب تلك القرية ابنة بها لَمِمُمُ فوصف له المصرىّ ليداويها، فأدخله عليها فجرَت بينهما أسبابٌ إلى أن حملت منه ببخت نصّر فجرى خراب الدنيا على يديه. ومَلك بهمن بن إسفنديار، وخلَّف ابنه دارا، وأمه حَاملٌ به على ما تقدّم، وكان ملكه أربعة عشر سنة، وقيل إنّ أُمَّه كان اسمها حمانا، وقيل غير ذلك فملّكوا حنانا شكرًا لإحسان أبيها. مع كمال عقلها، وقال من زعم أنها أم دَارًا ملكت بمكان حملها، ودَارًا هذا هو الأكبر، وهو الذى ابتنى دَارًا بجرد، فولد له ولَدٌ وسُمِّى باسمه، حبًا له وإعجابًا به ثم هلك وكان ملكهُ اثنتى عشرة سنة، ثم ملك دارا الأصغر وكان فظًا غليظًا فقتله الإسكندر بخذلان فارس له. وتزوّج الإسكندر ابنته دوشك ابنة دارا، وكان ملكه أربع عشرة سنة ونذكرُ نسبَ ذى القرنين وخبره عند انقضاء نسب فارس إن شاء الله تعالى، وقد زعم مؤرخو العجم أن الذى ملك بعد دارا الأكبر من الفرس شخشار وكانت له جيوش عظيمة لم يسمع لملك مثلها.

ثم ملك بعده أريشخشار، وفى زمانه جدَّد عُزَيْر كتاب التوراة قالوا وفى زمانه بنى فهنايس مقدّم اليهود أسوار بيت المقدس، ورجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس، وفى زمانه كان بقراط الفيلسوف، وسقراط وسغريط، وحينئذ عظم ذكرهم، وملك أربعين سنة، ثم ملك بعده دار ترطر، وفى زمانه كانت حروب آخر طرفها فى جزيرة صقلية، وفى زمانه كان أفلاطون، وملك سبع عشرة سنة.

ثم ملك بعده أرشخشا ولوقش، وفى زمانه كان أرسطاطاليس الفيلسوف ومات

(١) المقدمة ٢/ ١٥٧.

أفلاطون وكانت ولايته ستًا وعشرين سنة.

ثم ملك بعده دارا الذى غلبه الإسكندر وكانت له معارك قُتل فيها من الفرس خلقٌ كثيرٌ، وبقى يقسم ما وجد فى عسكره ثلاثين يومًا، ثم علم أنه جريح لما به، فعنى باتّباعه، فى ستة آلاف من أهل عسكره حتى ألقاه فى بعض المنازل طفيًا من تلك الجراحات، فلم يلبث أن هلك وأظهر الإسكندرُ الحزنَ عليه ودفنه فى مقابر الملوك، وكانت ولايته ستَّ سنين، وكتب الإسكندر إلى معلمه أرسطاطاليس يشاوره فى قَتْلِ من بقى من الفرس فكتب إليه: لا تفعل ولكن وَلِّ كُلَّ رئيسٍ منهم ناحيةً فإنهم يتنافسون الرياسة فلا يجمعهم مُلْكٌ أبدًا[1]، فلما قدم أرْدَشِير واجتمعوا عليه بعد الجهد العظيم، قال: إن كلمة فرَّقت الفُرْسَ أربعمائة سنة لَمُومةٌ، يعنى كلمة أرسطاطاليس فكان بين الفرس الأولى، والثانية خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة وهى مُدَّة ملوك الطوائف.

وذكر (ق) غير ذلك. ولغه الفرس الأولى الفهلوية[2] وهى من اللغات الدَّارسة التى لم يبق لها مترجم.

***

الفرس الثانى

أولهم أَرْدشير[3] بن بابك بن ساسان بن نهاوند بن دارا بن ساسان ابن بهن - الذى تقدم ذكره - وهو من ولد إيرج بن أفريدون، وقد زعم قوم أنهم من ولد ويرك، وويرك هو إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأنه تزوج امرأة من الفرس الأولى يقال لها كودك، فولدت له منوشهر الملك، وكثر ولده، فملكوا المماليك ودثرت الفرس الأولى كدثور الأمم الماضية، والعرب العاربة وهذا لا ينقاد إليه كثير من الفرس - وفيما ذكرناه يقول إسحاق بن يزيد العَدَوى، وكان من العرب من قريش: [طويل]

(١) المقدمة لابن خلدون ٢/ ١٥٣.

(٢) فى الأصل: «الفلهوية» وهو تحريف.

(٣) انظر: المقدمة لابن خلدون ٢/ ١٦٩ والبلدان ٤٠٥.

إِذَا فخرتْ قحطـــانُ يومًا بسُـؤْدُد ... أَتَى فَخْرُنَا أَعْلَى عليهـــا وَأَسْـوَدَا
مَلَكْنَاهُم طُرًا(١) بإسْحَــاقَ عَمّنَا ... وَصَارُوا لَنَا عَوْنًا على(٢) الدهر أعْبُدا
فَإِنْ كَـــانَ مِنْهُم تُبَّعٌ وَابن تُبَّع ... فَأمْلاَكُهم، كَـــانُوا لأَمْلاَكِنَـــا يَدا(٣)

وفى ذلك يقول جرير بن الخطفى(٤): [طويل]

وأَبْنَاءُ إِسْحَــاقَ اللُّيوثُ إِذَا ارْتَدُوا ... حَمَـائِلَ سَيْفٍ لابسين السَّنَـوْرَا
وإِذَا افْتَخَرُوا عَدُّوا الصَّبَهْبَذَ منهمو ... وَكِسْرى وعَـدُّوا الهُرْمزان وقَيْصَرَا(٥)

ولذلك يقول بشار بن برد(٦): [متقارب]

نَمَتْنِى الكِـرَامُ بنـو فارسٍ ... قُرَيش وَقَوْمِى قَرَيْش العَجَمْ(٧)

وأُمُّ ساسان الأكبر، فإنها من سبايا بنى إسرائيل باتفاق منهم وهى ابنة شَابَال ولم يك الفرس الثانية إلا ولد أرْدشير بن بابك بن ساسان، وساسان هو الذى يرجعون إليه كرجوع المروانية إلى مروان بن الحكم.

وقد كان ملك الفرس يَحُجُّ البيتَ من ملوك الأعاجم، فكان ساسان هذا إذا طاف بالبيت زَمْزَم على بئر إسماعيل، وإنما سُمِّى زَمْزَم لزمزمته، وغيره من فارس،

(١) فى مروج الذهب ١/ ٢٤٦ «بَدْءًا».
(٢) فى مروج الذهب ١/ ٢٤٦ «رَغْمًا».
(٣) الأبيات لإسحاق بن سُوَيد العدوىّ (عدىّ قريش) فى مروج الذهب ١/ ٢٤٦.
السُّؤْدد: الرِّفعة والشَّرف والعلُوّ. رَغْمًا: أَذلَّة.
(٤) جرير بن عطية الخطفى اليربوعى (٢٨ـ١١٠هـ) أشعر أهل عصره، وُلِدَ ومات فى اليمامة، وعاش عمره يُنَاضل الشعراء ويُسَاجلهم فلم يَثْبُت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وهو من أغزل الناس شعرًا. الأعلام ٢/ ١١٩ وخزانة الأدب ١/ ٧٥ـ٧٧.
(٥) البيتان لجرير فى ديوانه ومروج الذهب ١/ ٢٤٦.
الحمائل: جمع حميلة، وهى علاقة السيف.
السَّنَور: ثياب الحروب.
(٦) هو بَشَّار بن بُرْد بن يرجوخ بن أزدكر بن شردستان بن بهمن بن دارا، ويُكنى أبا معاذ، ومَحَلُّه فى الشعر مُتَقَدّمٌ فى طبقات المحدثين فيه بإجماع الرواة، ورياسَتُه عليهم من غير اختلاف فى ذلك، وهو من مخضرمى شعراء الدولتين العباسية والأموية. الأغانى ٣/ ٢٠.
(٧) البيت لبشار بن بُرْد فى الأغانى ٣/ ٢١ ومروج الذهب ١/ ٢٤٦ ورواية الأغانى هى:
نَمَتْ فى الكِرَام بنو عامرٍ ... فروعى وأصلى قريش العجم

وهذا يدل على ترادف الفعل منهم، وقال الشاعر: [سريع]

زَمْزَمَتِ الفُرْسُ على زَمْزَم وذاكَ فى سالِفها الأقْدَم(١)

وقد أهدى ساسان هذا غزالين من ذهب، وجواهر وسيوفًا إلى الكعبة وهى التى دُفِنَت بزمزمَ، وسنذكر ذلك فى خبر عبد المطلب وزمزم إن شاء الله. وكانت هذه الملوك من عهد أردشير تحتجب عن الندماء، فكان يكون بين الملك والطبقة الأولى عشرون ذراعًا، والستارة فى نصف هذه المسافة، وصاحب الستارة رجلٌ من أصحاب أولاد الأساورة ويقال لمن ولِى ذلك منهم خُرَم باش، ومعناه كُنْ فَرِحًا، فإذا جلس الملك أمر خُرَم باش رجلاً فارتفع فى أعلى موضع فى دار الملك ونادى بصوت جهير ليسمع الحاضرون: يَا إنسانُ احفظ رأسك، فإنَّك تجالسُ الملك فتأخَذ الندماء مراتبها خَافتةً أصواتها غير مشيرة بشىء من أعضائها.

وقد كانت الأوائلُ من بنى أمية لا تظهر للندماء، وكذلك الأوائل من بنى العباس، وكذلك الأوائل من بنى ساسان، وأرْد شير هو الذى فتح الحَضْر، وقيل إنه سَابُور وهو أثبت وبنى أرْد شير مدينة جور بفارس وكهمن أرْد شير، وهى فرات البصرة وبنى أستراباد وبنى كوخ ميسان وهى من كور دِجْلة، وبنى مدينة صور بالأهواز ومدينه أبلّة وغير ذلك ثم ملك بعده ابنه سابور، وكان أرْدشير، قد قتَل الأشكانيّة الذين كان منهم ملوك الطوائف بعد جدّه ساسان، إلاَّ جارية، وجدها أرْدشير فى دار المملكة فأعجبَتْهُ، فسألها عن نَسَبِها، فقالت: أنا خادم، فاستخلصها لنفسه، فحملت منه، فلما حملَتْ أعلمته أنها حُبْلَى، وعَرَّفته نسبَها فنفرَ طبعُه عنها، ودعا شيخًا مُسِنًا وسلَّمها إليه، وقال أَوْدِعْهَا بَطْنَ الأَرض، فأودعها سَرَبًا من الأرض ثم عمدَ إلى مَذَاكِرِه فقطعها، ووضعها فى حُقّ وختَم عليه، ورجع إلى الملك وقال: قد أودعتها بطن الأرض، ودفع إليه الحُقّ، وقال إنَّ فيه وديعةً، ورغب إليه، ووصَّاه أن يتحفظ بها وأقامت الجاريةُ حتى وضعت غلامًا، وسمَّاهُ الشيخ شاه بورًا، ولد الملك.

ولم يكن لأرْد شير ولدٌ فرآه الشيخ يومًا حزينًا لذلك، وكان خَاصًا به فقال: مالك أيها الملك أراك حزينًا كئيبًا، قال لأنى كبرتُ وليس لى وَلَدٌ أُوَرِّثُهُ مُلْكى

(١) البيت فى مروج الذهب ١/ ٢٤٩ بلا نسبة.

وأجعله الخليفة بعدى، فيبقَى ذِكرِى. فقال الشيخُ: سَرَّكَ الله أيها الملك وعمّرك، لك عندى وَلَدٌ، قال له: وكيف ذلك؟ قال له ادع بالحُقّ الذى استودعتك: فأمر بإحضاره، وفضّ خاتمه فإذا فيه مَذَاكِرُ الشيخ، وفيه كتاب: إنَّا لما أخذنا ابنة آشك الذى أمر الملك بقتلها، أَعْلَمَتْنَا أنها حاملٌ من الملك، فلم نستحلّ أن نبطل زرع الملك الطيّب، فأودعناها بطن الأرض كما أمرنا، وتبرَّأنا إليه من أنفسنا، لئلا يجد عائبٌ إلى عيبنا سبيلاً.

قال فَسُرَّ أرْد شير سُرورًا شديدًا وأمر الشيخ عند ذلك أن يجعله بين مائة غلام فى الهيئة، ثمّ يدخلهم عليه، ففعل فعرفه أَرْدَ شير من بينهم وَقَبلَتْهُ نفسه ثم أمرهم أن يلعبوا فى حجرة الإيوان بالصوالج، فدخلت الكرة الإيوان، فأحجم الغلمان عند دخولهم، وأقدم سابور من بينهم فدخل. فأمر أرْدشير يعقد التاج له.

(ط) وسابور: هو الذى افتتح الحَضْر من بلاد الموصل بخلاف ما قال.

(ق) وكان صاحب الحَضْر يسمى الضيزن بن معاوية، ويعرف باسم أُمَّة جَيْهَلَة[1]، وكان من تنوخ من قضاعه وكان ملك الحَضْر قبل السَّاطِرُون، وهو ملك السريانييّن، قال أبو دُؤاد[2]: [خفيف]

وأرى الموتَ قد تدلَّى من الـ ـحَضْر على رَبِّ أهلِه السَّاطِرونِ
ولقد كان آمِنًا لِلدَّواهى ذا ثراءٍ وَجَوْهَرٍ مكْنُونِ[3]

ويُقَال إنَّ السَّاطرون أبو نصو جدّ عمرو بن عدى بن نَصْر الذى كان ملوك الحِيرة من ولده. وكان الضيزن قد ملك الحيرة وما يليها إلى الشام وأقام سابور

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/ ١٧٠.

(٢) أبو دؤاد الإيادى: هو جارية بن الحجاج، وقيل حنظلة بن الشرقى، وقيل: هو جويرية بن الحجاج، أو حمران، من بنى حذاقة (أياد).
كان معاصرًا لقُباد ملك فارس. كان أبو دؤاد على خَيْل المنذر بن النعمان بن المنذر وهو أحد نُعَّات الخيل المجيدين. أمَّا الآخران فهما: طُفَيْل الغَنَوى، والنابغة الجعدى.
قال الأصمعى: كانت العرب لا تروى شعره، لأنَّ ألفاظه ليست نجدية.
مصادر ترجمته: الأصمعيات ٦٥ـ٦٦ والبيان والتبيين ١/ ٣٣٢ والكامل ١/ ٢٣١ ورسالة الغفران ٤٠١ و٥٦٧ ومعجم الشعراء لعفيف عبد الرحمن ٩٠ـ٩١.

(٣) البيتان لأبى دُؤاد الإيادى فى المقدمة لابن خلدون ٢/ ١٧٠.

على حصنه أربع سنين وقيل سنتين، قال الأعشى: [متقارب]

أقـام بها شاهبـور الجنو د حَوْلين يَضْرِب فيها القُدُم(١)

جمع قَدَم حتى تحركت ابْنَته النضيرة، فأخرجها إلى بعض الأرباض وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم، وكانت من أجمل الناس، فتعشّقت سَابور وتَعَشَّقها، فأرسلت إليه وقالت له: اكتب بدم جارية بكر زرقاء، على رِجْلِ حمامة وَرْقَاء مطوَّقة كتابة ذكرتها، وأَرسِلْها فإنها تقع على حائط المدينة فيتداعى وكان طلسم المدينة.

(س): وقيل إنَّها قالت له: ائتِ الثرثار(٢)، فانثر فيه تبنًا، ثم اتبعه فانظر أين يدخل التبن فأدخل الرجال فيه، فإن ذلك المكان يفضى إلى الحصن، ففعل ذلك سَابُور وفتح الحصن عَنْوةً وأباد قُضَاعة، فقال فى ذلك بعض شعرائهم [وافر]

أَلَمْ يَأْتِيك(٣) وَالأَنْبَاءُ تَنْمِى بِمَا لاَقَتْ سَرَاةُ بَنِى الْعَبِيـدِ

وَمَصْـرَع ضَيْزَنٍ وبَنِى أَبِيـه وَأَحْلاَسِ الكَتَائِبِ من تَزيدِ

أتاهُم بالفُيُـــولِ مُجَلَّلاتٍ وبالأبطـالِ سابورُ الجُنُـود

فهدَّمَ مِنْ أَسَاسِ الحِصْنِ صَخْرًا كَـأَنَّ ثِقَـالَهُ زُبُر الْحَـدِيدِ(٤)

واحتمل النضيرة، فعرَّس بها بعين التمر فلم تَزَلْ ليلتها تتضور، وفرشها الحرير مَحْشُوًا بالقَزّ، فالتمس سابور ما كان يؤذيها فإذا ورقة آسٍ ملصَّقة بين عكنتيها وكان يُنْظَر إلى مُخِّها من صفاء بشرتها، فقال لها: أىّ شىء كان يُغَذّيك أبوك؟ فقالت: بالزبد والمخّ وشهد فراخ النحل، وصفو الخمر، فقال: وأبيك لأنا أحدث بك عَهْدًا، فأمر رَجُلاً فركب فرسًا جَموحًا، ثم عَصب ذَوَائِبَها بِذَيْلِه ثم همزَ

(١) البيت للأعشى فى ديوانه ٣٣ والمقدمة لابن خلدون ٢/ ١٧١.

(٢) الثَّرْثار: ماءٌ معروفٌ قبل تَكْرِيت، وقال الهمذانى: الثَّرثار نَهْرٌ يَصُبُّ من الهرماس إلى دجلة. وقال أبو حنيفة: الثرثار بالجزيرة، والشاهد لذلك قول الشاعر:

أَقْفَر الحَضْرُ من نَضِيرةَ فَالمِرْ بَاعُ منها فجـانِبُ الثرثارِ

معجم ما استعجم ١/ ٣٠٥.

(٣) فى تاريخ الطبرى ٢/ ٤٦ (أَلَمْ يَحزُنْكَ).

(٤) الأبيات فى تاريخ الطبرى ٢/ ٤٦ لعمرو بن إلَّة (ط/ دار الكتب العلمية) ١/ ٣٩٦.

الفرسَ فقطعها قطعًا، فقال الشاعر: [خفيف]

أقفر الحَضْرُ من نَضِيرةَ فَالمرْ   بَاعُ مِنْها بِجَـانِب الثَّرْثارِ[١]

وسابور هو الذى حاصرَ نصيبين حتّى أخذها، وكان فيها عُدَد كثيرة لقيصر ثم دخل أرض الروم، فافتتح من الشام مدائن، ثم انصرف إلى مملكته وفرّق ما كان معه من السَّبْيِ فى ثلاث مدائن: فى جُنْدَى سابور، وسَابُور التى بفارس، وتُسْتَر التى بالأهواز.

ذو الأكتاف:

خلفه أبوه[٢] أيضًا وأُمُّه حامِلٌ به، فعقد له التاج فى بطن أمه.

قال (س): هو الذى بنَى له الإيوان، وهو بالجانب الشرقى من المدائن على دجلة.

ونزل الرشيد مَرَّةً على قربٍ منه، فسمع بعض الخدم يقولُ مِنْ وراء السُّرادِقِ: «هذا الذى بنى هذا البناء، أراد أن يصعد إلى السماء، فأمرَ الرَّشيد بعض الأساتيذ أن يضربه مائة عصًا، وقال لمن حَضَرهُ: إنَّ المُلْكَ نسبة بين الملوك، هُم به إخوةٌ، وإنَّ الغَيْرَةَ بعثتنى على ضَرْبِهِ لصيانة المُلْكِ وما يُلحق للملوك.

وذُكِرَ أنَّ الرشيد بعث إلى (يَحْيَى بن خالد) وهو فى اعتقاله يُشَاوِرُه فى هَدْمِ الإيوان فبعث إليه: لا تَفْعَلْ.

فقال الرشيد لمن حضره: إنَّ المجوسية فى نفسه[٣]، والحسدَ عليها والمنعَ من إزالة آثارها، فشرع فى هدمه، فإذا به يَلْزَمُهُ فى هَدْمه مالٌ عظيم، لا تُضْبَطْ كثرتُهُ، فأمسكَ عن ذلك، وكتب إلى يحيى بن خالد يعلمهُ بذلك فأجابه أنْ ينفقَ على هَدْمِهِ ما بلغ من الأموال، ويحرّض على محو أثره، فتعجَّب الرشيد من تخالف كلامه فبعث إليه يسأله: ما معنى تخالف قوله؟ فقال: أمَّا الكلام الأول فإنى أردت به بقاء الذّكر لأمة الإسلام، وأن يكون من يَرِدْ فى الإسلام يرى مثل هذا الأثر العظيم، فيقولون: إنَّ أمة قَهرَتْ قومًا هذا بُنْيَانُهم واحْتَوَتْ على مُلْكهِم

(١) البيت بلا نسبة فى معجم ما استعجم ١/ ٣٠٥ والروض المعطار ٢٠٥.
(٢) هو ذو الأكتاف.
(٣) النصُّ فى مروج الذهب ١/ ٢٦٩.

لأَمَّةٌ عَظِيمةٌ الشدّة.

وأما قولى الثانى: فأخبرتُ أنه شرع فى هَدْمِ بعضه، فأردتُ نَفْىَ العجزِ عن أُمَّة محمَّدٍ، وأن لا يقولَ قائلٌ: إن هذه أمة ضعيفة عجزت عن هَدْمِ ما بَنَتْهُ فارس.

فلما أُعْلِمَ بذلك الرشيد، قال: قَاتَلَهُ الله، فما سمعتُ له قَطُّ قَوْلاً إلا صَدَقَ فيه، وأعرضَ عن هَدْمه.

وسَابورُ هذا بَنَى نيسابور، ومدينة بالسُّوس سماها فيروز سابور، وبنَى مدينةً بالسِّند، وأخرى بخراسان وقيل بسِجْستان.

ولَمَّا بنى أنو شروان سور الباب والأبواب على ما تقدّم، وَفَدَتْ عليه رُسُلُ الملوك بالهدايا، وكان فى جملتهم رسولُ قيصر، فنظر إلى الإيوان، وحسن بنائه، وإعجاز صَنْعَتِه ورأى بموضع منه اعوجاجًا فسأل عن معنى ذلك، فقيل له: إنَّ عجوزًا لها منزل فى جانب الاعوجاج وإن الملك أرادها على بيعه ورغَّبها فأبَتْ فلم يكرهها.

فقال الرُّومىُّ: الاعوجاج الآن أحسن من الاستواء[1].

وزوَّجه خاقان ملك الترك بابنته فَاقُم وابنة أخيه، وهادنته ملوك السند والهند والشمال والجنوب، وكتب إليه ملك الصين: «من ملك الصين صاحب قصور الدرّ والجوهر الذى يجرى فى قصره نهران، يسقيان العود والكافور، الذى توجد رائحته على فرسخين والذى تحته ابنة ألف ملك وتخدمه بنات ألف ملك والذى فى مربطه ألف فيل أبيض إلى أخيه كسرى أنو شروان».

وأهدى إليه فارسًا على فرس من ذهب منضَّد بالجواهر، عينا الفارس، والفرس ياقوت أحمر، وقائم سيفه من زبرجد وثوب صينى عَسْجَدى[2]، فيه صورة الملك الفارسى جالسًا فى إيوانه، وعليه[3] حلّته، وتاجه على رأسه، والخدم على رأسه بأيديهم المذابّ والصُّورة منسوجة بالذهب، وأرض الثوب لأزَوَرْد، فى سفط من ذهب، تحمله جارية تغيب فى شعرها تتلألأ جمالاً.

(١) مروج الذهب ١/ ٢٧٤.

(٢) فى الأصل «عشرى» وهو تحريف.

(٣) فى الأصل «المصورة».

وكتب إليه ملك الهند: «من ملك الهند وعظيم المشرق، وصاحب قصر الذهب، وأبواب الياقوت إلى أخيه ملك فارس صاحب التاج والراية، وأهدى إليه ألف رطل من عودٍ هندى يذوب فى النار كالشمع ويختم عليه كما يختم على الشمع، وجامًا من الياقوت الأحمر فُسْحته شبر، مملوءًا دُرا، وعشرة أمْنَان كافور كالفستق وأكبر من ذلك وجارية طولها سبعة أذرع، كان بين أجفانها لمع البرق لها ضفائر تجرها، وفرشًا من جلود الحيات، ألين من الحرير وأحسن من الوشى.

وكان كتابه على لحاء الشجر المعروف بالكارى، مكتوب بالذهب الأحمر وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين، لحاؤه أرق من الورق الصينى ذو لونين عجيبين، لازَوَردِى، ورائحته عجيبة فكانت تكتب فيه ملوكهم.

وكتب إليه ملك التُّبَّت: من خاقان ملك التَّبَّت، ومشارق الأرض إلى أخيه المحمود السيرة، ملك المملكة المتوسطة للأقاليم السبعة.

وأهدى إليه أنواعًا من العجائب، منها مائة جوشن نَبْتية، ومائة تجفاف، وأربعة آلاف مَنٍّ من المِسْك الخزائنى فى نوافجه.

ومِمَّا افتتح أنُوشروان بالشام: حَلَب، وقِنَّسْرين، وحِمْص، وأنطاكية وكانت فيها جنود قيصر. وسلُوقية: مدينة عظيمة، عجيبة البنيان فهى الآن خراب، وهذه كلها كانت للقياصرة.

وانتقل من الشام الرخام والأحجار، والفسيفساء إلى العراق فبنى ما استحسن وافتتح هرقلة، والاسكندرية، وبنى رومة بناحية المدائن على صورة أنطاكية، وصار نحوهم، وقتل اخْشُنْواز ملك الهياطلة بجدّه فيروز، وغلب على مملكته، وأدخل إليه من الهند كتاب (كَليلة ودِمْنة)، والخضاب الأسود المعروف بالهندىّ، وهو الذى يلمعُ سوادُه فيما يصل من الشَّعَر فيريه أسود، فلا يُنْصَلُ منه شيءٌ.

قال: رأيت من أنُوشروان خصلَتَيْن متباينتين:

جلس يومًا للناس فدخل رجل من خاصّة المَلِك فتعدّى مرتبته فأمر أن يُحجبَ سنةً.

ثم رأيته يومًا ونحن عنده فى سرّ من تدبير المملكة، وخدَمُه خلفِ سرير مُلْكِه يتحدّثون فارتفعت أصواتهم، حتى شغلونا عن بعض ماكُنَّا فيه، فقلت له فى

ذلك، وسألته وأخبرته بتفاوت الحالتين، فقال لى: لا تَعْجَبْ فنحنُ ملوكٌ على رَعِيَّتِنا، وخَدَمُنَا مُلوكٌ علينا، ينالون مِنَّا فى خلواتنا، مالا حِيلةَ لنا فى التحرُّز معهم.

وولد رسول الله ﷺ لاثنتين وأربعين سنة من مُلْكه. (ط) ولما كانت الليلة التى وُلِدَ فيها رسولُ الله ﷺ، ارتجّ إيوانُ كِسْرَى فسقطت منه أربعة عشر شُرَّافةً، وخمدت نارُ فارس، ولم تَخْمُدْ من قبلِ ذلك بألف عام، وغاصَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَة ورأى الموبذان ـ وهو القائم بأمر الدين عندهم ـ إبلاً صِعَابًا، تقودُ خيلاً عرابًا، حتى قطعت دجلة، فأفزع ذلك كسرى[١]، وقص عليه الموبذان ما رأى فزادَهُ ذلك ذُعْرًا، فكتب أنُو شروان إلى النُّعْمَان بن المنذر وهو وَلاَّهُ أَمْرَ العرب أَنْ يوجِّه إليه رجلاً من مشاهِرِ العرب تسْألهُ عمَّا يريده، فبعث إليه عبد المسيح بن عمرو بن حسان بن بُقَيْلَة الغَسَّانى[٢]، فلما قدمَ عليه أخبره بِمَا رأى، فقال له: أيُّها الملك لا عِلْمَ لى بذلك ولكن جهِّز لى إلى خالٍ لى بالشام يقال له سطيح فقال: جَهِّزوه، قال: فأتاه وقد أشفَى على المَوْتِ، فسلَّم عليه وحَيَّاه، فلم يستطع سطيح جوابًا، فقال له عبد المسيح[٣]:

أَصَمُّ أَمْ يَسْمَعُ غِطْرِيفُ اليَمَنْ ... يَا فَاضِلَ الخُطَّةِ أَعْيَتْ مَنْ وَمَنْ
أَتَاكَ شَيْخُ الحَيِّ مَنْ آلِ يَزَنْ ... أَبيَضُ فضْفَاضُ الرِّدَاءِ وِالبَدَنْ
رَسُولُ قَيْلِ العُجْمِ يَسْرِى لِلْوَسَنْ[٤] ... لاَ يَرْهَبُ الْمَوْتَ وَلا صَرْف الزَّمَنْ[٥]

فلما سمع سطيح قوله، رَفَع إليه رأسه فقال: عبد المسيح على جمل يسيح، جاء إلى سطيح، وقد أَشْفَى على الضريح، بعثَك ملكُ بنى ساسان، لارتجاج الإيوان، وخُمودِ النِّيران، ورُؤْيا الموبذان، رَأى إبلاً صِعَابًا، تَقودُ خَيْلاً عرابًا،

(١) المقدمة ٢/ ١٧٧ ومروج الذهب ١/ ٢٨٩.
(٢) السيرة النبوية، لابن كثير ١/ ١١٦.
(٣) الأبيات لعبد المسيح بن عمرو بن حيَّان بن بُقَيْلة فى سيرة ابن كثير ١/ ٢١٦.
(٤) الوَسَنُ: أوَّل النوم.
(٥) رواية هذا الشطر سيرة ابن كثير ١/ ٢١٦:
* لا يَرْهَبُ الرَّعْدَ ولا ريب الزمنْ *

حتى اقتحمت فى الواد، وانتشرت فى البلاد، عبد المسيح إذا طهرت التلاوة، وبعث صاحب الهراوة، وغاض وادى السماوة، فليست الشام لسطيح شأمًا، وسَيَمْلك منهم ملوكٌ ومَلِكات على عدد الشُّرافات، وكل ما هو آتٍ آت، ثم قضى سطيح نَحْبَهُ وقدم عبد المَسيح على كسرى، فأخبره فقال: إلى أن يملك منّا أربعة عشر ملِكًا تكون. ثم ملك بعد أنُو شروان ابنهُ هُرْمُز وأمه فاقُم ابنةَ خاقان، وكان متحاملاً على خواصّ الناس مائلاً إلى[1] عوامّهم وقتل فى مدة ملكه من خواص فارس ثلاثه عشر ألفًا مذكورين، وأزال أحكام الموبذان، فخدَمَ بذلك الشريعة، وأزال الرسوم، فغزاه الملوك وطمعوا فيه.

فغزاهُ عظيمٌ من التُّرْكِ فى أربعمائةِ ألف، فنَزل بلاد هَرَاة من أرض خراسان فَنَدبَ لحَرْبه بَهْرَام بن جُوبين بن الريان، ظفر بهرام بالتركى واستباحَ عسكره واستولَى على خزائنه، وأمواله، فأعجب بذلك هُرْمُز، وعظم بهرام جوبين فى عينه فحسده وزيره، وكان من الخزر، فجعل يعرّض بخيانته لهرمز، واستبداده بأكثر الأموال وأغراهُ به، فَعَصاهُ بهرام، وخلع يده عن طاعته، ثم احتال بدار ضرب عليها اسم أَبَرْويز بن هُرْمز.

ودَسَّ أناسًا من التجار وأنفقوها، فعلم بها هُرمز، فلم يشكَّ أنَّ ابنه ضربَها طلبًا للملك فهمَّ به، فهرب أَبَرْويز من أبيه لتغيُّره عليه، ولحق ببلاد آذَربيجان، وأرمينية والرَّان، والبَيْلَقان، فحَبَس هُرمُز خالَى ابنه بِسْطام وبِنْدَوَيْه، فأعملا الحيلة وخرجا من محبسهما وانضاف إليها بشرٌ، فدخلا على هُرْمُز، وسَمَلا عَيْنَيْه، فلما نَمَى ذلك إلى أبرويز رجع إلى أبيه، وأعلمه أنه لا ذنبَ له فيما اتّهمه به وأنه هرب خوفًا، فصدقه أبوه، وعقد له التاج وسلّم الملك إليه ثم خرج أبروِيز إلى بهرام جوبين، وقد مالَ مع بهرام، جموع الناس وقدم وتحته فرسه، المعروف بشبْدَاز وهو المصَورُ فى الجبل، ببلاد قَرْماسين من أعمال الدِّينَوَر من مَاهِ الكوفة، وعليه أبرويز، وغير ذلك من الصُّوَر.

وهذا الموضع أحد عجائب العالم لغرائب ما فيه من الصور، والعرب تذكر هذا الفَرَسَ فى أشعارِها، وكان أَبَرْويز ركبه يومًا فانقطع عنانه فأراد ضربَ عُنُقِ صاحب

---

(١) فى الأصل (على).

سُرُوجه ولُجُمِه، لمَّا لم يتعاهد عنانه فقال: أيها الملك ما بقى شىء يجتذب به ملك الإنسَ، وملكَ الخيل، فخلّى سبيلَهُ، ولمّا بلح هذا الفرس تحت أبرويز وقصّر، طلب للنعمان فى المعركة أن يَمُنّ عليه بفرسه النجوم، فأَبَى ونجا عليه بنفسه، ونظر حسَّان بن حنظلة الطائى إلى أبرويز، قد خَانَتْهُ الرِّجال، وأشرف على الهلاك فأعطاه فرسهُ المعروف بالضُّبَيْب، وقال له: أيها الملك انجُ على فرسى، فإنَّ حياتك للناس خيرٌ من حياتى فنجا عليه، وكافأ حسّان، وعرف له صنيعه، فأشار على أَبَرْويز أبوه، أن يلحق بقيصر وَيَسْتنجده، على ما دَهَمهم من بَهْرَام جُوبين، فخرج أبرويز، وخَلَّف خاليْه وخنقا هُرْمُز، فقتلاه، ثم لحقا به فأعلماه، فعظم ذلك على أبَرْويز، وقال لهم: ما حملكما على هذا؟

فقالا: لم نأمَنْ أن يدخل بهرام إلى أبيك فى مغيبك فيضع تاج المُلْكِ على رأسه، ويصير الفرمدان، وتفسيره أمير الأمراء، والروم تسمَّى هذه المَرتبه، الدُّمستُق، ويكتب أبوكَ إلى قيصر: إن ابنى وجماعة. انضافوا إليه، وثبوا عَلَيَّ وسَمَلُوا عَيْنَيَّ فاحملهم إلىَّ. فلمَّا بلغ بهرام خبر هرمز وقتله، أسرع إلى المدائن فاحتوى على الملك ونزل أبَرْويز الرّها، وكاتَب قيصر مُوريق، وبعث بكتابه مع خاله بسطام، وجماعة من خاصّته يسأله النُّصْرَة وأَنْ يشترط عليه ما شاء، وأهدى إليه أبرويز مائة غلام من أبناء الترك فى غاية الحسن، فى آذانهم القرط بالدرّ والياقوت ومائدة عنبر فُسْحَتُها ثلاثة أذرع على ثلاث قوائم من الذهب مفصّلة بأنواع الجوهر، والقائمة الأولى ساعدُ أسد وكفّه، والثانية ساق وَعل وظلْفه، والثالثة كَفُّ عقاب بمخلبه، وجام جَزَع يَمَّانى فسحته شبر مملوءٌ ياقوتًا أحمر، وسفط من ذهب فيه مائة دُرَّة، وَزْنُ كُلّ دُرَّة مثقال أرفع ما يكون، فبعث إليه قيصر مائة ألف فارس، وهدايا وزوَّجه ابنته مَارية، وحملها إليه فاشترط عليه أن ينزل عن الشَّام، ومصر، وما تغلَّب عليه أَنُوشروان من بلاد القياصرة.

وكانت ملوك الفرس تتزوَّج إلى سائر من جاورها، ولاتزوِّجُها ثم صار أَبَرْوِيز إلى بلاد آذَرْبَيْجَان، فاجتمع إليه هناك من كان بها من العساكر فالتقيا ببهرام فتوجّهت على بهرام فصار إلى نحو بلاد خراسان وكانت لملوك التُّرك، فاحتوى أبرويز على المملكة وأقر لجنود قيصر بالأموال والمراكب والكساء، وحمل إلى

قيصر ألفَىْ ألف دينار، وقرن ذلك بهدايا كثيرة، من آلات الذهب والفضّة، ووفّى له بما شرَط عليه، واحتال أَبَرْويز فى قتل بهرام بأرض الترك، فقُتِل غيلةً، فسيق برأسه فنصب على باب أَبَرْوِيز.

(ط) ولم يزل أبرويز يُصَانِعُ أُخْتَ خاقان، ويبذلُ لها نفيس الهدايا، حتى دسَّت إلى بهرام من قتله، وكانت لبهرام أختٌ يقال لها كُرْدِيّةَ كانت فى الشجاعة والفروسية مثل أخيها، وكان لهم عدد وجَلَدٌ، فكاتبها أَبَرْويز فى قتل خاله بِسْطَامٍ، وكان مَرْزبان الدَّيْلَم بخراسان، على أن يتزوَّجها، فقتلته، وقتل أَبَرْويز خالَه الآخر بأبيه وتزوّج كُرْدية، وكان وزير أبَرْويز، والغالب عليه حكيم من حكماء الفرس، يقال له بُزُرْجُمِهْر، وكان أَبَرْويز لمَّا تخلى عن ملكه باشتغاله بحرب بَهْرَام وذلك ثلاث عشرة سنة.

اتّهم بزرجمهر بالميل إلى مذاهب اليونانية، وهو مذهب مَانى فأمر بِحَبْسه، وكتب إلى أَبَرْويز: كان من ثمرة علمك ونتيجة عقلك، مَاصِرْتَ به أَهْلاً للقتل، وموضعًا للعقوبة، فكتب إليه بزرجمهر أمَّا إذا كان معى الجد، فقد كنت انتفعُ بثمرةِ عقلى، والآن إذ لاجدّ أنتفعُ بثمرةِ صَبْرِى، وإن فقدتُ كثيرًا من الخير، فقد استرحتُ من كثير من الشرّ، ثم لم يزلْ يغرى به حتّى قتله، وبزرجمهر أكثر الفرس مواعظًا وحكمًا.

وفى ملك أبرويز، كانت وقعة ذى قار[1] بين بكر بن وائل والهامَرْز صاحب أَبَرْويز لأربعين سنةً من مولد النبىّ ﷺ وقال رسول الله ﷺ: «هَذَا أَوَّلُ يَوْمٍ انتصفَ فيه العربُ من العَجَمِ وَبِى نُصِرُوا» وفى رواية أخرى إنها كانت بعد بَدْرٍ بأَشْهُرٍ وكان على مربط أبرويز خمسونَ ألف دابّة وألف فيل، منها ما ارتفاعه من الأرض اثنتا عشرة ذراعًا.

وأكثر ما يكون ارتفاع الفيل، من الثمانية إلى العشرة، قال: وقد يكون بأرض الزنج، ما هو أعلى سمكًا من اثنتى عشرة ذراعًا وقد يحمل الناس من أنيابها مَا زِنَةُ النَّابِ مائتا مَنٍّ، والمَنُّ رطلان بالبغدادى.

---

(١) يوم ذى قار: هو يَوْمٌ لبنى شَيْبان، وكان أَبَرْوِيز أغزاهم جيشًا فظفرت بنو شيبان، وهو أوَّلُ يومٍ انتصرت فيه العرب من العجم. اللسان (قور) ١١/ ٣٤٤.

وخرج أَبَرْويز فى بعض أعياد وقد صفّت له الجيوش والعدد والسلاح والمراكب، وألف فيلٍ فى حملة ذلك، وقد أحدقت به مائة ألف فارس دون الرّجالة، فلمَّا أبصرته الفيلة سجدت له، فما رفعت رءوسها، وبسطت خراطيمها حتى رفعت بالمحاجن، وراَطنَها الفَيَّالُون بالهندية فأعجب أبرويز لذلك وقال ليتهَا لم تكن هندية، وكانت فارسية، انظروا إلى أدبها من بين سائر الدوابّ. وكانت مدّة أبرويز ثمانيًا وثلاثون سنةً، وقام ابنه واسمه قُباذ ـ القابض عليه، وهو المعروف بشيرَوَيْه. قال (ط) وتفسير أَبَرْويز: المُظَفَّر. قال (ط): ولم يزل أَبَرْويز ملطَّفًا بموريق، إلى أن قتله الروم وأبادوا ذُرّيته، خلا ابنًا له صَغيرًا هرب به أَبَرْويز، فحافظ أَبَرْويز موريق فى ولده، وغزا الروم هرقل، فهزم قوّاد أَبَرْويز وقتل رجاله، وتحصَّن أَبَرْويز بالمدَائن، وقيلِ فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**الم غُلِبَت الرُّومُ فى أدْنى الأَرْضِ**﴾(١) إنَّها أَبَرْويز، ملك فارس وهرقل ثم هزم الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ ملكهم بالإسلام، قال (ط): وفى آخر سنةٍ من مُلْكِه هاجر رسول الله ﷺ.

ولما بلغ يزدجرد، وقعة القادسية، وقتل رستم، عَلِم أن مدّتهم قد انصرمت، فصار إلى حلوان، ثم تحوّل إلى إصبهان، وقال للموبذ: قد ظهر هؤلاء القوم، فلا يَلْقُوا لنا جَمْعًا إلاَّ فَلُّوه ولا ينزلون بمعقلٍ إلاَّ افتتحوه، فما الرأىُ؟ قال: رأيى أن تنزل إِصطخر، وتضمَّ إليك خزائنك وتوجّه منها الجنود، ففعل ومضَى إلى إصطخر، فلم يزل أبو موسى وعثمان بن أبى العاص يغزونه فيها، فلم يقدروا على فتحها فقدم ابن عامر سنة تسع وعشرين ولم يكن بكور فارس شىءٌ إلاَّ وقد فتحه المسلمون حاشا إصطخر، وقتلوا عامل ابن عامر فرجع إليهم ابنُ عامر فهرب يزدجرد إلى كرمان، وأتبعه ابن عامر مجاشع بن مسعود السلمى، فنزل مجاشع بن مسعود قرية من دَرَابجرد فقالوا له: إنَّ لنا عيدًا الليلة، فَإِنْ رأيت أن تخلّى لنا القرية، قال: نعم فنزل منها خارجا بالفسطاط والأخبية فلما كان فى آخر الليل، أصاب أهل القرية رجفة فهلكوا عن آخرهم فينبش قوم منازلهم مِمَّن كان بينهم من العجم فأصابوا ألفى ألف وسبعمائة ألف، فأتوا بها مجاشعًا، وانصرف مجاشع إلى ابن عامر وقد فاته يزدجرد، وقد عرض فى جيشه ما عرض.

(١) سورة الروم: ١و ٢.

ومضى يزدجرد إلى سجستان، ثم توجّه إلى خراسان، فلمّا قرب من مرو خرج إلى ماهويَه بن مافناه بن فيد مَرْزُبَان مرو، وترجَّل وصارَ بين يديه ماشيًا، وقال له الموبذ: أيها الملك لو أمرت ما هوَيْه بن مافناه فيد أن يركب، فأمره فركب فلمّا دخلوا مرو فأقاموا أيامًا.

قال خرزاذ مهر ليزدجرد: لو أذنت لى أيُّها الملك لرجعت إلى فارس، فأذن له، فقال خرزاذ مهر لماهوَيْه: يا أهل خراسان إنكم قَتَلةُ الملوك، قتلتم فيروز، فاكتبوا لى كتابًا بأنّى قدمت بالملك بلاد مرو سالمًا، ومعه ابنه فيروز وثقله وحشمه، فكتب علَى ماهوَيْه كتابًا، ورجع منصرفًا إلى فارس، فلما صار إلى فارس اعتقد من عبد الله بن عامر ذمَّة، فلمَّا سار ابن عامر إلى خراسان رجع خرذاذ مهر إلى مَرْوَ، فأقام مع الأساورة الذين كانوا معه مع يزدجرد.

واستمدَّ نيزك طرخان صاحب التُّرك وخرج من مرو، فنزل وزْق وهى على تسع فراسخ من مرو، فأقبل نيزك، فلمَّا قرب من وزق ركب يزدجرد لينظرَ إلى عددهم، فتَلَقّاهم، فلما تراءَيَا نزلَ نيزك حتى دنا من يَزْدَجرد، فقبَّل رِجْلَهُ، ثم ركِبَ فسايره حتى أتى منزله وأمر نيزك بمنزل، وبعث إليه، ما يصلح به، وكسا الأتراك الديباج ومناطق الذهب، وأقام نيزك شهرًا، وكتب إلى يزدجرد يخطب إليه ابنته، فغضب يزدجرد وكتب إليه: إنما أنت من عبيدى، فما جرَّأك أن تخطبَ إليَّ؛ وأمر يزدجرد بمحاسبة ما هويْه، وسأله الأموالَ فخافه، فأتى نيزك فقال: إنَّ هذا أتى مغلوبًا مَغْلولاً فنصَرتهُ فخُطِبت إليه، فبلغ من جهله ما علمت، وقد أمر بمحاسبتى وطلبنى بالمال، فخرج نيزك فنزل الجبانة محاربًا، فسار إليه يزدجرد ومعه ما هويْه، فقاتلهم فأثخن فيهم، فخاف ما هَوَيْه أن يهزمهم فتحوّل إليه فى أساورة مرو، فتفرّق عن يزدجرد أساورته فقاتلهم وصبر بعقدته، ثم رأى أن يتحوَّل ويرجع إلى مرو.

وكان ماهويه قد خلف ابنه بمرو، وقال له: إن رجعَ يزدجرد منهزمًا فامنعه، فأتى يزدجرد وقد أغلقوا أبوابها ومع يزدجرد زادَوَيْه فناداهم زادَوَيْه: افتحوا، وأشرف ابن ماهويه فنادى: افتحوا للْمَلك، فأهوى إلى منطقته، فشدّها، أى لا تفتحوا، ففطن زادويه وقال: لعنكمَ الله يا قَتَلَةَ المُلُوكِ، وترك يزدجرد ومضى،

فرجع يزدجرد وحده، فأتى وزق، فنزل عن دابَّته ومشَى حتَى دخل بيت طحَّان على شاطىء المرغاب، فمكث ليلتين ويومًا فخفى عن الناس خبره، فلمَّا رآه الطحان عظّمه وقال: من أنت؟ أَجنِّى أنت أم إِنْسِىٌّ؟

قال: إنسى، فهل عندك طعام؟

قال: نعم، فأتاه بطعام، فقال: إنى مزمزم، فجئنى بما أزمزم به.

فأتى الطحان رجلاً من الأَسَاوِرَة، فسأله ما يزمزم به، فقال: عندى ضيف لا أعرفه؛ ولا أعرف مَسْأَلَتَه، سألنى ما يزمزم به.

فأدخله الأسوارى على ما هويه، فأخبره، فقال ما هَوَيْه: صِفْهُ؟

فوصفَهُ، فقال ماهَوَيْه هذا يزدجرد، انطلقوا فاخنقوه حتى تقتلوه.

قال الموبذ: ليس لك أن تقتله، لأنَّ الملك والدين مقرونان لا قِوامَ لأحدهما إلاّ بالآخر، وإنَّك إنْ قَتَلْتَهُ انتهكْتَ الحُرْمَةَ التى ليس لك بعدها شىء، فأعان القوم الموبذ، فَصدَّقوه، فشتمهم ماهَوَيْه، وقال للأساورة: مَنْ تكلَّم؟ فاقْتُلُوه، فكفّوا.

ومضى قومٌ مع الطحّان، فقتل يزدجرد، وأعطى ماهَوَيْه نيزك مالاً عظيمًا، فرجع إلى بلاده.

واخْتَلَفُوا فى قَتْلِ يَزْدَجَرد وكيفيّته، وكيف قُتِل، فقال قوم: دخلوا عليه وهو نائم فكرهوا قتله، فقالوا للطحّان: اقْتُلْهُ، فشدخَ رأسَه بحجرٍ، فرجعوا إلى ما هَوَيْه ومعهم الطحَّان، فأمر ما هَوَيْه بقَتْلِه وقال لا ينبغى لقاتِل الملوك أن يَحْيَا بعدهُ.

وقال قومٌ: نذرَ يزدجرد برسل ما هَوَيْه قبل أن يدخلوا عليه، فهرب ونزلَ الماء، وعليه ثيابه، فضربوا الطحّان وقالوا: دلّنا عليه فقال: ها هنا خَلَّفته، وخرجوا يطوفون فى طلبه، فرآه رجلٌ يجول فى الماء وعليهْ الدِّيباج، فأخذَهُ فقال له: خلّ عنى، وغمّ علىّ، وأعطيكَ خاتَمى ومنطقتى، فقال: أعطنى أربعة دراهم، قال: الذى أعطيتك أعظم من الآلاف، قال إنما أريد أربعة دراهم.

فضحك يزدجرد وقال: لقد قيل لى إنك ستحتاج إلى أربعة دراهم فلا تجدها، فهجموا عليه، فقال لهم يَزْدَجَرد: لا تقتلونى، فإنّه من احتوى على قَتْلِ الملوك

عاقبَهُ الله فى الدنيا بالحَرْب، وفى الآخرة بالنار، فاحملونى إلى ملك العرب، فإنهم لا يستحيون قتلى، فأصالحه عليكم فتأمنون، فأبوا وأعطوا الطحّان وترًا، فدنا منه وكأنه يكلمه ورمى بالوتر فى عنقه، فخنقه حتى مات، وأخذوا ثيابه، فصرُّوها فى جراب وختموا الجراب، وقتله الطحَّان، وألقوا يَزْدَجَرْد فى الماء وانصرفوا، وقال قوم: إن يزدجرد لما أتى إلى منزل الطحّان فقتله الطحّان، فأخذ ما كان عنده، فأخذ وأبه، فأنكر أن يكون رآه، فضربوه، فأقرّ لهم بقَتْله، وأخرجَ متاعَهُ، فقتلوه به وأهل بيته معه، وأخرج الأسقف يزدجرد من النهر وصَيَّرَهُ فى تابوت، وحمله إلى إصطخر أول سنة إحدى وثلاثين.

وكان قتله فى وزق وهى على سبعة فراسخ من مرو

(س) فملوك الفرس الأُولَى سبعة عشر ملكا، منهم امرأةٌ واحدة، والأخرى اثنان وثلاثون مَلِكًا، ملك منهم امرأتان.

* * *

الإسكندر

هو ابن فيلقيوش، وقال قوم ابن قيلقوس، قوطىّ.

(ط) ان مطريوس بن هرمس بن هردس بن ميطون بن ليطى بن يونان بن يافث من ولد الأصفر بن أليفز بن عيصو بن إسحاق عليه السلام.

ويقال إنَّ ذا القرنين[1] هو هرمس، ويقال: هو ذبين بن قيطون بن رومىّ بن لمطى بن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ ورومى بن لمطى

(١) ذو القرنين: لقبٌ أُطْلِق على كثيرين، كالمنذر الأكبر، وتُبَّع الأقرن: مَلِك اليمن، ورد ذكره فى القرآن (سورة الكهف:٨٣). ويرادُ به: الإسكندر المقدونى، وسُمِّى كذلك، لأنه مَلَك فارس والروم، أو لعظم سَطْوته. والقرنان كناية عن السلطان.

أو يراد به: قورش: أحد ملوك فارس المصلحين، وصل فى فتوحه إلى بلخ، فكان ذلك بمثابة وصوله إلى نهاية الشرق، وفى جبال القوقاز بنى سدًا، ليحولَ دون تَسَرُّب القبائل الهمجية التى كانت فى السهول الشمالية، والتى سمَّاها القرآن: يأجوج ومأجوج. الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٨٤٧.

هو أبو الروم.

وقال الزبير: حدَّثنى من يسوق الحديث عن العجم أنَّه رجل من أهل مصر اسمه الريَّان بن موريد اليونانى، وقال: هو رجل من أهل أينة ـ قرية من كور مصر الغربية، وقال أيضا: وهى متصلة بالإسكندرية، وقيل: بل هو رجل من حِمْيَر، قال تُبَّع: [كامل]

قد كان ذو القرنين جَدِّىَ مُسْلِمًا ... مَلِكٌ تَدِينُ له المُلوكُ وتحشد
بَلَغَ المَشَارِقَ والمَغَارِبَ يَبْتَغِى ... أَسْبَابَ عِلْمٍ مِنْ حكيمٍ مُرْشِدِ[1]

وقال من أبى ذلك: إنما قال تبّع: (قد كان ذا القرنين قبلى مسلما).

ويروى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سمع رجلاً ينادى آخر: ياذا القرنين، فقال: اللهم غَفْرًا أما رضيتم أن تتسمّوا بالأنبياء حتى تسمَّيْتُم بالملائكة؟

ومن أغرب ما ورد فى ذلك أنه إنما سُمِّى ذا القرنين، أنه كان عبدًا صالحًا بعثه الله ـ عز وجل ـ إلى قومه، فضربوه على قرنه، فمات فأحياه الله ثم بعثه مرّة أخرى إلى قومه، فضربوه على قرنه فمات فسمى ذا القرنين.

ومن غريب ما قيل فى نسبه ما قال (ط) وذلك أنه ذكر أنه ولد دارا الأكبر، أبو دارا الذى غلبه على ملكه الإسكندر، وذلك أن دارا كان تزوج بنت ملك الزنج هلابا، فلما حملت إليه استخبث ريحها فأمر أن يحتال لذلك، فغسلت بماء السندروس، وقد علقت منه فلهذا قيل الإسكندر.

قال القوطى: وكان له مع دارا ثلاث ملاحم، هلك فيها من الفرس أكثر من عشرة آلاف، وكان عدد الفرس فى أول التقائها ستمائة ألف مقاتل، وعدد عسكر الإسكندر أربعة آلاف فارس وثلاثون ألف رجل، وكان أخذه لدارا وهو جريح فلم يبق عنده إلا يسيرًا حتى هلك، فأظهر الإسكندر الحزن عليه وأمر بدفنه كما دفن الملوك.

قال (ط): وثب على دارا رجال من أصحابه فقتلوه، وتقرَّبوا برأسه إلى الإسكندر، فقتلهم، وقال: هذا جزاء من اجترم على ملكه.

---

(١) البيتان لتُبَّع الحميرى، وسبق تخريجهما.

ولما مات الإسكندر قال الحكيم: ما كنت أحسبُ أن قاتل داراً يموت وتوفى الإسكندر بناحية السواد فى موضع يقال له شَهَرْزُور بعد أن غزا الهند حتى انتهى إلى البحر المحيط، فهال ذلك ملوك المغرب فوفدت عليه رسلها بالانقياد والطاعة.

وعلى عهد الإسكندر، كانت دولة النساء[1] ومملكتهم الخالية من الرجال وزعموا أن أتين منهن ملكاتهن وفدتا على الإسكندر يطلبن منه النسل، فجامعهن بما يجوز من النكاح.

وكان من خبرهن أن أمرين خرجا من سبطيه، مدينة بأقصى الجوف فاجتلا ببلاد فيروجيه، فأغار على من جاورهما، فنصبوا لهما الكمائن حتى قتلوهما ومن معهما من الجنود، فاستأصلوهم، فلما انفرد النساء هناك اجتمعن على من بقى معهن من الرجال فقتلنه ثم جيشن وخرجن على الذين قتلن رجالهن، فأخذن بثأرهن منهم وعُدْنَ يميناً وشمالا، وعظم أمرهن، وهابهن من يليهن من الأمم، فكن يعاهدن الرجال الذين وراء النهر منهن، ويعبرونه اليهم، فتحملن منهم، فإذا ولدن ذكراً قتلنه، وإذا ولدن أنثى خرقن مواضع ثدييها لئلا تضرَّبها فى حمل السلاح، فملكن على هذا الحال مائة سنة، حتى قتلهن هرقل الملك الظاهر الإغريقى صاحب صنم قادس بالأندلس.

وفى شمال الأرض على البحر المحيط مملكة النساء باقية إلى اليوم على ما يأتى ذكره بعد هذا ـ إن شاء الله تعالى.

وقال القوطى: سمة بعض خدمه بأرض بابل.

قال (ط): فحُمِل إلى الإسكندرية فى تابوت من ذهب، وكانت مملكته اثنتى عشرة سنة (ط) أربع عشرة سنة، وقيل: ثلاث عشرة سنة عاش منها بعد قتل دارا خمس سنين.

القوطى، قال (ط): ويزعمون أن قتل دارا كان فى السنة الثالثة من ملكه، فقد عاش على هذا بعده عشر سنين، وكان عمره ستًا وثلاثين سنة باتفاق، وقيل أنه قتله بعد سبع سنين من ملكه، وعاش بعد ذلك خمس سنين.

(١) انظر فى ذلك: آثار البلاد ٣٣ ونزهة المشتاق ٢/ ٦١١ـ٦١٣.

قال (ط): وعرض الإسكندر جنده بعد أن تغلّب على مماليك الفرس، فوجدهم ألف ألف وأربعمائة ألف مقاتل.

قال (ط): ودخل الإسكندر الظلمات مما يلى القطب الشمالى ويحد الشمس فى الجنوب فى أربعمائة رجل من أصحابه، يطلب عين الحياة، فسار فيه ثمانية عشر يومًا، وبنى اثنتى عشرة مدينة، سماها كلها إسكندرية، منها: هراة، ومدينة مرو، ومدينه سمرقند، ومدينة باصبهان يقال لها حى، بنيت على مثال الجنة.

وقيل إنه تزوج بنت دَارَا.

ولما مات الإسكندر، عُرض الملك بعده على ابنه، فأبى، واختار النسك والعبادة.

قال (ط): واجتمع بالإسكندر ملك الروم، وكان قبله مفترقًا، وافترق به ملك فارس، وكان قبل مجتمعًا، والله أعلم.

* * *

ذكر ملوك اليونانية

فاستوسق بالإسكندر ملك اليونانيين بالشام ومصر، وهى مقدونية، وإليها ينسب الإسكندر المقدونى، ونواحى المغرب من الأندلس، وغيرها.

وكانت دار مملكتهم الإسكندرية، فولّى بعده خليفته بَطْليمُوس بن لاوى، وهذا الاسم يخص ملوك الإسكندرية من اليونانيين[1] وكان ملكه أربعين سنة.

وهو أول من اقتنى البُزاة ولعب بها، واللَّذارقة وهم مُلُوك الأندلس، وغيرهم أول من لعب بالشواهين.

وملك بعده بطليموس بن هيفلوس ثمانى وثلاثين سنة، وهو الذى بنى مدينة أنطاكية، وهى أحد عجائب العالم، مسافة سورها اثنى عشر ميلاً، وعدد شرافاتها أربعة وعشرون ألفًا، وأبراجها مائة وسبعة وثلاثون برجًا، وأسكن كل برج بِطْريقًا

(١) مروج الذهب ١/ ٣١٣.

برجاله وخيله، فمرابط الخيل فى أسفله، وأعلاه طبقات يسكنها الرِّجال، كل بُرْج منها كالحصن، عليه أبواب الحديد، وأنبط فيها عيونًا، وأجرى المياه فى شوارعها، وماؤها يستحجر فى مجاريه فلا يؤثر فيه الحديد، ولا يُغَيِّره ولا يكسّره، وهذا الماء يحدث فى الأجواف الرياح القولنجية.

وقد أراد الرشيد سُكْنَى أنطاكية، فقيل له ما ذكرناه من ترادف الصدأ على سلاحها، وذهاب ريح الطِّيب بها، فامتنعَ عن سكناها وهو الذى أطلق اليهود المأسورين بمصر، وهو الذى انتخب سبعين مترجمًا، فترجموا التوراة من العبرانى إلى الإغريقى، وفى أيامه كانت الحرب بين أهل رَومة وقرطاجنة، وهى الحرب التى قيل لها حرب إفريقية، وبُنِيَتْ مدينة قرطاجنة قبل روما باثنتين وسبعين سنة وكانت ولاَيته أربعين سنة.

ثم ملك بعده بَطْلِيمُوس أقريطش ستًا وعشرين سنة وكانت له حروب مع صاحب أنطاكية وصاحبها الإسكندروس، وهو الذى قتل من اليهود نحو ستين ألفًا. وفى زمانه قام الرومانيون وهدموا مدينة قرطاجنة.

ثم ملك بطليموس، صاحب علم عِلَل الفلك والنجوم، وواضع كتاب المجسطى[1] أربعًا وعشرين سنة.

وفى زمانه ظهرت جزيرة البركان فى البحر بصقلية، ثم ملك بَطْليموس (مُحِبّ الأم)، صحب الأمراء بلاء نظرة أى مزكّية المجن خمسًا وثلاثين سنة، وهو الذى عليه أنيسول.

(١) المجسطى: مرجع فلكى عام، أثره كبير فى تقدُّم الفلك عند العرب وفى أوربا فى القرون الوسطى، كتبه عالم الأسكندرية بطليموس فى القرن الثانى، وترجم إلى العربية أكثر من مرَّة باعتباره موسوعة فلكية مزوَّدة بالبراهين. يشتمل على ١٢ مقالة، بها وصف السماء ومدارات النجوم، والتقويم الشمسى، وحركات الشمس والقمر والكواكب، وحساباتها والخسوف والكسوف ومواقع النجوم.
وفى المجسطى أضاف بطليموس أدلَّة جديدة على كروية الأرض، وتفسيرات لعدم انتظام حركات أفراد المجموعة الشمسية فى مساراتها واختلاف أحجامها الظاهرية. كان أول المهتمين من العرب بتفسير المجسطى يحيى بن خالد البرمكى ظهرت على منواله مؤلفات عربية، مثل: المجسطى لأبى الوفاء البوزجانى والقانون المسعودى لأبى الريحان البيرونى. الموسوعة العربية الميسرة ١٦٤٨/٢.

ثم ملك بعد بَطْليموس أَقْرِيطش، وهو الذى غلب فى زمانه الرومانيون على الأندلس.

ثم ملك بعده يَطْليموس شوطان، وفى زمانه أقبل بروطَى الرومانى إلى الأندلس، فقتل من الجلالقة نحو خمسين ألفًا، وهرب بعضهم فلالاً وكانت ولايته[١].

ثم ملك بعده بطليموس الإسكندرانى، وفى زمانه كان أوفالوس الشاعر الذى مات عشقًا، وملك عشرة أعوام، ثم أفضى الأمر إلى قلابطرة[٢] ابنة بَطْليموس، وهى آخر ملوك اليونانيين وكان يشاركها فى ملكها زوجها أنطونيوس.

وكانت هذه الملكة حكيمة متفلسفة، مقرّبة للعلماء، ولها كتبٌ مُصَنَّفة فى الطبّ وغير ذلك من الحكمة، معروفة عند أهل العلم بذلك وبذهاب مُلكها ذهبت علوم اليونانيين، وانمحت آثارها إلاّ النبذ ممّا بقى فى أيدى حكمائهم، وسار إليها الثانى من ملوك الروم وهو أغشطش، وهو أَوَّلُ مَنْ سُمِّى قيصر، لِمَا سنذكره، وكانت له حروبٌ بالشام ومصر، ومصارعُ مع هذه الملكة إلى أن قُتِل زوجها بمنزلهم مصر، فلم يكن لقلابطرة فى دفع قيصر عن مصر حيلة وكان مذهب قيصر أخذها لعِلْمه بحكْمَتها، وأنها بقيَّة من حكماء اليونانيين ليأخذ منها ما شاء، ثم يعذّبها ويقتلَها، فراسلها خادعًا لها، وعلمتْ مُراده نفسها، وطلبت الحيّة التى تكون بين الحجاز والشام وهى حَيَّةٌ شِبْرِيَّة وتُدْعى أيضا الفِتْرِيّة، ذات رأسين تكون فى جوف الرّمل، فإذا أحست بالإنسان أو غيره من الحيوان، وثَبَتْ من موضعها أَذْرُعًا كثيرة، فضربته بإحدى رَأْسِهما فى أىّ موضعٍ لحقَتْهُ منه، فيعدم من ساعته الحياة ويُعلّقه ضرها لحينه، فاحْتُمِل لها منها حَيَّةٌ، فلما علمت باليوم الذى يدخل فيه أغشطش قصر مُلْكِها، جلستَ على سرير ملكها ووضعت تاجَها على رأسها، وتزيَّنَتْ بأحسن الزينة ونَظرت وسط مجلسها بأنواع الرياحين والفواكه والطِّيب وأكثرت مما بمصر من عجيب الرَّياحين، وعهدت جميع ما احتاجت إليه من أمرها، وفرّقت الحشم من حولها، ودعت بعض جواريها مِمَّن اختارت الموت قبلها،

---

(١) كذا بياض فى الأصل.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣١٦.

لتختبرَ أَمْرَ الحيّة، فأَدْنَتْ يدها من فمّ القارورة التى كانت فيها الحيّة فتَفَلت على يدها، فجمدت مكانها وعدمت الحياة من فورها ثم أدْنَت الملكةَ منها يَدَها، ففارقت الحياة لحينها وهى على هيئتها، وانسلّت الحيّةَ، فاستترت بالرياحين. فدخل قيصر فنظر إليها، فلم يشك أنها تنطق، فدنا منها، فتبّين أنها ميّتة، أعجب بتلك الرياحين، فأمَرَّ يده على كُلِّ نوع منها وهو متأسِّفٌ على ما فاته من الملكة، فبينا هو كذلك إذ قفزت عليه تلك الحيّة، فتَفَلَتْ عليه من سُمِّها، فيبس شِقُّه الأيمن من ساعته، وذهبت عينه وسَمْعُه، فعجب من فعلها بنفسها، ثم من احتيالها عليه، وقال فى ذلك شعرًا بالرومية مأثور عندهم، وأقام بعد ذلك يومًا فهَلكَ، ولولا ما كانت أفرغت من سُمِّها على الجارية والملكة لهلَك أغشطش من ساعته وكان السبب الذى أهاج الحرب بينهما، أن قواد قيصر وقواد بَطْلِيموس كانوا يقترعون كُلَّ عام، من يخرج منهم إلى الغرب، ومن يخرج منهم إلى الشرق، فخرجت فى بعض الأعوام قرعة قيصر إلى الغرب فغزا الأندلس، فوجد أهلها قد تحصَّنوا فى معاقلهم، فلم يظفر منهم بشىء ورجع مُخْفقًا، وخرج فى ذلك قائد اليونانيين يتناول إلى ناحية المشرق فسَبَى سَبْيًا كثيرًا وفتح الحصون، وأقبل بنحوٍ من ثلاثين أسيرًا من أمراء الشرق، فنفس ذلك قيصر وحسده ووقعت الحرب بينهم، فكانت الغلبة لقيصر.

فجميع الملوك اليونانية أربعة عشر ملكًا ومُدَّتُهم ثلاثمائة سنة لما قدمناه فى نسب الإسكندر - ثم غلب هذا الاسم على بنى عيصوا لَمَّا وَلُّوا ملكهم وقيل إنَّ الروم اسم الأصفر بن المسقر بن عيصو، والأصفر لقبٌ له، والله أعلم.

* * *

ذكر ملوك الروم

إنما سمى أغشطش قيصر، لأنَّ أُمَّه ماتت وهى حامل به فشُقَّ بطنُها عنه ومعنى قيصر: بُقر.

وكان هذا الملك يفتخر أَنَّ النساء لم تَلِدْهُ، وكذلك كان ولده يفتخرون بذلك فجرى عليهم هذا الاسم.

وحقيقة هذه اللفظة بالأعجمية: جَشْر، لأنَّ المشقوق يقولون له جاشر، وقد زعم أنه سُمِّى جيشر، لأنه ولد بشعر تام، يبلغ عينيه واسم الشعر بالأعجميّة الفصيحة: جشارية، فحُرِّف فقيل: قيصر وكان ملكه ستًا وخمسين سنة، ولاثنتين وأربعين سنة خَلَتْ من مُلْكِه وُلِدَ المسيحُ، هذا الصحيح، وقد قيل غيره على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ورأيت فى مدينه أنطاكية فى بعض كنائسها أنه كان بين ملك الإسكندر ومولد المسيح ـ عليه السلام ـ ثلاثمائة وتسع وستون سنة ثم ملك بعده طباريوس، فكانت مُدَّة مُلْكه اثنتين وعشرين سنة ولثلاث سنين بقيت منه رفع المسيح، ثم اختلفت بعد مُلْكه الرُّوم وتحزَّبت فأقاموا على ذلك اختلاف الكلمة والتنازع فى المملكة، مائتى سنة وثمانى وتسعون سنة، وهم فى ذلك لا يعرفون غير عبادة الأصنام.

ثم مَلَّكوا على أنفسهم بعد تلك المرة ملكًا يقال له غايوس فملك أربع عشرة سنة، وهو قاتل بطرس الحوارى، وبولس المذكورَيْن فى سورة يس، وقد ذكرنا خبرهما، وكان بطرس قد سار إلى مدينة رومة، داعيًا إلى الله عزَّ وجَلَّ وإلى الإيمان بالمسيح، ولم يزل غابوس قاتلاً للنصارى، وأتباع المسيح، وكان أكفر مِمَّن مضى قبله، وأجمع لخلال الشر وفى زمانه تفرق أصحاب عيسى الاثنا عشر فى البلاد وتلاميذه الاثنان وسبعون، وقبور الاثنى عشر مشهورة فى الآفاق، وأكثر القول أن الذين ذُكِرُوا فى سورة يس منهم.

ثم أفضى المُلْك بعد مَلِكٍ ثان منهم إلى بششيان، وهو أبو طيطش، فبعث ابنه

طيطش، إلى حرب بنى إسرائيل بالشام، فكانت لهم حروب عظيمة، انتهى القتل فيها من بنى إسرائيل إلى ثلاثمائة ألف وتفرقت بنو إسرائيل فى البلاد، وخرب طيطش بيت المقدس وحرثه بالبقر ومحا أثره وعفا رَسْمُهُ. (ط) غضبًا للمسيح، فكان أول بنائه إلى خرابه ألف سنة وستون سنة. (س) وعاقب الله الروم، من يوم تخريبهم لبيت المقدس، بأنه جعلهم يُسْبَى كل يوم منهم سَبْىٌ، إلىَ من أطاق لبلادهم من الأمم.

فلا يومٌ من الأيام العالم إلا والسَّبْىُ فيهم، قل ذلك أو كثر، وفعل ذلك بيت المقدس لتمام أربعين سنة من رفع عيسى ـ عليه السلام ـ وبشبشيان هو الذى تغلب على مدينة رومة، ودخل أشطيش على رُخّ واحد. وهلك ملك الرومانيين على أيديهما، وانقادت لهم جميع البلاد، وكانت ولايه بشبشيان عشرة أعوام.

ثم ملك بعده ابنه طيطش، فكان أحكم ملوك أهل المجوسية، وأعلمهم باللسان الإغريقى وأكثرهم تفننا فى العلوم، وكان ملتزمًا بخلال الخير، وخلال المكارم، وكان اليوم الذى لا يفك فيه أسيرًا، أو يغنى فقيرًا، أو يغيث ملهوفًا، لا يراه من ملكه، ولا يؤرخه وكانت ولايته عامين، فعظم على الناس فقده.

ثم ملك بعده أخوه دومطيانس، فكانت دولته جامعة لكل شر، ونفى يحيى الحوارى، إلى بعض الجزائر. ثم ملك بعده قيصر أنطونيش قومى، فأصلح ما أفسده الذى قبله، وأمر بإخراج يحيى الحوارى، من الجزيرة، وصرف النظر إلى كورهم، وكان الذى قبله أتقاهم.

وأوصى بعده إلى وطريان، وكان أندلسيا، وقيصر وطريان الأندلسى، وكان مظفرًا، دك أجناسًا كثيرة، وعبر الفرات.

وغلب على كور كثيرة، وفى سنة ثلاث عشرة، من دولتين، كَوَّركور إرمينيه وكور مورقة، وكور الكوفة، وولّى بطشة[1].

وولى بعده قيصر أِنطونيش، وهو الملقب بالرحيم لما كان عليه من حسن السيرة والرأفة بجميع المسلمين، وأسقط المغارم عن جميع أهل مملكته، وفى زمانه عَظُم

(١) كذا بالأصل.

أمر جَالِينُوس الطبيب[١]، بمدينة رومة، ومولده فى برغنة، وولى أنطونيش اثنتى عشرة سنة.

وولى بعده ثلاثة ملوك منهم نحو خمسين عامًا، ثم كان أنطونيش الأصغر وفى زمانه كان تنعش المترجم وبرجوس الأسقف فى بيت المقدس، وظهرت على يديه عجائب، وكان إذ ذاك أوريان العالم، وولّى أنطونيش الأصغر سبع سنين.

ثم ولّى قيصر مقرن أربعة أعوام، وكان فاسدًا مفسدًا ثم قيصر الإسكندر وكانت أمُّه نصرانيةً، وهو الذى قتل مَلكَ الفرس، وولّى ثلاثة أعوام، ثم قيصر فيلبس، وزعم بعضهم، أنه أوّل من تَنَصَّردين ملوك الرومانيين وفى السنة الثانية من ولايته تمَّ لرومة ألف سنة، فعيَّد عيدًا عظيمًا على ملك النصرانية، وَوُلِّى سبعة أعوام، وأفضَى الأمر بعده إلى عدد ملوك منهم إلى دقيانوس فملك ستين سنة، وكان ممعنًا فى قتل النصرانية، ومنه هرب أصحاب الكهف، وهم أصحاب الرقيم، وقال جماعة أصحاب الكهف غير أصحاب الرقيم وكلا موضعيهم ببلاد الروم.

وذكر أحمد بن موسى المنجم حين أنفذه الواثق بالله، إلى بلاد الروم، أنه أشرف على أصحاب الرقيم بحارمى فى بلاد الروم، ولم تزل الأمم كذلك وهى عبدة الأوثان إلا ما ذكَر بعضهم عن فيلبس إلى أن تولّى الأمر قسطنطين المنتصر المؤمن بعيسى.

فعدد ملوك الروم إلى قسطنطين تسعة وأربعون ملكًا، ومُدَّةُ ملكهم أربعمائة سنة وسبع وثلاثون سنة، وبنيت مدينة رومة قبل ملكهم بأربعمائة سنة.

---

(١) جالينوس: (١٣٠ـ٢٠٠) طبيب وكاتب يونانى، ولد فى برجامون، وعمل جراحًا لمدرسة المصارعين بها بعد أن أتَمَّ دراسته فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى والإسكندرية، ثم أقام بروما حيث ذاع صيته، فاختاره مرقص أوريليوس طبيبًا لبلاطه. ويُنْسَب إلى جالينوس خمسمائة مؤلف، أغلبها فى الطبّ والفلسفة وبقى من مؤلفاته الطبية ثلاثة وثمانون على الأقل. وقد أضاف إلى ما سبق من معارف طبية باكتشافاته التى توصَّل إليها بالتجريب وبتشريح أجسام الحيوان. وظل جالينوس حتى القرن ١٦ مرجعًا مُسَلَّمًا به، فضعفت روح البحث، مِمَّا أعاق تقدُّم الطبّ.

ولأعماله فى التشريح والفسيولوجيا أهمية خاصة، فبيَّن أنَّ الشرايين تحمل الدم لا الهواء، وأضاف الكثير إلى المعرفة بالمخ والأعصاب والحبل الشوكى والنبض. الموسوعة العربية الميسَّرة ٥٩٧/١.

والذى ذكرناه قبل هذا أصحّ، وهو الذى أمضى أنيايولش الحوارىّ بالأندلس ومدينة ماردة وأشبيلية وقرمُونة فى ذلك العصر، وهو الذى يحكى عنه فى الإنجيل، أنه ملك أكثر الأرض، وخضعت له ملوكها، لخضوعها، للإسكندر، وهو الذى أقبل على الأندلس فسلَّمها. وأخذ جُلَّ خيارها، فقطع أيديهم وأرجلهم، وهو الذى بلّط نهر رومة بالصفر فأرخت منه الأعاجم، وملك قسطنطين بن هلافى، فدخل دين النصرانية، وخرج من رومة لسنة خلت من مُلْكه، وهو أوّلُ ملكٍ خرج منهم عن رومة وكان ذلك الخوف لخوفٍ داخَلَه من بعض آل ساسان فبنى القسطنطينيةَ، وسماها باسمه، ولسبع من ملكه خرجت أمه هلافى إلى الشام، فبنيت البِيَع والكنائس وطلبت الخشبة التى صلب عليها عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ بزعمهم، وعذبت عليها اليهود حتى خبرّها شيخ منهم عنها أنها فى سباطةٍ هناك فاستخرجتها، وحلَّتها بالذهب والفضة واتخذت لوجودها عيدًا عظيمًا، وذلكً عيد الصَّليب وذلك لأربع عشرة ليلة من أيلول.

وفى هذا اليوم تُفْتَحُ الخلجان للنيل ببلاد مصر، واستخرجت هلانى الكنوز والأموال من بلاد مصر والشام، وذخائر الملوك فصرفتها، إلى بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية، فكل كنيسة بالشام ومصر، وبلاد الروم، فمن بنائها، وهى التى بنت كنيسة حِمْص تحملها أربعة أركان، وهى إحدى عجائب العالم، وليس للروم فى حروبهم كفاء، وأحرف هلانى خمسة فالأول الهاء وهى بحساب الجُمل خمسة، وهو إلى آخره مائة. ولسبع عشرة سنة خلت من ملك قسطنطين، اجتمع ثلاثمائةَ وثمانيةً عشر ألفًا وأقاموا دِينَ النصرانية، وهذا أوّل الاجتماعات الستة التى تذكرها الروم، وهو أعظمها.

وكان أوّل دخول قسطنطين فى النصرانية لرؤيا رآها، وذلك أنَّ مَلك برجان كان مظفرًا عليه، فرأى فى منامه أنه يرفع الصلبان عليه فى زمانه فيظفر به، ففعل ذلك وصحَّت رؤياه، وقيل إنه إنما تنصرّ لأنه كان ظهر به جذام فأبرأه منه أسقف رومة بالدعاء دون دواء بعد أن أعياه علاجه فلم يقدر أن يظهر النصرانية برومة، فبنى القسطنطينية على حساب ما بيَّنَّاه، فى كتاب الممالك، وفى زمن قسطنطين هذا كان أريش الخارجى، وفى زمانه كان اجتماع الأساقفة، على لعن أريش، وملك

نيّفًا وثلاثين سنة وقيل خمسًا وعشرين سنة.

وملك بعد قسطنطين الأكبر لليانش، فرجع إلى عبادة الأوثان وكان يريد الاحتيال، فى قطع دين النصرانية، إلا أنه كان لا يجاهر بذلك لأن أمرها قد قوى، وأمر بإخراج أَهْلِ دين النصرانية من الديوان، وغزا بلاد الفرس فى ملك سابور بن أرد شير، فجعل لأوثانه نَذْرًا إن جاء ظافرًا أن يقتل النصارى، وأتاه سَهْمٌ غَربٌ(١) فذبحه، ثم رجع أمرهم إلى النصرانية، والملك منهم فى هذا البيت.

ثم ملك بعده لليانش بنتنيان، وفى زمانه قدمت القوط على أنفسهم أدريمز أخاه، فاستمر قيصر لسنين، ورغب فى طاعته فأيده، حتى ظفر بأخيه فرغب حين ذلك فى دين النصرانية، فبعث إليه قيصر قومًا يعلمونه النصرانية على نارحة أريش، وهو كان مذهب بنتنيان، ثم ظهرت أنقلش إثر ذلك على القوط وضيّقوا عليهم، حتى أخرجوهم عن بلدهم، فاستغاثوا قيصر فتوسّع لهم فى بلد طرّاخية فسكنوها، على الطوع منهم، فلما أفرط عمال قيصر عليهم، باللوازم أشهروا نفاقهم، فغزاهم قيصر فقتلوه، وكانت ولايته...(٢).

ثم ملك بعد قيصر طدوش الأندلسى، وكان من أهل الفضل والنقاء فنصره الله وأعانه على الرومانيين بالريح فهزم فى قليل من أصحابه عددًا عظيمًا منهم وفى ذلك قال شاعرهم:

مَنْ ذا يُحَـارِبُه   والرِّيحُ تَنْصُرُهُ

هكذا ذكروا فى كتبهم، وغزا القوط فقتلهم، قتل منهم عددًا كثيرًا، وضيق على الرومانيين حتى أتاه اللُّذَريق ملكهم خاضعًا نازعًا عمّا كان عليه فقبل خضوعه فتوسّع لهم، وانصرف عن حربهم، ومات طدوش بقسطنطينية، إلى ستة عشر يومًا، من وصوله إليها.

وكانت مملكة طدوش، أحد عشر عامًا، وبعد عشرين عامًا غلب أَدْريق على رومة، وهى بعد ثغر من ثغور قيصر، وانتهبتها ثلاثة أيام ثم خرج عنها. وقلّد فى مملكته قيصر أنورش، وعليه طدوش الأصغر وهو الذى ملك بعد أنورش على

(١) السَّهْمُ الغَرْبُ: هو الذى لا يُعْرَف راميه.

(٢) كذا فى الأصل.

أنطاكية، فخرج عنها أدْريق إلى غالش وأوّل من ملك من القوط بالأندلس حدريفش، وكانت داره ماردة، فحشد القوطُ من أخبرهم بماردة، وأقبل لمحاربة قرطبة، فلمَّا التحمت الحرب، قتل ولده، وذهب أكثر رجاله.

ثم ملَّك القوط بعده، ركديد، وكانت داره طليطلة، وركديد هو الذى رجع عَنْ خارجيّة القوط إلى جماعة النصرانية، وقال المؤرخون من العلماء: لم يزل الأمر فى أهل بيت قسطنطين بن هلانى إلى أن ولى أمرهم بندقوس ويقال بنداسيس الأكبر، ولم يكن من أهل بيت المملكة، وفى زمانه استيقظ أهل الكهف وكان من الأشبان، وقال الواقدىّ وابن خرداذية: هم ناقلة من إصبهان.

ومن هؤلاء اللَّذارقة ملوك الأندلس، وكان الملك منهم يترساسيس الأصغر، وفى زمانه افترقت مذاهب النصارى، فتفرّق النصارى النسطورية[1] على مذهب نسطارس وهم المشارقة من النصارى، وهو الذى تكلّم فى اتحاد اللاَّهوت القديم بالنَّاسوت المُحدَث، واليعاقبة بمصر وأنطاكَية والشام وتكريت، والملكية وهم بقسطنطينية والروم.

ويعقوب كان من أهل أنطاكية برذعىّ يصنع البراذع.

ثم اختلفت ملوكهم فى اعتقاد هذه المذاهب، بعد ذلك ولم يزالوا يتوارثون الملك إلى أن أفضى الملك إلى هِرْقل، ولسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبى ﷺ وهو الذى ضرب الدنانير الهِرْقلية، وإليه انتهت الهرقلية، وملك خمس عشرة سنة، وهو هرقل بن يوسطين[2]، وكان أبوه ملكًا أيضًا، وفى كتاب السِّير أيضًا، أن رسول الله ﷺ هاجر وملك الروم قيصر بن فوق، وبقى هرقل حياة رسول الله ﷺ وخلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما.

---

(١) النسطورية: بدعة ظهرت فى القرن الخامس، قال بها نسطوريوس بطريرك القسطنطينية حين اعترض على تسمية مريم العذراء بوالدة الإله، وقد عارضه كيرلس الإسكندرى، وانعقد بهذه المشكلة ثلاثة مجامع دينية متلاحقة: مجمع أفسوس ٤٣١، ومجمع خلقيدونة ٤٥٠ ومجمع القسطنطينية ٥٥٣، وقررت كلها أنَّ للمسيح طبيعتين: إلاهية، وإنسانية، متَّحدتين فى أقنوم واحد، وقوام إلاهى واحد. الموسوعة العربية الميسَّرة ٢/ ١٨٣٢.

(٢) فى الأصل (بوسطين) وهو تحريف.

ثم ملك بعده موريق، وقيل إنَّ هِرقل بقى إلى آخر أيام عمر، على ما ذكرناه وقيل إنه هرقل آخر، ولاشك أنّ المملكة كانت فى هرقل إذ استفتحت الشام هذا أو غيره فبقى إلى أيام عمر، فكان موريق، زمان عثمان ـ رضى الله عنه ـ ثم ملك بعده ابنه جبرون بن وافاوى، إلى خلافة عمر بن عبد العزيز، فلما كان من أمر مَسْلَمة ما كان، اضطربت مملكة الروم، وانحرفت، وَوُلِّيهم من غير أهل بيت المملكة.

ولم تزل كذلك إلى أن وليهم قسطنطين بن أليون، وهو من ملوكهم الأخيرة المختلف فى نسبهم، وذلك أيام المنصور. ثم ابنه أليون، أيام المهدى والهادى.

ثم قسطنطين أليون وأمه كانت مُشاركة له لِصغَرِه، وسُمِلت عيناه فبقى ملكًا بعض أيام الرشيد.

ثم نقْفُور بن إستبراق، باقى زمان الرشيد وغزاه، فكانت بينهما حروبٌ، وانقاد له ثم نقض وكُتِم عن الرشيد ذلك لِعلَّةٍ كانت به، فلما استقلّ دخل شاعر عليه فقال: [كامل]

نقضَ الذى أعطاكَـهُ نقْفُورُ وعَلَيْـه دائرةُ البوارِ تَدُورُ

أَبْشِرْ أميـر المؤمنيـنَ فإنه فَتْحٌ أَتَاكَ بِه الإلَهُ كَبِيـرُ

فَلَقَدْ تَبَاشَرَت الرَّعِيَّة إذ أتى بالغَـدْرِ منه وَافِـدٌ وبَشِيرُ(١)

وفى ذلك يقول أبو العتاهية: [وافر]

أَلاَ نَادَت هِرَقْلَة بِالْخَرَابِ منَ المَلِكِ المُوَفَّقِ للِصَّـوَابِ

أَميرَ المُؤْمنِينَ ظَفِرْتَ فَاسْلَمْ وأَبْشِر بالغَنيمَـة والإِيَابِ(٢)

وانقاد نِقْفُورُ بعد ذلك، وكان استفتاح الرشيد، بهرقلة، سنة تسعين ومائة بعد حصار وقصَّةٍ طويلة. قال أبو العباس: أخبرنى شبل الترجمان، قال: كنت مع الرشيد حين نزل على هرقلة، فلما افتتحها، رأيت حجرًا منصوبًا، مكتوبًا عليه باليونانية، فجعلت أُتَرْجِمُه وأمير المؤمنين ينظر إِلَىَّ، وأنا لا أعلم فإذا تاريخه زائد

(١) الأبيات فى مروج الذهب ١/ ٣٤٣ بلا نسبة.

(٢) البيتان لأبى العتاهية فى ديوانه ومروج الذهب ١/ ٣٤٨.

على ألفى سنة من ذلك اليوم، وهو (بسم الله الرحمن الرحيم): يا ابن آدم غافص الفرصة عند إمكانها، وكِلِ الأمورَ إلى ولِيِّهَا، ولا يحملك إفراط السرور على المَأْثَمِ، ولا تَحْمِلْ على نفسك هَمَّ يَوْمٍ لم يَأْتِ، فإنه إن يك من أجلك يَأتِ الله فيه برزقك، ولا تكن مغرورًا بجمع المال، فكم قد رأينا جامعًا لِبَعْلِ خليلته ومُقَتِّرًا على نفسه، تَوْفيرًا لغيره. وكانت للرشيد بعد هذا مع نقفور أخبار كثيرة.

ثم ملك بعده ابنه استبراق، ثم ابنه نقفور، إلى أن تغلّب على الملك قسطنطين زمان المأمون ثم توفيل زمان المعتصم، وهو الذى فتح زَبطرة وفى مملكة فتح المعتصم عمورية، وكان الملك فى ذريته إلى أن تغلب بسيل الصقلى ولم يكن من أهل بيت المملكة وذلك زمان المهتدى والمعتمد. قال (س) وبقى الأمر فى ولده إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة[1]. وقال المؤلف لهذا الكتاب: كان آخرهم قسطنطين بن أليون بن لاوى بن بسيل. ولى بعده ابنه صغيراً فغلب عليه رومانوس بطريق البحر وزوجه ابنته وبقى الروم كذلك أيام المقتدر، والقاهر، والراضى، والمتقى، فلما كانت سنه اثنتين وخمسين توفى رومانوس المتغلب على ملك الروم.

وكان نقفور الدمستق فى حين موته غائبًا بالجيوش التى أخرجه رومانوس بها فتغلب على أكثرها، ففى خروجه إلى القسطنطينية ملكته الروم أمرهم وتزوج امرأة رورمانوس، ولم يبلغ إلينا من أى بيت هو، وكانت ولايته لسبع بقين من رجب من العام المذكور، وفى شعبان تغلبوا على طرسوس وما والاها، وأخليت ثغور الشام إلا ممن رضى بالجزية أن يؤديها من المسلمين وعمرت طرسوس وما والاها بالروم.

فلما كانت سنة ستّ وخمسين وثلاثمائة زحف ابن نوح صاحب خراسان بعساكر جرارة، إلى أرض طرسوس، وأوقع بالروم، وهزمهم، وجاوز الدرب إلى أرض الشام إلى القسطنطينية، فلقى المشركين بجيوشهم وعليهم ابن الشمشكى، وتوخوا أن يلتقوا بالمسلمين يوم غمام، لما رجوه من الظفر عليهم فكان خلاف ما أملوه، فصاروا من الضرب والطعن، والمجالدة بالسيوف إلى المعانقة، والمقابضة

(١) مروج الذهب ١/ ٣٥٠.

بالأيدى والتقابض بالشعور. فما حجز بينهم إلا الليل وثبت المسلمون فى مصافهم وماتوا على ظهور دوابهم وناجزوهم بجدّ وحد وعزم وحزم، فإذا الأرض قد غصّت بجيفتهم ولا أثرَ لمن بقى منهم ولا عَيْنَ، قد تفرقوا فى جنح الليل، وافتتح ابن نوح قلاعًا كثيرة مما كان تغلب عليها الطاغية منها قرعش، وبلولة، وغيرهما.

وفى سنة ثمان وخمسين تغلّب العدو على أنطاكية، وخيّر أهلها بين المقام على أداء الجزية أو الخروج إلى أرض الشام فرضى بالجزية خلق كثير ولما جاء البشير إلى نقفور بذلك، عاقبه وغمه ذلك، لأنه كان يرى فى علم الحدثان أن الذى تفتح أنطاكية على يديه يهلك سريعًا، فقتله الله سنة تسع وخمسين فقتل فى قصره وعلى سرير ملكه، عملت فى قتله امرأته التى كانت قبله لرومانوس على يدى قائده ابن الشمشكى فقتلوه ليلاً.

وكان سبب ذلك أن ابنها من رومانوس واسمه بسيل لما أدرك أراد نقفور أن يخصيه ويلزمه الكنيسة العظمى، ليتفرد بالملك ويخرج عقب رومانوس منه.

فلما علمت عزمه على ذلك، سعت فى قتله، فتم لها ذلك وولى الأمر ابن الشمشكى ودانت له النصرانية.

ثم ملك بعده بسيل بن رومانوس، وهو الملك الملقب بالرحيم، فكان ملكه أربعًا وأربعين سنة، وكان أكره الناس لإراقة الدماء، وزعموا أنه ممن لا يرى إراقة دماء الحيوان ولا أكله.

ثم ملك بعده أخوه قسطنطين يسيرًا، ثم رومانوس بن باسيلى أربع سنين ثم أخته بودرة ابنة باسيلى أربع عشرة سنة ثم اختها دونه سبع سنين ثم سالخونة إحدى عشرة سنة، ثم ميمانوس، ثم ذو قرش، وهو باق إلى اليوم ـ وهو سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

* * *

(فصل)

وكان صاحب صقلية وإفريقية قبل ظهور الإسلام يدعى جُرجير، وصاحب الأندلس لُذَريق، وكان من الأشبان.

وأهل الأندلس يقولون إنَّ لُذَريق كان من الجلالقة. وأرض السودان من أرض الحبشة إلى آخر بلاد إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن عليّ من أرض المغرب وهى بلاد تِلِمْسان وتَاهَرْت.

وزعموا أن بلاد السودان مسيرة سبع سنين، وأن أرض مصر كلها جزء واحد من ستين جزءًا منها، ويتصل بالسُّوس الأقصى، وبينه وبين السوس الأدنى عشرون يومًا رمال ومفاوز، فيها المدينةَ المعروفة (بمدينة النحاس) وقباب الرصاص التى سار إليها موسى بن نُصَير فى مُدَّة الوليد بن عبد الملك، وما رأى فيها من العجائب وفيها قوم من الأشبان عمروا تلك الديار، والوصول إليها ممتنع بل لا سبيل إليه - والله أعلم.

* * *

ذكر ممالك السودان

صار ولد كُوش بن كنعان نحو المغرب حتّى قطعوا نيل مصر، ثمَّ افترقوا فصارت منهم طائفة إلى المشرق وطائفة إلى المغرب، فمن المشرق النوبة والبُجَاة والزَّنج والحبشة، ومن المغرب الزّغاوة والمفافوا، ومركة، وكَوْكَوْ، وغانة، وغيرهم من أنواع الأحابيش. والزنج أصناف: منهم مكير، وبَرْبَر، وهم غير البَرْبَر[1] والمشكر، وغيرهم وبحر السودان الزنج والأحابيش وغيرهم، وهم عن يمين الهند، وقطعت الزنج دون الأحابيش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذى يصب إلى بحر الزنج، فسكنت فى ذلك الصقع، واتصلت مساكنهم دار مملكة وسمة

(١) يقصد البربر الذين فى بلاد المغرب.

ملكهم وفليمى وهو ملك ملوك سائر الزنوج، ومعناه ابن الربّ تعالَى الرَّبُّ عن قولهم عُلُوًا كبيرًا، ومعناه أنه اختاره لملكهم والعدل فيهم، فمتى جار الملك عندهم أو حاد عن الحق قَتَلُوه وحرموا عَقِبَهُ المُلك.

ويزعمون أنه إذا فعل مَلك فقد بطل أن يكون ابن الربّ الذى هو ملك السماء والأرض. ويركب وَفليمى فى ثلاثمائة ألف فارس، دوابّهم البقر، وليس فى أرضهم خَيْلٌ ولا بِغَال ولا حمير ولا إبل ولا يعرفون شيئًا منها.

والزنجُ أطيبُ الأمم أفواهًا لرطوبة أفواههم وكثرة الرّيق فيها، ومن دخل بلاد الزنج فلابد له أن يجرّب. ومن أرضهم يُحْمَلُ الذَّبْلُ(١) من ظهور سلاحفهم، وفى بلادهم تكون الزرافة وهى من الدوابّ التى تألف وتتودّد إليها، ومنها تحمل وتهدى إلى الملوك وعندهم جلود النمور الحمر، وهى لباسهم، وبلادهم أكثر بلاد الله فِيَلَة إلا أنها وحشية لا تنقاد، ولا يستعملونها، وهم يقتلونها بشجر يطرحونه فى مشارِبها يسكرها فتقع ولا مفاصل لها، فيخرجون إليها بأعظم ما يكون من الحِراب فيقتلونها لأخذ أنيابها، فمن أرضهم تجهّز أنياب الفيلة إلى الآفاق، وأكثر ما يتجهّزُ به إلى عُمان وإلى سائر البلدان وأكثر ما يستعمل العاج بأرض الصين لأنهم يتخذون من الأعمدة فيها يدخلون على ملوكهم ولا يدخل عليهم أحدٌ من جيشهم وقوّادهم بحديد ويستعملونه أيضًا فى دخن بيوت أصنامهم وأبخرة هياكلهم، وأهل الصين لا يتَّخذون الفيلة فى الحروب كاتخاذ الهند، ويتطيَّرون بذلك لخبر كان لهم فى قديم الزمان فى بعض حروبهم ويستعمل من أنيابها كثير البلاد بلاد الهند ـ الشطرنج والنرد.

وصور الشطرنج عندهم لايصرفها اللاعب فيها إلا قائما لكبرها ولاستعمال الفيلة فى سائر مواضعها من الممالك لحاجتهم إليهم لا يقتلونها.

قال: ولعب أهل الهند بالنرد والشطرنج قمار، وإذا أُنْفِذَ ما مع اللاعب، لعب على قطع أعضاء جِسمه إِصْبَعًا إِصْبَعا، حتى رُبَّما أتى على الزند والذراع.

ولهم دهن أحمر مُرَكَّب يغلى ويُغْمَس فيه مَوْضِعُ القَطْعِ فيمسك الدم ويدمل

(١) الذَّبْلُ: جِلْدُ السّلحفاة البرية أو البحرية، يتَّخذ منه السّوار والأقساط المعجم الوسيط (زبل) ١/٣٠٩.

لحينه، ويعود صاحب القطع إلى لعبه ولا يكترِثُ، ويُعَمَّرُ الفيلُ بأرض الزنج نحوًا من أربعمائة عام، ولا ينتهى عمره فى سائر مواضعه إلى هذا.

وحدّثنى غير واحد عن أبى ذَرٍّ عن ابن أحمد بن محمود شختكين، صاحب غزنة وما والاها من البلاد أنه أصاب فى تصيده...[(١)].

...[(٢)] أوسع مملكة من الآخر وأهله أصفى ألوانًا وأحسن زيًا، ومُلُوكهم يزعمون أنهم من حِمْيَر، قاله المسعودى فى أخبار مصر: وَسِمَةُ ملوكهم...[(٣)] وهم نصارى يعقوبية ويقرءون الإنجيل بلسان الروم الملكانيَّة، وهم لا يطئون فى الحيضة، ويغتسلون من الجنابة، وملوكهم يتخذون الخيل العتاق، وركوب عوامّهم البراذين، ولهم النخل والكرم والذرة والحنطة والموز، والأترج عندهم كثير.

وغربى بلادهم يسقيها النيل وهناك غِيَاضٌ كثيرة، وحوالى هذه معادن الذهب والفضة.

وتسير من دُنْقُله فى شعاب وجبال حتى تنتهى إلى سوبة، وهى آخر بلادهم وهى مدينة كبيرة على شاطئ النيل. والزَّرافات فى بلاد النوبة كثيرة ويتخذون من جلودها النعل يلبسونها فلا تكاد تنقطع إلا فى الدهر الطويل وبين بلادهم وأسوان قِرَدة صِغَارٌ فى مقدار الهِرَّة، يُسَمُّونها النسناس، والإبل فى بلادهم صغيرة الخَلْقِ قصيرة القوائم، والنَّمِرُ عندهم عظيمة الخلق بخلاف ما عهد منهم، وهو يتكاتبون فى ورق الموز.

وقيل إن فى بلادهم نهر عيسى نوبة وبه سُمُّوا. وقال الأكثرون إنهم من ولد نوب بن قوطى بن مِصْر بن نيصر بن حام، وجميع من سكن على النيل مُحَارِبٌ للمسلمين إلاَّ القِبْط والنُّوبة. وقال يزيد بن أبى حبيب: إن النوبة ليس بينهم وبين المسلمين عَهْدٌ ولا ميثاق، وإنما هو أمانٌ لبعضهم من بعض على أن يؤدُّوا كذا وكذا رأسًا.

وذكر بعض المصريين أنه قرأ فى بعض الدواوين بالفسطاط قبل أن تحرق

---

(١) كذا بالأصل بياض.

(٢) كذا بالأصل بياض.

(٣) كذا بالأصل بياض.

عهودهم على ما يؤدونه الآن. وبَدْء اتصال مَمْلكتهم بأرض أسوان مَوْضع يعْرَف بَحَرِيس ولما افتتحت مصر أمر عمرو أن تُغْزى بلاد النوبة فوجدهم المسلمون يرمون الحدق، فذهبوا إلى المصالحة فأبى عمرو بن العاص من مصالحتهم حتى صُرف عن مصر وَوَليها عبد الله بن أبى السَّرح سنة إحدى وثلاثين فقاتلوه قِتَالاً شديدًا فأصيبت عين معاوية بن حُديج وعين أبى شَمِر بن أَبْرَهَه، وأعين جماعة من المسلمين فحينئذ سموا رُمَاة الحَدَق(١). وقال الشاعر: [من الرجز]

لم تر عينى مثـل يوم دُنْقُلَهْ   والخَيْلُ تَعْدُو بالدُّرُوع مُثْقَلَهْ(٢)

ومنهم تعلم الرمى أهل الحجاز واليمن، فصالحهم عبد الله بن أبى سَرْح على رءوس من السَّبْى معلومة مِمَّا يَسْبيه هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرها من الممالك المجاورة له، وعدد ذلك ثلاثمائة وخمسة وستون رأسًا وإنما أرادوا عدد أيام السنة، وهى جارية إلى الآن.

وللأمير بمصر عددٌ ولعامله بأسوان عددٌ، وللحاكم بها عدد، يبلغ نحو الثمانين رأسًا.

بلد أسوان(٣): أهله العرب من قَحْطَان وربيعة ومُضَر وقُرَيْش ناقلة من الحجاز. وهو بلدٌ خصيب، كثير النخل، تُوضَعُ النواةُ فى تربته فتنبت نخله تثمر لسنتين تمرًا.

وبلاد البصرة وغيرها لا تغرس النخل فيها إلا فى الفَسِيل، وما يخرج من النواة فليس يثمر، ولأهل أسوان فى بلاد مريس من أرض النوبة ضياع كثيرة ابتاعوها منهم فى زمن بنى أمية يُؤَدُّون خراجها إلى ملك النوبة.

وقال مجاهد: كان لقمان عبدًا أسود ذا مشافر.

ومن النوبة النساء المعروفات بالمقوَّرات، لا يقدر أحد على افتضاض أبكارهنّ ولا مباشرتهن حتى تفتق القوابل عن قبلهنّ بقدر ما يحتاج الوَطْء، وهن أطيبُ النساء خلوة، فإذا حملت المرأة منهن وقرب الوضع زادت القوابل فى شقّ ذلك المكان، فإذا وضعت عادت تلك الزيادة بالأدوية حتى تلتئم، أخبرنى بذلك جماعة

(١) فتوح مصر ٢١٥.

(٢) بلا نسبة فى فتوح مصر ٢١٥.

(٣) انظر فى ذلك: موسوعة تاريخ مصر ١/ ٤٩١.

من الثقات عن جماعة من النساء المجاورات لمكّة أنهن رأين ذلك وشاهدنه.

ومملكة الزغاوة[١]: تحاذى مملكة النوبة على ضفَّة النيل الثانية. وأما البُجَاة[٢] فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر وتشعّبوا فرقا وملكوا عليهم ملوكا وتتصل سراياهم على النجب ببلاد النوبة فيُغيرون ويسبون، وبين بلادهم وبلاد النوبة جبال منيعة جدًا، وقد كانت النوبة أشدّ منهم، إلى أن ساكَن البُجَاة جماعة من المسلمين لمعادن الذهب الذى عندهم، واستوطنها خَلَقٌ من العرب من رَبيعة وتَزَوّجوا من البُجَاة، فاشتدت شوكتهم بهم.

وصاحب المعادن فى وقتنا هذا من المسلمين أبو مروان بِشْر بن إسحاق بن ربيعة يركب فى ثلاثة آلاف فارس من ربيعة وأحلافها.

وببلاد البجاة تتصل معدن الزمرد، وهو موضع يعرف بالخَرْبة، مفاوز وجبال تحميه البجاة، وهو متَّصل بالصعيد الأعلى من أعلى مدينه قفط، وإن البجاة تؤدى الخفارات من يرد لحفر الزمرّد.

وبين موضع معدنه والنّيل أكثر من عشرين مرحلة وبين هذا الموضع والعمران مسيرة سبعة أيام، وهى مدينة قفط، والخراب عليها أكثر من العمارة.

والجبلُ الذى فيه هذه المعادن الذى يوجد فيها الزمرد متصل بجبل المقطم الذى على مصر. ولا يعرف معدن الزمرّد سواه إلا ببلاد البَلَّهَرى من أرض الهند، ولا يلحق بهذا، والهندىّ يعرف بالمكىّ لأنه يحمل إلى عَدَن ويُؤْتَى به مكّة فاشتهر بهذا الاسم.

والزمرّد الذى يُقْلَع من الخربة يتنوّع أربعة أنواع، فأعلاها الذى يُعرف بالمر وهو كثير المائية تُشْبِه خضرته بأخضر ما يكون من السلق لا يميل إلى شىء من السواد.

واللون الثانى البحرى وهو نوع ورق الآس، وإنّما غلب عليه هذا الاسم، لأن ملوك البحر من الهند والسند والصين ترغب فيه.

والنوع الثالث يعرف بالمغربى لأن ملوك الغرب من الإفرنجة والأندلس والجلالقة

---

(١) نزهة المشتاق ١/ ١١٠-١١١.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٦٤.

والبَشْكَنْش والصقالبة والرُّوس يتنافسون فيه.

والنوع الرابع يسمى بالأصمّ، وهو أدناها وأقلها ثمنًا، لقلة مائه وخضرته ولكدرته وأكبر محارة الزمرّد الخالص إذا رأته الحيّات سالت أحداقُها وإن المَلْسوعَ إذا سُقى منه وزن دَانَق أو دَانَقين أمِنَ على نفسه وقد كانت ملوك اليونانيين أرباب الحكمة تفضله على سائر الأحجار طرّا.

وأهل العلم يقولون إن شعاعه النورى، وخضرته تقوى بزيادة القمر وامتلائه.

والبجاة جنس من الحبش، ولهم قلاع كثيره، واسم مدينة ملكهم هجر وهم أصحاب إبل، ولهم حراب يحاربون بها على إبلهم، وهم عبدة أوثان ولهم صنم من حجارة فى صورة الصَّبى يسجدون له، وأحكامهم أحكام التوراة.

ولم يكن للبجاة عَهْدٌ أو صُلْحٌ، وأول من صالحهم عبيد الله بن الجبهات[1]، ويزعم بعض الشيوخ أنه قرأ فى كتاب ابن الجبهات فإذا فيه ثلاثمائة بِكْر كل عام حين ينزلون الريف مجتازين تجّارًا غير مقيمين على أن لا يقتلوا مسلمًا ولا ذِمّيًا وإن قتلوا فلا عَهْدَ لهم ولا يُؤوا عبدًا لمسلمين، وأن يردّوا أُبَّاقَهُم. واسم بلاد البجاة بغلال، وأول ممالك البجاة من حَدّ أسوان ومدينتهم يقال لها هجر. وأما الحبشة فاسم دار مملكتهم كعبر، وسمة ملكهم النجاشى وفيها كان الذى آمن برسول الله ﷺ وهم من ولد حبش بن كوش بن حام.

وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة تتصل بالبحر الحبشى، ومن مدائنهم المشهورة مدينة علوة[2]، وساحل الحبشة مقابل لبلاد اليمن وهم على شاطئ البحر الغربى، وأقرب عرض البحر هناك ثلاثة أيام، وهو على ساحل زَبيد من أرض اليمن.

ومن هذا المكان عبرت الحبشة البحر إلى اليمن فى أيام ذى نواس[3]، وهو

(١) فتوح مصر ١٨٩.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٣٢-٣٣.

(٣) ذو نواس: أحد ملوك حِمْيَر فى القرن (٦م). اعتنق اليهودية واضطهد المسيحيين (٥٢٣)، ظل يحارب جنود أبرهة الذين أتوا لنصرة إخوانهم المسيحيين عامين، ثم آثر وضعَ نهاية لحياته كيلا يقع فى أيدى أعدائه، فنزل بجواره إلى البحر وأغرق نفسه. الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٨٤٧.

صاحب الأخدود وبين هذين الساحلين جزيرة العقل فيها يعرف بماء العقل يستقى منها أهل المراكب ويفعل فى القرائح فعلاً عظيمًا.

وذكرت الفلاسفة خواص هذا الماء وتأثيره، وقد غلب ابن زياد على هذه الجزيرة وله فيها رجال مرتَّبون. وفى هذا البحر مما يلى بلاد عدن جزيرة سُقُطْرَة وإليها يضاف الصَّبر، لا يوجد فى غيرها.

وقد كتب أرسطاليس إلى الإسكندر يوصيه بهذه الجزيرة وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها لئلا يغلبوا عليها فى سائر الأمصار، مراعاة للصبر ففعل الإسكندر ذلك. فليس فى الدنيا - والله أعلم - موضع فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم، لم يداخلهم فيها رومىّ ولا غيره إلا أهل الجزيرة، وهم نصارى. ولهذه الجزيرة أخبار عجيبة من خواص النبات.

وبلاد الحبشة واسعة جدًا يتجهّز إليهم التجار بالأمتعة من مصر واليمن وما يجاورها من بلاد الزَّيْلَع وباضع وسواكن ودَهْلَك، وفى هذه المدائن والجزائر المسلمون والمساجد والحكّام ومراكب صاحب زَبيد وعلائقه من ساحل اليمن تختلف إلى ساحل الحبشة وإلى بلاد النوبة، وبينهم وبين الحبشة مُهَادنة.

ومن بلاد الحبشة إلى بلاد النوبة مسيرة شهر. وللحبشة حذق ومعرفة يتباينون بها من سائر قبائل السُّودان، وهم أجمل السُّودان، ولهم القناء والكحل والشعور المسترسلة، وليس فيهم من ذفَر السودان شىء، وأكثرهم نصارى وهم يكْوُون جباههم، ومنهم من يكوى وجهه وعفنونه.

وفى أقاصى بلاد الحبشة قوم يمشون على أربع كالدواب، لا تطول أعمارهم ومخاطبات الحبشة وجميع ما عندهم من الكتب فى فنون العلم إنما هو فى ورق الموز، أخبرنى من رأى تواريخها مما نفذ إلى بلاد الإسلام منها: ببقائها وقلة تغيّرها.

وأما غير هؤلاء من الحبشة المقدمين مثل الزَّغَاوة والكوكو وغيرهم فلهم ممالك هناك قد أُتِىَ على ذكرها فى غير هذا الكتاب.

* * *

ذكر البربر

وأما البربر فإنّ ديارهم كانت فلسطين من بلاد الشام، وكان ملكهم جالوت، وهذا[١] الاسم سِمَةٌ لسائر[٢] ملوكهم، إلى قَتْل داود جالوتَ، فساروا إلى بلاد المغرب إلى موضع بالونيّة ومَرَاقِيَة[٣]،وهما كورتان من كور مصر الغربية مما يشربُ من ماء السماء ولا ينالها النيل، فانتشرت هنالك فنزلت منهم زُناتةُ ومُغيلة وضريسة الجبالَ من تلك الديار، ونزلت لَواتة[٤] أرض برقة وهى بالرومية أَنْطَابُلُس[٥][٦]، ونزلت هَوَّارةُ بلاد أطرابلس المغرب وهى مدينة إياس ونزلت نفوسة مدينة صبرة.

وكانت هذه الديار للإفرنجه فَاجْتَلَتها[٧] البربر عنها إلى جزائر صقلية وغيرها وتفرقت البرابر فى بلاد إفريقية، وطنجه، إلى أقاصى بلاد المغرب، وانتهى إلى موضع يعرف بقبورية[٨]، على أكثر من ألفى ميل من بلاد القيروان، ثم تراجعت الإفرنج إلى ديارهم، ومدنهم، وعمائرهم على موادعة وصلح من البربر واختارت البربر سكنى[٩] الجبال، والأودية، والرمال، وأطراف البرارى والقفار وصارت

---

(١) فى الأصل «وهبه» وهو تحريف.

(٢) فى الأصل «بسائر» وهو تحريف.

(٣) فى الأصل «باتونية» وهو تحريف.

وفى البلدان لليعقوبى ٣٣٩: «كورة لوبية وكورة مَرَاقية، وهاتان الكورتان على ساحل البحر المالح، ينزل أدانى قراها قومٌ من بنى مُدْلج من كنانة، وينزل أكثرها قومٌ من البربر، وبها قرى وحصون».

(٤) لُوَاتة: من البربر من أهل بَرْقة، وهى قريةٌ من البَرْبر، كان لها عهد. فتوح البلدان ٣١٦.

(٥) فى الأصل «أنطالَيس» وهو تحريف.

(٦) أَنْطَابُلُس: مدينة من بلاد بَرْقة، بين مصر وإفريقية، ومعناه بالرومية خمس مدن، ويروى عن عمرو بن العاص أنه قال: فتحت مصر عَنْوَة من غير عهدٍ ولا عَقْد، إلاَّ أهل أَنْطَابُلُس، فإنَّ لهم عَهْدًا يُوفَى لهم به». انظر: معجم ما استعجم ١/ ٢٠٠ ومعجَم البلدان (برقة) ١/ ٣٦٢ و(أنطابلس) ١/ ٣١٥ والروض المعطار ٣٢ و ٩١.

(٧) فى الأصل (فاحتلتها).

(٨) فى الأصل (قبوسة).

(٩) فى الأصل (سكن).

المدائن رومية حتى افتتحها المسلمون.

والبربر قبائل كثيرة وشعوب جَمّة[١]: هوارة، وزناتة، وضريسة، ونفَزة، وكُتَامة، ولُواتَة، وغمَّارة، ومَصْمُودة، ومزناتة، وصَدينة ويَصْدَران، وزَرْيجين، وصَنْهَاجة، ومجكسة، وواكلان، وغيرهم. وقد اختُلف فى نسبهم، فزعم بعضهم أنهم من ولد كنعان بن حام، وقيل إنهم أَوْزَاعٌ من اليمن تفرَّقوا عندما كان من سيل العَرم ما كان، وقيل إن أبرهة ذا المنار تَخَلَّفهم[٢] بالمغرب، ومنم من رأى أنهم من قيس عيلان، والله أعلم بحقيقة ذلك، قال الكِنْدىُّ: إنهم من ولد بَرْبَر بن قيس عيلان، وقال قوم إنهم من ولد نيْصَر، وقال آخرون: من ولد نَبِيط بن حام، فلما نزل إخواتهم بمصر خرج بربر بن نبيط إلى ناحية المغرب فسكنوها وراء عمل مصر، وهُوَ ما وراء برقة إلى البحر الأخضر إلى منقطع الرمل مُتَّصلين بالسودان وقال آخرون إنهم من ولد لخم وجذام[٣].

وكانت منازلهم فلسطين فأخرجهم منها بعض ملوك فارس، فلما وصلوا إلى مصر منعتهم ملوك مصر من النزول، فعبروا النيل وانتشروا فى البلاد.

* * *

(١) قال ابن خلدون فى المقدمة ٦/ ١٠٩ والبربر قبائل كثيرة، وشعوب جمَّة: وهى هَوَّارة وزناتة وضريسة وقَفيلة ورفجومة ونُفزَة وكُتامة ولُوَاتة وغَمَّارة ومَضمُورة وصَدينة ويَزْدران وورنجين وصنهاجة ومَجَبكسة وواركلان وغيرهم».

(٢) فى الأصل (خَلَّفهم).

(٣) أجمل ابن خلدون الآراء فى خروج البربر فقال: «قال ابن الكلبى: اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام، فقيل داود بالوَحْيِ، قيل: يا داود أَخْرِج البربر من الشام فإنهم جذام الأرض. وقيل: يوشع بن نون. وقيل: أفريقُش. وقيل بعض الملوك التبايعة.

وعند البكرى: أنَّ بنى إسرائيل أخرجوهم عند قَتْل جالوت.

وللمسعودى والبكرى: أنهم فَرُّوا بعد موت جالوت إلى المغرب، وأرادوا مصر، فأجلتهم القبط، فسكنوا برقة وإفريقية والمغرب». المقدمة ٦/ ١٠٩.

ذكر الواحات

وبلاد الواحات بين مصر، والاسكندرية، وصعيد مصر، وأرض الحبشة من النوبة وغيرهم، وصاحبها سنة ثلاثمائة واثنتين وثلاثين، رجل اسمه عبد الملك بن مروان، رجل من لواتة، مرواني المذهب[١]، ويركب في ألواف من الناس خيلاً ونُجبًا، وبينه وبين عمائر الحبش ستة أيام[٢]، وهو بلد قائم بنفسه، غير متصل بغيره، ولا مفتقر إلى سواه.

وهذه الأرض أرض خصبة راخية، ولها عيون حامضة الطعم، تستعمل كما يستعمل الخل، وعيون مختلفة الطعوم: المر، والقابض، والحريف والملح ولكل نوع منها منفعةٌ وخاصية[٣].

* * *

ذكر الصقالب

الصقالبة من ولد مازان[٤] بن يافث، ومساكنهم من الشمال إلى أن يتصل بالمغرب. قال إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي: «بلاد الصقالبة متصلة من البحر الشامي إلى البحر المحيط إلى الشمال، فتغلب قبائل الجوف على بعضها وسكنوا حتى الآن فيما بينهم».

وهم أجناس كثيرة مختلفة، وقد كانوا فيما سلف يجمعهم ملك سمتة ماخا، وكان من جنس منهم يدعى وَلَيَنْبَابَا[٥]، وهذا الجنسُ مُعَظَّمٌ فيهم. ثم اختلفت كلمتهم فزال نظامهم، وتخرَّبت أجناسهم، وملك كل جنس منهم ملك.

---

(١) الروض المعطار ٦٠٠.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣٤٧.

(٣) انظر صبح الأعشى ٣/ ٣٩٠ والروض المعطار ٦٠٠ والاستبصار ١٤٧.

(٤) في مروج الذهب ١/ ٣٥١ «ماربن يافث».

(٥) في الأصل «ولينانا».

وملوكهم الآن أربعة: ملك البلغارين[١]، وبويصلا، وملك براغة، وبويمة، وكراكوا[٢]، ومَشَقة[٣]، ملوك الجَوف وناقور فى آخر المغرب، وجاور بلد ناقور فى المغرب سكنُون وبعض مَرْمَان.

وبلده رخيص الأسعار، كثيرة الخيل، ومنها يخرج إلى غيرها.

ولهم سلاح شاك من الدروع، والبيضات، والسيوف، فمن برع إلى ما يليه عشرة أميال، إلى الجسر خمسون ميلاً، وهو جسر خشب فى طوله ميل. ومن الجسر إلى حصن ناقون نحو أربعين ميلاً، ويسمى عزّان[٤]، وترجمته الحصن الكبير. وفى قَبْل عزّان حصن مبنى فى بحيرة عذبة الماء، وكذلك تبنى الصقالبة أكثر حصونهم، تعمد إلى المروج الكثيرة المياة والآجام، فتخط فيه خطًا مستديرًا أو مربعًا قدر ما تريد من شكل المحصن، وسعة ساحته وتحفر حواليه، وتردم بالتراب المحفور، وقد أوثق بالألواح والخشب على مثال الطوابى حتى يبلغ السور إلى الغاية التى تريد، ويذرع باب من أى شق شاء ويختلف إليه على جسر منخشب.

ومن حصن عزّان إلى البحر المحيط أحد عشر ميلاً.

ولا تنفذ العساكر فى بلاد ناقور إلاّ بالجهد الشديد، لأن بلده كله متمرج وآجام، وحَمْأة، فأما بلد بَويصلا[٥] فطوله من مدينة فراغة إلى مدينة كراكوا مسيرة ثلاث جمعات، وهو مجاوز فى الطول لبلاد الأتراك، ومدينة فراغة مبنية على نهر هناك بالحجر والجير، وهى أكثر البلاد متاجر، تأتيها من مدينة كراكوا الروس، والصقالبة بالمتاجر، ويأتيهم من بلاد الأتراك المسلمون واليهود، والترك بالمتاجر أيضا، والمناقل المرقطيه فيحملون من عندهم الدقيق والقزدير وضروب الآبار.

وبلادهم أطيب بلاد أهل الجوف، وأزكاها معيشة، يباع القمح عندهم بقنشار ما يكفى به المرء أشهرًا، ويباع الشعير بقنشار علف أربعين ليلة لدابة، ويباع عندهم

(١) مروج الذهب ١/ ٣٥١.

(٢) الروض المعطار ٨٦.

(٣) الروض المعطار ٥٦٠.

(٤) فى الأعلاق النفيسة ١٤ «غراد».

(٥) الروض المعطار ٨٦.

عشر دجاجات بقنشار.

وبمدينة براغة[١] تصنع السروج، واللجم، والدرق المستعملة، والمتخذة فى بلادهم ويصنع فى بلاد بُوَيْمه مُنَيْدلات خِفَافٌ مُهَلْهَلَة النسج على هيئة الشبكة لا تصلح لشيء، ثمنها عندهم فى كل زمان عشرة مناديل بقنشار، بها يتبايعون ويتعاملون، يملكون منها الأوعية، وهى عندهم مال، وأثمن الأشياء، ويبتاع بها الحنطة، والدقيق، والخلّ، والذهب والفضة، وجميع الأشياء.

ومن العجيب أن أهل بُوَيْمةَ سُمر، سُود الشعور، والشُّقْرَةُ فيهم قليلةٌ.

والطريق من مازَى يتفرع إلى بلاد بُوَيْصلا، ومنه إلى حصن قَلَيوى عشرة أميال ومنه إلى نوب غراد[٢]، ميلان، وهو حصن مبنى بالحجارة، والصَّاروج، وهو على نهر مداوة أيضًا، وفيه يقع نهر بودة، ومن حصن نوب غراد إلى ملاحة اليهود وهى على نهر مداوة أيضًا ثلاثين ميلاً، ومنها إلى حصن نورجين، وهى على مداوة ومنه إلى طرف الشعراء خمسة وعشرون ميلاً، ومن أولها إلى آخرها أربعون ميلاً فى جبال وأوعار، ومنها جسر من خشب على حمأة نحو الميلين من آخر الشعراء يدخل مدينة براغة.

فأما بلد مَشْقُه[٣] فهو أوسع بلادهم، وهو كثير الطعام واللحم العسل والحرث، وجبايته المثاقيل المرقطية، وهى أرزاق رجاله فى كل شهر، كل واحد عدد معروف منها، وله ثلاثة آلاف ذراع، وهم أجناد تعدل المائة منهم عشر مائة من غيرهم.

---

(١) براغة: مدينة مجاورة لبلاد الأتراك، مبنية على نهرٍ هناك بالحجر والجيار، وهى تصغُر عن المدن، وتكبر عن القُرى، وبها سوق تجمع المرافق السفرية والحضرية، فى أعلاها قلعة كبيرة حصينة، وبها عينٌ ماء معينة، يخترق ماؤها بسيط بطحائها، وهى أكثر البلاد متاجرة، تأتيها من مدينة كراكو الروسية والصقالبة بالمتاجر، ويأتيهم من بلاد الترك والإسلام واليهود بالمتاجر أيضًا، والمثاقيل البرقطية، يحملون من عندهم الدقيق والقصدير وضروب الأوبار، وهى أطيب بلاد أهل الجوف وأزكاها معيشةً يباعُ عندهم من القمح بقنشار ما يكتفى به المرء شهورًا، ويبلغ عندهم بقنشار من الشعير علف أربعين ليلة لدابته، ويباع عندهم عشر دجاجات بقنشار. الروض المعطار ٨٦.

(٢) انظر: ابن يعقوب ٢٥.

(٣) مَشْقُه: مدينة للصقالبة من أعمال براغة، وتلى بلاد الأتراك. الروض المعطار: ٥٦٠.

ويعطى الرجال[١] الملابس، والخيل، والسلاح، وجميع ما يحتاجون إليه وإذا ولد لأحدهم ولد أمر بإجراء الرزق عليه ساعة يولد ذكرًا له كان أو أنثى فإذا بلغ إن كان ذكرًا زوَّجه، ودفع عنه النحْلة والد الجارية. وإن كانت انثى أنكحها ودفع النحْلة إلى أبيها.

والنحلة عند الصقالبة عظيمة، ومذهبهم فيها كمذهب البربر.

وإذا ولد للمرء بنتان أو ثلاث، فهن سبب غنائه[٢]، وإن ولد له ولدان فهو سبب فقره.

ويجاور مَشْقُه فى الشرق الرّوس، وفى الجوف بَروس، وسُكنى بَرُوس على البحر المحيط. ولهم لسان على حِدَة، لا يعرفون ألسنة المجاورين لهم، وهم مشهورون فى شجاعتهم، إذا أتاهم جيش لا يتوارَى أحدهم حتى يلحقَ به صاحبه، إنما يخرج لا يَلْوى على أحد، فيضرب بسيفه حتى يموت.

ويعبر عليهم الروس فى المراكب من المغرب.

وفى الغرب من الروس مدينة النساء[٣] ولها بسائط ومماليك ومن يحملن من عبيدهم، فإذا وضعت المرأة ذكرًا قَتَلَتْهُ، ويَرْكَبْنَ الخيل، ويُبَاشِرْنَ الحرب ولَهُنَّ بأسٌ وبسالَةٌ.

قال إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى: «وخبر هذه المدينة حَقٌّ، أخبرنى بذلك هَوَّتَه ملك الروم»[٤].

وفى الغرب من هذه المدينة قبيلة من الصقالبة يقال لها أُمَّة، أو بَابَهْ، وهى فى

(١) فى الروض المعطار ٥٦٠ «الرَّجَّالة».

(٢) الروض المعطار ٥٦٠.

(٣) مدينة النساء: مدينة كبيرة واسعة الرقعة فى جزيرة بحر المغرب.

قال الطرطوشى: أهلها نساءٌ، لا حكم للرجال عليهنَّ، يركبن الخيول، ويباشرن الحرب بأنفسهنَّ ولهنَّ بأسٌ شديدٌ عند اللقاء، ولهن مماليك، يختلف كل مملوك الليل لى سيِّدته، ويكون معها طوال الليل، ، ويقوم بالسَّحَر، ويخرج مستترًا عند انبلاج الفجر، فإذا وضعت إحداهُنَّ ذكرًا قتلته فى الحال وإذا وضعت أنثى تركتها. وقال الطرطوشى: مدينة النساء يقينٌ لاشَكَّ فيها. آثار البلاد ٦٠٧.

(٤) وذكر ذلك القزوينى فى آثار البلاد ٦٠٧.

غياضٍ من بلاد مَشْقُه، مما يلى المغرب، وبعض الجوف، ولهم مدينة عظيمة على البحر المحيط لها اثنا عشر بابًا، ولها مرسى، وهم يستعملون له شطورًا حرلا وهم يحاربون مَشْقُه، وشوكتهم شديدة، وليس لهم مَلِكٌ ولا ينقادون لأحد، وإنما الحكام فيهم أشياخهم، فأما ملك البلقارين فقال إبراهيم بن يعقوب: «لم أدخل بلده، ولكنى رأيت رَسُلَه بمدينه ماذى بَرْغ حين وفدوا على هَوَّته الملك يلبسون ملابس ضيقة، ويتمنْطقون بأحزمة طوال قد ركب عليها ترامس الذهب والفضّة. وملكهم عظيمُ القَدْرِ يضع على رأسه التاج، وله الكتاب والأزِمّة، وأصحاب الخطط، وأمْرٌ ونَهْىٌ على نظم وترتيب كالمعهود للملوك والأكابر».

ولهم معرفةٌ بالألسن، ويترجمون الإنجيل باللّسان الصقلى، وهم نصارى، قال إبراهيم بن يعقوب: «وإنَّما تَنَصَّر مَلَك بلقارين لما أغار على بلاد الروم حين حاصر مدينة القسطنطينية، حتى دَارَاهُ مَلكُها، وأرضاه بجزيل العطايا وكان ممَّا استرضاه به أن زوَّجه ابنته، فحَمَلَتْهُ على التَنَصُّرِ» قال المؤلف[١]: «فيدلُّ قولَ إبراهيم أَنَّ تنَصُّرَه كان بعد ثلاثمائة من الهجرة» وقال غيره: «إنما تنصَّر منهم من تنصَّر على عهد بَسِيلُوس الملك، وبقوا على نصرانيتهم إلى اليوم» قال إبراهيم: «والقسطنطينية من بلقارين فى القبلة وتجاورهم أيضا فى الشرق والجوف البجاناكية[٢]، وفى الغرب منها بحيرة بناجية، وهو خليج يخرج من البحر الشامى بين الأرض الكبيرة والقسطنطينية، فيحيط بالأرض الكبيرة سواحل رومة، وسواحل لنقبرديّه، وينقطع بالفرلانه، فتصير هذه المواضع كلها جزيرة، واحدة قد أحاط بها البحر الشامى من القبلة، وذراع بناجية من جهة المشرق، والجوف،وبقى منها فتح من جهه المغرب.

ويسكن حَافَّتَيْ هذا الخليج من مخرجه فى المشرق من البحر الشامى الصقالبة، ففى الشرق منهم البلقارين، وفى الغرب غيرهم من الصقالبة، وهؤلاء الذين يسكنون فى الغرب منه أشدّ بأسًا.

وأهل تلك الناحية يستأمنونهم ويتَّقون شدَّتهم، وبلادهم جبال شامخة وَعِرَة المسالك.

---

(١) هو أبو عبيد البكرى.

(٢) الأعلاق النفيسة ١٤٣.

وبالجملة فإنَّ الصقالب ذَوُوا صَوْلَةٍ وبَطْشٍ، ولولا اختلافهم بكثرة تفرُّعِ أعراقهم وتفرق أفخاذهم، ما قامت لهم فِي الشدَّة أمة من الأمم.

وسكنوا من البلدان أجزلها رِيعًا، وأكثرها أقواتًا[١]، وهم يجتهدون فى الفلاحة وطلب الأرزاق، ويفوقون فى ذلك جميع أمم الجوف، وتختلف بتجارتهم فى البر والبحر إلى الروس والقسطنطينية.

وجُلُّ قبائل الجوف يتكلمون بالصقلبيّة، لاختلاطهم بهم، منهم قبائل الطرشكين والأنقلّيين، والبُجَاناكية، والروس والخزر.

وليس يكون الجوع فى بلدان الجوف كلها من القحط وتوالى الجدب، إنما يكون من كثرة الغيث وتوالى الجُمَّةِ، ولا يكون المَحْلُ عندهم مُهلكًا، لأنه لا يتّقيه من أصابه، لرطوبة بلادهم، وشدة بردها[٢]، وهم يزرَعُون فى فصلين من العام فى القيظ والربيع، ويرفعون رَفْعَتَيْن، وأكثر زرعهم الدُّخن، والبرد فيهم سليم وإن تفاقم، والحر مهلك.

وهم لا يقدرون على السفر إلى بلاد لنقيردية لحرِّها، لأن الحَّر يطغى عندهم فيهلكون، والسلامة عندهم إنما تكون فيما يكون فيه المزاج جامدًا، فإذا انذابَ وفارَ ذوى الجسدُ، جاءَهُ الموتُ من قِبَلِ ذلك، وتَعُمُّهم عِلَّتان لا يكاد أحدهم يسلم من أحدهما، وهما ريحان: الحُمْرَةُ والنَّواصِير.

وهم يجتنبون أكل الفراريج، فإنها تصرَعُهم بزعمهم، وتُقَوِّى عليهم ريح الحُمْرة، ويأكلون لحوم البقر، والإِوَز فيلائمهم. وهم يلبسون الثياب الواسعة إلا أنَّ أَرْدَانَ أكمامهم ضيّقة.

ويحجُب ملوكُهم نساءهم، ولهن غيرة شديدة عليهم، ويكون للرجل منهم

(١) راجع: آثار البلاد ٦١٤.

(٢) قال ابن رَسْته: «وفى بلادهم يستحكم البردُ ويشتد حتى يحفر الرجل منهم مثل السَّرَب تحت الأرض، ثم يجعل له سقفًا من خشبٍ مثل الكنيسة ثم يلقى عليه التراب، ويدخله الرجلُ بعياله، ويجيء بحطبٍ، وحجر قليل ثم يضرب فيه النار حتى يحمى ويحمَرَّ، فإذا صار إلى غايته، رشَّى عليه الماء حتى ينشر فى ذلك البخار، فيدفأ البيت، فيلقون ثيابهم، ولا يزالون فى ذلك البيت إلى أيام الربيع». الأعلاق النفيسة ١٤٤.

عشرون زوجة فصاعداً[١].

وأكثر أشجار شعابهم التفاح، والإجَّاص، والفَرْسَك، وفيها طائر غريب يعلوه خضرة، يَحْكى كُلَّ ما يسمعه من أصوات النَّاس والدواب، وقد يوجَدُ فيصيدونه فيسمى بالصَّقلبية شَبك، وفيها دجاجة بريدية تسمى أيضًا بالصقلبية تَتْرا، وهى طيّبة اللحم وتسمع أصواتها من أعالى الشجر على فرسخ، وأكثرها صنفان، سودٌ ومُرَشَّاة أجمل من الطواويس ولهم ضروب من المزاهر والمزامير، ولهم مزمارٌ طوله أكثر من ذراعين، ومزهر عليه من الأوتار ثمانية أوتار، وباطِنُه مسطّح لا مُقَبَّب[٢] وأشربتهم، وأنبذَتُهم العسل.

قال (س)[٣]: والصقالب أجناس كثيرة، فمن أجناسهم أصْطُرَانه، ودُولابَه ونامْجين، وهذا الجنس أشجعهم وأفرسهم، وجنس يقال له سَرْبين، وهو عندهم مهيب، وجنس يقال له مُزَاوة وخَيْرَواتين، وصاصين، وخشيايين، ومن هذه الأجناس ما هو ينقاد إلى دين النصرانية، على مذهب اليعقوبية منهم ومنهم من لا كتابَ له ولا ينقاد إلى شريعة، وهم جاهلية. وجنس الملك من هؤلاء، والجنس الذى ذكرنا أنه يدعى سربين يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات رئيسهم، ويحرقون دوابّهم، ولهم أفعال مثل أفعال الهند،وهم يتصلون بالشرق، ويبتعدون من الغرب، وهم يطربون ويفرحون عند حرق الميت، ويزعمون أن سرورهم وأطرابهم لرحمة ربّه إيَّاه. ونساء الميت يقطعن أيديهن ووجوههن بالسكاكين، وإذا زعمت واحدة منهن أنها مُحِبَّةٌ له، عَلَّقت حبلاً وارتقت إليه على كرسى، فتشتدُّ به فى عنقها، ثم يُجْذَبُ الكرسى من تحتها فتبقى معلقة تضطرب حتى تموت، ثم تحرق وتُلْحَق بزوجها[٤].

ونساؤهم إذا نكحن لم يَفْخَرْن، إلا أن البكر إذا أحبت رجلاً صارت إليه،

(١) حكى القزوينى فى آثار البلاد ٥٥٦ «أنَّ بناتهم الأبكار يخرجن مكشوفات الرءوس، ويراهُنَّ كل أحد، فمن رَغِبَ فى واحدة منهنَّ ألقى على رأسها خماراً، فصارت زوجةً له، فلا يمنعه عنها أحدٌ، فيُزَوَّجُ عشرين أو أكثر، ولهذا عددهم كثير لا يُحْصَى».

(٢) الأعلاق النفيسة ١٤٤.

(٣) مروج الذهب ١/ ٣٥٢.

(٤) الأعلاق النفيسة ١٤٣-١٤٤.

وأقامت عنده شهوتها، فإذا تزوجها الزوج فوجدها عذراء قال لها: «لو كان فيك خيرًا لرغب فيك الرجال، ولاخترتِ لنفسك من يأخذ عُذْرَتك» فيرسلها ويبرأ منها.

وبلاد الصقالبة أشد بردًا، وأقوى ما يكون ذلك عندهم إذا أقمرت الليالى وأَصْحَتِ الأيام، فحينئذ يشتدّ البرد، ويقوى الجهر، فتتحجر الأرض، وتحسن الأشربة كلها، وتقرمدت البئر والبيض حتى تأتى كالحجارة وإذا استنثر الناس على لحاهم صفائح الجمر يكون كالزجاج، فيكسره حتى يُصطلى أو يدخل كُنًا. وإذا كان الليل مظلمًا، والنهار مغيِّمًا، فحينئذ ينجلى الضريب، ويَفْتُر البرد، وفى هذا الوقت تنكسر السفن ويهلك من فيها، لأنه يواجهها من جليد أنهار هذه البلاد قطع كالجبال الرواسى، وربما ظفر من تلك القطعة الشاب والجَلِد من الرجال فيسلم عليها.

وليس لهم حمّامات، وإنما يتخذون بيوتًا من خشب، يُسَدَّ خَصَاصه بشىء يتكون على أشجارهم يشبه الطُّحْلُب، يسمونه عُجّ، وهو مَقَامُ الزفت لسفنهم ويبنون كَانُونًا من حجارة فى إحدى زواياه، ويفتحون فى أعلاه رَوْزَنَة[1] تلقَاءه لخروج دَخَّانه، فإذا سخن سَدُّوا تلك الرَّوْزَنة، وأغلقوا باب البيت، وفيه غاصب الماء وصبُّوا من ذلك الماء على الكانون المُحتَمى، وترتفع الخزْتَةُ، ويكون بيد كل واحد منهم ضِغْثٌ من حشيش يحرِّك به الهواء ويجذبه إلى نفسه فتنفخ مسامهم، ويخرج فضولُ أجسامهم فتجرى منهم السُّمول[2]، ولا يكون على أحدهم أثرُ جَرَبٍ ولا قرحا، وهم يسمون هذا البيت الأطباء.

وملوكهم يسافرون بالعَجَل العظام الجارية العالية على أربعة أفلاك وقوائم فى زواياها أربعة أعمدة وثيقة، وعلق منها هودج بسلاسل حصينة وكُسِى بالدِّيباج، فلا يتقلقل الجالس فيه تَقَلْقُل العجلة، يعدونه للمرضى والجرحى.

والصقالبة تحارب الروم، والإفرنج والنوكبرد، وغيرهم من الأمم، والحرب بينهم سِجَالٌ.

---

(١) الرَّوْزَنَة: الكوة غير النافذة. المعجم الوسيط(رزن) ١/ ٣٤٣.

(٢) فى الأصل (السيول).

ذكر الإفرنجة

الإفرنجة من ولد يافث هم والجلالقة، والصقالبة، والنوكبرد، والأشبان والترك، والخزر، وبُرْجَان[١]، واللاَّن[٢]، ويأجوج ومأجوج.

والإفرنجة تدينُ النصرانية برأى الملكية منهم. ودار مملكتهم الآن بُوَيرة[٣] وهى مدينة عظيمة، ولهم من المدائن نحو من خمسين ومائة مدينة.

وقد كانت مملكتهم قبل ظهور الإسلام بإفريقية، وجزيرة صقلية، وجزيرة إقريطش[٤]، وهى للمسلمين الآن.

وأول ملوكهم فَلَوْذِية، وهو أَوَّلُ من تَنَصَّر وكان مجوسيًا، نصَّرته امرأته واسمها غَرْطَلَة، ومَلِكهم الآن سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة لُذْرِيق بن قارله[٥]، وهذان اسمان يتكرران فى ملوكهم.

* * *

ذكر الجلالقة[٦]

وهم حربٌ للإفرنج، إلا أنَّ الجلالقة أشدّ منهم بأسًا، وهم أشدّ على الأندلس من جميع الأمم.

ورأيهم رأىُ الملكية أيضًا، ومن ملوكهم ألفونس، ثم أردون[٧]، ثم رُدْمير الذى

(١) فى الأصل (فرحان) والتصويب عن الروض المعطار ٥٠.

(٢) الروض المعطار ٥٠.

(٣) مروج الذهب ١/ ٣٥٢.

(٤) جزيرة إقريطش: هى جزيرة فى البحر الشامى، وهى جزيرة عامرة كثيرة الخصب، وبها مدنٌ عامرة، ودورها خمسة عشر يومًا، وبينها وبين ساحل البحر يومٌ وليلة، وطولها مائة واثنان وسبعون ميلاً فى عرض خمسين ميلاً. الروض المعطار ٥١.

(٥) مروج الذهب ١/ ٣٥٥.

(٦) راجع: مروج الذهب ١/ ٣٥٥.

(٧) فى الأصل «أردوى» وهو تحريف.

كان زمن عبد الرحمن بن محمد[1]، ولما قتل عبد الرحمن وزيره أحمد بن إسحاق، وهو من ولد أخيه، لأمر استحق عليه بالشريعة القتل، عصى أخوه أمية ابن إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن، وكان صاحب شنترين، وصار فى حَيِّزردمير يُدْخِلُه على عَورَات المسلمين فخرج أمية متصيِّدًا، فغلب على المدينة بعض غلمانه ومنعه من الدخول وكاتب عبد الرحمن ولحق أمية برردمير واستوزره ورَفعه.

وغزا عبد الرحمن بعض سَمُّورة، دار مملكة الجلالقة، وسنذكرها مع الأمصار، إن شاء الله، وكان عبد الرحمن فى مائة ألف وأزيد، فكان التقاؤُه مع ردمير فى شوّال سنة تسع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذى كان فى هذا الشهر بثلاثة أيام، فكانت للمسلمين عليهم، ثم تابوا بعد أن حوصروا، فقتلوا من المسلمين نحو خمسين[2] ألفًا.

وقيل إن الذى منع ردمير من طلب من نجا من المسلمين أُمَيَّة، وحذَّرَه الكمين ورغَّبَهُ فى انتهاب ما فى العسكر من العُدَدِ، والأموال، والخزائن ولولا ذلك لأتى على المسلمين ثم إن أُمَيَّة استأمن عبد الرحمن أحسن قبول.

وقد كانت لعبد الرحمن بعد هذه النوبة وقائع كثيرة فى الجلالقة، قتل منهم فيها أضعاف المسلمين، وهى للمسلمين عليهم إلى وقت التاريخ، وتليهم أمة عظيمة يقال لها وشكش.

* * *

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضى بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل، أبو المُطرِّف المروانىّ الأموى، أوَّل مَنْ تلقَّب بالخلافة من رجال الدولة الأموية فى الأندلس.

ولد وتُوُفِّى بقرطبة (٢٧٧ـ٣٥٠هـ) وبُويع بعد وفاه جَدِّه سنة ٣٠٠هـ وبايعه الناس بالخلافة سنة ٣١٦هـ، وتلقَّب الناصر لدين الله.

حكم ٥٠ سنة وستة شهور. الأعلام ٣/ ٣٣٤.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣٥٦.

ذكر النوكبَرْد [١]

بلادهم متصلة بالمغرب، واسم ملوكهم فى سائر الأمصار «أداكيس»، ومدينتهم العظمى ودار مملكتهم «تشت»، ويخرقها نهر عظيم يقال له سانيط، وهو أحد أنهار العالم الموصوفة بالكِبَر والعجائب.

وكان من جاورهم من المسلمين من بلاد المسلمين وغيرهم غلبوهم على مدن كثيرة، مثل مدينة ثاره، ومدينة سيدنيه، وغيرها من مدنهم الكبار وسكنها المسلمون مدة من الزمان، ثم غلب النَّوْكُبَرْد عليها، فهى بأيديهم الآن. ولهم جزائر كثيرة، وهم ذوو بأس وشدة.

* * *

[ذكر الأكراد][٢]

فأما الكرد فقد تنازع الناس فيهم، فمنهم من رأى أنهم من ربيعة، ومنهم من رأى أنهم من مُضَر، من ولد كرد بن مُرّ بن صَعْصَعَة بن هوازن انفردوا فى قديم الزمان لوقائع كانت بينهم وبين غسان، وانضافوا إلى الجبال وجاوروا مَنْ هناك مِنَ الأعاجم، فحالفوا على لسانهم، وصارت لغتهم أعجمية[٣].

ومن الناس من أَلْحقَهُم بأبناء سليمان بن داود، حين سُلِبَ مُلْكُه، ووقع الشيطان المعروف بالجَسَد على إمائه المنافقات، لأنّ الله عز وجل قصَم منه المؤمنات، فلما ردَّ الله ـ عز وجل ـ على سليمان مُلْكَهُ أخرج الإماء الحوامل من الشيطان، فقال أَكْرِدْهُنَّ فى الجبال، فوضَعْنَ هناك وتناسلوا فذلك بَدْء الأكراد.

ومنهم من رأى أن الضَّحَّاك ذا الأفواه المُقَدَّم ذكره، كان يقتل كل يوم رجلين،

(١) النوكبرد: من ولد يافث بن نوح. مروج الذهب ١/ ٣٥٧.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) مروج الذهب ١/ ٣٥٤.

يطْعِمُ أدمغتَهما للحيَّتَيْن اللتين كانتا فى كتفيه على ما تقدم ذِكْرُه، فكان وزيره يذبَحُ رجلاً وكبشا كل يوم، ويخلط أدمغتهما، ويستحيى رجلاً ويطرد من يخلص منهما إلى الجبال، فهم الأكراد.

(ق) يزعمون أن الأكراد فضل طعام بيوراسف، لأنه كان يذبح كل يوم إنسانين، ويتخذ من لحومهما طعامه، وكان وزيره يدعى أرمائيل فكان يذبح واحدًا ويستحيى واحدًا يبعث به إلى جبال فارس، فتوالدوا هناك.

(س) ومن أجناس الأكراد[1]: الشوهجان، والماجردان، والمادنجان، والمزدنكان، والبارسان، والمستكان، وغيرهم، وهم بأرض الدينور وهَمْذَان، وبلاد أذربيجان، وبلاد الشام، وبأرض الموصل إلى جبل الجودى وهؤلاء نصارى على رَأى اليعْقُوبية، ومن الكرد خوارج على رأى البراءة من عثمان وعلىّ. رضى الله عنهم.

وموضع الكرد الذى فيه أولهم ما بين أرض يَهْوَه من أرض الشام، وما بين جزيرة العرب وقد ذكره أبو نصر الجيهانى وغيره.

***

ذكر ملوك اليمن

(س): تنازع الناس فى اليمن، بم سمى؟ فقيل لأنه عن يمين الكعبة، والشام لأنه عن شمالها، والحجاز لأنه حاجز بينهما والعراق بمصَبٍّ الأنهار إليه الدجلة والفرات وغيرهما، مأخوذ من عَرَاقى الدلو[2] وعَرَاقى القِرْبَة وقيل سمى اليمن لِيُمْنِه، والشام لِشُؤْمِه[3]، وقيل سمى شامّا، لشامات فى أرضه بيض وسود، وذلك فى التراب والبقاع، وهذا قول الكلبى.

وقال الشرقى: سُمِّى بسام بن نوح لأنه أول من نزله، فلما نزلته العرب تطايرت

(١) مروج الذهب ١/ ٤٣٦.

(٢) فى الأصل «عرق» وهو تحريف.

(٣) وهذا رأى قطرب النحوى، نقله عنه المسعودى فى مروج الذهب ١/ ٣٨٧.

من أن تقول سام[١]، والسام هو الموت، فقال شام وقد اختلف الناس فى أنساب اليمن، وهم يثبتون لا يختلفون أنهم من قحطان بن غابر بن شالخ[٢] بن أرفخشد بن سام بن نوح. (س) شالخ بن قيلان بن أرفخشد[٣] بن سام بن نوح، على ما تقدّم ذكره[٤].

قال (س) وهذا ينقله الباقى عن الماضى، وقد زعم الهيثم أن قحطان هو جدهم وتأول قول النبى ﷺ للأنصار «ارمُوا يا بَنِى إسماعيل»[٥] أنه نسبهم إليه من جهة الأمهات وما نَالَهم من الولادات.

والكلبى وشرقى بن قطامى يذهبان إلى أنه قحطان بن الهميسع بن نابت، وهو نابت بن إسماعيل، وولد قحطان يأبى هذا.

(س) وأول من ملك من ملوك اليمن سبأ بن يشجب[٦]، واسمه عبد شمس وسمى سبأ لسبيه سَبْيًا. وسئل رسول الله ﷺ عن سبأ هذا رجل هو أو امرأة، أو مكان؟ فقال: رَجُلٌ ولَدَ عشرة[٧] فشاءم أربعة لخم، وجذام، وغسان، وعاملة، وتيامَنَ ستةٌ: حِمْيَر، والأزد، ومَذْحج وكِنْدَة، والأشعريون، وأنْمَار، وهم بجيلة وخثعم» فملك سبأ أربعمائة وثمانين سنة، ثم ملك ولده حِمْيَر، وكان أشجع الناس وأجملهم، وهو أوّل من وضع التاج من ملوك اليمن، وملكَ خمسين سنة، ثم ملك بعده أخوه كَهْلاَن بن سبأ، ثم عاد المُلْكُ إلى وَلَدِ حِمْيَر فلم يزلْ فيهم، فملَك بعد كَهْلاَن الحارث الرائش بن مالك بن أفريقش بن صيفى بن يشجب[٨]، ثم توالت مملكتهم على ما ذكرنا إلى أن انتهت إلى ذى نواس[٩]

(١) فى التيجان ٣٥ «سام»: تفسيره بالعربية «سما».

(٢) معنى شالخ بالعربى ذو كيل. التيجان ٣٥.

(٣) تفسير أرفخشذ بالعربى: مصباح مُضىء، وأرفخشذ باللسان السريانى واسمه بالعبرانى: أرفخشاذ». التيجان ٣٥.

(٤) مروج الذهب ١/ ٣٨٩.

(٥) الحديث فى الفتح الكبير ١/ ١٧٥ ذكره عن البخارى وأحمد فى المسند.

(٦) التيجان ٥٨ ومروج الذهب ١/ ٣٩١.

(٧) التيجان ٥٨ وأخبار عبيد بن شرية ٤١٣.

(٨) مروج الذهب ١/ ٣٩٢.

(٩) التيجان ٣١٢.

فجازت إليه الحبشه بساحل زبِيد من أرض الغمر.

وصاحبهم أرْيَاط عظيم من عظمائهم، وكان فى عهد ملك الحبشة، إليه: إذا دَخَلْتَ اليمن فاقْتل ثُلُث رِجَالها، وخَرِّب ثُلُثَ بلدها وابْعَثْ بثُلث نسائها»[١].

فلما تلاحن الحبشة قام أرياط[٢] فى جنده خطيبا، فقال: «يا معشر الحبشة قد علمتم أنكم لترجعوا إلى بلادكم أبداً، هذا البحر بين أيديكم إن دخلتموه غرقتم وإن سلكتم البر هلكتم، وليس لكم إلاّ الصبر حتى تموتوا أو تظفروا بعدوِّكم»[٣] فجمع ذو نواس جمعًا كثيراً ثم سار إليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الدائرة للحبشة، فظفر أرياط فقتل أصحاب ذى نواس وانهزموا فى كل وجه، فلما خشى ذو نواس أن يؤسر ركض فرسه فى البحر، فكان آخر العهد به.

ودخل أرياط اليمن فقتل ثلث رجالها، وبعث ثلث السبى إلى ملك الحبشة وخرّب ثلثها، وهدم حصونها وكانت تلك الحصون بنتها الشياطين فى عهد بلقيس[٤] واسمها يلمقه[٥]. وكان مما خُرِّب منها: بَيْنُون[٦]، وغمدان[٧]،

---

(١) الأغانى ١٧/ ٣٠٤.

(٢) التيجان ٣١٣.

(٣) الأغانى ١٧/ ٣٠٥.

(٤) هى بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل، من بنى يغفر بن سكسك، من حمير: ملكة سبأ، يمانية من أهل مأرب، أُشير إليها فى القرآن، ولم يُسَمِّها.
وُلّيت بعد أبيها فى مأرب، وطمع بها ذو الأذعار (عمرو بن أبرهة) صاحب غمدان، فزحف إليها، فانهزمت، واستسلمت، لكنها أصابت منه غرة فى سُكْرٍ فقتلته، ووليت أمر اليمن كُلّه، وظهر سليمان بن داود النَّبى الحكيم بتدمر، ودخل مدينة سبأ، فاستقبلته بلقيس، وتزوَّجها، وأقامت معه سبع سنين، وقصة عرشها قصَّها القرآن، وتوفّيت، فدفنها بتَدْمُر، وانكشف تابوتها فى عهد الوليد بن عبد الملك،ورفع غطاء التابوت، فإذا هى غَضَّة لم يتغيَّر جسْمُها، فأمر الوليد بتَرْك التابوت فى مكانه، وأنْ يُبْنى عليه بالصخر. الأعلام ١/ ٧٤ والتيجان ١٦١-١٧٣ وتاريخ الخميس ١/ ٢٤٩.

(٥) فى الأغانى ١٧/ ٣٠٥ «بَلْقمة»، وفى الأصل «بلغة» وهو تحريف.

(٦) بَيْنون: موضعٌ باليمن فى شرقى بلاد عَنْس، مقابلة لكُراع حَرَّة كَوْمان، وهى من أعاجيب اليمن، سُمِّيت ببينون بن مِيناف بن شُرَحبيل بن ينكف بن عبد شمس معجم ما استعجم ١/ ٢٧٠ وفى الإكليل ٨/ ١٨٣ «أنه اسم حِصْنٍ عظيم كان باليمن قرب صنعاء، يقالُ إنه من بناء سليمان، والصحيح أنه من بناء التبابعة، وله ذِكرٌ فى أخبار حمير وأشعارهم».

(٧) غمدان: قصبته صنعاء، قال أبو الصلت يمدح ابن ذى يزن: =

وسلحين[١]، وحصون لم يُرَ مثلها.

فقال الحميرى أبياتًا يذكر ما دخل على حِمْيَر من الذُلِّ: [من البسيط]

لا تبكين أسفًا فى أثر من ماتا بدمعها لن تَرُدَّ العينُ ما فَاتَا

وبَعْدَ بَيْنُونَ يبنى الناسُ أبياتا[٢] أبعد سَلْحِين لا عَيْنٌ ولا أَثَرٌ

وكان على الحبشة أرياط بن أصخم، فبقى والى اليمن عشرين سنة، إلى أن وثب عليه أبرهة الأشرم، أبو يكسوم، وهو من الحبشة، وكان له كالوزير.

قال أبو الفرج: [«فلما ظفر أرياط، أخذ الأموال وأظهر العطايا فى قومه، أهل الشرق والغَنَاء، فغضب له الحبشة من ترك أهل الفقر، وأذَلّهم وأجَاعَهم، وأتعبهم فى العمل، وكلفهم ما لا يطيقون، وشكى بعضهم إلى بعض، قال لهم عند ذلك أبرهة: «لو أن رجلاً غضب لكم لأسلمتموه حتى يذبحَ كما تذبحُ الشاة؟ قال: لا والمسيح، ما كُنَّا لنسلّمه أبدًا». فواثقوه بالإنجيل لا يسلموه حتى يموتوا عن آخرهم[٣]. فنادى مناديه فيهم فخرجوا معه بالسلاح التى كانوا يعلمون بها ويهدمون البُدْنَ من المعاول والكرازين[٤] والمَسَاحى ثم صفوا صفًا بالمعاول، وصفا آخر بالمساحى بإزائه. وأخبر أرياط بما صنع أبرهة، فركب فى الملوك ومن تبعه من أشياعهم، فلبسوا السلاح، وجاءوا بالأَفْيِلة حتى إذا دنا بعضهم من بعض برز أبرهة، فنادى بأعلى صوته: «يا معشر الحبشة، الله ربنا، والإنجيل كتابُنا، وعيسى نَبِيُّنا والنّجاشى مَلِكُنا، علام يقتلُ بعضُنَا بعضا؟ هذا رجلٌ وأنا رَجُلٌ، فخلُّوا بيننَا وبَيْنَه، فإن قتلنى كان الملك وإن قتلته عملت فيكم بالإنصاف ما بَقِيتُ»[٥].

= فاشربْ هنيئًا عليك التاج مرتفقًا فى رأس غمدان دارًا منك محلالا

معجم ما استعجم ٣/ ٢٥٦ـ٢٥٧ والإكليل ٨/ ١٤٧.

(١) سَلْحِين: على وزن فَعْلِين. موضعٌ باليمن، وهو قصر سبأ بمأرب. معجم ما استعجم ٣/ ٥٦.

(٢) البيتان لذى جدن الحميرى فى تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٧ والأغانى ١٧/ ٣٠٦ وسيرة ابن هشام ١/ ٣٢.

(٣) الأغانى ١٧/ ٣٠٦.

(٤) الكرازين: جمع كرزن، وهى الفأس الكبيرة.

(٥) عبارة الأغانى ١٧/ ٣٠٧ «فإنْ قتلنى عادَ الملك إلى ما كان عليه من أثرة الأغنياء وهلاك الفقراء، وإنْ قتلته سَلِمتُم وعملت فيكم بالإنصاف بينكم ما بقيتُ».

فقال الملوك: «قد أنصفكَ يا أَرْيَاط»، وكان أرياط قد عُرِف بالشجاعة والنظر وكان جميلاً، وكان أبرهةُ قصيرًا دَميمًا، منكر الفؤاد، فاستحيا أرياط من الملوك أن يَجْبُنَ فبرز بين الصفّين، ومشى كُلٌّ واحدٍ منهما إلى صاحبه، فحمل أرياط على أبرهة فضربه ضربه وقع منها حاجبيه، وعامّة أنفه، فعمد أبرهة إلى عمامته فشد بها وجهه وسكن الدَّم، وأخذ عودًا وجعله فى فيه، وقال: «أيها الملك أنا شاةٌ فاصنع ما بدا لك فقد أبصرتُ أمرى»، ففرح أرياط، فلما رأى أبرهة أرياط قد انكسر عنه وهو ينظرُ يمينا وشمالاً لأن تراه ملوك الحبشه، شدَّ عليه، وكان أبرهة قد أبطن فى فخذه خنجرًا كأنه خَافِية نَسْر[١]، فطعنه طعْنَةً من فرج الدرع أَثْبَته[٢] وخرَّ على قفاه، وقعد أبرهة على صدره فأجهز عليه، فسُمِّى أبرهة الأشرم[٣] من ذلك اليوم، من تلك الضربة التى شرمت وجهه، وملك اليمنَ أبرهةُ.

فلما بلغ ذلك النجاشى، حلَف بالمسيح أن يجزّ ناصيته، ويريق دمه، ويطأ تُرْبَتَهُ، يعنى أرض اليمن، فبلغ ذلك أبرهة، فجزَّ ناصيته وجعلها فى حُقّ، وجعل من دمه فى قارورة، وجعل من تراب اليمن فى تراب، وضم ذلك فى هدايا كثيرة وألطاف جّمة، وكتب إليه يعترف بالعبودية، ورغب إليه أن يبرّ قسمه بما بعث إليه، فيجز ناصيته بيده، ويريق دمه، ويطأ تربته، فصفح عنه النجاشى[٤] وكان ذلك فى زمان قباذ ملك الفرس.

وسار أبرهة إلى مكة لخراب الكعبة لأربعين سنة خلت من ملك أنو شروان وبعثت معه ثقيف بأبى رغال ليدلّه على أَسْهَلِ الطُّرُق، فقُتِل أبو رغال فى طريقه ذلك فى موضع يقال له المُغْمَس بين الطائف ومكة، فلم يزل قبره يرجم إلى يوم القيامة قال جرير: [من الوافر]

إِذَا مَاتَ الْفَرَزْدَقُ فَارجُمُوهُ كَما تَرْمُونَ قَبْرَ أَبِى رِغَـالِ[٥]

---

(١) الخَوافى: ريشات من الجناح إذا ضَمَّ الطائرُ جناحيه خَفِيت.

(٢) أى جعلَه لا يقدر على الحراك.

(٣) راجع: تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٩.

(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٩ ومروج الذهب ٣٩٤.

(٥) البيت لجرير فى ديوانه ٢/ ٥٤٧ ومروج الذهب ١/ ٣٩٥.

وقد قيل فى أبى رغال إنَّ ثقيفًا قتلَتْهُ قَتْلَةً شنيعة، ولذلك سمى قسيًا، وذلك أن صالحًا النبى ﷺ بعثَهُ مصدِّقًا، فأساء السيرة وخالف أمره، ولذلك يقول: [من الوافر]

نُفُوا عن أرضهم عدنان طُرًّا وكـانوا للقبـائل قَـاهِرِينَا
وَهُمْ قَتَلُوا الرَّئِيسَ أَبَا رغـالٍ بمكـةَ إِذْ يَسُـوق بهـا الوَضينَا[1]

وفى طريق العراق إلى مكة، بين الثعلبية[2] والهبير، قبرٌ ترجمه المارّة كما يرجم قبر أبى رغال، يعرف بقبر العَبَّادى[3] وله حديث طويل.

وكان قدوم أصحاب الفيل لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثلاثين للإسكندر، فأهلك الله أبرهة، فكان مُلْكُه إلى أن رجع من الحرم، وسقطت أنامله وتقطعت أوصاله ثلاثًا وعشرين سنة.

ثم ملك ابنه مَسْرُوق بن أبرهة، فزاد على الناس فى الأذى والمكروه.

قال أبو الفرج: «وأمُّه رَيْحَانة امرأة ذى يَزَن بن سيف بن ذى يزن»[4].

قال أبو الفرج[5]: «ولما طال البلاء على أهل اليمن مشوا إلى سيف بن ذى يزن الحِمْيَرى، فقالوا له: نجد خبرًا عند سَطِيح: أنَّ هذا البلاء يُفْرَجُ على يدى رجل من أهل بيت ذى يَزَن، وقد رجونا أن تُدْرِكَ بثأرنا، فأنعم لهم بالخروج، فخرج إلى قيْصَر ملك الروم وكلّمة أن ينصرهُ على الحبشة، فأبى وقال: هم على دِينى، وأنتم على دين يهود، فخرج من عنده مُؤْيسًا من نَصْرَته، وسار إلى كسرى فانتهى إلى النعمان بن المنذر بالحيرة، فدخل عليه، فأخبره بما لقى قومه من الحبشة، فقال له: أقم فإن لى من كسرى إذْنًا فى كلِّ سنة، وقد حان ذلك.

فخرج وأخرج معه سيفُ بن ذى يَزَن، فأدخله على كسرى، فشكا إليه الحبشة،

---

(١) البيتان لأمية بن أبى الصلت الثقفى فى ديوانه ٨٦ ومروج الذهب ٣٩٥، وفيه (بنخلة) مكان (بمكة).

(٢) فى الأصل (التغلبية) والتصحيح عن المسعودى ١/ ٣٩٥.

(٣) مروج الذهب ١/ ٣٩٥.

(٤) الأغانى ١٧/ ٣٠٨-٣٠٩.

(٥) الأغانى ١٧/ ٣٠٩ وتاريخ الطبرى ١/ ٤٤٥.

فقال: غلبونا(١) على بلادنا واستعبْدَنا السُّودَانُ، فقال له كسرى: بلادُك بعيدة ولا أُرْسِلُ معك جيشا فى غير منفعة، فأيّسُوه من النصر، وأمرَ له بعشرة آلاف وكساه كساء، فلما خرج بها من باب كسرى نشرها بين العبيد والخدام، فبلغ ذلك كسرى فأمر بصرفه إليه وقال: ما حملَك أنْ تصنعَ بجائزة الملك ما صنعت؟ فقال سيف: جبالُ أرضى ذهبٌ وفضّة، وإنما جئت إلى الملك ليمنعنى من الضَّيمِ ولم آتهِ ليعطنى الدراهمَ، ولو أردتُ المالَ كان ذلك عندى كثيرًا، فقالَ كسرى: أنظرُ فى أمرك. قال المسعودى: «فشاغلَ عنه»(٢) قال المؤلف «شُغِلَ عنه بحرب الرُّوم وغيرها إلى أَنْ هَلَكَ سَيْف».

فأتى معدى كرب بن سَيف يَسْتَنْجِزُ منه عِدَتَهُ لأبيه، هذا قول أبى الحسن المسعودى(٣)، والجمهور على خلافه من أنَّ سيفَ بن ذى يزن هو الذى أباد الحبشة وتملّك اليمن، فوجه معه كسرى وَهْرِز الدَّيْلمى، وكان راميًا شجاعًا، مع ما كان فى بلاده من أهل السجون.

وقال «إنْ مَلَكُوا فَلَنَا، وإن فتحوا فَلَنَا» فحملوا فى السفن فى دجلة ومعهم خيولهم وعُدَدِهم، حتى نزلوا أبُلَّة البصرة، ولا بصرةَ ولا كوفة إذ ذاك لأنها إسلامية فركبوا من هناك البحر إلى ساحل حضرموت، فنزلوا موضعًا يقال له مَنُوف، فأمر وَهرِز بتحريق السفن لِئَلاً يؤملون المفرّ، وفى ذلك يقول رجل من حضرموت: [رجز]

أصبح فى منشوب ألف من الجُنَنْ
من رَهْطَ ساسان ورهط مِهْرَسَنْ
لِيُخْرِجُوا السُّودَانَ من أرض اليَمَنْ
ولَّهم قَصْدُ السَّبِيل ذو يَزَنْ(٤)

(١) فى الأغانى ١٧/ ٣٠٩ «غُلِبْنا».
(٢) إلى هنا نَصُّ الأغانى ١٧/ ٣٠٩.
(٣) مروج الذهب ١/ ٣٩٦.
(٤) أبيات الرجز بلا نسبة فى الأغانى ١٧/ ٣١٠ ومروج الذهب ١/ ٣٩٦.

قال أبو الفرج[١]: وقال وهرز لسيف: ما عندك فقد جئنا بلادك؟ فقال: ما شئتَ من قوسٍ ورَجُلٍ عَرَبِيٍّ، ثم اجعل رِجْلِي مع رِجْلك حتى نظفرَ جميعًا أو نموتَ جميعًا، فقال: أنصفتَ.

وجعلَ سيف يستجيشُ اليمامةَ، ونمىَ خبرهم إلى مسروق بن أبرهة، فأتاهم بمائة ألف من الحبشة وأَوْباشِ اليمن، فتصافّ الناسُ ومسروق على فيلٍ عظيم، ثم نزل عنه إلى فرس استصغاراً لهم، ثم نزل عنه وركب حمارًا، فقال وَهْرِز: ذهب مُلْكه تنقَّل من كبير إلى صغير.

وكان بين عينيه ياقوتة حمراء مُعَلَّقَةٌ من تاجه تَتَّقِدُ كالنار، فرماه وَهْرِز ورمى القوم.

قال أبو الفرج: «وتَرَ وَهرِز قوسه، وكان لا يوترها أحدٌ غيره، ثم نزع منها أبدًا، فظل السهم يهوى حتى صَكَّ الياقوتة التى كانت معلّقة بين عينى مسروق فتغلغلت النُّشابَةُ فى رأسه حتى خرجت من قفاه»[٢].

قال أبو الحسن: «قال وهرز: قدْ رميتُه، فإن كان أصحابه يجتمعون إليه، ولا يتفرقون عنه فهو حيٌّ، وإن كان يجتمعون إليه ويتفرَّقون عنه فهو ميّت فقال: احملوا عليهم واصدقوهم القتال، ففعلوا فانكشفت الحبشة فقتل منهم نحو ثلاثين ألفًا، ورفع رأس مسروق ورأس خواصه على أطراف الرماح، وألبس وَهرزْ معدى كرب تاجًا بعثه معه أنوشروان، وكان أنو شروان قد شرط على معدى كرب تاجًا، فبعثه إليه مع شروط، منها «أن يتزوّج فيهم الفرسُ ولا يتزوّج اليمن فى الفرس».

قال أبو الفرج: فلما قُتِلَ مسروق أقبل وهرز يريد صنعاء، وكان التقاؤهم خارجها، وكان اسم صنعاء قبل الحبش أزَال[٣]، وكانت الحبشة لمَّا بنتها وأحكمتها قالت العرب صنْعَا، فَسُمِّيت صنعاء.

---

(١) الأغانى ١٧/ ٣١٠.

(٢) الأغانى ١٧/ ٣١٠.

(٣) أزال: اسم مدينة صنعاء، وأزَال: هو والد صنعاء بن أزال بن يقطن بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ. وكان أوَّل من بناها، ثم سُمِّيت باسم ابنه لأنه ملكها بعده، فغلب اسمُه عليها. معجم ما استعجم ١/١٩٩ـ٢٠٠.

فلما دنا وهرز من باب المدينة قال: لا تُدْخلوا رايتى منكوسة أبدًا، اهدموا الباب. ودخل برايته قائمة، فقال سيف: ذهب ملك حمير إلى آخر الدهر لا يرجع إليهم أبدًا، فكان مدة ملك الأحابش اثنين وسبعين سنة، وكان هذا الفتح لخمس وأربعين عامًا من ملك أنو شروان.

وفى نصر فارس اليمن على الحبشة يقول بعض أولاد فارس:

نَحْنُ خُضْنَا البِحَار حتى فككنا ... حِمْيَرًا من بليَّة السُّودَان
فَقَتَلْنَا مَسْروقًا إذْ تاهَ عُجْبًا ... إذْ تداعَتْ قَبَائلُ الحُبْشَان
وفَلَّقْنَا ياقوتةً بَيْنَ عَيْنَيْه ... بِنُشَابَةِ الفَتى السَّاسَانِى[1]

وأقبلت وفود العرب تهنىء معدى كرب وفيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، وأسدُ بن عبد العُزّى، وأبو الصلت الثقفى، فدخلوا عليه وهو فى أعلى قصره المعروف بغمدان بمدينه صنعاء، وعلى عينيه وشماله الملوك وأبناؤهم فتكلمت الخطباء وكان أولهم عبد المطلب، فأحسن، فقال معدى كرب: مَنِ المتكلمُ؟ فقيل: عبد المطلب بن هاشم، فقال: ابن أختنا؟ قال: نعم فأدناه، وقرّبه، وقال: مَرْحبًا وأَهْلاً، وناقة ورَحْلاً، ومُسْتَنَاخًا سَهْلاً، وملكًا رِبَحْلاً[2]، يعطى عطاء جزلاً[3]. ثم قال: «قد سمعت مقالتكم، وعرفت قرابتكم، وقبلت وسيلتكم، فلكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا طعنتم» ثم أنشده أبو الصلت، وقيل أبو زمعة جد أمية: [من البسيط]

لِيَطْلُبِ الْوِتْرَ أَمْثَالَ ابْنَ ذِى يَزَنٍ ... لَجَّجَ فى البحر للأعداء أَحْوَالاَ
أَرْسَلْتَ أُسْدًا على سُودِ الكِلاَبِ فَقَدْ ... أَمْسَى شَرِيدَهُمو فى الأَرض أغلالاً
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا ... فى رأس غُمْدَان دَارًا منك مِحْلاَلا[4]

---

(١) الأبيات لبعض أولاد فارس فى مروج الذهب ١/ ٣٩٨.
(٢) الربَحْل: العظيم الشأن.
(٣) التيجان ٣١٩.
(٤) الأبيات لأبى زمعة جَدّ أميَّة بن أبى الصَّلْت الثقفى فى مروج الذهب ١/ ٣٩٩ ولأبى الصَّلْت أبى أميَّة بن الصَّلت الثقفى فى تاريخ الطبرى ١/ ٤٤٩ والتيجان ٣١٧ والديباج لأبى عبيدة ١٠٧ والشعر والشعراء ١/ ٤٦١ وسيرة ابن هشام ١/ ٥٨-٥٩.

قال أبو الفرج[١]: «وإنما قال أبو الصَّلْت (اشْرَبْ هَنِيئًا) لأنه كان أَبَى ألاَّ يشربَ خمرًا، ولا يمس امرأة ولا طيبًا، حتى يدرك أثاره من الحبشة، فجعلت له حُلَّتان واسعتان، فَاتَّزَرَ بواحدة، وارْتَدَى الأخرى، وتطيَّب، وجلس على رأس غُمْدَان يشرب، وبرَّت قسمُه، وخرج بعد ذلك يتصيّد فقتله الحبشة».

ولمعدى كرب مع عبد المطلب كلامٌ كثير فى أمر النَّبِىِّ ﷺ حين بَشَّره به معدى كرب، وخبره عَمَّا يكون من أمره.

وكان مُلْكُ معدى كرب إلى أن قتلته الحبشة أربع سنين، وهو آخر من ملك من اليمن من قحطان، فعددُ مُلوكهم... مَلِكًا، ومدة ملكهم... سنة وقيل أقل من ذلك[٢].

فلما قتل معدى كرب، بعث أنو شروان، وَهْرِز فى أربعة آلاف فارس لإصلاح أمر اليمن، وأن لايُبْقِ بها أحدًا من بقايا الحبشة، فلم يترك بها أحدًا من السُّودان، وبقى وَهْرِز بصنعاء إلى أن هَلَكَ، ثم تداولت اليمن عُمَّالَ الأكاسرة إلى أن أتى الله بالإسلام.

فهؤلاء ملوك اليمن من العرب، والحبشة، والفرس، وكان أكثر نزولهم ملوك حمير من اليمن ظَفَار، وعلى باب ظَفَار مكتوب بالقلم الأول على حجر أسود [خفيف]

يوم شيدت ظفار قيل لمن أَنِسْـ ـتِ قالت : لحمير الأخيار
ثم سيلت من بعد ذلك فقالت إِنَّ ملكى للأحْبُشِ الأشرارِ
ثم سيلت من بعد ذلك فقالت إِنَّ ملكى لفارس الأحرار
ثم سيلت من بعد ذلك فقالت إن ملكى لحمير سَحَّار
وَقَليلاً ما يلبث القوم فيها غير تَشْيِيدها لجفاف البوار
من أسود يلتهم البحر فيها تشعلُ النارَ فى أعالى الجدارِ[٣]

---

(١) الأغانى ١٧/ ٣١٢.

(٢) قال المسعودى فى مروج الذهب ١/ ٤٠٠ «فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكًا، ملكوا ثلاث آلاف سنة ومائة وتسعين سنة».

(٣) الأبيات بلا نسبة فى مروج الذهب ١/ ٤٠٣.

وعند أهل اليمن أن ديارهم تَتَغَلَّب عليها الأحابيش آخر الزمان، من بعد هنات وإنات وكرائن وأحداث.

وحَدُّ اليمن فى العرض مما يلى مكة، بطيحة الملك إلى عدن، وهى آخر عمله ست عشرة مرحلة، والطول من حكا وحكَم إلى مفاوز حضرموت وعُمَان عشرون مرحلة، والمرحلة ستة فراسخ.

* * *

ذكر ملوك الحيرة

أقام جَذِيمةُ مَلِكا أزمان ملوك الطوائف(١) خمسًا وتسعين سنة، وفى ملك الساسانية ثلاثا وعشرين سنة، وكان سكنه بالمضيق(٢) بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا(٣) وكان يُكَنَّى بأبى مالك، وفيه يقول سُوَيْد بن أبى كاهل(٤): [من الرمل]

إِنْ أَذُقْ حَتْفِى فَقَبْلِى ذَاقَهُ طَسْمُ عَادٍ وجديسُ ذو الشّنَعْ

وأبو مـالك المَلِكُ(٥) الَّذى قَتَلَتْهُ بنـتُ عمرٍو بِالْخِـدَعْ(٦)

يعنى الزباء بنت عمرو(٧)، من بنى السميدع بن هَوْبَر، وكان ملكًا على مشارق

(١) فى الأصل «الطائف» وهو تحريف.

(٢) فى الأصل «بالصين» وهو تحريف والتصحيح عن المسعودى ٢/ ٩٦.

(٣) فى الأصل «قرطيسيا».

وقرقيسيا: كَورة من كور ديار ربيعة بين الحيرة والشام. معجم ما استعجم ٣/ ٣٨.

(٤) هو سُوَيد بن أبى كاهل اليَشْكرى. عَدَّه ابن سَلاَّم من شعراء الطبقة السادسة من الجاهليين، كنيته أبو سعد، شاعر مخضرم، قرنه ابن سلاَّم بعنترة.

ترجمته فى: المؤتلف والمختلف ٢٧٣ والشعر والشعراء ٤٢١و٤٢٢ وطبقات ابن سَلاَّم ١٥٢ ـ ١٥٣ والمفضليات ٤٠ والإصابة ٣/ ١٧٢ والبُرْصان ٣٢ و ١٤٢.

(٥) فى مروج الذهب ٢/ ٩٦ (القَيْل) مكان الملك، والقَيْلُ: المَلكُ بلغة ضمير.

(٦) البيتان لسُوَيد بن أبى كاهل اليشكرى فى مروج الذهب ٢/ ٩٦ (ط/ دار الكتب العلمية).

(٧) هى الزباء بنت عمرو بن الظرب بن حسّان بن أذينة بن السَّمَيْدَع: الملكة المشهورة فى العصر الجاهلى، صاحبة تدمر، وملكة الشام والجزيرة.

ترجمتها فى: معجم النساء الشاعرات فى الجاهلية والإسلام ٩٩ـ١٠٠ والحور العين ٣٥٧ والأغانى ١٥/ ٣١٠.

الشام من قِبَل قيصر، قال: وكان على الحيرة ثم ملكته بعد أبيها.

وأما تزويجه لأخته من عَدِىّ بن نصر بن ربيعة بن مالك بن خثعم بن نمارة بن لخم، ويقال عمرو بن عدى بن نصر بن السَّاطرون بن أسطرون ملوك الحضر ثم النصرانيّين.

صح من السفرالثانى، فإن أخته رَقَاش تعشَّقَتْهُ فقالت له: «يَا عَدِىُّ إذا سقيتَ القوم فامزجْ لهم وصرِّح لهم، فإذا انتشى فاخطبنى إليه» ففعل ذلك وزوَّجه وأشْهَدَ عليه وانصرف الغلام، فقال له: عَرِّس بأهلك، ففعل فلما أصبح غدا جَذِيمةُ وهو مُضمَّخ بالخُلوق، فقال له جَذِيمة: ما هذه الآثار يا عَدِىّ؟ قال: آثار عروسٍ، قال: وأىّ عُرْسٍ؟

قال عُرْسُ رَقَاشٍ، فأخرّ جَذِيمةُ وأكَبَّ على الأَرْضِ ورفع عدىٌّ جَرَاميزَهُ وأسرعَ الفرار، وجَدَّ جَذِيمةُ على طلبه فلم يقع له على أثرٍ ولا خبر، وقيل إنه ظفر به فقتله. وبعث جذيمة إلى رقاشٍ فقال لها: [خفيف]

خَبِّرينى رَقَاشُ لا تكْـذبينى ... أَبِحرٍّ زَنَيْتِ أَمْ بِهَجِيـنِ؟
أَمْ بِعَبْدٍ؟ فأَنْتِ أَهْلٌ لعبـدٍ ... أَمْ بِدُونٍ؟ فأنت أَهْلٌ لِدُونِ[1]

قال فكتبت إليه رقاشُ: [خفيف]

أَنْتَ زَوَّجتَنى وَمَا كنتُ أَدْرِى ... وأَتَـانى النِّســاءُ لِلتَّزْييـن
ذَاكَ مِنْ شُرْبِكَ المدامة صِرْفًا ... وتَمادِيكَ فى الصِّبا والُمجُـون[2]

فنقلها جذيمة إليه، وحَصَّنها فى قصره، فاشتملت على حَمْل وأتت بولدٍ سُمِّى عَمْرًا، فأعُجِبَ به جذيمةُ، وأُلْقِيت عليه منه مَحبَّةٌ[3].

وهو القائل وقد خرج مع خاله جذيمة فى سنة قد أَكْمَأَت، وبَسط له فى رَوْضَة وعمرو فى غِلْمة يجتنونَ الكَمأَةَ، فكانوا إذا أصابوا كَمْأَةً طيِّبة أكلوها، وإذا أصابها عمرو أقبل يسعى بها إلى خاله وهو يرتجز:

---

(١) البيتان لجذيمة فى مروج الذهب ٢/ ٩٨.

(٢) البيتان لرقاش أخت جذيمة فى مروج الذهب ٢/ ٩٨.

(٣) أى كَثُرَ بها الكَمأ، وهو نوع من الفِطْر.

هـذا جَنَـاى وخيارُه فيه

إذ كُلُّ جان يَدُهُ إلى فِيه[١]

ثم إنَّ الجِنَّ استطارَتْهُ، فضرب له جذيمة فى الآفاق زمانًا فلم يسمع له خبرًا إلى أن وجده نديماه: مَلك، وعَقِيل ابنا فالج.

ثم كان من قتل الزبّاء لجذيمة ما قد تكرّر نقله، وكَثُر ذكره، وهى التى قالت له وقد كَشَفَتْ عن كَعْبِها، وقد عقدت شَعرها باسْتِها: أَشَوَارُ عَرُوس تَرَى يا جذيمة؟ فقال جذيمة: لاَ والله، بَلْ أَرَى شَعَارَ أمة كَعْكًا، غير ذات حفير، قالت أَمَا واللهِ ما ذاك لعدم مُوَاسٍ ولاَ لِقِلَّة أُوَاسٍ، ولكنّ شيمةٌ مَا أُنَاس»[٢].

ثم كان الأمر فيهم بعد عمرو بن عدى بن نْصر لا يَعُدُّوا ذُرِّيَّته، وعمرو هو أوّل من نزل الحيرة، واتخذها دار مملكته، وقال شيبان عن قتاده «ذكر لنا أنَّ تُبَّعًا كان رَجُلاً من حِمْيَر، صار بالجنود حتى حَيَّر الحِيَرةَ، ثم أتى سَمَرْقَنْد فهدمها.

والحيرة أرض باردة فى الشتاء، وهى مُفْرِطَةُ الحَرِّ فى الصَّيْفِ، حتى إنهم لينزعون ستورَبيوتهم مَخَافةً من إحراق الشمسِ لها، ولا يشربون الماء إلا بالسكنجين والجلاب ممزوج به، لأنَّ الماءَ لا يبلغ أعماق أبدانهم صِرفًا.

وبنو عمرو بن عدى بن نَصْر هُمْ النَّصْرِيّة، ولم يزل المُلْكُ فى ذريَّة ابن عدِىّ إلى النعمان بن المنذر، وهو آخر ملوكهم، وهو الذى قتله كسرى، وكان النعمان لما أراد إتيان كسرى بعد هربه من بنى شيبان، أوْدَعَ سلاحه وعياله عند هانئ بن مسعود، فلما أتى كسرى النعمان بعث إلى حُرْقَة بنت النعمان وكانت إذا خرجَت إلى بَيْعتها يُفْرَشُ لها طريقها بالحرير والدّيباج فلما هلك النعمان بكّهَا الزمان.

وقدم سعد بن أبى وقاص القادسية أميرًا عليها وقد هزم الفرس، وقتل رستم فأتته حُرْقة بنت النعمان فى إماءٍ من نسائها، وعليهن المسوح والمقطعات السود مترهّبات يطلبن صلته، فلما وقفنَ بين يديه قال: أَيّتكن حُرْقَة؟ قالت: ها أَنَا ذِه،

---

(١) الرجز لعمرو بن عَدِىّ فى مجمع الأمثال ١/ ٣٢٣ ومروج الذهب ٢/ ٩٨ وخزانة الأدب ٧/ ١٥٢.

(٢) الديباج لأبى عُبيدة ١١٠.

قال: أنت حرقة؟ قالت: نعم، فما تذكارك(١) فى استفهامى؟ إن الدُّنْيَا دارُ دُوَل وزَوَال، لا تدومُ على حال، ولا تبقى على أحد، تَنْتَقِل بأهلها انتقالا، وتعقبهم بعد حال حالاً، كُنَّا ملوك هذا المصْر يُجْبَى إلينا خراجُه. فلما أدبر الأمر، صاح بنا صائِحُ الدَّهر، فصدَع عصانا وشتَّت مَلأنا، وكذلك الدهرُ يا سعدُ، ليس من قوم كانوا فى حبرة إلاّ والدهرُ يعضُّهم عبْرة، ثم أنشدت [من الطويل]

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاس والأَمْرُ أَمْرُنَا   إِذَا نَحْنُ فيهم سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ
فَأُفٍ لِدُنْيَا لا يَدُومُ نَعِيمُها   تقلَّبُ تَارَاتٍ بنا وتصرفُ(٢)

فأكرمها سعد وأحسن جائزتها، فلما أرادت فراقه قالت: لا نزع الله من عبدٍ صالح نعمة إلا جعلَك سَبَبَ ردِّها إليه.

وروى أن إسحاق بن طلحة بن عبيد الله دخل على حرقة بنت النعمان بن المنذر بالحيرة فى بَيْعتها، وهى فى نسوة راهبات، قال: فما رأيت مثل وجُوهِهِنَّ نسوةً، فقال لها: كيف رأيت غمرات المُلْك يا حُرْقة؟ قالت: هذا خيرٌ ممَّا كُنَّا فيه، إنَّا نجدُ فى الكتب أنه ليس من بَيْت يمتلىءُ حبرةً إلا امتلأ عَبْرةً، وأنَّ الدهر لم يأت قط على قوم بيوم يُحِبُّونه إلا أَتى بيوم يكرهُونه، وأنّ على أبواب السلطان كأشباه الحذرِ من الفتنِ، وأن أحدًا لم يُصِبْ منهم شيئًا إلا أصابوا من دينه مِثْلَيه(٣) قال: فقلت كيف صبرك؟ قال: فأقبلَتْ عَلَيَّ بوجهها ثم قالت يا سبحان الله، تسألنى عن الصبر، مامَيَّز أحدٌ بين الصَّبْرِ والجَزَعِ إلا أضاف بينهما التفاوت فى حالتيهما، أما الصبرُ فحسنُ العلانية محمودُ العاقبة، وأما الجَزَعُ فغيرُ مُعَوَّضٍ عِوَضًا مع إثمه، ولو كان رجلاً فى صورتهما لكان الصبر أولاهما بالغلبة فى حسن صُورَته، وكرمِ طبيعته فى عاجلة من الدنيا، وآجلة من الثواب، وكفى ما وعدنا الله أَنْ أَلْهَمَنَاهُ، قال: قلت: إنَّا لم نزلْ نسمعُ أنَّ الجَزعَ للنساء، فلا يجزعَنَّ رجلٌ بعدَك فى مصيبة فقد كَرُمَ صَبْرُك، قالت: أما سمعت الشاعر وهو يقول: [من البسيط]

---

(١) فى الأصل (تكرارك).

(٢) البيتان لحرقة بنت النعمان بن المنذر فى مروج الذهب ٢/ ١١٢.

(٣) فى الأصل (مثيله).

واصْبِرْ عَلى القَدَرِ المَجْلُوبِ وَارْضَ بهِ ... وإنْ أَتَاكَ بِمَا لا تَشْتَهى القَدَرُ
فمـا صفَا لامْرِئ عَيْشٌ يُسَرُّ به ... إلاَّ سَيَتْبَعُ يَوْمًا صَفْوَهُ كـدرُ

ولم يزل عمران[١] الحيرة يتناقص مُذْبُنيت الكوفةُ إلى أيام المعتضد بالله فإنه استولى الخرابُ عليها، وكان فيها ديارات كثيرة، ورهبان لحقوا بغيرها من البلاد لاستيلاء الخراب عليها، وأقفرت من الأنين فى هذا الوقت إلا الصَّدَى واليومُ، وأهل الدِّراية، بما يحدث يزعمون أن سيعود العمران[٢]، وقد كان جماعة من خلفاء بنى العباس قبل أنْ ينزلوها، لِطيبِ هَوائها، وصفاء جوهرها، وقُرْبِ الخَوَرْنَقِ والنَّجَفِ منها.

وكان مُدَّة هذه الحيرة من أوَّلِ عمران الحيرة وبَدْوِه إلى وقت بناء الكوفة ٥٠٠ سنة وبضعًا وثلاثين.

فأما ملوك غسَّان بالشام، فقد أوتى على ذكرهم. (ق): وكانت ديار ممالكهم اليرموك والجولان من غوطة دمشق، ومنهم من نزل الأردن.

وأما ملوك الشام، قبل سَيْل العَرِم، فإنها كانت ببلاد مأرب قبل سيل العرم من أرض البلقاء، وعدد من مَلَك الشام من غسّان أحد عشر ملكا والله عزّ وجل أعلم.

* * *

ذكر ما خُصت به جزيرة العرب

من ذلك اللؤلؤ الجَيِّد القطْرِى، يكون بناحية الشحر، لا يوجد مثله، وقد وجد فى جزيرة (. . . . . .)[٣] لؤلؤة لا يعلم أنه وُجد فى مغاصّ اللؤلؤ مثلها فى كبرها وصفائها واستواء خلقها، وأجزائها، وتُسمَّى اليوم عند الملوك باليتيمة لانفرادها عن النظائر.

(١) النصّ فى مروج الذهب ٢/١١٣-١١٤.
(٢) عبارة مروج الذهب «أنَّ سعدها سيعودُ بالعمران».
(٣) كذا بالأصل بياض، وإزاؤه كلمة (سهو).

والزبَرْجَدُ وهو يوجد فى جزيرة بين العَوْنيد والحَوْرا، وتسمى تلك الجزيرة زبَرْجَدَة، والعقيقُ يكون ببلاد العرب مُدَوَّمة، وأجودُه الصِّينى، والجَزْع أجودُه اليَمَانى، ويُؤْتى به أيضًا من الصِّين، وليس مثله.

والشَّبُّ لا يعدلُ باليمانى منه شىءٌ، وهو من عجائب العالم، لأنه ماء يسيل على جبلٍ فيجمدُ قبل أن يصل إلى سَفْحه، فيكون منه هذا الشبّ اليمانى[1] الكهرباء البحرية من بلاد اليمن حجارة المِسَن[2] من بلاد الحجاز أكثر ما تكون بناحية خيبر بقرب منه مدينة النبى ﷺ وفرش حمامات مكة منه. اللُّوبان لا يكون إلا باليمن فى بلاد الشحر وحضرموت، ومنها يُتَجَهَّزُ به إلى بلاد الهند والصين، وإلى خراسان، وإلى جميع الأقطار وأشجارها مثل أشجار التوت إلا أنها لا تورق، بل تحمل أغصانها كلها، الكُنْدُر، واللك أيضًا يكون فى الشحر وحمله كذلك كحمل اللوبان ولُكُّ الهند، والصمغ العربى: وهو من شجر الطلح، والمُقْلُ: لا يكون إلا باليمن ومن هناك يحمل إلى جميع البلاد.

والسنان شجر الحمر وهو التمر الهندى، وهو فى أرض اليمن من حضرموت وغيرها ومن هناك يتجهَّزُ به فى الآفاق.

واللُّكُّ لا يكون إلا فى بلاد اليمن، يحمل إلى مصر فى عِيَدانه، ويُحْمَلُ منه إلى سائر البلاد، والصَّبِرُ يكون فى بلاد اليمن، وأجودُه صبر سقطرى[3] والقاقلتان، والقسطَل الحلو، والوَرْس، هذه كلها من بلاد اليمن، ومنها تحملُ إلى أقطار البلاد والخيار شَنْبَر يكون ببلاد اليمن.

شجرُ البانِ كثير بالحجاز من هناك يُجْلَبُ إلى الآفاق.

سكر العُشر باليمامة، وهو أجوده، يتخذ من نواره، وهو نبات حسن كأنما نُقِش نَقْشًا، والسَّنا الحرمى بمكة، ومن هناك يُجْلَب إلى الآفاق.

ومما خصت به الحِراتُ التى تصنعُ بصنعاء من القطن، لا يقدر فى غيرها على اتّخاذ مثلها، ومنها تحملُ إلى البلاد، وكذلك الأردية، والعمائم العدنيّة، والثياب

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٤٧ ـ ١٤٨ (ط/ دار إحياء التراث).

(٢) معادن الجوهر ٢٠٢.

(٣) صفة جزيرة العرب ٥٢.

السحولية، والأُدم الطائفى لا يصنع فى قطر من الأقطار مثله.

والبقر المُتَلَمِّعة وهى فى مِخْلاَف بنى مجيد، يباع النعل من جلودها بدنانير فيها تلميعٌ من بياض وصُفْرة كأحسن الوشى.

وصنعاء[١] لا تمطر حزيران وتموز وآب وبعض أيلول، ولا يمطرون إلا بعض الزوال فى أغلب الأمر، يلقى الرجلُ الرجلَ فى نصف النهار والسماء مصحية ليس فيها طخوية فيقول: أَعجِل قبل أن تصيبنا السماء، لأنهم قد علموا أنه لابُدَّ من المطر فى ذلك الوقت. وذكر إسحاق بن العباس بن محمد الهاشمى عن أبيه أنه تصيَّد فأصابَهُ المطرُ، فمالَ إلى أَحْوِية أعراب فمكث عندهم يومَهُ ولَيْلَته والغيثُ سحم لا ينجم، فلما أصبح قال: لقد أنزلَ الله البارحة خيرًا كثيرًا، فقام رَبُّ المنزل إلى كساء نشج بين أربعة خشبات، كما يفعل أهل البوادى، فلمسه بيده فقال: ما أنزل الله البارحة خيرًا، ثم ليلة أخرى كذلك، ثم أخرى كذلك، فلما كان فى اليوم الثالث قال: قد أنزل الله الليلة خيرًا كثيرًا، فسأله عن ذلك، فأتاه بكفّ من البذور قد تناولها من فوق ذلك الكساء فقال: إن حَبَّ البقل والعشب إنما ينزل من السماء فينبتُها الله عزَّ وجل كيف يشاء.

* * *

(١) صنعاء: أمّ اليمن وقُطْبُهُا، لأنها فى الوسط منها، وكان اسمها فى الجاهلية أزال، ويسمِّيها أهل الشام: القصبة. وتقول العرب: لابُدَّ من صنعا وإنْ طال السفر. وهى أقدم مدن الأرض، لأن سام بن نوح الذى أسسها. صفة جزيرة العرب ٥٥.

وفى تحفة النظار لابن بطوطة ٢٦٧: صنعاء قاعدة بلاد اليمن الأولى، مدينة كبيرة، حسنة العمارة، بناؤها بالآجر والجصّ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع، معتدلة الهواء، طيِّبة الماء.

ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة، إنَّما ينزل فى أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان. فالمسافرون يسافرون عند الزوال؛ لئلا يصيبهم المطر، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم، لأن أمطارها وابلة متدفقة. والمدينة مفروشة كلها، فإذا نزل المطر، غسل جميع أزقتها وأنقاها.

ذكر مدن اليمن المشهورة

المشهورة من مدن اليمن، والغريب من مساكنه، الطريق من صنعاء إلى ذِمَار[١] وهما مرحلتان يخرج على طريق فَلْشٍ، وهو جبل هناك إلى قرية جَدران، وعلى هذا الطريق وادٍ له ذكر فى كتاب الله عز وجل معروف، وأكثر أشجاره الأثل والطلح.

وفى هذا الناحية صنمٌ كان يعبد قبل ظهور الإسلام، ودون ذمار مساجد لأصحاب النبى ﷺ منها مسجد مُعَاذ بن جبل[٢]، وأهل اليمن يُعَظّمونه ويأتُونَه.

ولها طريق آخر من صنعاء على قرى متصلة وأشجار وبساتين غير منفصلة وهواء معتدل إلى قرية تدعى خولان، وهى منزل سيدهم، وهى بادرة الهواء حسنة البناء، فيها حمامات وحوانيت وفواكه، ثم تدخل منها بين جبلين، وأنهار، وأرض خصبة، وقرى لِقَيْس، فتفضى إلى ذِمار، وذمار مدينة كبيره إلا أنها دون صنعاء، وهى من أعمالها، ولها سورٌ محكم البناء وهى كلها قصورٌ مضيئة الأبواب، كثيرة البساتين والمزارع والقرار والدّساكير رخيصة الأسعار، كثيرة الخيرات، دَرَاهِمهُم بجانية ودنانيرهم مُطَرَّقة، ومياههم عيون جارية، وآبارهم قريبة الأرشية ولمعاذ بن جبل - رضى الله عنه - فيها مساجد وآثار كثيرة، والله أعلم.

الطريق من ذمار إلى زَبيد[٣]:

تخرج فى قرى متصله حتى تأتى مدينه بسام وهى المنزل مدينة طيِّبة بها بيوت

(١) ذِمار: بكسر أوَّله ويُفْتح، مَبْنىٌّ على الكسر، قرية باليمن على مرحلتين من صنعاء، وقيل ذَمار: اسم لصنعاء. وذَمار: من مدن اليمن النجدية، وساكنها من حِمْيَرَ. مراصد الاطلاع ٢/ ٥٨٧ وصفة جزيرة العرب ٥٥.

(٢) ويُسَمَّى مسجد الجَنَد. راجع: صفة جزيرة العرب ٥٤.

(٣) زَبيد: اسم وادٍ به مدينة يقال لها الخصيب، وهى التى تُسَمّى اليوم زَبِيد، وهى مشهورة باليمن، محدثة فى أيام المأمون، وبإزائها ساحل غَلافقة وساحل المندب. مراصد الاطلاع ٢/ ٦٥٨.

ووصفها ابن بطوطة فى رحلته ٢٦٤ فقال: زَبِيد: مدينة عظيمـة باليمن، بينها وبين صنعاء =

منقورة فى صخرة صماء ثلاثمائة ذراع فى مثلها، ثم إلى وادٍ يقال له الرَّبيح، أشجاره الدوس، ثم تسيرُ فى صعود وهبوط حتى تأتى واديًا يقال له عَلاّن، تقطعه حتى تصير إلى مدينة الجَنَد[١]: كبيرة خصيبة كثيرة الخيرات. بها جامعٌ بناه معاذ بن جبل[٢] ـ رحمه الله ـ وهو الذى يذكر أن ناقته بَرَكَتْ إلى موضعه، فقال: خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة فأمر ببناء المسجد فى ذلك الموضع، ثم بركت فى صنعاء أيضا فبنى المسجد بها، وأهل الجَنَد شيعة كلهم.

ومن الجَنَد يجلبُ إلى مكة وغيرها ملاحف القطن المنسوبة إلى سُحُول وهو وادٍ بقرب الجَنَد، ومن الجَنَد تسيرُ فى صحارى فيها أشجار الجوز، والنبق حتى تنتهى إلى معاثر، وهى مدينة صبر.

وصبر: جبل فيه ألف قُبَّة، والمُرْتَقى إليه مسيرة شهر، وفى أعلاه الأنهار والطواحين، وعرض هذا الجبلِ أربعة وعشرون فرسخًا، ثم تسير فى صحارى ورمال حتى تنتهى إلى زَبيد، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر من زَبيد، ولا أغنى أهلاً، ولا أكثر خيرًا، واسعة البساتين، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره، زِنَةُ دينارهم أربعة دراهم، ودراهمهم اثنا عشر ما فى الدينار.

الطريق من زَبيد إلى مَهْرة[٣]:

من زبيد إلى عدن عشر مراحل على الساحل فى بريّه، لا عِمَارة فيها، لا يركبها إلاّ الصيَّادون والسَّابِلة، لها منازل وآبار، ثم إلى خولان ثم إلى مَهْرَة.

الطريق من ذِمَار إلى منكث:

من ذمار إلى وَالان، مدينة صغيرة، بنيانُها جيّد، صخر لا سور لها، وبها

= أربعون فرسخًا، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها، ولا أغنى من أهلها، واسعة البساتين، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره، وهى بَرِّية لا شَطِّية، إحدى قواعد بلاد اليمن، مدينة كبيرة، كثيرة العمارة، بها النخل والبساتين، أملح بلاد اليمن وأجملها.

(١) الجَنَد: أوَّل مدن اليمن النجدية، من أرض السَّكاسك، ومسجده من المساجد الشريفة، كان اختطَّه معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ. صفة جزيرة العرب ٥٤.

(٢) انظر صفة جزيرة العرب ٥٤.

(٣) مَهْرَة: مخلافٌ ينسَبُ إليه مهرة، وهم قبيلة من قضاعة، بينه وبين عُمَان نحو شهر، وكذلك بينه وبين حضرموت. مراصد الاطلاع ١٣٣٩/٣.

جامع، وبين ذَمار وبينها أربعة فراسخ فمن شاء نزلها ومن شاء طواها.

الطريق من صنعاء إلى حَضْرموت:

من صنعاء فى أرض مستوية وهى الرحبة، وهى التى ذكرها الله عزَّ وجَلَّ فقال: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُها غَوْرًا﴾(١) تسير فى هذه الصحراء إلى قرية يقال لها عُقاب، كثيرة الأنهار والبساتين منها يُحمل العنب إلى صَنْعَاء ثم إلى عَقَبَة تُعْرَفُ بنفيل فى شعاب وأودية إلى وادٍ فيه نخل يُعْرَفُ بالعراقيد، ثم تسير فى شُعَبٍ إلى قرية يقال لها الضياع، فيها نخل، وهى لمرادٍ، ثم تخرج فتمر على وسط السّد الذى كان فى الجاهلية وهو بين جبلين وهما يسميان الماديين، ثم يمر بموضع كان يقسم عليه ماء هذا السَّدّ فى الجاهلية ثم إلى صحراء ورمال وهى التى تسمى جَنَّة اليُسْرَى، وهى التى قال الله عز وجل ﴿لَقَدْ كَانَ لسبأ فى مَسْكَنِهم آيَة جَنَّتَان عن يَمين وشمَال﴾(٢) الآية، ثم تمرُّ حتى تنتهى إلى مأرب(٣) وفيه معدن الملح(٤) الذى أقطعهُ النبى ﷺ أبيض بن حمَّال المازنىّ، فجعله أبيض صدقة للمساكين، فعوَّضه النبى ﷺ حائطًا يعرف بالجَدَران(٥) على باب مَأْرب لا يخلو من ثمرة صيفًا ولا شتاءً وربيعًا وخريفًا، لأن النبى ﷺ دعا له بالبركة، وهى مدينة لسبأ وبها عرشُ بَلْقيس، وكان العرشُ مبنيًا على أساطين حجارة وعَلاءُ كُلِّ أسطوانة منها فوق الأرض عشرون ذراعًا، فاحتمل العرش، وبقيت الأسطوانةُ على حالها. ويقال إنَّ تحت الأرض من تلك الأساطين مثل ما فوقها، وغِلَظُ كل أسطوانة منها لا يحضُنُه أربعة نفر، وفيها سوق ومسجد والمنزلُ بها.

ثم يخرج منها ويقطع عرضَ الوادى، فيدخل جنةَ اليُمْنَى التى ذكرها الله عز وجل فيها من الأشجار إلا الأَثْل والأراك، وتبذَرُ فيها الذرة، ثم إلى سُوَيْقَة يقال لها نمرة يباعُ فيها الملح والذرة فى صحارى ورمال، إلى ما يقال لها سِنجار وهو

(١) سورة الكهف: ٤٥.

(٢) سورة سبأ: ١٥.

(٣) مأرب: هو بلاد الأزْد باليمن، وقيل: هو اسم قَصْر كان لهم. مراصد الاطلاع ٣/١٢١٨ ومعجم ما استعجم (مأرب) ٤/ ٥٢.

(٤) من هنا النقل عن معجم ما استعجم ٤/ ٥٢ و١١٢ و ١٢٠.

(٥) انظر: معجم ما استعجم (بتحقيقنا) ٤/ ١٢٠.

وادى النخل، ثم تسيرُ فى صحارى ورمال، إلى ما يقال لها سنجار وهو وادى النخل، ثم تسيرُ فى رمال ومواضع مَخُوفة، يقطع فيها بنو الحارث بن كعب، حتى تنتهى إلى مدينة شَبْوَة(١)، وهى أول مدائن حضرموت ينباع فيها حِمْلُ ثمر بدرهم.

ثم تسير فى قرى متصل حتى يأتى البحريمة، وهى أكثر مدائن حضرموت خيراً وفيها بساتين ومياههم سيحٌ، ثم تسير ثلاث مراحل فى رمال يسكنها قوم من مَهَرة، وإليهم تنسب الإبل المهرية، حتى تصل إلى مدينة يقال لها الأشقاء، وهى من مدائن الشحر، حَدُّ عُمَان، وهى على ساحل البحر ثم إلى موضعٍ يقال له رُسُوب، وهو جبل الأحقاف(٢)، وهو متصل بأرض الأحقاف، وهو بلد واسع، غلبت عليه الرمال بِسَوافى الرياح، فعفا أثَرُه، وهو الذى ذكره الله عزَّ وجَلَّ.

والبحر يضرب بسفح هذا الجبل، ويركبُ منه إلى البحر إلى جزيرتين ينزلهما قوم من مَهْرَة بأغنامهم، طولها وعرضها اثنا عشر فرسخا، الواحدة: سقطيرة والأخرى: المضيرة، فيها مغاصّ اللؤلؤ ومياه عذبة، ثم يركب منها إلى البحر إلى سوق على ساحل البحر يقال لهَ طيرى، ثم يركب منها إلى البحر إلى مَسْقَط وهو مجتمع المراكب التى تخرج من صُحَار(٣)، وصُحَار: سوق عمان.

* * *

(١) شَبْوة: مدينة باليمن تلقاء حضرموت، ما بين بَيْحان وحضرموت وقال بِشْر بن أبى خازم:
ألاَ ظَعَنَ الخليطُ غداة رِيعوا ... بِشَبْوَةَ والمَطِىُّ بنا خُضُوعُ
معجم ما استعجم ٣/ ٦٣.

(٢) الأحقاف: منازل عاد، رمال مستطيلة بِشِحْرِ عُمَان.
قال الهمدانى: الأحقاف بحضرموت. معجم ما استعجم ١/ ١١٠-١١١.

(٣) صُحَار: بضَمِّ أوَّله، وبالرَّاء المهملة فى آخره، فى بلاد بنى تميم باليمامة أو ما يليها، قال المخبَّل:
أعَرَفْتَ من سَلْمَى رُسُومَ دِيَارِ ... بالشَّطِّ بين مُخَفَّقٍ فَصُحَارِ؟
معجم ما استعجم ٣/ ١٠٣.

ذكر مدينة ظفار[١]

وهى قصبة اليمن، وقاعدة ملوك حمير، ولم يزل اليمن فى الدولتين من أرفع الولايات فى جلالتها، وأنها منازل العرب العاربة، ودار الملوك العظام من التَّبابعة، والأَقْيَال، والهَيَاطلة، والعَبَاهلة، وأنها أشرف البلدان سُوقًا وثيابًا، من القصب والسُّعَيْدى، والوشى والمَعْمَر والبُرُود والحيدل[٢] والأَرْدية العَدَنية، والصَّنْعَانية، والعنبر، والجزع والعقيق، والرَّقيق، والنُّجُب[٣]، والإبل المهرية، والخيل العراب والنِّضار، وغير ذلك من أصناف الأمتعة والتجارات.

*** الطريق من عُمان إلى ناحية اليمن:**

من عمان إلى مسقط على الساحل، ثم منه إلى سُقْطرى[٤]، وبه الصَّبِرُ السُّقُطْرى الذى لا يُعْدَلُ به، والحَضَض، ثم من هذه الجزيرة إلى موضع يقال له مَعْتَب: به مغاص اللؤلؤ والغوَّاصُون عليه أُجَرَاء لليهود والنّصارى، أُجْرَةُ الغَوَّاص من قراط إلى نصف درهم يغوصون من بكرة إلى نصف النهار، ثم يأخذون فى شق الصدف إلى آخر ذلك النهار وعملهم فى الأصداف إنما هو على طعامهم من السَّوِيق والتمر والسمن وغير ذلك وإذا أراد الغَوَّاصُ أن يغوصَ، عَمَدَ إلى آلة ذات شعبتين قد اتخذت من القرون، دقيقه جدًا تَعُمُّ المنخرَيْن، فيمنع الماء منهما ويُشَدُّ فى إحدى رجليه صخرة منقورة، فيها مقدار عشرين منًا، ثم يُشَدُّ معها وعَاءٌ قد اتخذت من شماريخ النخل يسمى الرَّجِيس يُحْمَلُ فيه ما وصل إليه من الصَّدَف، فإذا ملأَهُ حرَّكَ الحَبْلَ فيجذبونَهُ.

وحَدَّث أبو الحسن البُخَارِىّ، أنَّ رجلاً عُمَانيًا قَدِم مكة بلؤلؤتين، لَمْ يُرَ مثلُهما

(١) انظر: الروض المعطار ٤٠٣ـ٤٠٤.

(٢) فى الأصل (والجند).

(٣) فى الأصل (والبخت).

(٤) سُقْطَرى: جزيرة معروفة، طولها ثمانون فرسخًا، وبها أجودُ الصَّبِر، وبها من جميع قبائل مَهْرَة، وبها نَخْلٌ كثيرٌ، ويسقطُ إليها العنبر. وإذا قِيلَ لِمَهْرِىٍّ: يا سُقْطَرِىّ، غَضِبَ، لأنَّ السُّقْطرِيُّون: الروم، دخلوا فى نَسَبِ الغَمْرِ من مَهْرَة. معجم ما استعجم (سُقْطَرى) ٣/ ٣٠ـ٣١.

فباعهما فى سوق ابن يزيد بألفى دينار ذهبًا من رجل سَمَرْقَنْدىّ، وخرج من مكة من يومه ذلك فلما كان بعد عدة أيام أقبل من عند صاحب عُمَان رجلٌ يطلب الذى باع اللؤلؤتين، ويذكرُ أَنَّهما سُرِقَتَا من قصره، فطلبَ المشترى فعُمِّىَ أثره، وخفى خبرُهُ، ووصل بهما إلى مدينة دمشق، فأهدى إحداهما إلى صاحبها وصاحبها الَمدْيُونى، فأعطاه بها عشرة آلاف دينار ثم سار إلى سمرقند فأهدى الثانية إلى صاحبها، فكافأه عليها بخمسة عشر ألف دينار، فهاتان اللؤلؤتان من مَغَاوِص عُمَان وما والاها من المواضع.

* * *

ذكر بلاد عُمَان

وهى ثمانون فرسخًا بما والاها البحر منها سهول ورمال، وما تباعدَ عنه حزونٌ وجبال، ولها عِدَّة مُدُن، منها مدينه عُمَان على ساحل البحر، حصينةٌ، ومن الجانب الآخر جَبل فيه مياهٌ مالحة[١]، قد أجريت إلى المدينة، وهى كثيرة النخل، والبساتين وضروب الفواكه وطعامهم الحنطة، والشعير، والأرز، والجاموس.

وكان الذى أجرى الماء من الجبل إلى المدينة، رجلٌ مَجُوسِيٌّ يقال له أبو الفرج، كان له من المال الصامت ثمانمائة كيلجة، دنانير ذهبا، كُل كيلجة فيها تسعة ومائة مَنٍّ ومنها مدينة صُحَار، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر مقدارها فرسخ فى فرسخ ومياهها من الآبار.

ومدينه تَزُون، وهى أعظمُ منها، وهى فى الجبل، ومدينه ضُخَم، وهى أيضًا فى الجبل ماؤُها من العيون، بها نخلٌ كثير، وقصب السكر، وبها أشجار يقال لها طُلُوق، تشبه شجر المُقْلِ، تُقطع منها عروق، ثم تُوضَعُ فى الماء فيسيل منها شراب يسكر من ساعته، وعامَّتهم أصحابُ شُعُورٍ جَمَّة.

ومن عمان يُتجر، وبها قُتِل عيسى بن جعفر الهاشمى[٢]، وخَرَاجُ عملِ عُمَان

(١) فى الأصل (سائحة).

(٢) هو عيسى بن جعفر بن المنصور العبّاسىّ، قائد من أمراء بنى العبَّاس وهو أخو زُبَيْدَةَ، وابنُ =

على المقاطعة ثمانون ألف دينار، وفى الأمثال: من تعذَّر عليه الرزق فعليه بعُمَان وقد أهدى صاحب عمان إلى الكعبة بعد العشرين والأربعمائة محاريب مُنْبَت زنة المحراب أزيدُ من القنطار، وقناديل مُنْبت فى نهاية الإحكام، وسُمِّرت المحاريب فى جوف الكعبة ممَّا يُقَابل بابها، وذلك إِثْر أخْذِ أمير مكَّة أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحَسَنى[1] بِحُلِى الكعبة من المحاريب وغيرها.

* * *

ذكر البحرين وأعمالها

وهى بلاد واسعة، شرقيها ساحل البحر، وغربيها متصل باليمامة[2]، وشمالها متصل بالبصرة وجنوبها مُتّصل ببلاد عُمَان، وهى بلاد سهلة كثيرة الأنهار من العيون، عَذْبة الماء، يُنْبطون الماء على القامَة والقامَتين، والحِنَّاء، والقطن على شطوط أنهارها بمنزله السَّوْسَن، وهى كثيرة النخل والفواكه، ولهم ثمرٌ يسمى المانجو إذا نُبِذَ وشُرِبَ اصفرَّت الثيابُ من عرَقه. وبساتينها على نحو ميل منها، ولا يأتونها إلا غدواً ورَوَاحًا لإفراط حَرِّ الرمضاء وإنَّ حوافر الدوابّ تسقُط فيها إذا احتدمت، وهى مخصوصة بِعِظَم الطِّحَال، ولذلك قال بعض الشعراء: [من الطويل]

ومَنْ يَسْكُنِ البَحْرَيْنِ يَعْظُمْ طِحَالُهُ وَيُغْبَطْ بما فى بَطْنِهِ وهو جَائع[3]

= عمٍّ هارون الرَّشيد، بعثه الرشيد عاملاً على عُمَان فى ستَّة آلاف مُقَاتِل، فلم يكد يستقرّ فيها حتى سيَّر إليه إمام الأزد (الوارث الخروصى) جيشًا قاتَلَهُ، فانهزم عيسى، فَأُسِرَ وسُجِن فى صُحَار، ثم تَسَوَّر عليه بعضهم السجن فقتلوه فيه. الأعلام ٥/ ١٠٢.

(١) هو الحسن بن جعفر بن محمد الموسوى الحَسَنىّ الطالبى القرشى، أبو الفتوح: شريفٌ من الأمراء، وَلِى مكة سنة ٣٨٤ هـ للعبيديين أصحاب مصر، ثم خلعَ طاعتهم وادَّعَى الخلافةَ، وخطبَ لنفسه، وحدَثَت أمورٌ اضطرته إلى الرجوع عن ذلك، وطالت مُدَّةُ إمارته فكانت ٤٣ عامًا، وتوفى بمكة سنة ٤٣٠هـ.

والموسوىّ: نسبة إلى موسى الكاظم. الأعلام ٢/ ١٨٦.

(٢) انظر: الروض المعطار ٨٥ وآثار البلاد ٧٨.

(٣) البيت بلا نسبة فى آثار البلاد ٧٨ وفيه (ويَعْظُمُ فيها بطنُه وهو جائِع) والروض المطعار ٨٢ والمسالك والممالك لابن خرداذبة ١٧١ وفيه (ويُحْسَدُ) مكان (ويُغْبَط).

ولها سبعُ مدنٍ وعلى ساحلها، منها القَطِيف[١]، والزرَّادة[٢]، والعقيد، وأوال[٣]: وهى جزيرة بينها وبين الساحل مَجْرَى يومٍ، وهى كثيرة النخل، والموز والأُتْرجّ، والأشجار، والأنهار.

ومما يلى أَوَال جبل فى البحر أسود يسمى الحازم، يقيم به الغَوَّاصون الأشهر وأوَال جزيرة طويلة، مسيرة ستة عشر يومًا، وكانت هذه الجزيرة حَبْسًا لكسْرى، وأكثر أهلها من أهل اليمامة، وإليها لجأ مَنْ أَفْلَتَ من أهل هَجَر عند محْنَتهم مع القرمطىّ ـ لعنه الله ـ وإليها فَرَّ منه أهل اليمامة والبحرين وبينها وبين هَجَر اثنا عشرَ فرسخًا فى البر وعشرة فراسخ فى البحر وهى متباعدة عن الساحل إلى ناحية اليمامة، دَبلة والأحساء وحوارين، وبين الساحل مسيرة يوم ويومين.

وبلاد البحرين مُنْهَالَةُ الكُثْبَانِ، جارية الرمال حتى يَسْكُرُوه بسَعْفِ النخل، وربما غلب عليهم فى منازلهم، فإذا أَعْيَاهم حملوا النقوض، وتحولوا.

وفى البحر جزائر على مسيرة يوم، ويومين، وثلاثة، وفيها آثار وخرائب، وبها جزيرة خارك، وهى على أربعة فراسخ من حنّابا فى البحر، وليس بها الآن من البناء إلاَّ صومعة راهب، وبها جَزَرٌ عظيم يُقْطع بالقَدُوم لغِلَظِه.

ومِيرَةُ البحرين تُجْلَبُ إليها من فارس، ويجلب إلى فارس منها التمر والدّبس وفى القطيف من بلاد البحرين قام القرمطىّ[٤] بدعوته، وهناك دعا الناس إلى علمه وكان ابتداء آية القرامطة أنَّ رجلاً قدم من سواد الكوفة من ناحية خوزستان فأقام بموضع يعرف بالنَّهْرَين، فيظهر عند القطيف، ويأكل من كسبه، ويكثر الصلاة وكان يبتاعُ كُلَّ ليلة من بقَّال أرطال من تمر من عَمَلِ يَده، فيفطر عليه، وكان إذا قعد إليه إنسان ذَاكرَهُ أَمرَ الدِّين، وزهَّدَهُ فى الدنيا، ورغَّبه فى الآخرة وأعْلَمَهُ أن

(١) القَطِيف: على بناء فَعِيل، إحدى مدينتى البحرين، والأخرى هَجَر. معجم ما استعجم ٤/ ٣٢١ـ٣٢٢.

(٢) فى الأصل (الوراَّدة).

(٣) فى معجم ما استعجم ١/ ١٩٢ «أَوَال: يفتح أوله وباللاَّم على مثال فَعَالٍ: قريةٌ بالبحرين، وقيل جزيرة، فإن كانت قرية، فهى من قرى السِّيف، يدلُّ على ذلك قول ابن مقبل:

عَمَدَ الحُدَاةُ بها لعارضِ قَرْيَةٍ وكأنَّها سُفُنٌ بِسِيفِ أَوَالِ

(٤) انظر: الروض المعطار ٢٨٦.

المفروض على الناس خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك، وأعلمهم أنه يدعو إلى إمامٍ عادلٍ من أهل بيت الرسول ﷺ فلم يزل على ذلك تقصده الجماعة بعد الجماعة، الفوج من الناس بعدالفوج، فيخبرهم بما تعلّق فى قلوبهم، وإنّما غلب عليه القرمطىُّ لأنه اعْتَلَّ عند ذلك البقّال الذى كان يبتاعُ له الأرطالَ من التمر، فكان فى القرية رَجُلٌ يحمل الناس على أثوار له يقال له ذو العينين، وكَلَّم البقال كَرْيُونه(١) فى حمل العليل إلى منزله، فحمله على أثواره، وأقام عنده يُمَرِّضه حتى بَرَأ، فلما خاف على نفسه ـ على حسب ما نُوردُ ـ وصارَ إلى الشام، تسمَّى باسم كَرْيُونه الذى كان عنده، فخفَّفه الناس، فقيل له قرمط، فلذلك عُرِفوا بالقَرَامطة.

فلم يزل على ما كان عليه بالنهرين إلى أن جاءه أكثر أهل تلك الناحية وما والاها، اتَّخذ منهم اثنى عشر نقيبًا أمَرَهُم أن يدعوا الناس إلى دينه، وقال أنتم كحوارِىّ عيسى فاشتغل أكثرهم أهل ذلك الصُّقْعِ من أعمالهم بما رُسِمَ لهم به من الصلوات الخمسين.

وكانت للهيضم(٢) فى تلك الناحية ضياعٌ أنكر تقصير الأكره فى عماريتها وسأل عن ذلك فأخبر بشأن الرجل وبما شغلهم من الصلاة عن أعمالهم، فوجّه الهيضم فى طلبه فأتى به فسأله عن أمره، فأخبر بمذهبه فعزَمَ على قتله، ثم أمر بحبسه فى بيت من بيوت داره، ووضع المفتاح تحت وسادة وتشاغل بالشراب، وكانت جارية من جواريه سمعت بيمينه لِقَتْله، فرقّت له، فلما نام الهيضم أخذت المفتاح، ففتحت عنه القفل، وأرسلته ثم سَدّت الباب كما كان، وجعلت المفتاح تحت الوسادة.

فلما أصبح الهيضمُ أخذ المفتاح ففتح الباب، فلم يجد أحدًا، فشاع أمر القرمطى وازداد أهلُ تلك النّاحية فتنة، وزعموا أنه رُفِع وظهر فى مكان آخر ولقى جماعة من أصحابه وغيرهم، وزعم أن أحدًا لا يقدر عليه بسوء، فعظم ذلك فى أعينهم، فخاف على نفسه فخرج إلى الشام، وتسمى كرميته(٣) على ما

(١) فى تاريخ الطبرى «كرميته».
(٢) الروض المعطار ٢٨٦.
(٣) الروض المعطار ٢٨٦.

قدمناه وقال أحمد بن أبى الطاهر، كان ابتداء أمر القرامطة أنَّ رجلاً كان يعرف بيحيى بن المعلّى، صدر من ناحية الكوفة إلى القطيف، فنزل على رجل يعرف بعليّ ابن المعلّى بن حمدان وكان يترفَّض، وأظهر يحيى أنه رسول المهدى المنتظر وذلك سنة إحدى وثمانين ومائتين، وذكر أنه خرج يتبع شيعته فى البلاد ويدعوهم إلى المسارعة إلى أمره، وأنَّ خروجَه قد قرب، وأظهر فى ذلك كتابًا زعم أنه من المهدى، فجمع على بن المعلّى من علم أنه يترفّض أنه من أهل القطيف، وأقْرَأَهم ذلك الكتاب فأجابُوه، وأَرْسَل إلى من يترفَّض من قرى البحرين فأجابوه، وكانوا نحوًا من الثمانمائة.

وكان مِمَّن أجابه أبو سعيد الجنابى من جزيرة جنابا[1]، كان يبيع الطعام بالزَّرادة، ويحسب لهم حسابهم، ولا يعرف من كتاب الله ولا سُنَّة رسول الله ولا من العلوم شيئًا وكان قبيحا قميئًا، ثم غاب يحيى مرة ورجع ومعه كتاب من المهدى إلى شيعته، يذكر فيه «قد عرَّفنى رسولى مسارعتكم إلى أمرى، فإذا وصلكم كتابى هذا فَلْيَدْفع كُلُّ رجلٍ منكم ستة دنانير، وثلثى دينار».

فسارعوا إلى ذلك، فأخذَها، وغاب مُدَّة، ورجع ومعه كتاب آخر يذكر فيه: أن رَسولى قد عرَّفنى مسارعتكم، ووصل إلىَّ المال، والذى يجب عليكم فى أموالكم الخمس لأنها غنائم والله عز وجل قد قال فى القرآن: ﴿**واعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُم مِنْ شَىْء فَأنَّ لله خُمُسَهُ وللرَّسُول**﴾[2] الآية، فدفعوا إليه الخمس من أموالهم ثم غاب مدة طويلة، ورجع ومعه كتاب آخر يذكر فيه: أنى قد عَزَمْتُ على الخروج، فادفعوا لصاحبى ما يستعين به على قتال الفُسَّاق، وأَمَرَهُم يحيى بالخروج من أموالهم، فأخذوا فى بيع عقارهم فباعوا ما يساوى ألف دينار بمائة دينار.

وكان بالزَّرَادَة رجلٌ يعرف بإبراهيم الصائغ، وكان داعية لهم، وجَّهُوه غَيْرَ مَا مَرَّة، إلى فارس والأهواز إلى دُعَاء الناس، قال ابن أبى الطاهر: فجاءنى يومًا وقال لى: اعلم أنَّ هؤلاء القوم على ضلال، كنت أمشى مع أبى سعيد الجَنَّانى وقد قدم عليه رَجُلٌ من أهل جَنَابا يقال له: يحيى بن على فأكلنا عنده، فلما فرغ قام.

(١) الروض المعطار ١٧٦.

(٢) سورة الأنفال: ٤١.

فأخرجَ امرأته ثم أدخلها مع يحيى فى بيته، ثم قال لها: إِنْ أَرَادَكِ الوَلىُّ فلا تمنعيه نفسك، فإنه أحق بك منّى.

قال أبو على غريب بن سعد فى تاريخه: ذكر محمد بن داود بن الجراح: أن قُرْمُط رجلٌ من سواد الكوفة كان يحمل غُلاةَ السواد على أثوار له يسمى حمدان ويلقب بالقرمطى"[١].

قال: وذكر أن القرامطة[٢] جاءوا بكتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يقول الفرج بن عثمان، وهو من قرية يقال لها نَصْرَانة أنَّه داعية المسيح وأنه المهدى وهو الكلمة، وهو محمد بن الحنفية، وهو جبريل، وقد ذكر أن المسيح تصوّر له فى جسم الإنسان، وقال له إنّك الداعية، وإنّك الحُجّة، وإنك روح القُدُس، وإنك يحيى بن زكريا، وأنَّ الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، وأثبت فى الأذان: وأشهد أن موسى رسول الله، وأشهد أن عيسى رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا بن الحنفية رسول الله، وأن يقرأ فى كل ركعة بسورة الاستفتاح وهى من السور المُنَزَّلة بزعمهم على أحمد

(١) حمدان القرمطى، كان رأس الطريقة القرمطية، ولقبه «قرميط» أى: أحمر العينين، داعيا إسماعيليًا. الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٣٧٣.

(٢) القرامطة: أصحاب دعوة انتشرت فى بعض البلاد الإسلامية ٩٠١م بزعامة أحد الإسماعيليين، زعزعت العالم الإسلامى، ثم انتهى أمرها حينما اصطدمت بالحملات الصليبية. وانتشرت هذه الدعوة فى اليمن حينما بعث ميمون القدّاح الكوفى أحد دعاة ولده: وعُبَيْد الله المهدى جَدّ الفاطميين - باثنين من الدعاة إلى اليمن (٩٠٤م) هما: على بن الفضل الحميرى اليمنى الأصل، ومنصور بن حسن الكوفى، للدعوة له، ونجح عَلِىّ بن الفضل نجاحًا كبيرًا، واستولى (٩٠٦) على ذِمَار وصنعاء، وتغلَّب على جيوش الإمام الهادى، وقامت فى اليمن فتَنٌ وحروب كثيرة، واستباح على بن الفضل كثيرًا من الحرمات، وذكر بعض مؤرخى اليمن أنه ادَّعى النبوة، وكان يذكر فى أذان الصلاة، ولم تهدأ الحالة إلاَّ فى عام ٩١٥ عندما مات مسمومًا بيد أحد الأشراف عندما دُعى لحجامته. فوضع له السُّمَّ فى المبضع، وبموته انتهى أمر دولة القرامطة فى اليمن. أمَّا زميله: منصور بن حسن، فقد تغلَّب على جزءٍ من بلاد اليمن، وجعل مركز دعوته فى (مسور).

وبالرغم من أنَّ دعوة القرامطة لم تعمر إلاَّ وقتًا قصيرًا فى اليمن، فقد ظلت مبادئها مستمرَّة فى بعض أنحائها إلى عصر قريب، ويعرف أتباعها باسم المكارمة أو الباطنية. الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٣٧٣.

ابن محمد وهى:

الحمد لله بكلمته المستحمد إلى أوليائه، اتقونِ يا أولى الألباب، أنا الذى لا أسْأل، وأَنَا العلِيمُ الحكيم، فى كلام كبير بوعد ووعيدٍ.

ومن شرائعه أَنَّ يوم الاثنين ويوم الجمعة لا يُعْمَل فيه عَمَلٌ، وأنَّ الصوم يومان فى يوم المهرجان، ويوم النيروز، وأن النَّبِيذَ حرامٌ، وأن الخل حلال، وأن الغُسْلَ من الجنابة بوضوء الصلاة، ولا يؤكل كل ذى ناب من السباع ولا كل ذى مخلب.

قال أبو على غريب: وقيام القرامطة كان سنة سبع وثمانين ومائتين وفى يوم الجمعة سنة تسعين ومائتين قتل يحيى بن ركومة القرمطى الملقَّب بالمسيح، قتله المغربيُّون على باب دمشق، وكان يركَبُ جملاً لم يركب قط غيره وكان يأمر أصحابه ألاَّ يقاتلوا حتى ينبعث الجمل من قبل نفسه، وإنهم إنِ فعلوا ذلك لم يُهْزَموا.

وزعموا: أنه كان إذا أشار بيده إلى ناحية من تلك النواحى، والتى فيها محاربوه انهزمت تلك الناحية واستبْقُوا بذلك الأعراب.

وكان يتعمَّمُ عمامة أعرابية، ويلبس ثيابًا واسعةً.

وكان القرمطىّ صاحب الشام يكتب إلى أجناده وعُمَّاله:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن محمد بن عبد الله المهدىّ[1] المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله، الحاكم بحكم الله، الذابّ عن حَرَمِ الله، المختار من ولد رسول الله، أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، ومُذِلّ الفارقين المارِقين، وخليفة رَبِّ العالمين، وحَاصِر الظالمين، وقامعِ المعتدين وسراجِ المستبصرين، وضياء المستضيئين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين كثيرًا: إلى فلان: سلام عليكم فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأسأله أنْ تُصَلّى على محمد حبيبى رسول الله، أمَّا بعد، ثم يختم إن شاء الله: سبحانك اللهم وبحمدك، وتحيتهم فيها سَلاَمٌ، وأخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على جَدّى رسول الله عليه وسلم، قال عبد الله بن أبى الطاهر: ورد فى سنة سبع وثمانين ومائتين بدخول أبى سعيد القرمطىّ هَجَر، وذك بعد أربع سنين، وصلوا

---

(١) الروض المعطار ٢٨٦.

إلى قوم هلكًا جُوعًا وهَزْلاً، وبعد أن كان الوَبَاءُ قد نزل بهم فمات منهم خلقٌ كثيرٌ، وقتل منهم القرمطيُّ ثلاثمائة ألف، وطرحهم أحياء فى النار، ونجا منهم خلق كثير إلى جزيرة أَوَالِ.

قال: وبلغنى أنه لم يبق من أهل هَجَر يومئذ إلاَّ عشرون رجلاً، فسار جماعة من أصحاب الجنابِىّ إلى حِصْنٍ يقال له الفَلَج[(١)] بينه وبين هجر ستة أيام، وبين هذا الحصن وبين مكة سبعة أيام.

وقال قتادة: إن أصحاب الرَّسِّ الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه كانوا أهل فَلَج[(٢)].

* * *

الطريق من البحرين إلى عمَان

فأما الطريق من البحرين إلى عمان فقد كان فى البر ثم ركبه الرمل فالطريق بينهما اليوم فى البحر بين جبلين يسميان كُسَيْر وعُوَيْر[(٣)] وهو موضع كبير كثير ما تعطب فيه السفن حتى ينتهى إلى موضع من البحر يسمى: دَرْدُور[(٤)] إلى موضع يقال له حرثان من ساحل عمان.

يخرج من مكة نحواً من عشرين يومًا إلى طريق معتدل الهواء، بَرّىّ ذِى رَمْلٍ وحصًى، يُنْبَطُ فيه كله المياه بأدنى شىء، وبالبحث عليه باليد ومراحل الناس فى المنازل التى بها الغنم والبقر حتى يفضى إلى مدينه نجران[(٥)] وهى من بلاد هَمْدَان

---

(١) مراصد الاطلاع ٣/ ١٠٤١.

(٢) إلى هنا النقل فى الروض المعطار ٢٨٦.

(٣) كُسَيْر وعُوَير: جبلان عظيمان مُشْرِفان على أقصى بحر عُمَان، صَعْب المسلك، وعن المقصد صعب المنجَى، وكذلك يقولون: كُسَيْرٌ وعُوَيرٌ وثالث ليس فيه خيرٌ. مراصد الاطلاع ٣/ ١١٦٦ ومعجم ما استعجم ٤/ ١٩ ومجمع الأمثال للميدانى ٢/ ٦٢.

(٤) دَرْدور: موضع فى سواحل بحر عمان، مضيق بين جبلين، تسلُكه الصغار من السُّفُن. مراصد الاطلاع ٢/ ٥٢٢.

(٥) نجران ومن مخاليف اليمن من ناحية مكة، وبها كان خبر الأخدُود، وإليها تُنْسَبُ كعبة نجران =

بين قرى ومدائن وعمائر وماء.

وطريق آخر يعرف بطريق تهامة، وأكثره وبَاءٌ يخرج من مكة فتسير أربعة فراسخ فى أرض ذات حِصًى.

وعن يمين الساحل جبال مُتَّصِلَةٌ حتى تأتى منزلة ذات نخل وسائره، ويحيط بهذه المنزلة نجيلٌ أسود كالَحلفَة، ترتحل مُغَربا ذلك الجبل وتُفْضِى إلى أرضٍ ذات حصىً وغور ونجد، ثم تفضى إلى أرض شجرها الدّوم وكلؤُها الإذْخِر، وماؤها حفائر قريبة المتناول، وبها المنزل، ثم يسير إلى بريّة مثل الأول حصًى وجبال وأودية نحو ثلاثة فراسخ إلى يَلَمْلَم[1] وهى قرية من قرى مكة وهى مُهَلُّ أهل اليمن، ماؤها آبار وعيون، فمن نعت أحد منهما فى برية ومكة شجَرُها الأراك وكَلَؤُها الإذْخِر وفيها سَوَائِمُ المال ورُعَاتُه فى الغالب إلى مدينة السدّين، وهى مدينه عظيمة فيها أسواقٌ ومسجدٌ جامعٌ على ساحل البحر، وسورُها فى البحر، وأكثر بنائها من الخشب، فلا يستعمل فيها وقود بل يُسخّن الماء خارجًا منها ويغتسَلُ به داخلها.

وسَقْيُها ومشارِبُهم من ماء السماء، وهى من عَمل مكة، وفيها مزارع وأكثر زروعهم الذرة والسمسم، والمِيرَةُ تُجْلَبُ إليها من غَزَّةَ وجَرَدَة، وغَزَّةَ منها على مسيرة عشرة أيام، وجَرَدَة[2] من ثغور الحبشة.

وهى على مسيرة خمسة عشر يومًا، ومن أراد منها طعامًا ركب البحر إلى جَرَدَة وهى من تهامه، ومن أراد أن يركب البريّة إلى صنعاء فإنه يسيرُ من السدَّين على قرى لبنى كِنَانَة نحو سِتَّة فراسخ، وفى تلك الناحية مدينة جلى: وهى مدينة كانت من عمل ابن المغيرة الذى حارب الحاجّ أيام الموسم، واقتلع الذهب من باب البيت وقد كانت هذه المدينة فيما سلف من عمل مكة، وأقام فيها سنة اثنتى عشرة

= وكانت ربيعة بها أساقفة مقيمون، منهم: السَّيد والعاقب اللذان جاءا إلى النبىّ ﷺ فى أصحابهما ودعاهما إلى المباهَلة، وبَقُوا بها إلى أنْ أجلاهم عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه منها. مراصد الاطلاع ٣/ ١٣٥٩.

(١) يَلَمْلم ويقال أَلَمْلَم: موضعٌ على ليلتين من مكّة، وهو ميقات أهل اليمن وفيه مسجدٌ لمعاذ بن جبل. مراصد الاطلاع ١/ ٣٢٥ ومعجم ما استعجم ١/ ١٧٣.

(٢) جَرَدة، من نواحى اليمامة. مراصد الاطلاع ١/ ٣٢٥.

وأربعمائة رجلٌ من بنى جذام، وخالف صاحب اليمن، ودعا إلى نفسه، فحشد إليه أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحَسَنى صاحب مكة قبائل العرب فحاربه وأخذها، وجلب الجذامى معه، وتملّك جَلَى ثم ردًّها إلى صاحب صنعاء وهى مدينة ضَخْمَةٌ رملية، بناؤها من الخشب والحشيش، ذات قرى ومساكن ودَسَاكر، وماؤُهم من الآبار والأمطار.

* * *

ذكر اليمامة

هى منازل الأمير وهى منازل الحِجْر وبنى حنيفة وبعض مُضَر، وهى من حِجْر على يوم وليلة، وبها بنو سحيم وبنو تمامة، وبنو عامر، وبنو عجل والعروض[1] من وادى اليمامة، من أعلاها لأسفلها قرى ينزلها بنو حنيفة وأسفلها الكوش: قرية ينزلها بنوعَدِىّ بن حنيفة.

* * *

الطريق من البصرة إلى كاظمة[2]

الطريق من البصرة إلى كاظمة مرحلتين، ومنها إلى القرعى ثلاث مراحل، ونفر إلى طغفة مرحلة، وكذلك إلى الصماوة، ثم خمس مراحل إلى جُبّ التراب وثلاث مراحل إلى سنيحَدَة، ثم إلى الترتال، ثم إلى سليخة اليمامة فذلك خمس عشرة مرحلة.

---

(١) قال ابن الكلبى: بلاد اليمامة والبحرين وما والاها العروض، وفيها: نجد وَغْور لِقربها من البحر، وانخفاض مواضع منها ومسايل أودية، والعروض يجمع ذلك كله. مراصد الاطلاع ٢/ ٩٣٥.

(٢) كاظمة: معجمة الظاء: جَوٌّ على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان، وفيها ركايا كثيرة، وماؤها شروب. معجم البلدان (كاظمة) ومراصد الاطلاع ٣/ ١١٤٣.

واسم اليمامة جوّ، وسُمِّيت بالمرأة اليمامة، وحَديثها معروف(١)، وقيل غير ذلك.

ذكر أن طَسْماً نزل الجَوْفَ مع من اتَّبعه من بَنِيه وقومه، واسمها يومئذ جوّ وإنما سماها اليمامة تُبَّع الآخر، حين خرج بجيش عظيم، فعطش الجيش، وعدموا الماء فحفر كل واحد منهم قبرهُ من شدَّة العطش، فمرت بهم يَمَامَةُ فقال لهم: اتَّبِعُوها فإنها إنما ترد الماء فاتَّبعُوها، فأصابوا نهراً وهو الفرات فشربوا وسقوا واستقوا.

* * *

الطريق من البصرة إلى مكة

من البصرة إلى السحبشانية ثمانية أميال، إلى الحفيرة عشرة أميال، إلى الرحيل ثمانية وعشرين ميلاً، إلى السنجاك ستة وعشرين ميلاً، إلى الدوحة ثلاثة وثلاثون ميلاً إلى حَفْرِ أبى موسى ستة وعشرون ميلاً، إلى ناوية اثنان وثلاثون ميلاً، إلى السرعة ثلاثة وعشرون ميلاً، إلى السمية تسعة وعشرون ميلاً، إلى النباح ثلاثة وعشرون ميلاً إلى العوسجة(٢) سبعة وعشرون ميلاً، إلى القريتين اثنين وعشرين ميلاً إلى حَوِيلة اثنان وثلاثون ميلاً، إلى بلجة خمسة وثلاثون ميلاً إلى وجرة(٣) أربعون ميلاً، إلى أَوْطَاس أربعة وعشرون ميلاً إلى السكّة ومن السكّة إلى مَدَان ثلاثة أميال، ومن وَجْرَة إلى ذات عِرْق(٤): وهى ميقاتُ أهل العراق سبعة وعشرون ميلاً، ومسجد رسول الله ﷺ دون ذات عرق بميلين ونصف، وهو ميقات أهل العراق، والمسجد الذى فى ذات عرق الكبير الذى فيه البئر مسجد النبى ﷺ.

---

(١) معجم ما استعجم ١/٢٩٧ و٢/٤٧.

(٢) عَوْسجة: واحدة العوسج، فى بلاد باهلة، من معادن الفِضَّة، ويقال لها عَوْسجة. مراصد الاطلاع ٢/٩٧١.

(٣) وَجْرَة: منزل من طريق مكة من البصرة، بينه وبين البصرة أربعون ميلا، ليس بينهما منزل، فهو قُرب للوحش. مراصد الاطلاع ٣/١٤٢٦ ومعجم ما استعجم ٤/٢٠٢.

(٤) ذات عِرْق: مُهَلّ أهل العراق، وهو الحَدُّ بين تهامة ونجد. مراصد الاطلاع ٢/٩٣٢.

ذكر البيت الحرام وبنائه والمشهور من أخباره

ولى البيت بعد إبراهيم إسماعيل، ثم وَلِيَ بعده نابت بن إسماعيل. هكذا قال ابن إسحاق[١]، وقال ابن الزبير وابن الكلبى: نابت بن إسماعيل وأُمُّه جُرْهُمِيَّة، فَوَلِيَه ما شاء الله، ثم مات نابت، فَوَلِيَهُ جَدُّه مُضَاض بن عمرو بن غالب الجُرْهُمى، وفى ذلك يقول مُضَاض بن عمرو بن الحارث: [من الطويل]

وَكُنَّا وُلاة البَيْت مِنْ بَعْـدِ نَابِت　　يَطُوفُ بذاك البيتِ والخيرُ ظَاهِرُ[٢]

وجُرْهُم وقطورى يومئذ أهل مكة وهم اخوان، ورئيس قطورى السَّمَيْدَع. ورئيس جرهم مُضَاض، ومنزل جُرْهُم أعلى مكة: قعيقعان[٣] فما جازه، ومنزل قطورى أسفل مكة بأجياد، فكان السَّمَيْدَع يُعَشِّر من دخل مكة من أسفلها، ومُضَاض يُعَشِّر من دخلها من أعلاها.

ثم إنهما بغى بعضهما على بعض وتنافَسَا المُلْكِ ثَمَّ، ومَعَ مُضَاض بنو إسماعيل وإليه وِلاَيةُ البيت دون السَّمَيْدَع، فخرج مُضَاض فى كتيبة من قعيقعان سائرًا إلى السميدع، فسمى قعيقعان بقعقعة السلاح، وخرج السميدع من أجياد ومعه الخيل والرجال، فقيل إنه مَا سُمِّى أجياد إلا لخروج الخيل الجياد مع السميدع[٤] منه، فالتقوا بفاضح فاقتتلوا قتالاً شديدًا فقتل السميدع وفضحت قطورى فقيل ما سمى فاضحًا إلا لذلك[٥].

ثم إن القوم تداعوا إلى الصلح فسارعوا حتى نزلوا المطابخ بأعلى مكة وهو شِعْبُ بنى عامر فاصطلحوا هناك، وسلَّموا الأمر إلى مضاض فنحر لهم

(١) أخبار مكة للأزرقى ١/١٠٨ وسيرة ابن هشام ١/١٠٢.

(٢) البيت لِمَضَاض بن عمرو فى أخبار مكة للأزرقى ١/١٢٢، وروايته:

فكُنَّا وَلاَةَ البيت من بعـد نابت　　نَمَشَّى بهذا البيت والخيرُ ظاهر

(٣) قعيقعان: اسمُ جبل بمكة، قيل إنما سُمِّى بذلك، لأن قطوراء وجرهم لَمَّا تحارب قَعْقَعَت الأسلحة فيه. معجم البلدان ٤/٤٣١.

(٤) أخبار مكة للأزرقى ١/١٠٩ وسيرة ابن هشام ١/١٠٣.

(٥) أخبار مكة للأزرقى ١/ ١١٠ وسيرة ابن هشام ١/١٠٤.

وأطعمهم. وقيل ما سُمِّيت المطابخ إلا لذلك(١).

وبعض أهل العلم يزعم إنما سميت المطابخ لأن طعام تُبَّع كان يطبخ بها، وكذلك قالوا فى أجياد أنه كان موضعَ جِيادِهِ.

فبقيتْ جُرْهُم وُلاَة البيت نحو ثلاثمائة سنة ثم إنهم بغوا بمكة، واستحلوا محارمها، وظلموا من دخلَها، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها، ولم يتناهوا حتى جعل الرجل إذا لم يجد مكانًا يَزْنى فيه دخل الكعبة فزنا فيها.

فزعموا أن أسافًا ونائلة فجرا فى جوف الكعبة(٢) فمسخا حجرين وهو إساف بن سهيل، ونائله بنت ذئب(٣)، وتفرق أولاد عمرو بن عامر من اليمن، فانخدع منهم بنو حارثة بن عمرو فأوطنوا تهامة، فسميت خزاعة، وبعث الله على خزاعة الرعاف والنمل فأفناهم، واجتمعت خزاعة ليخلوا مَنْ بقى بمكة، ورئيس خزاعة عمرو بن ربيعة، وهو يحيى بن حارثة بن عمرو بن عامر، وأمه فُهَيْرة بنت عمرو ابن الحارث بن مُضَاض الأكبر. فلما أحس عمرو بن الحارث بن مُضَاض وهو رئيس جُرهم بخزاعة الهزيمة. خرج يعْدُو إلى الكعبة وجحدَ الرُّكْنَ يلتمس التوبة وهو يقول فى ذلك: [من الرجز]

لاَهُمَّ إنَّ جُـرْهُمًا عِبَــادُك
النَّاس طَرْفٌ وَهُمُو تلادُك
وَهُمُو قَدِيمًا عَمَّروا بِلادَك

فلم تُقْبَل توبته فألقى غَزَالَى الكعبة، وجحد الركن فى زمزم، ثم دفَنَها، وخرج فى من بَقى من جرهم إلى أرضٍ من أرض جُهَيْنَة فَجَأَهُم سَيْلٌ، فذهب بهم فقال أميَّة بن أبى الصلت:

وجُرْهم دَهَّمُوا تهامة فى الدْ دَهر فَسَالَتْ بِجرهم إضَـمُ(٤)

---

(١) أخبار مكة للأزرقى ١/ ١١٠ وسيرة ابن هشام ١/ ١٠٤.

(٢) عبارة الأزرقى فى تاريخ مكة ١/ ١١٤ «قال بعض أهل العلم: إنه لم يفجر بها فى البيت، وإنّما قبّلها».

(٣) فى الأصل «ذؤيب» والتصحيح عن أخبار مكة للأزرقى ١/ ١١٤.

(٤) البيت لأمية بن أبى الصَّلت فى مروج الذهب ٢/ ٥٥، وفيه (دَمِنُوا) مكان (دهموا) و(بجمعهم) مكان (بجرهم).

وكان ماء زمزم قد نضبت لما أحرقت جرهم بمكة حتى انتحى مكان البئر ودرَس، فأتى مُضَاض بن عمرو وبعض ولده فى ليلة مظلمة، فحفر فى موضع زمزم، ودفن فيه وأعمق، ودفن هناك غَزَالَى الكعبة، وحجر الركن وأسيافًا قلعية، وانطلق هو ومن معه إلى اليمن.

وروى الزبير عن رجاله، عن ابن شهاب أنه قال: لم يَبْقَ من جُرْهُم غير حَى فى مكانٍ من كنانة، وهم قليل وآخرون فى حكَم بن الهَوْنِ.

فوَلِيَ البيت عمرو بن ربيعة.

وقال ابن قُصَى: بل وَلِيَهُ عمرو بن الحارث بن عمرو، وأخذ بنى غسان بن سليم من بنى مَلكان بن قُصَى بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهم كلهم من خزاعة وهو الذى يقول: [من الطويل]

ونحن وَلِينَا البَيْتَ من بعد جُرْهُم ... ولنمنعْـهُ مِنْ كل باغٍ وَمُلْحِـدِ

وقال أيضًا:

وإذ حَرَامٌ طَيْرُهُ وَوَحْشُـهُ ... وَنَحْنُ وُلاَتُه فلا تَغْشَهُ

وابنُ مُضَاضٍ قائم يَهُشُّهُ ... يَأْخُذُ مَا يُهْـدَى لَهُ يَقُشُّـه[1]

وقد كان بنو إسماعيل، فاعتزلوا حرب جرهم، وخُزاعة، فجاءوا خزاعة وسَأَلُوهم السُّكْنَى معهم فأَذِنُوا لهم.

وقال عَمْرَو بن لُحَىّ: مَنْ وَجَدَ منكم جُرْهُمِيًا قد قارب الحَرَمَ، فدمُه هَدَرٌ فَرَعَتْ إِبِلٌ لمِضَاضَ بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو بن قَنَونى تريد مكَّةَ، فخرجَ فى تبعها، فوجَدها قَدْ دَخَلَتْ مكَّهَ، فمضى على الجبال من نواحيها، حتى صار على أبى قُبَيْس يَنْتَظِرُ الإِبلَ فى وادى مكة، فأبصرها تُنْحَر وتُؤْكَل، ولا سبيل له إليها وخاف إن هبط إلى الوادى أَنْ يُقْتَلَ فولى منصرفًا ثم أنشأ يقول[2]: [من الطويل]

---

(١) الأبيات لعمرو بن الحارث بن عمرو العشبانى فى أخبار مكة للأزرقى ١/ ١٢٤.

(٢) الأبيات لمُضَاض بن عمرو بن الحارث الجرهمى - وقيل غيره، وقد ذكرها الأزرقى فى تاريخ مكة ١/ ٩٧ و١٢١ (ط/ الباز) ولعمرو بن الحارث بن مضاض فى سيرة ابن هشام ١/ ١٠٦ ولرجل من جرهم فى أخبار مكة للفاكهى ٤/ ١٤٣. وانظر: شفاء الغرام ١/ ٣٧٥.

كَأَنْ لَمْ يكُنْ بين الحَجُونِ إلى الصَّفا ... أَنِيسٌ ولَمْ يَسْمُرْ بمكَّـةَ سَامِرُ[١]
نعم[٢] نحن كنَّا أهلها فأزالَنا ... صُرُوفُ اللَّيالى والجدود العوائر
وكُنَّا لإِسمَاعِيلَ صِهْرًا وَجِيرةً ... ولم تَـدُرْ علينـا الدَّوَائـرُ
وَصَاهَرْنَا مِنْ أكرمِ النَّاس وَالِدًا ... فَأَبْنَاؤُه منَّا ونحن الأَصَـاهِرُ
وأَخْرَجَنَا منها المليكُ بقدرةٍ ... كذلك يَا لَلنَّاس تَجْرِى المقادرُ
وأَبْدَلَنَا ولِى بَهـا دَارُ غُرْبَةٍ ... بها الذِّئْبُ يَعْوى والعدو المُحَاصِرُ
أقولُ إِذَا نَامَ الخَـلِىُّ ولم أَنَمْ ... إِذ العرشُ لا يَبْعُـد سَلِيمٌ وعامِرُ[٣]
وبُدِّلْتُ منها أَوْجُهًا لا أُحِبُّها ... قبائل منها حمير وتحاسرُ
وصونا أحاديثا وكنا بِغبْطةٍ ... بذلك عَضَّتْنَا السنونُ الغوابرُ
فسَحَّتْ دموعُ العين تَبْكى لبلدةٍ ... بها حَرَمٌ آمنٌ وفيها المشاعرُ[٤]
فبطنُ مِنَى أَمْسَى كَأَنْ لم يكُنْ به ... مُضَاضٌ وَمِنْ حَىٍّ عَدِىّ بن غادرُ
فهل فرحٌ آتٍ بمنًى وجوده ... وهَلْ فَزَعٌ يُنْجِيكَ مما تُحَاذِرُ

قال الزُّبَيْرُ: [من البسيط]

يا أيُّها الناسُ سِيروا إِنَّ قَصرْكمُوا ... أَنْ تُصْبِحُوا ذات يوم لا تَسِيرُونَا
كُنَّا أُنَاسًا كما كنتموا دهرًا ... فأنتم وكَمَا كُنَّا تكُونُونَا
حُثُّوا المطِىَّ وأَرْخُوا مِنْ أَزِمَّتها ... قبلَ المَمَاتِ وأَقْضُوا مَا تقضّونَا
وأَحْكِمُوا أمرَ دُنْيَاكم فإِنَّكمُ ... كَمَا يَمُوت الأُلى أَنْتُم تَمُوتُونَا
قد مالَ دهرٌ علينا ثم أَهْلَكَنا ... بالبغى فيه فَقَدْ صِرنَا أَفَانِينَا
كُنَّا زَمانًا مُلوكَ النَّاس قَبْلَكمُ ... وفى بلادٍ حَرَامٍ كانَ يأوِينا[٥]

(١) الحَجُون بفتح الحاء: على فرسخ وثلث من مكة.
(٢) فى سيرة ابن هشام ١/١٠٦ وأخبار مكة للأزرقى ١/ ١٢١ «تكبى».
(٣) عامر: جبل من جبال مكة.
(٤) المشاعر: أماكن العبارة.
(٥) الأبيات لعمرو بن مضاض الجرهمى فى أخبار مكة للأزرقى ١/ ١٢٢، والثلاثة الأبيات الأول له فى سيرة ابن هشام ١٠٧١١.

فغيَّر عمرو بن لُحَىّ دينَهُ ودينَ إبراهيمَ، وَبدَّلَهُ، وحَثَّ العربَ على عبادة التماثيل كما بيَّنَّا فيما سلف من هذا الكتاب وفى هذا يقول رَجُلٌ من جُرْهُمَ كان على الحنفية:

يَا عَمْرو لا تَظْلِمْ بمكـة ... إنَّهــا بَلَـدٌ حَـرَامُ
سَائِلْ بِعَـادٍ أينَ هُمْ ... وكَـذا يُخْتَـرَمُ الأَنَـامُ
وبَنِى العَمَـاليق الذيـ ... ـن لهم بها كَانَ السَّوَامُ(١)

ولما أكثر عمرو بن لُحَىّ من نصب الأصنام حول الكعبة، وغلَب على العرب عبادتها وانمحت الحنيفيةُ منهم إلاَّ لُمَعًا، قال شحنةُ بن خَلَف الجُرْهُمِىُّ: [من البسيط].

يا عمرو إنَّك قـد أَحْدَثْتَ آلِهـة ... شتَّى بمكّةَ حَـوْلَ البَيْتِ أَنْصَـابَا
وكـانَ للبيتِ رَبٌّ وَاحِـدٌ أبدًا ... فَقَـدْ جعَلْتَ له فى الناس أَرْبَابَا
لَتَعْرِفَـنَّ بأنَّ الله فى مَهَـلٍ ... سَيَصْطَفِى دُونكُم للبيت حُجَّابَا(٢)

وعُمِّر ابن لُحَىّ ثلاثمائة سنة وخمسًا وأربعين سنة، وكان له من الولد وولد الولد ألف.

ثم وليت البيت غبيشان من خزاعة دون بنى بكر بن عبد مناه، وكان الذى وَلِيه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى، وقريش إذ ذاك حلول وصِرَمٌ، وبيوتٌ متفرّقة فى قومهم من بنى كاغد، واستمرت ولاية خزاعة البيت كابرًا عن كابر حتى كان آخرهم خليل بن حبشية بن كعب بن عمرو الخزاعىّ، وكانت ابنته زوجة قُصَىّ ابن كلاب.

* * *

(١) الأبيات لرجل من جُرْهم فى أخبار مكة للأزرقى ١/١٢٣-١٢٤ ومروج الذهب ٢/٦١.
(٢) الأبيات لشحنة بن خلف الجرهمى فى مروج الذهب ٢/٦١.

ذكر انهدام البيت

بعد إبراهيم عليه السلام كان العمالقةُ وغيرهم إياه، وانهدم البيت بعد بناء إبراهيم له، بَنَتْهُ العمالقةُ، ثم انهدم، فبَنَتْهُ جُرْهُم، ثم انهدم فبناه قُصَىّ بن كلاب، أو هَدمَهُ هو، وبناه بناءً لم يَبْنِ أحدٌ ممن بَنَاهُ مِثْلَهُ قال الزبير: وجعل قُصَىٌّ يَبْنى الكعبةَ ويقول: [من البسيط]

أَبْنى ونَبْنى ويَبْنى، اللّٰهُ يَرْفَعُها ابْنى ونَبْنى ويَبْنى اللّٰه أَرْفَعَها

بنيناها وبناؤها وحجابها بيد اللّٰه وليس بالعبدِ

وقال: فبناها وسقَّفَها بخشبِ الدُّوم الجيّد، وبجريد النخل، بناها على خمس وعشرين ذراعًا.

قالوا: ومما رَجَتْ به قريشٌ أَنَّ اللّٰه قد رضى عَمَّا كانوا أجمعوا عليه من هَدْمِ الكعبة: أَنَّ حَيَّةً كانت فى بئر الكعبة التى يطرح فيها ما كان يُهْدَى إليها فتخرج كُلَّ يَوْمٍ تشرفُ على جَدَارِ الكعبة، فلا يدنو منها أَحَدٌ إلا احْزَأَلَّت[١] وكَشَّت،وفَغَرتْ فَاهَا، فكان مِمَّا يَهابُون، فبينما تُشْرِفُ على جدارِ الكعبة كما كانت تفعل إذا بعث اللّٰه إليها طائرًا فاخْتَطَفهَا وذهبَ بها، وفى ذلك يقول الزُّبير[٢]: [من الوافر]

عَجِبْتُ لدى تصَوَّتِ العُقَابُ إلى الثعبان وهى لها اضطراب

وقد كانت يكون لها كَشِيشٌ وأَحْيَانًا يكون لها وثَابُ

فَلَّما أَنْ خَشِينا الرجْزَ جَاءَت عقابٌ لها من الجوّ انْصبَابُ

فَضمَّتها إليها ثم خلّت لنا البنيان ليس له حجابُ

فقمنا خاشعين إلى بناء لنا منه القواعد والترابُ

غداه نُرَفِّعُ التأسيسَ منه وليس على مُسَوِّينا ثِيابُ[٣]

---

(١) احْزَأَلَّت: أى رفعت ذنبها، وكَشَّت: أى: صوَّتَتْ.

(٢) الأبيات للزُّبير بن عبد المطلب فى سيرة ابن هشام ١/١٨٣.

(٣) أى: مُسَوّى البنيان. وهو فى معنى الحديث الصحيح فى نقلانهم الحجارة إلى الكعبة أنهم =

وقد حَشَدَتْ هناك بَنُو عَـدِىّ ... ومُرَّةَ قَـدْ تَقدَّمهـا كِلاَبُ
أَعَزَّ بهـا المليـكُ بَنِى لُؤَىّ ... فليس لأصلهم منهـا ذهاب
وبَوَّأَكَ إلاَلَهُ لِذَاكَ مَجْـدًا[١] ... وَعِنْـدَ اللهِ يُلْتَمَسُ الثوابُ

* * *

ذكر حرق الكعبة[٢]

فلمَّا احترقت الكعبة، واحترق الركن الأسود، حتى شدَّهُ ابن الزبير بالفضّة على حسب ما نُورِده بعد ذلك إن شاء الله تعالى.. ضَعُفت جدران الكعبة حتى إنَّ الحمام يقع عليها فتنتثرُ حجارتها، وهى مجرَّدة متوهِّية من كل جانب ففزعَ لذلك أهل مكة وأهل الشام جميعًا، والحُصين بن نُمَيْر مُقِيمٌ يُحَاصِرُها فأرسلَ إليهم ابن الزبير رجالاً من أهل مكَّة، من قريش وغيرهم، منهم: عبد الله بن خالد بن أُسَيْد إلى الحُصين يكلِّمونه، وعظَّموا عليه ما أصاب الكعبة، وقالوا: إنكم رميتمونا بالنفط، فأنكروا ذلك، وقالوا وقد تُوُفِّى يزيد بن معاوية فعلى من تقاتل[٣]؟ ارجع إلى الشام حتى تنظرَ هل يجتمع الناس على صاحبك، يعنون: معاوية بن يزيد، فلم يزالُوا به حتى لان لهم وخرج إلى الشام، وكان خروجهُ من مكة لخمسِ ليالٍ خَلَوْنَ من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين.

* * *

= كانوا ينقلونها عراة، ويرون ذلك دِينا، وأنه من باب التشمير والجدّ فى الطاعة. انظر للمزيد: سيرة ابن هشام ١/ ١٨٣.

(١) فى سيرة ابن هشام ١/ ١٨٣ «فَبَوَّأنا المليكُ بذاك عِزًا».

(٢) انظر: تاريخ مكة للأزرقى ١/ ٢١٨ـ٢٢١.

(٣) تاريخ مكة للأزرقى ١/ ٢٢٤.

ذكر هدم الحجاج الكعبة

ودخل الحجَّاجُ مكة فكتب إليه عبد الملك بن مروان: إنَّ ابن الزبير كان قد زاد فى بيت الله عزَّ وجَلَّ ما ليس فيه، فكتب إليه الحجَّاجُ يستأذنُه فى أن يردَّه على ما كان عليه، فأمره بذلك، فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مما يلى الحِجْر، وبناها على أساس قريش، وستر الباب الذى فى ظهرها، وترك سائرها لم يُحَرِّكْ منه شيئًا. وكتبنا ما هدم، فكل شىء منها اليوم: بناء الزبير إلا الجدار الذى فى الحِجْر فإنه بناه الحجَّاج.

والمُرتَقَى إلى الباب الشرقى الذى يدخل منه اليوم: أربع أذرع وشبر والدرجة التى فى جوف الكعبة اليوم، والبابان الموازيان عليهما من عمل الحجّاج أيضا، وذكر بنيان عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

* * *

درج المسجد الحرام والذى فى جوفه

قال ابن جريج من كتاب الأزرقى: «ولم يكن على المسجد الحرام، والذى فى جوفه الكعبة جَدَارَاتٌ محيطةٌ، إنما كانت الدُّورُ محدقةً به من كل جانب، غير أنَّ بين الدور أبوابًا يُدْخَلُ منها من جميع نواحيه، فضاق على الناس، فاشترى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دُورًا فهدمها، وأَبَى بعضُهم أن يأخذ الثمن وتمنَّع من البيع، فوضعت أثمانُها فى خزانة الكعبة، وهدمها حتى أخذُوها بعد ذلك، ثم أحاط عليها جدارًا قصيرًا، وقال لهم: إنما نَزَلْتُم على الكعبة فهو فناؤُها ولم تنزل عليكم.

ثم كثر الناس فى زمن عثمان بن عفان فوسع المسجد فاشترى دورًا من قوم وأبى آخرون أن يبيعوا فهدم عليهم، فصاحوا به، فقال إنَّما جَرَّأكم عَلَيَّ حُلْمِى عنكم»[1].

(١) تاريخ مكة للأزرقى ٢/ ٤٥٠.

ذكر زيادة ابن الزبير فى المسجد

وزاد ابن الزبير أيضًا فى المسجد واشترى دورًا من الناس، وأدخلها فى المسجد، وسقف المسجد ولم يكن له سقف، إنما كان محدقًا بجدار قصير، وكانوا يجلسون إليه بالغداة والعشى يبتغون الأفياء، فإذا قلص الظلُّ قامت المجالس.

ثم رفع عبد الملك جدارات الكعبه وسقَّفَه بالسَّاج.

ثم أحكم الوليد بن عبد الملك عمد المسجد، ونقل إليه أساطين الرخام وسقَّفه بالسَّاج المزخرف، وجعل على رءوس الأساطين الذهب وجعل للمسجد شرفات[1].

* * *

ذرع المسجد والكعبة والحِجْر

ذَرْعُ المسجد طولاً من باب بنى جُمح إلى باب بنى هاشم. الذى عند العَلَم الأخضر، ويقابل دار العباس بن عبد المطلب.

وذَرْعُ وجهها من الركن الأسود إلى الشامى، ومن الركن الأسود إلى اليمانى إلى الغربى، ومن الشامى إلى الغَرْبى، وغلظ جدرانها فتكسر جميعًا وطول الحجر الأسود فى الجدار ذراع وشبر، وعرضه كذا إصبعًا.

* * *

ذكر أبواب المسجد الحرام وأساطينها

وهى ثلاثة وعشرون بابًا فيها ثلاث وأربعون طاقة، من ذلك فى الصف الذى يلى المسعَى وهو أكثر من خمسة أبواب:

الباب الكبير: الذى يقال له باب شَيْبَة وهو بابَ عبد شمس بن عبد مناف،

(١) تاريخ مكة للأزرقى ٢/ ٤٥٣.

وبهم كان يُعْرَف فى الجاهلية والإسلام عند أهل مكة، هو ثلاث طاقات على أسطوانتين وما بين جدارنه أربع وعشرون ذراعًا.

والباب الثانى: هو باب القوارير: طاقة واحدة، وعرضه سبع أذرع وارتفاعه عشر.

والباب الثالث: وهو بابُ النَّبى ﷺ كان يخرج منه ويدخل إلى منزله الذى فى زقاق العطَّارين ويقال له الآن مسجد خديجة.

والباب الرابع: وهو باب العبّاس بن عبد المطلب: ثلاث طاقات على أسطوانتين وما بين جدارى الباب إحدى وعشرون ذراعًا.

والباب الخامس: وهو باب بنى هاشم وهو مستقبل الوادى وهو ثلاث طاقات على أسطوانتين، وما بين جدرانه إحدى وعشرون ذراعًا ومنها الشق الذى يلى الوادى، وهو الشقُّ اليمانى سبعة أبواب.

صفة الحجْر: كنصف دائرة مفروش الصحن بالرخام، وهو من الركن الشامى إلى الركن الغربى، وله بابٌ مما يلى الركن الشامى، وبابٌ مما يلى الركن الغربى، وعرضه من جدار الكعبة التى تحت الميزاب إلى جدار الحجْر سبعة عشر ذراعًا وثمانى أصابع، وذَرْعُ ما بين بَابَيْه عشرون، وعرضه وتَدْوِيره من داخله ثمانية وثلاثون، ومن خارج أربعون، وارتفاع جداره ذراع واحدة وعرضه ذراعان إلا إصبعين.

❊ ❊ ❊

ذكر مقام إبراهيم عليه السلام

المقام مربع مستطيل له ثمانية وجوه، فذرع رُكْنه أربعة عشر إصبعًا[١] فى مثلها، وعرض طوله إحدى وعشرين إصبعا، وهو مطوق بالذهب، وأثر القدم فى أحد وجوهه الطوال.

قال الأزرقى: وكان السيول تدخل المسجد الحرام من الباب المنسوب إلى بنى شيبة قبل أن يردم عمر بن الخطاب الرَّدْم الأعلى[٢]، وكان يقال لهذا الباب باب السَّيْل.

* * *

(١) قال الفاكهى فى تاريخ مكة ١/ ٤٨١ ذرعُ المقام مُرَبَّعٌ، سعة أعلاه أربعة عشر إصبعًا فى أربعة عشر إصبعًا، ومن أسفله مثل ذلك، وفى طرفيه من أعلاه وأسفله كان فيما مضى من الزمن طوقان، طوق من ذهب، وبين الطوقين من حجر المقام بارز لا ذهبَ عليه. طوله من نواحيه كلها تسع أصابع وعرضه عشر أصابع، وذلك قبل أن يُجْعَلَ عليه الذهب الذى كان عليه من عمل أمير المؤمنين جعفر المتوكّل على الله.
وعرض حجر المقام من نواحيه إحدى وعشرون إصبعًا، ووسطه مربّع والقدمان داخلان فى الحجر سبعَ أصابِع، ودخولهما منحرفتان، وبين القدمين من الحجر إصبعان، ووسطه قد استدقّ من التمسّح به فيما مضى».
وانظر أيضًا: تاريخ مكة للأزرقى ٢/ ٤١٠.

(٢) عن حبيب بن الأشرس قال: كان سَيْلُ أُمِّ نهشل قبل أن يعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ الرَّوْمَ بمكة، فاحتمل المقامَ من مكانه، فلم يُدْرَ أين موضعه، فلمَّا قَدِم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ مكة، سأل: مَنْ يعلم موضعه؟ فقام المُطَّلب بن أبى وداعة السَّهْمِى فقال: أنا يا أمير المؤمنين، قد كنتُ قَدَرْتُه وذرعته بمقاط ـ وتخوّفت هذا عليه ـ من الحجر إليه، ومن الرُّكن إليه، ومن وجه الكعبة، قال: ائت به، فجاء به فوضعه فى موضعه هذا، وعمل الرَّدم. أخبار مكة للفاكهى ١/ ٤٥٦ وللأزرقى ٢/ ٤٠٧.

ذكر الملتزم والحَطِيم وزمزم

غور زمزم ستون ذراعًا وهو شرقى الكعبة، وفى قعرها ثلاثون عينًا قال رسول الله ﷺ: «مَاءُ زَمزمَ لما شُربَ لَهُ»(١).

وقال ايضًا: «ماء زمزم لنا شَرَفٌ».

وأمّا الحَطِيم: فهو بين الكعبة وزمزم والمقام.

قال الأزرقى: ما بين حجرة زمزم إلى جدار الحوض الذى قدام السقاية: سقاية العباس بن عبد المطلب وهى إلى القبة، إحدى وعشرون ذراعًا ونصف وذرع بطن الحوض اثنى عشر ذراعًا ونصف إصبع.

وروى أن على بن أبى طالب حَدَّثَ بحديث زمزم فقال(٢): قال عبد المطلب إنى نائم فى الحِجر، إذ أتانى آت فقال: احفرْ طَيْبَة. قلت: ومَا طيْبة؟ قال: ذهب عنّى فلما كان من الغد رجعت إلى موضعى، فقال احفر مَضْنُونَة، قلت وما المضْنُونةُ؟

قال: ثم ذهب عنّى، فلمّا كان من الغد رجعت إلى مضجعى، فنمتُ، فجاءنى فقال احفر برّة، قال: قلت: وما بَرَّة؟ قال ثم ذهب عنّى، فلما كان من الغد رجعتُ إلى مضجعى فنمتُ، فجاءنى، فقال: احفر زمزم، قال: فقلت: وما زمزم؟

قال: لن تَنْزِفَ أَبَدًا، ولا تُزَم، تَسْقِى الحجيجَ الأعظم، وهى بين الفَرْث والدم عند نُقْرَةِ الغُراب الأعْصَم(٣) عند قرية النَّملِ، قال: فلما تَبَيَّن له شأنها ودُلَّ على موضعها، فقالوا: يا عبد الله إنها بئر إسماعيل، إنَّ لنا فيه حقًا فأشْرِكْنَا معك فيها،

(١) رواه أحمد فى المسند ٣/ ٣٥٧ و٣٧٢ والأزرقى ٢/ ٤٢٦ والعقيلى ٢/ ٣٠٣ وابن عدىّ ٤/ ١٤٥٥ والبيهقى ٥/ ١٤٨ وذكره السيوطى فى الدُّر المنثور ٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١ والفاكهى فى تاريخ مكة ٢/ ٢٧.

(٢) الحديث ذكره الفاكهى فى تاريخ مكة ٢/ ١٥ـ١٧ وابن هشام فى السِّيرة ١/ ١٥٨ بمعناه مختصراً وسيرة ابن كثير ١/ ١٦٨.

(٣) الأعْصَم من الغربان: الذى فى جناحيه بياض. وقيل غير ذلك. انظر: الروض الأنف ٢/ ١١٤ وفى المعجم الوسيط (عصم) ٢/ ٦١١ «الأعصم غراب أحمر المنقار والرِّجلين».

قال ما أنا بفاعلٍ، إنَّ هذا الأمر خُصِصْتُ به دونكم فقالوا إنا غيرُ تاركيك، نخاصِمُك فيها، قال: فاجْعَلُوا بيني وبينكم من شئتم فقالوا: كَاهنة بني سَعْد بن هَذيم، قالوا: نَعَمْ، وكانت بأشراف الشام فركب عبد المطلب ومعه أشرافُ بني أُمَيَّة، وبني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفرٌ، والأرضُ إذ ذاك مفاوز.

قال: فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق في تلك المفاوز بين الحجاز والشام وفَنِي ماءُ عبد المطلب وأصحابه وظَمِئُوا حتى أيقنوا الهَلَكَةَ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فضَنُّوا عنهم، وأَبَوْا من سَقْيهم وقالوا إِنَّا بمفَازةٍ ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فلما رأى عبد المطلب ما صنعَ القوم، قال لأصحابه: ماذا ترونَ؟ قالوا: ما رأيَنا إلا تَبَعٌ لرأيك فَمُرْنَا بأمرك، قال فإِنِّي أرى أن يحفر كل رجل منكم حُفْرة لنفسه، لما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفنه أصحابه ووَارُوه، حتى يكون آخركم رجلاً، فضيعَةُ رَجُلٍ واحد منكم أيسر من ضَيْعَة رَكْبٍ جميعا. قالوا: نعْم ما أشرت به.

فقام كُلٌّ واحد منهم وحفر حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا ثم إِنَّ عبد المطلب قال لأصحابه ما إقَامَتُنا هكذا للموت، ألا نضرب في الأرض ونبتغي لأنفسنا مخرجًا؟ فعسى الله أن يرزقنا ماء وارتحلوا وقبائل قريش تنظرُ إليهم ما هم فاعلون، حتى إذا تقدم عبد المطلب إلى راحلته فلمَّا انبعثت به انفجر من تحْت خُفِّها عَيْنُ ماءٍ عَذْبة، فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحَابُه، ثم نزل فشرب وشربوا واستَقُوا ثم ملئوا أسْقِيَتَهم، ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هَلُمُّوا[1] إلى فقد سقانا الله فاشربوا واستَقوا، فجاءوا وشربوا واستقوا، وقالوا: قد والله قضى لك علينا والله لا نُخَاصِمُك في زمزم أبدًا، ارجع إلى سِقَايتك راشدًا فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخَلُّوا بَيْنَه وبين زمزم.

* * *

(١) في تاريخ مكة للفاكهي «هَلُمَّ إلى الماء».

ذكر المنبر الذى اتخذه معاوية

وقد كان من مضى يخطبون الناسَ يوم الجمعة بمكة على أرجلهم قيامًا حتى اتخذ معاوية منبرًا صغيرًا على ثلاث درجات[١] قدم به من الشام سنة حَجٍّ، ثم صنع الخلفاء بعدَهُ أعوادًا أُحْكِمَتْ صناعَتُه مفصّلاً قطعًا فكان فى خزانة المسجد فإذا كان عيدٌ أوجمعة أخرج المنبر أعوادًا متفرّقة، ونصب ما بين باب البيت والركن الشامى فيما يقابل المقام وأُسْنِدَ إلى جدار البيت، فيصعد الإمامُ يخطبُ عليه وكذلك إذا ورد على صاحب مكة كتاب من الخليفة نُصِبَ وقرئ عليه الكتابُ فلما كان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة تكسَّر ذلك المنبر إلى المسجد المحرام وكان سبب كسره أن صاحب مصر المُلقَّب: بالحاكم الحسن بن نزار بن معد أرسل إلى صاحب مكة: أبى الفتوح الحسين بن جعفر الحَسَنى.

قال القاضى الموسوى وهو يومئذ قاضى مكة وما والاها: بكتاب فيه شتم بعض الصحابه - رضوان الله عليهم - وبعض أزواجه - ﷺ - وأمر بقراءته على الناس، فلما فشا ذلك عند الناس من المجاورين والقاطنين بمكة والمنتجعين، وغيرهم من البلاد من قبائل العرب المجاورة: هذيل ورواحة وغيرهم رجعوا إلى المسجد غَضبًا لله ولَنَبيِّه ولأصحابه رضى الله عنهم. فلما بلغ ذلك القاضى تثاقل عن الخروج، وتبطَّأ، وطال انتظار الناس له حتى قال قائل قد صعد المنبر، فرماه الناس بالحجارة، وزحفوا إليه فلم يجدوه عليه فتكسر المنبر وصار رضاضًا، وكان يومًا عظيمًا، ومشهدًا مهينًا ولم يقدم أحد بعد ذلك أن يتعلّق بذلك المذهب.

* * *

(١) تاريخ مكة للفاكهى ٣/ ٦٠-٦١.

ذكر الصفا والمروة

ذرعُ ما بين الركن إلى الصفا: مائتان واثنان وستون وثمانية عشر إصبعا[١] وذَرْعِ مَا بين المقام إلى الصفا مائة واثنا عشر ونصف، ومن وسط الصفا، إلى عَلَم المَسْعَى الذى فى حَدِّ منارة المسجد مائة واثنان وأربعون ذراعًا، وذرع ما بين العَلَم الذى فى حَدّ المنارة إلى العَلَم الأخضر الذى على باب المسجد وهو المَسْعَى مائة واثنى عشر ذراعًا.

وعلى الصفا اثنا عشر درجة من حجارة وعلم المسعى الذى فى حَدِّ المنارة: بناء ارتفاعه أربع، عليه أسطوانه طولها ثلاثة أذرع، ونصف، ملتبسة، وفوقها لوح رخام طوله: ذراع وثمانية عشر إصبعًا فى عرض ذراع، مكتوب عليها بالذهب وفوقه طاق ساج.

وطول العلم الأخضر الذى على باب المسجد، عشر أذرع، وأربعة عشر إصبعا منها إسطوانة بيضاء طولها ست أذرع، وفوقها إسطوانة طولها: ذراعان وعشرون إصبعًا، وفوقها لوحٌ طوله ذراع وثمانية عشر إصبعًا.

والصفا من أصل جبل أبى قيس، والمروة فى أصل قعيقعان.

وهذه الدرجات المذكورة: مَرَاق فى سنديهما، ويرقى منهما الطَّائفُ للدعاء والحَجُونُ: الجبل المشرف على مسجد الجن بأعلى مكة، على يمينه المصعد إلى مِنًى، وهو أيضا مشرف على سقف الحدَّادين.

* * *

(١) تاريخ مكة للفاكهى ٢/ ٢٤٢-٢٤٣.

ذكر القبلة[١]

قبلة أهل الكوفه وبغداد: الركن الذى بين الباب والحِجْر، وهو إلى الباب أقرب قليلاً.

وقبله أهل الجزيرة عن يمين هذا الركن مما يلى الحِجْرَ منحرفًا إلى الحِجْر.

وقبلة أهل الشام ميزاب الكعبة.

وقبلة أهل اليمامة الركن الذى فيه الحَجَرُ الأسود.

وقبلة أهل البصرة بابُ البيت.

وقبلة أهل جُدَّة وما حولها من: أسوان، والصعيد، وما وراء البحر مِمَّا بين الركن الغربى واليمانى.

* * *

ذكر أرزاق السَّدَنة والحَجَبَةِ فى المسجد الحرام

ثمن الزيت لِسَرْجها أربعة آلاف دينار وثلاثمائة دينار كل عام[٢]، والنفقه لطيب الكعبة ثلاثة آلاف دينار وستمائة دينار وسبعون دينارًا، وما يُحمَل للمجاورين بها من العين خمسة الآف وثلاثمائه، ومن الوَرِق إحدى وعشرون ألفًا.

* * *

(١) عن ابن عبَّاس: البيت قِبْلَةٌ، وقِبْلَةُ هذا البيت والركن والمقام وذاك الوجه.

وعن عطاء بن أبى رباح: البيت كله قبلة، وأفضله مَيامِنُه. تاريخ مكة للفاكهى ١/ ١٨٥.

(٢) أخبار مكة للفاكهى ٢/ ٥٠-٥٢.

ذكر شِعَاب مكة وسائر مناسكها

مقابر أهل مكة الإسلامية التى يتدافنون فيها منذ قام الإسلام خمس عشرة مقبرة فأولها وأفضلها التى بأعلى مكة، وهى المقبرة التى جاء فيها الخبر عن رسول الله ﷺ قال: نعم المقبرة مقبرة أهل مكة[١]، وهى التى فى الشّعب الذى يقال له شعْب عمرو، ويقال: أن ليس بمكه شِعْبٌ يستقبل الكعبة بأجمعه وكليته إلا هذا الشِّعب، وأهل مكة يؤثرون التدافن فيه على سائر المقابر.

شِعْبُ الجودى: سمى بذلك، لأن نافع بن الجودى، مولى نافع بن عبدالله. . الخزاعى نزله وكان أول من بنى فيه، فسمى به.

شِعْبُ بنى عبد المطلب: وفيه ولد رسول الله ﷺ وموضع مولده معروف إلى اليوم، قد بنى فيه مسجد وجد فيه موضع، وجعلت عليه مكة.

شِعْبُ أجياد[٢]: وهو غربى جبل أبى قبيس.

روى عن النبى ﷺ أنه قال: «بئْسَ الشِّعْبُ أَجْيَادُ، تخرج منه الدابّة»[٣].

شِعْبُ ناضح، شِعْبُ الصَّفا وهو الذى يقال له شِعْبُ الشباب؛ سمى بذلك، لأن قريشًا كانت إذا أرادت أن تشتد خرجت إليه.

ولمعاوية فيه حائط يسمى بحائط الصفا، وذلك الحائط اليوم قد ذهب كذا وكذا بالفتح والضم، هو الفلق الذى فى الجبل على المحصب، وهو الموضع الذى تركت فيه ناقة رسول الله ﷺ قبل الفتح، وهو القصوى فقالوا: حَلَّت القَصْوَى فقال: مَا حَلَّت القَصْوَى، وما هو لها بحول، ولكن حَبَسَها حَابِسُ الفيل»[٤].

---

(١) رواه عبد الرزاق فى المصنف ٣/ ٥٧٩ وأحمد فى المسند ١/ ٣٦٧ والأزرقى فى تاريخ مكة ٢/ ٢٠٩ والفاكهى فى تاريخ مكة ٢/ ٥٠ وذكره الهيثمى فى المجمع ٣/ ٣٩٧.

(٢) أجياد: موضع من بطحاء مكة، من منازل قريش البطاح. معجم ما استعجم (أجياد) ١/ ١٠٧.

(٣) النهاية ١/ ٣٢٤.

(٤) ذكر ابن الأثير فى حديث الحديبية «ولكن حَبَسَها حابِسُ الفيل» وهو فيل أبرهة الحبشى الذى جاء يقصد خراب مكة، فحبس الله الفيل، فلم يدخل الحرم، وردّ رأسه راجعًا من حيث جاء. يعنى أنَّ الله حَبَس ناقةَ النَّبىِّ ﷺ لَمَّا وصل الحديبية، فلم تتقدّم، ولم تدْخل الحرم، لأنه أراد أن يدخلَ مكة بالمسلمين». النهاية (حبس) ١/ ٣٢٩.

وكذا بالضم فى طريق التَّنْعِيم، فى عقبة بنى شافع.

منىً من المسجد الحرام إلى الجمرة الثانية أربعة أميال، ومن جَمْرَة العقبة وهى أول الجمر وهى مما يلى مكة إلى الجمرة الوسطى أربعمائة ذراع، وسبع وثمانون ذراعًا، واثنى عشر إصبعًا، ومن الجمرة التى تلى مسجد منىً وهى آخرها إلى وسط أبواب مسجد منىً ألف ذراع، وثلاثمائة ذراع، فأما الجمرة الوسطى فليس بينها وبين التى تلى منىً إلا مسافة يسيرة جدًا.

وعرض منىً من مؤخرة المسجد الذى يلى الجبل بحذائه ألف ذراع، وطولها من جمرة العقيق إلى وادى مُحَسَّر سبعمائة ذراع، ووادى محسّر خمسمائة ذراع وخمس وأربعون، ومن مسجد مِنًى قوس إلى الثعالب: ألف وخمسمائة وثلاثون.

وعرض ماذُمَّ من الجبل إلى الجبل، وعرض الطريق الأعظم إلى العقبة الدرجة وعرض شِعْبِ عَلِيٍّ وهو جبال جَمْرَةِ العقبة اثنان وعشرون.

واسم الجبل الذى مسجد الخَيْفِ بأصله، وهو مسجدُ بَنِى صالح، واسم الجبل الذى يُواجهه القابل عليه، وذرْعُ مسجد المزدلفة تسعة وخمسون ذراعًا وشبرًا فى مثلها وذرع ما بين مسجد المزدلفة، ومسجد عرفة ثلاثة أميال وثلاثة آلاف وتسعة عشر ذراعًا.

ومن مسجد عرفة إلى موقف الإمام عشية عرفة ميل، والله أعلم.

* * *

ذكر جبال مكة

جبل أبى قُبَيْس: هو الجبل الذى يُشرِفُ على الصفا إلى السويداء إلى الخندمة وكان يسمى فى الجاهلية الأمين.

قال الزُّبير بن بكّار: وإنما سُمِّى الأمين، لأن الركن كان مستودعًا فيه من الطوفان، فلما بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام البيت ناداهما أن الركن فى موضع كذا وكذا[١].

(١) انظر: تاريخ مكة للفاكهى ٤/ ٤٧.

وسُمِّى أبو قبيس؛ لأن أول من نهض للبناء فيه رجل من مذحج، ويقال من إياد يقال له أبو قبيس.

ويقال: لأن الركن اقتبس منه.

وفى هذا الجبل موضع يقال له: الجد والميزاب، وهما موضعان يسكبان الماء إذا كان المطر يصب أحدهما على الآخر لأن الأعلى منها الجد، والميزاب هو الأسفل، وعلى رأسه حجارة مشرفه يقال لها: الكبش(١).

الجبل الأحمر: وكان يسمى فى الجاهلية الأعرف، وهو الجبلُ المشْرِفُ وجمعه على قُعَيْقعَان على دُورِ عبد الله بن الزبير، وكان رجلاً من قريش يهدى نبلا، فقالت له امرأته: لم تبرى هذا النبل؟ قال بلغنى أن محمدًا يريد أن يغزو مكة، فلئن جاء لأخدمنك خادمًا من بعض نساء يثرب وكانت قد أسلمت سرًا، فقالت: والله لكأنى بك قد جئت تطلب مخبأ تحتمى فيه لو قد رأيت خيل محمد.

فلما دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح أقبل إليها وقال: ويحك هل من مخبأ؟ فقالت له: أين الخادم؟ فقال: دَعِى عنك وجعل يقول [رجز]

إنَّكِ لو أَبْصَرْتِ يَوْمَ الخندمَـهْ
إذ فرَّ صَفْوانُ وفَرَّ عِكْرِمَهْ
وضربوا بالسيف لها المسْلَمَـهْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعـدٍ وجُمْجُمَـهْ
طوى فلا تسمع إلاَّ غَمْغَمَــهْ
لهم نَحِيبٌ خلفنا وهَمْهَمَهْ
لَمْ تنطقى فى اللوم أدْنَى كَلِمَهْ(٢)

الجبل الأبيض: هو الجبل المشرف على حق أبى لهب، وهو مشرف على شِعْبِ أبى زياد، وشِعْب ابن عامر، والأعرج: مولى لأبى بكر رضى الله عنه، كان بنى

(١) انظر: تاريخ مكة للفاكهى ٤/ ٤٨.

(٢) الرجز لحماس بن قيس الدئلى. انظر البداية والنهاية ٧/ ٧٤ ومعجم البلدان ١/ ١٠٣ وتاريخ مكة للفاكهى ٤/ ١٣٦.

فيه فَنُسِب إليه وشعب أبى عامر كُلُّه يقال له الطابخ الحَزْوَرَة، كانت بفناء دار أُمّ هانئ بنت أبى طالب التى كانت عند الخيَّاطين، فدخلت فى المسجد الحرام وكانت فى أصل المنارة التى إلى الخيمة.

والحَزْوَرَةُ: موضع سوق مسجد الجنّ، يقال: إنه موضع الخَطِّ الذى خطه رسول الله ﷺ لابن مسعود ليلة استمع إليه الجنُّ وهو يسمى مسجد البيعة، حيث إنَّ الجنَّ بايعوا رسول الله ﷺ فيه.

جبل حراء: وهو الذى كان يتحنَّثُ فيه رسول الله ﷺ قبل الوحى وفيه نزل عليه جبريل أوَّل ما أوحى إليه وفيه بشَّره بالنبوَّة، وبينه وبين مكه ميل ونصف، وهو جبل منفرد على طريق حنين من مكة وهو منيف صعب المرتقى لا يصعد إلى أعلاه إلا من موضع واحد فى صفاء ملسا والموضع الذى فيه جبريل عليه السلام فى أعلاه من مؤخره.

جبل ثبير: وهو أعلى جبالها، وأعظمها يكون ارتفاعه علو ميل ونصف قال امرؤ القيس: [من الطويل]

كأن ثَبِيرًا فى عَرَانِينَ ودْقِهِ ... كَبِيرَ أُنَاسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ[1]

وهو من ناحية المتصلة بمنًى.

وهذان الجبلان ـ ثبير وحِرَاء ـ ما بين المشرق والشمال، وكذلك حُنَيْنٍ من هذين الجبلين، ما بين المشرق والشمال، ومن مكه إلى حُنَيْن: اثنا عشر ميلاً قال الزُّبَيْر: أَوَّلُ ما نصَب أعلام الحرم: عَدْنان بن أُدَ[2] لما خاف أن يُدْرَس الحرمُ فأعلامُ

(١) البيت لامرئ القيس فى ديوانه ١٥٨ وتاريخ مكة للفاكهى ٤/ ١٦٠ وشرح المعلقات السَّبع للزوزنى ٥٤ وشرح القصائد العشر للتبريزى ٧٢ وورد هذا البيت من رواية الأصمعى بلفظ:

* كأن أبانًا فى أفانين وَدْقه *

وهكذا جاءت الرواية فى الديوان ١٥٨ ومعجم البلدان لياقوت ١/ ٢٦، وفى تاريخ مكة للفاكهى (وَبْله) مكان (وَدْقه).

عَرَانين: جمع عِرْنين وهو الأنف، استعاره لأوائل المطر، لأنَّ الأنوفَ تتقدَّم الوجوه، والوَبْلُ: جمع وابل، وهو المطر الغزير القَطْر. والبجاد: كساءٌ مَخطَّط.

ومُزَمَّل: أى مُلَفَّف، أراد أنْ يُشبِّه ثبيرًا فى أوائل المطر بسيِّد أُناس قد تلفَّف بكساء مخطط.

(٢) تاريخ مكة للفاكهى ٢/ ٢٧٦ وشفاء الغرام ١/ ٥٥.

كذلك ذكر الفاكهى فى تاريخ مكة ٢/ ٢٧٩ أنَّ إبراهيم عليه السَّلام هو أوَّل من نَصَب الأنصاب للحرم، أشار له جبريل إلى موضعها.

الحرم محيطةٌ بمكة، قد نصبت فى البقاع والتلال والغيطان، والقيعان.

فحدُّ الحرمِ من ناحية التَّنعيم على طريق يثرب إلى مَمَرِّ الظهران خمس، ومن طريق جُدَّهُ إلى عشر، ومن طريق اليمن ستة، ومن طريق الطائف سبع ومن طريق العراق كذلك.

* * *

رتبة قيام رمضان

قال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَة: أَوَّل من أدار الصفوف حول الكعبة عند قيام رمضان خالد بن عبد الله القَسْرى[1]، وكان الناس يقومونَ فى أعلى المسجد، فلما وَلَّى عبد الملك[2] خالدًا مكةً، وحضر لهم رمضان أمر خالد الأئمة أن يتقدَّموا ويُصَلّوا خلف المقام وأدار الصفوف حول الكعبة.

وكان عطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار وغيرهم من العلماء يحضرون ذلك فلا ينكرون، ولا تكاد تنقضى صلاتهم حتى مطلع الفجر وعلى جبل أبى قُبَيْس رتبة ترقب طلوعه للمتسَحّرين فإذا أبانَ لهم نادوا: أَمْسِكوا رَحِمكُم الله».

* * *

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد العرى (٦٦-١٢٦هـ) من بجيلة، أبو الهيثم: أمير العراقين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم، يمانى الأصل من أهل دمشق، ولى مكة سنة ٨٩هـ للوليد بن عبد الملك، ثم وَلاَّه هشام العراقين (الكوفة والبصرة) سنة ١٠٥هـ فأقام بالكوفة وطالت مُدَّته إلى أن عزله هشام سنة ١٢٠ هـ، ووَلَّى مكانه يوسف بن عمر الثقفى، وأمره أن يحاسبه، فسجنَه يوسف وعذَّبه بالحيرة، ثم قتله فى أيام الوليد بن يزيد، وكان خالد يُرْمى بالزندقة، وللفرزدق هجاءٌ فيه. الأعلام٢/ ٢٩٧.

(٢) عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس، ولد سنه ست وعشرين وبويع بعهد من أبيه فى خلافة ابن الزبير فلم تصحّ خلافته، وبقى متغلبًا على مصر والشام، ثم غلب على العراق وما والاها إلى أن قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين فصَحت خلافته من يومئذ، واستوثق له الأمر، وهو أول من كتب فى صدور الطوامير ﴿قل هو الله أحد﴾. تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٠٠-٢٠٧.

ذكر دخول القرامطة لعنهم الله مكة بالسيف وقتل الحاجّ منها

وقال إبراهيم بن فارس، وأبو بكر محمد بن على بن القاسم فى تاريخه، وغيرهما: إن أبا الطاهر سليمان بن الحسن[١] ـ لعنه الله ـ صاحب البَحْرَين لما دخل مكة بالسَّيف وهو فى تسعمائة رَجُلٍ، وذلك يوم الاثنين لسبعٍ خَلَوْنَ من ذى الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

وقتل فى المسجد الحرام نحو ألف وسبعمائة من الرجال والنساء، وهم مشتغلون متعلّقون بأستار الكعبة، ورَدَم بهم زمزم، وفرش المسجد، وما يليه وقلع الحجر الأسود، وأخذَ أستارَ الكعبة، وهَتَك حرمتها[٢].

قال محمد بن على الذهبىّ: وحَضَرْتُه يوم قُلِع ـ يوم الاثنين بعد العصر الأربع عشرة خلت من ذى الحجة من العام المؤرخ ـ قلعه بيد جعفر بن أبى علاج البنّاء المكّى بأمر القُرْمطىّ ـ لعنه الله ـ وحمل الحجر إلى بلاده.

قال أصحاب التواريخ: فرمَى الله القرمطىّ[٣] فى جسده، وطال عذابه وتقطَّعت

(١) تأتى ترجمته بعد.

(٢) فوات الوفيات ١/ ١٧٥.

(٣) هو سليمان بن الحسن بن بهرام الجَنَابى الهَجَرى، أبو طاهر القرمطى، ملك البحرين وزعيم القرامطة، خارجىٌّ، طاغية جبار، قال الذهبى فى وصفه «عدوّ الله، الأعرابى الزّنديق»، نسبته إلى جنابة من بلاد فارس، وكان أبوه قد استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين، وثب سنة ٣١١هـ على البصرة، فنهبها وسبى نساءها وكتب إلى المقتدر يطلب ضمَّها إليه هى والأهواز، فلم يُجِبْه المقتدر، فأغار على الكوفة سنة ٣١٢هـ، فأقام ستة أيام، حمل ما استطاع رجاله أن يحملوه من أموال وثياب وغيرها، وضَجَّ الناس خوفًا من شَرِّه، فاهتم الخليفة لأمره، فسير لقتاله جيشًا كبيرًا، فشتَّته القرمطى، واستولى على الرحبة وربض الرقة، ودعا إلى «المهدى» وأغار على مكة يوم التروية سنة ٣١٧هـ، والناس محرمون، فاقتلع الحجر الأسود وأرسله إلى هَجَر، ونهب أموال الحجاج، وقتل كثيرين منهم.

قيل: بلغ قتلاه فى مكة ثلاثين ألفًا، وعرَّى البيت الحرام، وأخذ بابه، وردم زمزم بالقتلى، وعاد إلى هَجَر، فألَّهه بعض أصحابه، وقال قوم: إنه المسيح، ومات كهلاً بالجدرى فى هجر.

الأعلام ٣/ ١٢٣ وانظر: الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٧ و٤٥ و٤٩ و٥٣ و٥٦ و٦٥ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٢٥ وفوات الوفيات ١/ ١٧٥.

أوصاله[1] وأراه الله عز وجل فى نفسه عِبْرةً، وأُعِيدَ الحجرُ فى مكانه يوم النحر رَدَّه بيده حسن بن المزوق البنَّاء، فكانت بين غيبته من يوم قلعه إلى يوم رَدِّه اثنتان وعشرين سنة إلا أربعة أيام وكان مكانه فارغًا يدخل المسلمون أيديهم فيه إلى أن ألقى الله فى قلوب الكفرة رهبةً.

قال: «وأخبرنى أبو العباس قال: لما حضرت سنة خمس عشرة وأربعمائة الحفرَ بين الحَجُون والأَوْضَام، فأثيرت هناك جماجم وعظام كثيرة، فلمَّا رأوا ذلك أعادوا ما نُبش من التُّراب منها.

* * *

ذكر كسر الحجر

قال: وشهدت ثلاث عشر وأربعمائة كَسْر الحجر الأسود، وذلك أنه لما كان ثالث يوم النحر وهو اليوم الذى يتعجّل فيه الحاج من منى إلى مكة والناس فى صلاة العصر، فأتى رجل من غمار الناس كان ممّن ورد فى قافلة مصر زعموا أنه من مدينة مروعة، فانتهز الفرصة باشتغال الناس فى صلاتهم، فقصد الحجر بيده دبوس من حديد، فضربه ضربات أبان بها من وسطه ثلاث شظايا، ثم ولّى ذاهبًا يريد باب الصفا، فبادره الناس فقتل مكانه، وقتل لأجله من حاجّ أهل المغرب فى شعاب مكة وأطرافها أزيد من خمسمائة رجل، ثم ردت تلك الفلق إلى موضعها وشدت باللّجين.

ومن عجائب مكة: أن الحمام وجميع الطير يهوى فى طيرانه، فإذا قارب أن يحاذى إلى الكعبة أخذ يمينا وشمالا، ولا يعلوها ألبتَّة، ولا ينزل على جدورها، إلا أن يكون مريضًا، والطير ينزل على سائر جدور المسجد، وفيه زمزم وغيرها، والله أعلم.

* * *

(١) الأعلام ٣/ ١٢٣.

ذكر المواضع التى اعتمر منها النبى ﷺ

الجِعِرَّانة[١] وبركة أم جعفر: ومنها اعتمر رسول الله ﷺ مُنْصَرَفه من هوازن، ثم قسَّم غنائم هوازن بعد عمرته بأوطاس[٢]، وعمرة أخرى بنجد مما يلى طريق مكة.

* * *

ذكر ما بين مكة والمدينة من مساجد رسول الله ﷺ

بين مكة والمدينة مسجدان بذى الحُلَيْفَة: المسجد الكبير الذى يحرم الناس[٣] منه والآخر: مسجد المُعرَّس[٤]: على ميلين من العُلَيَّا له فى سفح الجبل وعلى تسعة أميال من السيَّالة مسجد يقال له مسجد عِرْق الطِّيب[٥]، فيه كانت مشاورة النبى ﷺ فى قتال أهل بدر وعلى ثلاثة أميال من الروحاء مسجد فى سند الجبل[٦] يقال له: مسجد المنصرف[٧] وفى أوّل الدُّوبية مسجد، وقبل أن تأتى العَرْجَ مسجد.

(١) الجِعِرَّانة: بكسر الجيم والعين وتشديد الراء المهملة، هكذا يقول العراقيون، والحجازيون يخففون فيقولون: الجِعْرَانة بتسكين العين وتخفيف الراء، وهى ماء بين الطائف ومكة، وهى إلى مكة أدنى، وبها قسَّم رسول الله ﷺ غنائم حنين ومنها أحرمَ بعمرته فى وِجْهَته تلك، روى أبو داود من طريق أبى مزاحم، عن عبد العزيز بن عبد الله بن أُسَيْد عن مِخْرش الكعبى، قال: دخل رسول الله ﷺ الجعرانة، فجاء إلى المسجد، فركع ما شاء الله، ثم أحرم، ثم استوى على راحلته فاستقبل بطن مقرِف حتى لقى طريق مكة، فأصبح بالجعرانة كبائت. معجم ما استعجم ٢/ ٢٨.

(٢) أوْطاس: وادٍ فى ديار هوازن. معجم ما استعجم ١/ ١٩٦.

(٣) ويعرف اليومَ ببئر عَلِىّ. انظر تفصيلاً: وفاء الوفا ٣/ ١٠١٨ ـ ١٠١٩.

(٤) وفاء الوفا ٣/ ١٠٠٥.

(٥) ويعرف بعرق الظبية، انظر: وفاء الوفا ٣/ ١٠٠٩.

(٦) وفاء الوفا ٣/ ١٠١٠.

(٧) فى الأصل (المخضوب) وهو تحريف، والتصحيح عن وفاء الوفا ٣/ ١٠١١.
قال السمهودى: مسجد المنصرف، ويعرف اليوم بمسجد الغزالة، وهو آخر وادى الروحاء مع طرف الجبل، على يسارك وأنت ذاهب إلى مكة).

وفى أوّل القرية مسجد يُعْرَف بمسجد الأَثَايَة[١]، وعلى أربعة أميال من العَرْج مسجد وعلى ميل من طلوب[٢] مسجد، وعلى خمسة أميال من الأبواء[٣] مسجد، وقبل المُشْكَل خيمتا أمّ مَعْبد، ومن قَدِيد إلى عين أبى ربيع وهو خُلَيْص ثمانية أميال وهى عين ثرّةٌ عليها نَخْلٌ كثير وشجر، وفيها مسجدٌ والعَقَبة قبل خُلَيْص ثلاثة أميال، وعندها مسجد[٤] ومن خُلَيْص[٥] إلى أَمَج[٦] ثلاثة أميال، وله مساجد غير ما ذكرنا.

* * *

مساجد النبى ﷺ بناحية المدينة وما يليها

مسجد النور، ومسجد العدوة، ومسجد الفضيخ، مسجد عثمان بن عفان، مسجد رباح، مسجد العسكر، مسجد بلال فى سفح الجبل، مسجد رومان، مسجد الفتح، مسجد الخندق، مسجد الجمعة، مسجد العجوز، مسجد القبلتين، مسجد بنى زريق، مسجد بنى ساعدة، وهو مسجد السفينة، مسجد بنى كعب.

* * *

(١) وفاء الوفاء ٣/ ١٠١٢.

(٢) طَلُوب: بئر غليظة الماء بعد العرج بأحد عشر ميلا. وفاء الوفا ٣/ ١٠١٤.

(٣) الأبواء: قرية من أعمال الفُرْع من المدينة، بينها وبين الجُحْفَة ممّا يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وقيل: جَبَلٌ عن يمين آره، ويمين المُصْعِد إلى مكة من المدينة. وبالأبواء قبر آمنه أمّ النبى ﷺ. مراصد الاطلاع ١/ ١٩ وانظر: وفاء الوفا ٣/ ١٠١٦.

(٤) يعنى مسجد عَقَبة هَرْشى. وفاء الوفا ٣/ ١٠١٧.

(٥) خليص: عين غزيرة كثيرة الماء، وعليها نخل كثير، وبركة، ومشارع، ومسجد لرسول الله (ﷺ). وفاء الوفا ٣/ ١٠١٩.

(٦) أَمَج: بفتحتين والجيم: بلدين أعراض المدينة. مراصد الاطلاع ١/ ١١٤ وفى معجم ما استعجم ١/ ١٧٦ أَمَج: قرية جامعة بها سوق، وهى كثيرة المزارع والنخل، وهى على ساية، وساية: وادٍ عظيم، وأَهْلُ أَمَج: خُزَاعة.

ذكر مدينة رسول الله ﷺ

أسماء المدينة(١): طَيْبَة، وطَابَة، والمجبورة، والمَوْهُوبة، والعَذْرَاء، والمُحَبَّة، والمَحْبُوبة، والقاصِمَة، وحاجزةَ.

وسمّاها الله عز وجل المدينة، وكذلك كان رسول الله كما قال: إنَّ الله حَبَّب إلينا المدينة كحبِّ مكة أو أشد»(٢).

وقال: «على أنقابِ المدينة ملائكةٌ يَحْرُسونها من الطاعون»(٣).

وقال: «والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يَعْلمون»(٤).

وروى زبيد بن أسيد الساعدى قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ. فقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، إنى قد رأيت موضعًا للسيوف أفلا تنظر إليه؟ قال: بلى، وقام معه حتى جاء فنظر إليه، وقال: هذا سوقكم قد طرف بِرِجْلِه. وقال: لا يُنتقص ولا يضرب عليه خَرَاجٌ»(٥).

جبال المدينة: جبل أُحُد(٦)، وجبل عرايات ، وجبل حنيش، وجبل عَيْر(٧)،

---

(١) ذكر السمهودى أربعة وتسعين اسمًا من أسماء المدينة. وفاء الوفا ١/٨ـ٢٧.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه ٤/٩٩ رقم ١٨٨٨ ومسلم رقم ١٣٧٦ بلفظ «اللَّهُمَّ حَبِّب إلينا المدينة كَحُبِّنَا مكة أو أشد» ومالك فى الموطأ٢/ ٨٩٠ـ٨٩١ وأخبار مكة للأزرقى ٢/ ١٥٣ و١٥٤و ١٥٦.

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى. انظر للمزيد من التخريج فى: الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة ١٦٦ـ١٦٧.

(٤) ذكره ابن الأثير فى جامع الأصول، حديث ٦٩١٧ فى فضائل المدينة، ولفظه «ليأتينَّ على الناس زمانٌ يدعو الرجلُ قريبه وابن عَمِّه هَلُمَّ إلى الرخاء، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون... إلخ»، وبنحوه روى الإمام أحمد فى المسند ٣/٣٤١ـ٣٤٢ وراجع/ الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة ١٩٦ـ١٩٧.

(٥) أخرجه ابن ماجه فى سننه (تجارات) ٤٠.

(٦) وفاء الوفا ٤/١١٢٣.

(٧) وفاء الوفا ٤/١٢٦٩.

وجبل سَلْع[١]، وجبل بحت، وجبل المرعى، وجبل القَدُوم[٢]، وجبل الأصفر، وأحد محيطة بها كلها.

* * *

ذكر مسجد رسول الله ﷺ الذى قبره كرمه الله فيه

روى أبو داود عن ابن عمر أن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنيًا باللَّبِن، وسقفه الجريد، وعُمُده الخشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئًا، لكنه تخرَّب فى خلافته فبناه على حاله فزاد فيه.

وتخرّب فى خلافه عمر فبناه كذلك وزاد فيه، تخرّب فى خلافة عثمان بن عفان فزاد فيه زيادة كبيرة، وبناه بالحجارة المنقوشة والفضة، وجعل عُمُدَهَ من حجارة منقوشة، وسَقّفه بالساج قال عبد الله بن مسلم: ثم وَسَّعه المهدى سنة ستين ومائة، وزاد فيه المأمون زيادة كثيرة ووسّعه.

قال: وقرأت على موضع زيادة المأمون: أمر عبد الله عبيد الله بعمارة مسجد رسول الله ﷺ سنة اثنتين ومائتين، ويطلب ثواب الله فإن الله عنده حُسْنُ الثواب، وكان الله سميعًا بصيرًا.

أمر عبد الله عبيد الله بتقوى الله ومراقبته، وصلة الرحم والعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وتعظيم ما صغر الجبابرة من حقوق الله وأحيا لما أماتوا من العدل، وتصغير ما عظّموا من العدوان، والجور، وأن يطَاع من أطاع الله ويُعْصَى من عصى الله، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الله وأمر بالسوية بينهم فى فيئهم، ووضع الأخماس مواضعها.

قال غيره: وفى سنة عشر وثلاثمائة أمر المقتدر فَرُكبت أبواب الساج على مسجد رسول الله ﷺ.

قال ابن شَيْبَة، قال أبو غسَّان: ذرع عرض مسجد رسول الله ﷺ من مُقَدمه

(١) وفاء الوفا ٤/ ١٢٣٥.

(٢) وفاء الوفا ٤/ ١٢٨٧.

من الشرق إلى الغرب مائة ذراع وثلاثون ذراعًا، وطول المسجد من ناحية اليمن: مائتان وأربعون ذراعًا، وخالص طول رحبته من اليمن إلى الشام مائة وخمسون ذراعًا، وفيه من الأساطين مائتان وستة وتسعين، وإلى حظير القبر منها ثلاثة أذرع، ومن شَرْقِىّ المنبر منها أربعة أذرع، وعن غربيّه أربعة أذرع.

وعدد أبواب المسجد عشرون: فى الشرق ثمانية، وفى الغرب ثمانية، وفى الشرق الشامىّ أربعة أبواب.

وهذه الأبواب سوى خُوخة آل عمر التى تحت المقصورة، وسوى الخوخة التى فى غربى المقصورة.

وارتفاع منبر النبى ﷺ ذراعان ونصف، وعرض الرخامة التى حول المنبر ثمانية وعشر بين ستة أساطين قدام المنبر، منها أسطوانتين.

وذرع ما بين القبر والمنبر من مقام النبى ﷺ الذى كان يصلى فيه حتى توفى رسول الله ﷺ أربعه عشر ذراعًا وشبرًا وذرع ما بين مُصَلاَّهُ الأول والأسطوانة المعروفة بأسطوانة التوبة، تسعة عشر، وذَرْعُ ما بين جداد القبلة اليوم إلى أسطوانة التوبة عشرون وفى صحن المسجد بيت هى خزانة المسجد وأمام البيت أسطوانة قد رسمت فى أعلاها بلاط لمعرفة أوقات الظهر والعصر فى جميع أيام العام.

ومما يلى مُؤَخَّر المسجد حائطٌ فيه نخلٌ كثير، وهو الحائط الذى كان لأبى طلحة الأنصارى المعروف بيرحاء.

فأما حَدُّ المسجد على عهد رسول الله ﷺ كان سالكًا قال: جدار المسجد الشرقى يمنى القناديل التى فوق الخوخة المواجهة للمنبر، ومنتهى ذلك إذا كنت واقفًا عند القبر ثلاث أساطين عن يسارك إلى ناحية القبر، وهو آخر المسجد الأول، هو العضادة السفلى من الباب الذى يقال له: باب عثمان.

فأما الجدار القبلى فإن حده معلوم بالمنبر والروضة.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد مَدَّ موضع المقصورة، ثم قد مَدَّ عثمان موضعه الذى هو فيه الآن، فلم يقدم بعد إلا ما أزيد فيه يمينا وشمالاً، وصلى الله على أكرم الأنبياء وخيرة الأصفياء، وخاتم الأتقياء الذى اختاره الله من أهل

الأرض والسماء، محمد بن عبد الله، النبى الأمى الهاشمى المدنىّ المكّى، وعلى آله، وأزواجه، وذرّيته إلى يوم الدين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين وسلام الله على سائر الصالحين.

* * *

ذكر نزول اليهود يثرب[1] وما حولها ومن معهم من العرب قبل الأوس والخزرج

قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب أن جماعة من العماليق تُسمَّى جاسمًا[2] نزلوا الحجاز وكان يملكهم بقيما، ويقال الأرقم[3]، كذلك.

رُوِى عن عُرْوَة بن الزبير وغيره، فسكنوا مكّة والمدينة والحجاز كله وعتوا عُتَوًا كبيرًا، فلما أظهر الله عزّ وجَلَّ موسى على فرعون، وأهلكه وجنوده، وطئ الشام وأهله، وأقام بها وبعث بعثًا من بنى إسرائيل إلى الحجاز، وأمرهم ألاّ يَسْتَبْقوا منهم أحدًا، فوجدوا الأرقم بن أبى الأرقم فقتلوه وأصابوا ابنًا له شابًا من أحسن الناس صورة فلم يقتلوه وقالوا نَسْتَحْيِيه حتى نقدم به على رسول الله ﷺ، يعنون موسى فيرى فيه رَأْيَه فأقبلوا، وقبض الله عز وجل موسى قبل قدوم الجيش، ولما سمع بقدومهم بنو إسرائيل خرجوا إليهم وتلقوهم وسألوهم، فأخبروهم بأمر الصبِى وقالوا لهم: قد خالفتم وعَصَيْتُم أمْرَ نَبِيِّكم، ومنعوهم دخول بلدهم وحالوا بينهم وبين الشام[4].

---

(١) قال المؤلف فى كتابه معجم ما استعجم ٤/ ٢١٨ «يثرب: مدينة النبى - ﷺ - سُمِّيت بيثرب بن قانية من بنى إِرَم بن سام بن نوح، لأنه أوّل من نزلها، وقال النبى (ﷺ): تُسَمُّونها يثرب، ألاَ وَهِىَ طَيْبَة، كأنه كَرِه أنْ تُسمَّى يَثْرِب، لما كان من لفظ التَّثريب».
وكان أهل يثرب جماعة من اليهود، وكان فيهم الشرف والثروة على بطن اليهود كُلِّها وقد بادوا فلم يَبْق منهم أَحَدٌ يُعْرَف، وكانت يثرب أمّ قرى المدينة، وهى ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف، وما بين المال الذى يُقال له البرنى إلى زبالة، وكان لهم خمسة عشر أطمًا».

(٢) فى الأصل «راسما» والتصحيح من المقدمة ٢/ ٢٨٦.

(٣) فى الأصل «الأرقم بن أبى الأرقم».

(٤) انظر تفصيل ذلك فى المقدمة ٢/ ٢٨٧.

وكانت الحجاز إذ ذاك أكثر بلاد الله شَجَرًا، وأظهرها ماءًا[١] فكان أوّل من سكن الحجاز اليهود.

ونزل جمهورُهم بمكان يقال له يثرب مجتمع السيول: سيل بطحان والعقيق وسيل قتباه مما يلى زغابه.

قال محمد بن كعب القرظى[٢]: وخرجت بنو قريظة وإخوانهم. بنو عمرو بن الخزرج بن الصّريح، وبنو النضير بن النحام بن الخزرج بن الصَّريح، وهم كلهم من ولد هارون بن عمران فتبعوا آثار هؤلاء، فنزلوا بالعالية على وادِييْن يقال لهما: مُذَيْنِب ومَهْزُور[٣].

نزلت بنو النضير على مُذَيْنِب، واتخذوا عليها الأموال، واتخذوا هنا كالأطام والمنازل، ونزل بعض قبائل العرب عليهم.

فذكر توبة بن الحسن بن السائب عن أبى لُبَابَة عن أبيه عن جَدّه قال: كان بالمدينة قرى وأسواق من يهود بنى إسرائيل، وكان قد نزلها عليهم أجناس من العرب، فكانوا معهم، وابتنوا الآطام والمنازل قبل نزول الأوس والخزرج عليهم وقال الشاعر: [من الطويل]

ولو نطقت يومًا قباء لخبرت ... بأنا نزلنا قبل عادٍ وتُبَّع
وآطامنا عاديّةٌ مُشْمَخِرَّةٌ ... تلوح فتَنْعَى من يُعَادى ويمنع[٤]

وإنما سميت قباء بالبئر الذى فى دار توبة بن حسين بن السائب بن أبى لبابَة يقال لها قباء، ومن آطامهم: أطم فى المال الذى يقال لها خنافة.

وكان رجل منهم أعدى على رجل فقطع يده فقال لهم المقطوع أعطونى خنافة عَقْلاً بيدى، فأبوا، وحفر الذى قطعوه كُوّةً فى جدار من جدر خنافة وأخرج يده من وراء الجدار وقال: اقطعوا

(١) ذكر ذلك ابن خلدون عن المسعودى. انظر المقدمة ٢/ ٢٨٦.
(٢) وفاء الوفا ١/ ١٦١.
(٣) معجم ما استعجم ٤/ ١٢٧.
(٤) البيتان لشاعر بنى نعيف فى المقدمة ٢/ ٢٨٦ وبلا نسبة فى وفاء الوفا ٢/ ١٦٢-١٦٣.

الآن قـد طـابت لنا خنـافهْ
طَابَتْ فلا جُوعٌ ولا مَخَافهْ(١)

ولهم من الأُطْمِ(٢) الذى عند مَشْرَبه ـ مارية أُمّ إبراهيم ابن النَّبىّ ﷺ.

فأما نزول الأوس والخزرج المدينة فكان على ما تَقَدَّم ذكره عند سَيْلِ العَرِمِ فلما نزلوا يثرب ورأوا الآطام والأموال والعدد والقوة لليهود فتعاهدوا وتعاقدوا، وتحالفوا، واشتركوا، فلم يزالوا على ذلك زمانا طويلا ثم إن الأوس والخزرج صارت لهما ثروة كبيرة من المال والعدد فأمنوا جانبهم وعلى أمرهم، فخافتهم يهود على ديارهم وأموالهم، فقطعوا الحلفة بينهم.

وكانت اليهودُ أَعَدَّ وأكثر، وكانت العددَ والشدَّة فى الكامنين: قريظة والنضير، وإياهما عَنَى قيس بن الخطيم(٣) بشعره حيث قال: [بسيط].

كنـا إذا رامنـا قوم بمظلمـة   شدت لنا الكاهنات الخيل واعتَرَمُوا
نَسُوا الرُّهُـونَ وآسَـوْنا بأنفسهم   بنو الصَّرِيح فقد عَفُّـوا وقـد كَرُمُوا(٤)

فلما قطعت اليهود حلف الأوس والخزرج بَقُوا معهم حتى حكم فيهم مالك بن العجلان أخو سالم بن عوف بن الخزرج وسُوِّدت الحيّان فبعث إلى من بالشام من قومه يخبرهم باستذلال اليهود لهم وغلبتهم عليهم، وكان رسوله الرفق بن زيد

(١) بلا نسبة فى وفاء الوفا ١/ ١٦٤.

(٢) الأُطْمُ مثل الأُجْمِ، يُخَفَّف ويُثَقَّل، والجمع آطام، وهى حصونٌ لأهل المدينة». الصحاح (أطم) ٥/ ١٨٦٢.

(٣) هو قيس بن الخطيم بن عَدِى بن عمرو بن مِسواد بن ظَفَر، وظَفَر هو كعب بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر، وهو ماء السَّماء بن حارثة بن الغِطْرِيف من الأزد، عدَّه ابن سلام من شعراء القرى العربية، وكنيته أبو يزيد، واسم الخطيم ثابت.
وقد قُتِل أبوه وهو صغير كما قُتِل جَدَّه قبيل ذلك، عاش قيس فى الجاهلية وأدرك الإسلام ولكنه لَم يُسْلم، وقُتِلَ قبل الهجرة، قتله الخزرج.
انظر: ديوانه ـ تحقيق ناصر الدين الأسد، والمؤتلف والمختلف ١٥٩ وطبقات فحول الشعراء ٢٢٨ وسمط اللآلى ٢/ ٧٩٧ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢/ ٥٢ وخزانة الأدب من ٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩ ومعجم الشعراء لعفيف عبد الرحمن ٢٢٨.

(٤) البيتان لقيس بن الخطيم فى وفاء الوفا ١/ ١٧٨.

ابن امرئ القيس أحد بنى سالم بن عوف وكان قبيحا ذميمًا شاعرًا بليغًا فقال فى خروجه إلى الشام: [من الكامل]

أقسمت لم أطعم للمروق قطرة حتى يكش للجـــار رحيلُ
حتى أنها فى معشر مــالى لهم حل ومـــالهم لنا مبذولُ
أرض بها تدعى قبائل سالم ويجيب فيها مـالك وسلولُ
قوم أولو عزٍّ غريـب عزهم إنّ الغريبَ وإنْ أجيرَ ذَلولُ[١]

ومضى الرفق حتى قدم الشام على ملك من ملوك غسان يقال له: أبو جَبيلَة[٢] أحد بنى جُشَم بن الخزرج الذين ساروا من يثرب إلى الشام، فعجب من شعره وبلاغته مع قُبحه ودَمَامَتِه وقال «عَسَلٌ طيِّب فى وعاءٍ خبيث»[٣].

فقال الرفق: أيها الملك إنما المرءُ بأصْغَرَيْه قلبُه ولسانه، قال صدقت فلم يرجئ أبو جبيلة نصرهم، وخرج فى جمع كثير لا يعرج على شىء، وأظهر أنه يريد اليمن، وعاهد الله عزَّ وجَلَّ: لا يرجع إلى دياره أو يخرج من يثرب يهود ويُذللهُم للأوس والخزرج.

فلما قدم يثرب لقيه الأوس والخزرج، فأعلموه أن القوم وإن عرفوا ما يريد تحصَّنوا فى آطامهم، فلم يقدر حملهم، ولكن تدعوهم للقائك، ونلطف بهم حتى يأمنوا ويطمئنوا إليك فتستمكن منهم، فتصنع لهم طعامًا، وأرسل إلى وجوههم، ورؤسائهم، فلم يبق منهم أحدًا إلا أتى إليه، وجعل الرجل منهم يأتى بخاصته وحشمه رجاء أن يحبهم الملك، وقد كان بنى لهم بناءً وجعل فيه قومًا، وأمرهم أن يقتلوا من دخل عليهم، فلما فعل ذلك عَزّت الأوسُ والخزرج وغلبت على ديارهم، وتفرَّقت الأوس والخزرج فى عالية المدينة فلم يبق من يعود إلا أقلهم، وممن أقام على الهُونِ ورضى بالصَّغَار.

قال داود بن سمكين الأنصارى: كانت يثرب فى الجاهلية تدعى: (غَلَبَت) غَلَبت اليهود عليها العماليق، وغَلَبَت الأوس والخزرج عليها اليهود، وغلب

(١) الأبيات للرفق بن زيد بن امرئ القيس فى المقدمة لابن خلدون ٢/ ٢٨٩.
(٢) المقدمة ٢/ ٢٨٩.
(٣) وفاء الوفا ١/ ١٧٩.

المهاجرون عليها الأوس والخزرج، وغلبت الأعاجم عليها المهاجرون وكانت الآطام حصون المدينةوزينتها.

روى أن النبى ﷺ نهى الأنصار أن يهدموها.

وذكر أن فى المدينة فى حِمى أُمّ خالد: قبرٌ عليه مكتوب أنا أسودُ بن سواده، رسول رسول الله عيسى ابن مريم إلى أهل هذه القرية.

وذكر عثمان بن عبد الله أنه وجد قبرًا فى الحِمَى عليه مكتوبٌ فقرأه رجل من أهل اليمن، فإذا فيه: أنا عبد الله رَسُول رَسُولِ الله سليمان بن داود إلى أهل يثرب.

* * *

ذكر العقيق

قال هشام بن عروة: العقيق: من قصر المرَّاجِل فصاعدًا إلى النَّقِيع، وما سفل من ذلك فهو زغابة[(١)].

وقال غيره: العقيق: من العرصة إلى النَّقيع، والعرصة ما بين محجة بَيْن إلى مَحَجَّة الشام[(٢)].

وذكر أن تُبَّعًا مَرَّ بهذا الموضع لَمَّا قَدِمِ المدينة، فقال هذا عقيق الأرض فَسُمِّى العقيق[(٣)].

وروى عن عامر بن سعد بن أبى وقاص قال: ركب رسول الله ﷺ يومًا إلى العقيق ثم رجع فقال «يا عائشه جئنا من هذا العقيق فما أَلْيَنَ مَوْطئَه، وأعذب ماءه، قالت يا رسول الله أفلا ننتقل إليه؟ قال: وكيف ذلك وقد ابْتَنَى الناسُ»[(٤)].

(١) وفاء الوفا ٣/ ١٠٣٩.

(٢) وفاء الوفا ٣/ ١٠٣٩.

(٣) وفاء الوفا ٣/ ١٠٤٢.

(٤) الحديث ذكره السمهودى فى وفاء الوفا ١٠٣٨/٣. وانظر تفصيلا: الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة رقم ٣٥٣ صـ٦٢٨.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «أَحْصِبُوا هذا المسجد ـ يعنى مسجد رسول الله ـ ﷺ من هذا الوادى المبارك»[١] يعنى العقيق وفى الطريق من المدينة إلى بيت المقدس، قصر مُعَاذ، وهو خالٍ وفيه حمام وعين عذبة.

يذكر أن سليمان بن عبد الملك بناه، ومنه إلى مؤتة التى قُبِرَ فيها جعفر بن أبى طالب وعليه مسجدكبير، وبقربه قبر عبد الله بن رَواحةَ، وعليه محاريب مبنية للصلاة، وبقربه قبر زَيْد بن حارثة.

وهذه القرية قريبة من جبل الشورى، وبين جبل الشورى وأيلة مرحلة وهذه الجبال فصل ما بين أرض الحجاز وأرض الشام، وهى جبال منيفة وفيها قرى عامرة كثيرة، ووعارٌ غزيرة على الجادّة.

* * *

الطريق من مدينة النبى عليه السلام إلى مصر

على الجادة، من المدينة إلى ذى خشب، إلى السويداء[٢]، إلى المروة[٣] إلى سقى يزيد، إلى بدا يعقوب، إلى ضباء، إلى الثبك والصَّلى، إلى عَيْنُونه، إلى مَدْيَن، إلى أشراف البَعْلِ، إلى وادى الغراب، إلى حَقْل، إلى المدينة أَمْلَة، إلى بطن نجد، إلى قبر أبى حِمير وهو القباب إلى القلزم، إلى جُبٍّ عَمِيرة[٤]، إلى مصر[٥].

---

(١) وفاء الوفا ٣/١٠٣٨.

(٢) السُّويداء: موضع على ليلتين من المدينة على طريق الشام. مراصد الاطلاع ٢/٧٥٨.

(٣) المسالك والممالك للأصطخرى ٢٨.

(٤) جُبّ عَمِيرة: قريب من القاهرة يبرز إليه الحاج والعساكر. مراصد الاطلاع ١/ ٣١٠.

(٥) فى نزهة المشتاق ١/ ٣٤٥ـ٣٤٦، الطريق من مصر إلى المدينة: تخرج من مصر إلى الجُبّ، إلى البويب، ثم إلى منزل ابن صدقة، ثم إلى عجرود، ثم إلى الدوينة ثم إلى الكرسى، ثم إلى الحفر، ثم إلى منزل، ثم إلى أَيْلَهَ، ثم إلى حَقْل، ثم إلى مَدْيَن ثم إلى الأعراء، ثم إلى منزل، ثم إلى القلاية، ثم إلى شعب، ثم إلى البيضاء ثم إلى وادى القرى، ثم إلى الرحبية، ثم إلى ذى المروة، ثم إلى مرّ، ثم إلى السويداء، ثم إلى ذى خشب، ثم إلى المدينة يثرب.
وطريق آخر من مصر إلى المدينة على ساحل البحر القلزمى: من مصر إلى عين شمس، إلى=

وضباء: مرسى للسفن وفيه آبار عذبة[١]، وشجر المقل فيه كثير وبين ضباء ومدْين جِبَالَ شامخة متكاثرة، وبقرب مَدْيَن البئر التى استسقى منها موسى عليه السلام قد بنى عليها بيت من صخر فيه قناديل معلّقة، وبها كهف يسمى كهف شعيب[٢]، وهو الذى كان يُؤْوى إليه غنمه فيما ذكروا.

وفى الجبل الذى بين ضباء وهور الكهف بيوت منقورة فى صخر، قد حفر فى البيوت قبور، وفى تلك القبور عظامٌ نخرة كأمثال عظام الإبل كبرًا مقدار كل بيت عشرون ذراعًا ونحوها ولتلك البيوت روائح خبيثة لا يدخل الداخل فيها[٣] حتى يضع يده على أنفه أو يمسك بأنفه من شدة النَّتْنِ.

يقال: أنه لما أخذهم عذاب يوم الظُّلَّة دخلوا فيها فَهَلَكُوا وبقرب هذه البيوت وما يليها تلال تراب عظيمة، قيل: إنها كانت مواضع عامرة فخسف بها[٤].

ومع يهود مَدْيَن كتاب يزعمون أنَّ النبى ﷺ كتبه لهم وهم يظهرونه للناس حتى الآن، وهو فى قطعة من أديم قد اسودَّت لطول الزمان إلاَّ أن خطها بَيِّن وفى آخرها، وكتب على بن أبى طالب غيره، وقيل إنه بخط معاوية بن أبى سفيان.

وتستمر من مدين فى جبال شاهقة حتى تفضى إلى جبل شامخ فى يمين الطريق فيه كوة وهى نُدْرَةٌ فى الصحراء لا يصلُ إليها واصلٌ، ولا يرقى راقٍ، ويزعم أعراب تلك الناحية أنه كان بيتًا لساحرةٍ كانت تأوى إليه.

فلا تزال تسير، والجبال عن يمينك، والبحر عن يسارك حتى تفضى إلى فرجة كالباب تسير إلى أيلة[٥]، وهى قرية كبيرة فيها أسواق ومساجد وكثير من الحصون.

= قرية المطرية، ثم إلى بركة الجبّ، وهو غدير يفرغ فيه خليج القاهرة إلى جبّ عجرود، ثم إلى جُبّ العجوز إلى القلزم، ثم إلى بطن مغيرة، وهو مرسى عليه بركة ماء، ثم إلى جون فاران، ثم إلى مزيد، ثم إلى تيران، وهو مكان خبيث تعطب فيه المراكب عند الهول.. ثم إلى جبيلات، ثم إلى جبل الطور، ثم إلى الأَيْلة، إلى الحقل، إلى مَدْين، إلى الحوراء، إلى الجار، إلى قديد، إلى عسفان إلى بطن مرّ، إلى مكة».

(١) فى الروض المعطار «آبار عنبة متكائدة».

(٢) الروض المعطار ٥٢٦.

(٣) فى الروض المعطار ٣٣٣ «لا يدخل الداخل فيها حتى يضع يده على فمه».

(٤) الروض المعطار ٦٢٥ ـ ٦٢٦.

(٥) أَيْلَة: فى طريق مكة، حاطها الله، من مصر، وهى أوّل حَدّ الحجاز، وهى مدينة جليلة القدر =

وروى أبو حميد الساعدى فى خبر غزوة تبوك أن صاحب أيلة[1] أهدى للنبى ﷺ بغله بيضاء وكساءًا وبردًا، وكتب لهم بأمانهم، ثم تسير من أيلة فتلقى العقبة التى لا يصعد فيها راكب لصعوبتها، ولا يقطع إلا فى طول اليوم لطولها، ثم مرحلتين فى فحص التِّيه[2]، الذى تاه فيه بنو إسرائيل حتى توافى ساحل البحر مواضع يقال له بحر فاران هو الذى غرق فيه فرعون ومن هنا إلى القلزم مرحلة، وإنما نسب هذا البحر إلى فاران وهى مدينة من مدائن العماليق[3] على تلٍّ بين جبلين، وفيه ثقوب كثيرة لا تحصى، مملوءة أمواتا، وفى سفح أحدهما بيعة للنصارى وحِصْنٌ عليه سورة من حجارة وشُرُفات وأبواب من حديد، داخله عَيْنُ ماءٍ عذبٍ، وعلى العين دائرةٌ من نحاس[4] لئَلاَّ يسقط فيه أحدٌ، وقد أجرى ماؤها فىٍ قنى رَصّاص إلى حولها من الكُرُوم والأشجار.

ويقال إن على هذه العين شجر العُلّيق الذى آنس موسى عنده النار.

وعلى خطوات من هذا البئر أوّل العقبة التى يصعد منها إلى رأس طور سيناء وهى ستة ألاف وستمائة وستون مرقاة، قد نُحِتَتْ درجات فى الصخر، فإذا قطعت تلك المراقى، سِرْتَ إلى مُسْتَوٍ من الأرض فيه أشجار وماءٌ عذب وهناك كنيسة على اسم إيلياء النبى ﷺ.

وهناك مغارة يزعمون أن إيليا استخفى فيها من أذقيل الملك، ثم تسير فى الارتقاء حتى تنتهى إلى قبة الجبل.

وهناك كنيسة متقنة البناء تُنْسَبُ إلى موسى عليه السلام بأساطين رخام وحيطانها مزخرفة بالفسيفساء، وأبوابها ملبسة بالصّفر وسقفها من خشب الصنوبر، وأعلاها أطباق رصاص قد أحكمت غاية الإحكام، وليس فيها إلا سَادِنٌ واحد يَقُمُّها،

= على ساحل البحر المالح، بها يجتمع حاجّ مصر والمغرب، وبها التجارة الكثيرة، وأهلها أخلاط من الناس، وسُمِّيت بأَيْلَةَ بنت مَدْيَن قالوا: وهى القرية التى كانت حاضرة البحر المذكورة فى القرآن. الروض المعطار ٧٠ ونزهة المشتاق ١/ ٣٥.

(١) وهو يوحنا بن رؤبة. انظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٥ والروض المعطار ٧٠.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٣٤٧.

(٣) الروض المعطار ٤٣٣.

(٤) فى الروض المعطار ٣٩٨ «درا بزين».

ويقيم بها ويخدمها[1] ويسرج قناديلها، وقد اتخذ هذا الراهب لنفسه بيتًا صغيرًا خارجًا عن الكنيسة يأوى إليه، وينام فيه ولا يمكن أحد أن ينام فى الكنيسة التى بُنيت بالمكان الذى كلَّم الله عزَّ وجَلَّ فيه موسى تكليمًا، ويزعمون أنه كان فى السالف حول دير الغور هذا، وحول دير رومة ستة عشر ألف قُلاَّية للرهبان المتعبدين، وليس بهذه القُلاَّيات أحدٌ إلا سبعين راهبًا[2].

وعلى مقربة من القلزم جزيرة فى البحر المالح يقال لها: البُعُوق فيها قبر مالك ابن الحارث النخعى الأشتر.

وللقلزم جسر على البحر المالح علق يسلك عليه الحاجّ فى البر إلى مكة وذكر سيف بن عمر قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأمصار يستميرهم ويستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح بأربعة آلاف راحلة من طعام، فَولاَّه قسمتها.

وجاءَهُ كتاب عمرو بن العاص من مصر جوابَ كتابه: أن البحر الشامى حفر لبعث رسول الله ﷺ حفرًا يصبُّ فى بحر العرب فيربط الروم والقبط، فإن أردت أن يكون سِعرُ الطعام بالمدينة كسعْرِه بمصر حفرتُ لهم نهرًا وبنيت لهم قناطر، فكتب إليه عمر: أن افعل ذلكَ وعجّل فقال له أهل مصر بدأ خراجك وافرًا وأميرُك راضٍ، وإن أتم هذا انكسر الخراج، فكتب بذلك عمرو إلى عمر، فجاوبه أن افعل ذلكَ وعجِّل لخراب خراج مصر[3] إلى عُمْرَان المدينة وصلاحُها صَلاحٌ.

فعاجله عمرو وهو القلزم، فكان سعر المدينة كسعرهم، ولم يزد بذلك مصر إلا صلاحًا.

والتّيه[4] مقدار أربعين فرسخا، وقيل إنه تسع فراسخ فى مثلها وأوّل حَدِّه ما

---

(١) فى الروض المعطار ٣٩٨ «ويجمرّها».

(٢) إلى هنا ينتهى النقل فى الروض المعطار ٣٩٨ عن المسالك.

(٣) فتوح مصر ١٩١-١٩٢.

(٤) التِّيه: هو الموضع الذى ضَلَّ فيه موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل، بين أَيْلَة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة، أربعون فرسخًا فى أربعين فرسخًا، لما امتنعوا من دخول الأرض المقدسة، حبسهم الله تعالى فى هذا التِّيه أربعين سنة، لم يدخلوا مدينة ولا أووا إلى بيت، ولا بدّلوا ثوبًا، كانوا يسيرون فى طول نهارهم فإذا انتهى النهار نزلوا بالموضع الذى رحلوا عنه. =

بين قبر أبى خير وبطن نجد، وفيه مات موسى وهارون عليهما السلام.

وبطن نجد: قرية ليس فيها نخل ولا شجرة يسكنها نفر من الناس.

ويقال له أيضًا بطن نخل السوافى تسفى على الناس فيه ترابًا رقيقًا كأنما نُخل بُمْنخُلٍ.

* * *

كَمُلَ بحمد الله، وعَوْنه، ولُطْفه، ومَنِّه،

وجُودِه، وفَضْلِه، وتوفيقه، وحوله، وقوته، وكرمه، وحسن توفيقه

ذلك يوم السبت المبارك الحادى والعشرين من شهر شعبان المكرم

من شهور سنة إحدى وخمسين وثمانمائة. أحسن الله عاقبتها

بحمد وآله وصحبه وسلم، وصلاة الله وسلامه

الأتمان الأكملان على سيدنا محمد

* * *

وكتبه فى غرة رمضان ١٤٢١هـ

راجى عَفو ربه

جمال طلبة

بالمدينة المنورة

* * *

= وطول فحص التّيه فى قول نحو من ستة أيام، وفى فحص التِّيه مات موسى وهارون عليها السلام. آثار البلاد ١٧٤ والروض المعطار ١٤٧.

فهرس موضوعات الجزء الأول

الموضــــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة